دار الكتب المصرية

القسم الأدبى



فى

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

الجزء الرابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٢هـ — ١٩٤٣م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية



الجزء الرابع عشر

من

كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثانى

من القسم الثالث من الفن الخامس

فيما كان بعد موسى بن عِمْران عليهما السلام

وهو أخبار يُوشَعَ بنِ نُون وحَزْقِيل وإلْيَاسَ والْيَسَعَ وعَيْلَى[1] وأَشْمَوِيلَ وداودَ وطالوتَ وجالوتَ وسليمانَ بنِ داودَ عليهم السلام

ذكر خبر يُوشَعَ[2] بن نُون — عليه السلام — وفتح أَرِيحَا وغيرها ١٠٨/١١

قال أبو إسحاق الثَّعْلبىّ — رحمه الله تعالى — : اختلف العلماء فيمن تولّى حرب الجبّارين وفيمن كان على يده الفتح، فقال قومٌ : إنما فتح أَرِيحا[3] موسى

ملاحظة — الأرقام الموجودة بالهامش تشير الى رقم الصفحة وعدد الجزء من نسخة ا التى اعتمدنا عليها فى الطبع، وقد راجعنا هـذا الجزء أيضا على نسختين أخريين رمزنا لهما بحرفى ب، ج ونسخة ج بها عدّة خروم .

(١) كذا فى الأصل وقصص الأنبياء للثعلبى وتاريخ الطبرى (ص ٥٥١ من القسم الأوّل) . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٥٠ وما بعدها) «عالى» .

(٢) هكذا يرد هذا الاسم فى الكتب العربية والشعر العربى؛ قال أبو تمام :

فوالله ما أدرى أأحلام نائم * ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

وفى الكتاب المقدّس فى كل المواضع التى ورد فيها : «يشوع بن نون» .

(٣) أريحا (بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة والحاء المهملة والقصر، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة لغة عبرانية) : مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام، بينها و بين بيت المقدس يوم للفارس فى جبال صعبة المسلك . سميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشذ ...) . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

— عليه السلام — وكان يُوشَعُ على مقدّمته فسار إليهـا بمن بَقِىَ مَن بنى إسرائيل ولم يَمُت فى التِّيه، فدخلها يُوشَعُ بهم وقتل الجبّارين[1] الذين كانوا فيها، ودخلها موسى ببنى إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم قبضـه الله تعالى، ولم يعلم أحدٌ من الناس أين قبره. قال: وهذا أَولى الأقاويل بالصدق. وقال الآخرون: إنمـا قَتَلَ الجبّارِين يُوشَعُ ولم يسر إليهم إلّا بعد موت موسى. وقالوا: إنمـا مات موسى وهارون — عليهما السلام — فى التِّيه.

قالوا: فلما آنقضت مدّة التِّيه ومات موسى — عليه السلام — بعث الله تعالى يُوشَعَ بن نُون نبيّا، فأخبرهم أنه نبىّ الله تعالى، وأنّ الله — عزّ وجل — قد أمره بقتال الجبّارين، فصدّقوه وبايَعُوه. فتوجّه ببنى إسرائيل الى أَرِيحا ومعه تابوت[2] الميثاق، فأحاط بمدينة أَرِيحا ستّة أشهر، فلمّـا كان فى الشهر السـابع نفخوا فى القُرُون[3] وضجّ الشعبُ ضجّةً واحدةً[4]، فسقط سُور المدينة، فدخلوها وقاتلوا الجبّارين، فهزموهم وهجموا عليهم يقتّلونهم، فكانت العِصَابةُ من بنى إسرائيل يجتمعون على عُنُق الرجل يضربونها لا يقطعونها، وكان القتال يومَ الجمعة، فبقيت منهم بقيّـة وكادت الشمس تغرُب وتدخل ليلةُ السبت، فخشِىَ يُوشَعُ أن يُعْجِزوه، فقال: اللهمّ آردُد الشمس علىّ، وقال للشمس: إنكِ فى طاعة الله، وأنا فى طاعة الله. فسأل الشمسَ

(١) الجبارون أو الجبابرة الذين كانوا بالشام هم من العماليق، ويقال لهم الكنعانيون. (راجع تاريخ الطبرى ص ٢١٣ من القسم الأوّل طبع أوربا).

(٢) سيذكر المؤلف وصف هـذا التابوت فيما سيأتى. وراجع وصفه أيضا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٣٢ طبع بيروت سنة ١٨٨٢ م).

(٣) يريد بالقرون الأبواق (راجع الكتاب المقدّس ج ١ ص ٣٥٦).

(٤) فى قصص الأنبياء لأبى إسحاق الثعلبى (ص ١٩٥ طبع بلاق): «نفخوا فى القرون وصاحوا صيحة واحدة». وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٥٦): «فهتف الشعب ونفخوا فى الأبواق».

أن تَقِف والقمر أن يُقِيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غُرُوب الشمس، فرُدّت عليه الشمس وزِيدَ له فى النهار ساعةٌ واحدةٌ حتى قتلهم أجمعين .

قالوا : ثم أرسل ملوك الأرمانيِّين[(١)] بعضُهم الى بعض — وكانوا خمسةً[(٢)] — فجمعوا كلمتَهم على حرب يُوشَع وقومِهِ ، فهَزَمتْ بنو إسرائيل الملوكَ حتى أهبطوهم إلى ثنيّة حَوْران[(٣)]، فرماهم الله تعالى بأحجار البَرَد ، فكان مَن قتَله البَرَد أكثرَ ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف، وهربت الملوك الخمسةُ، فآختفَوْا فى غارٍ ، فأمرَ بهم يُوشَعُ فأُخرجوا، فقتلهم وصلَبهم ، ثم أنزلهم وطرحهم فى ذلك الغار ، وتتبّع سائرَ ملوك الشأم فآستباح منهم أحدًا وثلاثين ملِكا حتى غلب على جميع أرض الشأم، وصار الشأم كلُّه لبنى إسرائيل، وفرّق عمّاله فى نواحى الشأم .

وحكى الكِسَائىّ فى (كتاب المبتدا) أنّ يُوشَع أخذ فى الجِهاد بعد وفاة موسى عليه السلام حتى فتح الله على يديه نيِّفا وثلاثين مدينة من مدن الكفّار بأرض الشأم . قال: ثم سار ببنى إسرائيل الى أَرِيحا لقتال الجبّارين ، وكانوا قد عادوا إليها بعد أن فتحها موسى، فقاتلهم يومَ الجمعة، وساق نحو ما تقدّم من حبس الشمس. قال : وفسد على أهل علم النجوم علوم كثيرة من ذلك اليوم .

قال الكِسَائىّ : ولما فرغ يُوشَعُ بن نُون من قتال الجبّارين بأَرِيحا سار ببنى إسرائيل الى أرض بنى كَنْعان، فقاتلهم حتى قتل أكثر من ثلاثين ملِكا، وفتح ثلاثين حصنا .

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨ ، ٣٦٣) : «ملوك الأموريين» وهم من ذرية كنعان .

(٢) وهم : ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموث وملك لاكيش وملك عجلون . (راجع الكتاب المقدس ج ١ ص ٣٦٥) .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٦٤) : « وفيما هم منهزمون من وجه إسرائيل وهم فى منهبط بيت حورون ... » . وحوران (بالفتح) : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع (راجع معجم البلدان لياقوت) .

قال الثعلبيّ فى تفسيره : ولمّا قتل يُوشَعُ الملوكَ وآستباحَ الأموال جمع الغنائم فلم تُنْزَلِ النار، فأوحَى الله تعالى إلى يُوشَع أنّ فيها غُلُولا[1]، فمُرهم فليبايعوك فبايعوه، فآلتصقتْ يدُ رجل منهم بيده، فقال : هَلُمّ ما عندك ! . فأتاه برأس ثور من ذهب مكلَّل بالياقوت والجوهر كان قد غلَّه، فجعله فى القُرْبان وجعل الرجلَ معه، فجاءت النار فأكلت الرجلَ والقُربان .

قالوا : ثم مات يُوشَع فدُفن فى جبل أفرائيم[2]، وكان عمره مائةً وستًّا[3] وعشرين سنة، وتدبيرُه أمرَ بنى إسرائيل بعد وفاة موسى — عليه السلام — تسعا وعشرين سنة . وقال الكسائىّ : أربعين سنة . والله تعالى أعلم .

ولمـا مات آستُخلف على بنى إسرائيـل كالبُ[4] بن يُوقَنّـا ، وهو من أولاد يَهُـوذَا بن يعقوب ، وكان من الزهّاد ، فسار فيهم أجملَ سيرة حتى قبضـه آلله تعـالى .

فآستُخلف عليهم آبنه برشاناسُ[5] وكان نظير يوسف الصدِّيق — عليه السلام — فى حُسنه وجماله ، فافتتن النـاسُ به ، فسأل آلله تعـالى أن يغيِّر خلقته ، فأصابه

(١) الغلول : الخيانة فى المغانم .

(٢) كذا ورد هذا الاسم فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٦ ، ٣٩٠)، وورد فى أ ، ب خاليا من الاعجام . وهذا الجبل إلى جنوبى سهل يزرعيل . وكان يطلق هـذا الاسم على سلسلة هضاب فى أملاك أفرايم تمتدّ إلى تخوم بنيامين . أما تربة هـذا الجبل فخصبة بالإجمال إلا ما كان منها إلى جهة الأردن فانه صخرىّ صعب المرتقى ، وكذلك ما كان منه إلى جهة البحر الميت فانه غاية فى القحل . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٥) : «آبن مئة وعشر سنين» .

(٤) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٧٣) : «كالب بن يفنا» .

(٥) فى تاريخ الطبرى (ص ٥٣٩ من القسم الأوّل) : «أن كالب بن يوقنا لما قبضه الله بعد يوشع خلف فيهم يعنى فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوذى» .

الجُدَرِىّ ، فتغيّرتْ خِلقته ، فأنكره الناس وأكثروا من سؤاله عن خبره ، فشقّ ذلك عليه وشغله عن عبادته ، فسأل الله تعالى أن يزيده تشويها ، فاسترخَى وجهُه ، وظهرت له أسنان طوال ، وقَبُح حتى كره الناسُ أن ينظروا إليه ، وعرفوا منه الاجتهاد فى عبادة الله تعالى وطاعته ، فاختاروه وسمعوا له وأطاعوا ، ولم يزل بين أظهرهم ١٠٩/١١ أربعين سنة ثم قبضه الله تعالى .

فقام بأمرهم العَيْزار[1] بن هارون بن عِمْران ، وكان قد أسنّ ولا ولد له ، فجعلوا يقولون : ما حُرِم الولَدَ إلّا لذنب عظيم . فسأل الله الولَد ، فرزقه ولدا بعد كِبَرِ سنّه وإياس زوجته صَفُّورِيّة[2] بنت عمّة موسى بن عِمْران وجدّد له قوة ، ولها جمالا وحُسنا ، وسمّى ولدَه « سباسبا »[3] وجاء عالما بالتوراة ، فاستخلفه والده على بنى إسرائيل ، فقام بأمرهم ، وتزوّج بامرأة يقال لها صَفُّورِيّة ، فأولدها إلياس . هكذا نقل الكِسائىّ .

وقال الثعلبىّ فى قصصه فى خبر ابن كالب وسمّاه « بُوساقُوس » : وأنه لمّا افتتن النّاسُ به سأل الله تعالى أن يغيّر صورته مع سلامة حواسه وجوارحه فأصابه الجُدَرِىّ . وقال : إنه لبث فيهم مائة سنة ، ثم قبضه الله — عزّ وجلّ — . ولم يذكر العَيْزَارَ وابنَهُ ، بل ذكر خبر حَزْقِيل . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٣٩٠) : « ألعازار » .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٤٤٣ من القسم الأول) والكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٢١) وقاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست (ج ٢ ص ٨) : « صفورة » .

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى (ورقة ٢٠٩) من النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٧٠٢ أدب : « بسابسا » .

ذكر خبر حَزْقِيل عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قالت العلماء : لمّا قبض الله تعالى كالبَ وآبنَه، بعث الله — عزّ وجل — حَزْقِيل[١] إلى بنى إسرائيل، وهو حَزْقِيل بن بُوذِى، و يلقّب بآبن العجوز .

قال : و إنما لُقِّب بذلك لأن أمّه سألت الله تعالى الولد وقد كَبِرتْ وعَقِمت، فوهبه الله تعالى لها، وهو الذى أحيا الله تعالى القومَ بعد وفاتهم بدعائه ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ[٢] ﴾ .

قال قال أكثر المفسرين : كانت قريةٌ يقال لها دَاوَرْدانُ[٣] قِبَلَ واسط وقع بها الطاعون، فخرج منها طائفةٌ هاربين من الطاعون و بقيت طائفة، فهلك أكثر مَنْ بَقِىَ فى القرية، وسَلِم الذين خرجوا، فلمّا آرتفع الطاعون رجعوا سالمين. فقال الذين بقوا : أصحابنا كانوا أحزمَ منّا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع الطاعون بها ثانية لنخرجنّ إلى الأرض التى لا و باء فيها . فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامّة أهلها، فخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح[٤]، فلمّا نزلوا المكان الذى يبغون فيه الحياة والنجاة، إذا هم بملَكٍ من أسفل الوادى وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما أن موتوا[٥] فماتوا .

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٥٢٨) : « حزقيال » .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٣ ، و راجع تفسير هذه الآية الكريمة بتفصيل واف فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وغيره من التفاسير .

(٣) داوردان (بفتح الواو وسكون الراء وآخره نون) : من نواحى شرق واسط بينهما فرسخ . (راجع معجم البلدان) .

(٤) أفيح : واسع .

(٥) هذه عبارة الثعلبي فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فإذا ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه ينادون موتوا جميعا » .

وقال الضحّاك ومُقاتل والكلبيّ : إنّما فرّ هؤلاء من الجهاد ؛ وذلك أنّ ملِكا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم ، فخرجوا فعسكروا ثم جَبُنُوا وكرِهوا الموت وآعتلّوا وقالوا لملِكهم : إنّ الأرض التى نأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء ؛ فأرسل الله تعالى عليهم الموت ، فلمّا رأوا أنّ الموت كَثُر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا منه . فلمّا رأى آلملِك ذلك قال : اللهمّ ربَّ يعقوب وإلهَ موسى ، قد ترى معصية عبادك فأرِهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفِرار من حُكمك وقضائك . فلما خرجوا قال آلله لهم : موتوا ، فماتوا جميعا وماتت دوابّهم كموت رجل واحد ، فما أتت عليهم ثلاثةُ أيام حتى آنتفخوا وأَرْوحَتْ (١) أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظَروا عليهم حَظِيرة (٢) دون السِّباع وتركوهم فيها .

قال : وآختلفوا فى مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخُرَاسانيّ : كانوا ثلاثةَ آلاف (٣) . وقال آبن عباس ووهب : أربعةَ آلاف . وقال مُقاتل والكلبيّ : ثمانيةَ آلاف . وقال أبو رَوْق : عشرةَ آلاف . وقال أبو مالك : ثلاثين ألفا . وقال السُّدّىّ : بضعةً وثلاثين ألفا . وقال آبن جُرَيج : أربعين ألفا . وقال عطاء بن أبى رَبَاح : سبعين ألفا .

---

(١) أروحت أجسادهم : تغيرت رائحتها وأنتنت .

(٢) الحظيرة : ما أحاط بالشىء ، وتكون من قصب وخشب أو شجر ، وتعمل للإبل لتقيها البرد والريح .

(٣) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٣١) : « والصحيح أنهم زادوا على عشرة آلاف لقوله تعالى : « وهم ألوف » وهو جمع الكثرة ، ولا يقال فى عشرة فما دونها ألوف . وقال آبن زيد فى لفظة ألوف : إنما معناها وهم مؤتلفون ، أى لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فتنة بينهم إنما كانوا مؤتلفين » .

قالوا : فأتت عليهم مدّة وقد بَليتْ أجسادهم ، وعَرِيتْ عظامهم ، وتقطّعت أوصالُهم ، فمرَّ بهم حَزْقِيل النبيّ — عليه السلام — فوقف عليهم متفكّرا متعجِّبا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حَزْقيل ، تريد أن أُرِيَك كيف أُحيِي الموتَى ؟ قال نعم ، فأحياهم الله جميعا .

قال : هذا قول السُّدّىّ وجماعةٍ من المفسِّرين . وقال هلال بن يَسَاف وجماعةٌ من العلماء : دعا حَزْقِيل ربّه أن يحييهم فقال : يا ربّ لو شئتَ أحييتَ هؤلاء فعمروا بلادك وعبدوك . فقال الله — عزّ وجل — أَوَ تحبّ أن أفعل ؟ قال نعم ، فأحياهم .

وقال عَطاءٌ ومُقاتل والكلبيّ : بل كانوا قومَ حَزْقِيل ، فأحياهم الله — عزّ وجل — بعد ثمانية أيام ؛ وذلك أنهم لمّا أصابهم ذلك خرج حَزْقِيل في طلبهم ١١٠/١١
فوجدهم مَوْتَى ، فبكى وقال : ياربّ كنتُ في قوم يحمدونك ويقدّسونك ويكبّرونك ويهلّلونك فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لى . فأوحى الله تعالى إليه : إنى قد جعلتُ حياتَهم إليك . فقال حَزْقِيل : احْيَوا بإذن الله تعالى ، فعاشوا .

وقال وهب : أصابهم بلاءٌ وشدّةٌ من الزمان ، فشكَوْا ما أصابهم فقالوا : يا ليتنا مِتنا فآسترحنا ممّا نحن فيه . فأوحى آلله — عزّ وجل — إلى حَزْقيل : إنّ قومَك قد ضجِروا من البلاء ، وزعموا أنهم وَدُّوا لو ماتوا فآستراحوا ، وأىّ راحة لهم في الموت ! أيظنّون أنّى لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت ! فآنطلق إلى جبّانة كذا ، فإنّ فيها قوما أمواتًا . فأتاهم ، فقال آلله — عزّ وجل — : قُم فنَادِهم — وكانت أجسامهم وعظامهم قد تفرّقت ، فرّقتها الطير والريح — فنادى حَزْقِيل : أيتها العظام ، إنّ الله يأمرك أن تكتسىَ اللحم . فآكتست جميعا آللحم ، وبعد اللحم جلدًا ودمًا وعصَبا

وعروقا، فكانت أجسادا، ثم نادى : أيتها الأرواح، إن آلله تعالى يأمرك أن تعودى فى أجسادك . فقاموا جميعا عليهم ثيابهم التى كانوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة .

قال : وزعم منصور بن آلمعتمر عن مُجاهد أنهم قالوا حين أُحْيُوا : سبحانك ربّنا وبحمدك لا إله إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم بعد ما أحياهم آلله ــ عزّ وجل ــ وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا أمواتا، سِحْنةُ الموت على وجوههم، لا يلبَسون ثوبا إلا عاد رَميما مِثلَ الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التى كَتب الله لهم . وقال آبن عباس ــ رضى الله عنهما ــ فإنها لتُوجد اليوم فى ذلك السِّبط من اليهود تلك الريح .

قال قَتادةُ : مقتهم آلله ــ عزّ وجل ــ على فِرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم، ثم بعثهم إلى بقيّة آجالهم ليستوفُوها ، ولو كانت آجال القوم جاءت ما بُعثوا بعد موتهم . فلمّا أحياهم الله ــ عزّ وجل ــ قال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ آللهِ وَآعْلَمُوا أَنَّ آللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] . ثم تلا الثعلبىُّ هذه القصّة بقصّة إلياس؛ وذكرها الكِسائىّ تلو قصّة العَيْزَار . والله الموفق للصواب .

ذكر خبر إلياس عليه السلام

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2] . قال الكِسائىّ ــ رحمه الله تعالى ــ قال كعب[3] : لمّا وُلِد إلياس ــ عليه السلام ــ ونسبه أنه إلياس آبن سباسبا بن العَيْزَار[4] بن هارون . قال : وأمّه صَفُّوريّة ، وجدّته أمّ أبيه

(١) سورة البقرة آية ٢٤٤

(٢) سورة ص آية ١٢٣

(٣) الذى فى الكسائى « وهب » وهو آبن منبه .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٥ من هذا الجزء .

صَفُّورِيَّة[1] بنت موسى بن عِمْران — عليه السلام — ظهر ليلة مولده أنوار أضاءت منها محاريب بنى إسرائيل . فلما نظرتْ ملوكُ بنى اسرائيل ذلك علموا أنه قد حدث حادث ، فتعرّفوا الخبر ، فقيل لهم : وُلِد مولود من ولد هارون ابنِ عِمْران .

قال : وكان إلياس على صورة موسى وقوّته ، ونشأ أحسن نشأة . وبنو إسرائيل يقولون : هذا الذى بشَّرَنا به العَيْزَار ، أن الله يُهلك الملوك والجبابرة على يديه .

قال : فلمّا بلغ سبعَ سنين — وكان يحفظ التوراة — قال : يابنى إسرائيل ، إنى أُريكم من نفسى عَجَبًا . فصاح بهم صيحةً آنتشرت فيهم فأَرعبتْ قلوبهم . فلما سكنتْ روعتُهم همّوا بقتله ، وقال بعضهم : هو ساحر ، فهرب منهم وصعِد إلى جبل وهم يتبعونه . فلمّا قَرُبوا منه آنفرج له الجبل فدخل فيه ، وآنصرف القوم . فنُمِى الخبر إلى بعض ملوكهم فعذّبهم ، ثم آنفرج الجبل ، وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى آستكمل أربعين سنة ، والناس قد أخذوا فى عبادة الأصنام وخاضوا فى المعاصى ، فبعثه آلله تعالى نبيًّا ورسولا ، وجاءه جبريل بالوحى ، وأَمَره عن الله تعالى أن يتوجّه إلى الملوك والجبابرة الذين يعبدون الأصنام ويدعوَهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته ، وأن يُرسِلوا معه بنى إسرائيل وأعطاه القوّة ، وأمر النار والجبال والوحش بطاعته . فآنطلق إلياس إليهم وهم فى سبعين قرية ، كلّ قرية منها مدينةٌ ، فى كلّ مدينة جبّارٌ يَسُوسهم ، وكلّهم يعبدون صنما يُدعَى « بَعْلا » وهو على صورة آمرأة . فصار إلياس إلى قرية من قُراهم ، وكان فيها ملك يقال له

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٥ من هذا الجزء .

« آجاب »[1] ، فوقف بالقُرب من قصره ، وقرأ التوراة بأطيب نغمة ، فسمعه الملك ، فقال لآمرأته : ألَا تسمعين ؟ ما أطيبَ هذا الصوت ! فقامت آلمرأة إليه وأشرفت عليـه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره ، فأخبرها أنه رسول الله . قالت : وما حُجّتك على دعواك ؟ فاستدعَى النـار فجاءت إليـه وشهِدتْ بنبوّته وصدّقته ، فأخبرت المرأةُ زوجَها بما رأت منه ، فجاء إليه وآمن به هو وآمرأتُه ، وأوصاه بالصبر 111/11 وآلجهاد ، وآنصرف إلياس . حتى إذا كان يومُ آجتماع القوم وقـد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بَعْلًا وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان ، فقال فيما أخبر آلله تعالى به عنـه : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ * ٱللَّهَ[2] رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ[3] ﴾ . فقالوا له : من أنت؟ فقال : أَنَسيتموني بعـد أن كنتُ فيكم ومعكم ! أنا إلياس . فحثَوا في وجهه التراب ورمَوْه بالحجارة من كلّ جانب . وكان ملِكُهم الأكبر يقال له « عَاميـل » ، فأمر بزيت فغُلِيَ في قدْر نحاس وقال لإلياس[4] : إنْ رجعتَ وإلّا طرحتُك فيه ! . فقال : أنا وحيدٌ في أرضكم ، فريدٌ في جمعكم ، ولكنّي أُريكم آيةً تدلّ على صدق دعوايَ أنّي رسول آلله إليكم . فقـال له الملِك نعم . فقال إلياس : أيّتها آلنـار انْخُمِدي

(1) كذا فى الأصل وقصص الأنبياء للكسائى . نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦٦ أدب ورقة ٢٠٥ وما بعدها . وفى قصص الأنبياء للثعلبي (ص ١٩٩) : « لاحب » بالجيم المعجمة . وفى ورقة ٩٠ من نسخة مخطوطة منها محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٤٧ م أدب : « أجب » مضبوطا بالقلم بضم الهمزة وفتح الجيم . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٠ من القسم الأوّل) : « احاب » بالحاء المهملة .

(2) من أوّل قوله : « الله ربكم » الى أوّل الكلام على ذكر نبوّة آليسع عليه السلام (فى أوّل الصفحة ٢٨ من هذه الطبعة) لم يرد فى ب .

(3) سورة الصافات آية ١٢٣ وما بعدها .

(4) فى ا « للناس » وهو تحريف .

بإذن الله تعالى، نَخَمَدت وسكن غَلَيان الزيت، فعجِب النـاسُ من ذلك . قال الملِك : قد أتيتَ بحجّة، ولكن أمهِلْنا يومًا لننظر فى أمرك . ففارقهم وأتاهم من الغـد ودعاهم، بجمع الملِك ملوكَ قومِه وعلمـاءَهم وقال : ما تقولون فى هـذا الرجل ؟ فقال العلماء : إنّا نرى فى التوراة صفةَ هذا الرجل أنّه يُبْعَثُ نبيّا تُسَخَّر له النار والأُسود والجبال ، وأنه لا يسمع أحدٌ صوته إلّا ذلّ وخضع له . فقال بعض علمائهم : أيها الملِك ، كَذَب هؤلاء فيما ذكروه ، وهذا ساحر، فلا يهولنّك أمره . فبسط العذاب على أولئك النفر، فآشتدّ ذلك على إلياس ، وخالفه الملك « آجَاب » الذى كان قد آمَنَ به ؛ ففارقته زوجته ولحِقتْ بإلياس؟ وكانت من الصالحات .

قال : وآتّخذ إلياس عَرِيشا بالقُرْب من قصر الملك «عَامِيل» ، فأشرفتْ آمرأةُ عاميل عليه فى بعض الليالى وهو يعبد الله تعالى، فنظرتْ الى عمود من نور من لدن العريش فى السماء، فآمنتْ ولحِقتْ به ، فأمر زوجُهـا أن تُلْقَى فى النار ، فألقِيتْ فيها ، فدعا إلياس — عليه السـلام — الله تعالى لها ، فلم تعمل النار فيها شيئا ، فأطلقها الملك، فلَحِقتْ بإلياس . ثم مات ولدٌ لعاميل الملِكِ بخزِع عليه وتضرّع إلى صنمه فلم يُغن عنه شيئا ، فغضب وقال لإلياس : إن آبنى قد مات وعَجَزَ إلٰهى عن إحيائه ، فهل تقدِر أن تُحيِيَه ؟ فقال : هذا على ربِّى هيِّن، ودعا الله تعالى ، فقام الغلام يشهد أن لا إله إلا الله، وأن إلياس عبدُه ورسولُه ، فآمن الملِك وخرج عن المُلْك وتبع إلياسَ ولبس الصوف وعبدَ اللهَ تعالى حتى مات، وماتت زوجتُه وآبنُه . وآستمرّ القوم فى ضلالهم وكفرهم ما شاء الله، و إلياس يدعوهم فلا يجيبونه ، فأَوحى الله تعـالى إليه أنِ آدْعُهم وأَنذِرْهم ، فإن آمنوا و إلّا حبستُ عنهم الغيث وآبتليتُهم بالقحط . فدعاهم فقـالوا : إنّا لا نؤمن بك ولا بربّك ، فآصنع ما أنت صانع . فحبس الله — عزّ وجلّ — عنهم المطر، وغارت العيون وجَفّت الأشجار، فأكلوا

ما عندهم حتى نَفِد، ثم أكلوا المواشىَ حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفيران، و بلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون مَنْ مات منهم ، و إلياس بينهم وهم لا يرونه ، و يدعونه وهو لا يجيبهم، وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أنِ السماءُ والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء ، وقد هلك كثير من خَلْق بسببهم، وكلٌّ يدعوك ولا ترحمهم، فأنصِف خَلْقِى يا إلياس، فإنى أُعْصَى فأَرزُق، وأُكْفَر فأَحلُم . ففزع إلياس وقال: يارَبِّ ماغضِبتُ إلّا لك، وأنت أعلم بمصالح عبادك . فأوحى ٱلله اليـه أنْ سِرْ إليهم وٱدْعُهم، فإن آمنوا و إلّا كنتُ أرأَف بهم منك .

قال : فٱنطلق إلياس حتى صار إلى أوّل قرية من قُرَى مدينتهم ، فمرّ بعجوز فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : وحقّ إلهى بَعْل ما ذقتُ الخبز منذ مدّة . قال : فهلّا تؤمنين بالله ! فقالت : إنّ ٱبنى ٱلْيَسَعَ على دين إلياس ، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع . فقال له إلياس : يا ٱلْيَسَع، أتحبّ أن تأكل الخبزَ؟ فصاح : كيف لى بالخبز ! ومات؛ فبكت العجوز ولطمت. فقال لها : إنْ أحياه ٱلله وجاءكِ بمـا تأكلين أتؤمنين بالله ؟ قالت نعم . فدعا اللهَ تعالى ، فقام ٱلْيَسَـع وهو يشهد أن لا إله إلا ٱلله وأن إلياس رسول الله، ورزقهم ٱلله تعالى خبزا ولبنا ، فأكلوا، وآمنت العجوز، وخرجت تُنذر قومها ، فخنقوها فماتت ، فٱغتمّ ٱلْيَسَعُ لذلك . فقال له إلياس : إن ٱلله سـيحييها و يجعلكما آيةً لقومكما . وخرج إلياس إلى قومه وقد ٱجتمعوا عليها يريدون أكلَها ؛ فصاح بهم ، فتفرّقوا عنها وقالوا : إنك أنت إلياسُ حقّا ، فدعا ٱلله تعالى فأحياها ، فأقبل القوم عليه وقالوا : أَلَا ترى ما نحن فيه منذ سبع سِنين ! قال : فهلّا دعوتم صنمكم بَعْلا ليَكشِف عنكم ! قالوا : قـد دعوناه ‏112/11 فلم يُغنِ شيئا . قال : فإن أغاثكم الله تعالى أتؤمنـون ؟ قالوا نعم . فسأل اللهَ تعالى فأمطرهم ، وجرت أنهارُهم وأنبتت أرضُهم، وأحيا الله من مات منهم من الجوع ،

فآزدادوا كفرًا وعتوًّا . فحذّرهم إلياس وأنذرهم وذكّرهم بنعمة الله عليهم. فقالوا : إنّ القحط قد آرتفع عنّا وهيهات أن يعود أبدا ، وإن عاد فلا نبالى ، قد جمعنا فى منازلنا ما يكفينا زمنا طويلا. فدعا اللهَ عليهم وآعتزلهم ، وقال : قد بلّغت الرسالة وأنك لاحق بالملائكة . فآستخلف آلْيَسَعَ على المؤمنين[1] ؛ فقال آلْيَسَعُ : يا نبيّ الله ، إنى ضعيف بين قوم كافرين . فأَوحى الله تعالى الى آلْيَسَع بذلك ، وخرج إلياس عن ديار قومه فى يوم جمعة ، فإذا هو بفرس يلتهب نُورًا ، وله أجنحة ملوّنة ، فناداه : أَقبِل يا نبيّ الله . فآستوى على ظهره ، وجاءه جبريل فقال : يا إلياس طِرْ مع الملائكة حيث شئتَ ، فقد كساك الله الريش ، وقطع عنك لذّة المطعَم والمشرَب وجعلك آدميًا مَلَكِيًّا سماويًّا أرضيًّا .

قال : ونَشَرَ الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة. ثم أرسل الله — عز وجل — العذاب على قومه ، فأَحدقتْ بهم سحابةٌ من جهنّم ، وآعتزلهم المؤمنون ، فأحدقت السحابة بالكَفَرة ، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ[2] ﴾ . قال : ثم آنكشفتْ عن ديارهم وقد صاروا حُمَمًا سُودًا ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[3] ﴾ .

قال : وأقام آلْيَسَعُ مع بنى إسرائيل حتى قبضه آلله تعالى .

---

(١) كذا فى الأصل . وهو غير واضح . وعبارة الكسائى فى كتابه قصص الأنبياء ورقة ٢٠٨ : « ... فقالوا يا إلياس إن الأرض لا يعود قحطها وأما نحن فلا نبالى لأنا جمعنا فى منازلنا ما يكفينا طويلا فعلم أنهم مهلكون فقال : إلهى قد بلغت الرسالة وقد اقترب أجلهم وعذابهم ، اللهم فأخرجنى من بينهم ثم أنزل عليهم عذابا . فأوحى الله اليه أن يا إلياس إنك قد أديت الرسالة وفعلت ما أمرت به فاستخلف الآن موضعك اليسع بن أخطوب فانه قد جعلته لك خليفة على بنى اسرائيل المؤمنين ... الخ » .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٠ (٣) سورة الصافات آيتى ١٢٧ ، ١٢٨

هذا ما أورده الكسائى فى أخبار إلياس وآليسع عليهما السلام .

وأمّا ما حكاه الثّعلبىّ — رحمه الله — فى هذه القصة، فإنه قال :

قال آبن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار : لمّا قبض الله حَزْقِيلَ النبىّ — عليه السلام — عظُمت الأحداث فى بنى إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونَسُوا عهد الله تعالى إليهم فى التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون آلله — عزّ وجل — فبعث الله تعالى اليهم إلياس نبيًّا . قال الثعلبىّ : وهو إلياس آبن ياسين بن فِنْحَاص بن العَيْزَار بن هارون عليه السلام .

قال : وإنما كانت الأنبياء بعد موسى — عليه السلام — يُبْعَثون إليهم بتجديد ما نَسُوا وضيّعوا من أحكام التوراة ، و بنو إسرائيل يومئذ متفرقون فى أرض الشأم وفيهم ملوك كثيرة . وذلك أن يُوشَع لمّا فتح أرض الشأم بوّأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم ، فأحلّ سِبْطا منهم بَعْلَبكّ ونواحيها ، وهم سبْط إلياس ، فبعثه الله تعالى إليهم نبيّا ، وعليهم يومئذ ملك يقال له « آجاب »(١) قد أضلّ قومه وجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان يعبد هو وقومُه صنما يقال له « بَعْل » وكان طوله عشرين ذراعا ، وكانت له أربعة وجوه ، فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم فى ذلك لا يسمعون منه شيئا إلّا ما كان من أمر الملك الذى كان ببعلبكّ فإنه صدّقه وآمن به ، وكان إلياس — عليه السلام — يقوّم أمرَه ويسدّدُه ويُرشدُه ، وكان لآجَاب الملك هذا آمرأة يقال لها «أرايل»(٢) ، وكان يستخلفها على رعيّته إذا غاب عنهم فى غَزَاة

(١) راجع الحاشية رقم ١ ص ١١ من هذا الجزء .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة (ص ١٩٩) : « أربيل » . بالراء المهملة . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٠ ، ٧٩٨ من القسم الأول) « أزبل » بالزاى المعجمة وحذف الياء . وذكرت فى الأصول فيما يأتى كما وردت فى هامش تاريخ الطبرى والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى بآسم : « أزبيل » بالزاى المعجمة وإثبات الياء .

أو غيرها، فكانت تبرُز للناس كما يبرُز زوجها وترَكب كما يركَب ، وتجلس فى مجلس القضاء فتَقضِى بين الناس، وكانت قتّالةً للانبياء، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانَه . وكان الكاتب قد خَلّص من يدها ثلثمائة نبيّ كانت تريد قتـلَ كلّ واحد منهم إذا بُعث . سـوى الذين قتلتْهم ممن يكثُر عددهم، وكانت فى نفسها غيرَ مُحْصَنَةٍ ولم يكن على وجه الأرض أفحشُ منها، وهى مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بنى إسرائيـل وقتلتهم كلَّهم بالاغتيال، وكانت معمَّرة حتى يقال : إنهـا ولَدتْ سبعين ولدا . وكان لآجاب هذا جارٌ من بنى إسرائيـل رجل صالح يقـال له «مزدكى» وكانت له جُنَينة يعيش منها ويُقبِل على عمارتها ومَرَمّتها، وكانت الجُنَينة إلى جانب قصر الملك وآمرأته، فكانا يُشرفان على تلك الجُنَينـة ويتنزّهان فيها ، ويأكلان ويشربان ويَقيلان فيها، وكان «آجَاب» فى ذلك يُحسِن جِوار «مزدكى» صاحبها ويُحسِن إليه، وآمرأته « أرايل » تَحْسُـده على ذلك لأجل تلك الجُنَينة، وتحتال فى أن تغتصبها منه لمـّا تسمع النـاس يذكرون الجُنَينـة[١]، ويتعجّبون من حسنها ويقولون : ما أحرى أن تكون هذه الجُنَينة لأهل هذا القصر، ويتعجّبون من الملك وآمرأته كيف لم يغصباها صاحبَها . فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكى» أن تقتله وتأخذ جُنَينَته، والملِك ينهاها عن ذلك. ثم آتفق خروج الملِك إلى سفر بعيد وطالت غيبته، فآغتنمت المرأةُ غَيبة الملك وآحتالت على « مزدكى »
١١٣ ١١ صاحب الجُنَينة ، وهـو غافل عمـا تريد مُقبِلٌ على عبادة ربه وإصلاح جنيتته، فجمعت « أرايل » جمعًا من الناس وأمرتْهم أن يشهدوا على « مزدكى » أنه سبّ زوجها الملكَ «آجَاب»، فأجابوها إلى ملتمسها من الشهادة عليه، وكان حكمهم فى ذلك

(١) فى الأصل : « يذكرون من ذكر الجنينة » . وعبارة الثعلبى : « وآمرأته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال على غصبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسنها » .

الزمان على من سبّ الملِك القتلَ إذا قامت البيِّنة عليه بذلك . فأحضرتْ «مزدكى» وقالت : بلغنى أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك . فقالت : إنّ عليك شهودا، وأحضرت الشهود فشهدوا عليــه بحضرة الناس، فأمرت بقتل « مزدكى » ، فقُتل وأُخذت جُنَيْنَتُه غَصْبا، فغضب الله — عزّ وجل — عليهم للعبد الصالح . فلمّا قدِم الملِكُ من سفره قال لها : ما وُفِّقتِ وما أَصبت، ولا أرانا نُفلح بعدَه أبدا، و إنْ كنّا عن جُنَيْنته لأغنياء ، قد كنّا نتنزّه فيها، وقد جاوَرَنا وتحرّم بنا منذ زمان طويل، فأحسنّا جِوَارَه، وكففنا عنه الأذى لوجوب حقّه علينا ، فختمتِ أمرَه بأسوأ حال الجِوَار . وما حملَكِ على اجترائك عليــه إلّا سَفَهُكِ وسـوءُ رأيِكِ وقلّةُ عقلِكِ وقلّةُ تفكّرك فى العواقب . فقالت : إنما غضبتُ لك وحكمتُ بحكمك . قال : أوَ ما كان يَسَعُه حِلمُكِ و يَحْدُوكِ عِظَمُ خَطَرِكِ على العفو عن رجلٍ واحدٍ فتحفظين له جوارَه! . قالت : قد كان ما كان .

فبعث الله تعالى إلياس — عليــه السلام — إلى « آجاب » الملِكِ وقومِه، وأمره أن يخبرهم أنّ الله تعالى قد غضِب لوليّه حين قتلوه بين أظهُرِهم ظلما ، وآلى على نفســه أنهما إن لم يتوبا عن صَنِيعهما ولم يردّا الجُنَيْنــة على ورثة « مزدكى » أن يُهلكهما ، يعنى «آجاب» وآمرأته ، فى جوف الجنينة أشرّ ما يكون بسـفك دمهما ، ثم يدعهما جِيفتين مُلقاتين فيهــا حتى تتعرّى عظامُهما من لحومهما، ولا يُمتَّعان بها إلا قليلا .

قال : فجاء إلياس — عليه السلام — إلى الملِك وأخبره بما أَوحى الله — عزّ وجل — إليه فى أمره وأمر آمرأته والجُنَيْنة . فلمّا سمع الملِك ذلك آشتدّ غضبه عليه، ثم قال له : يا إلياس، والله ما أَرى ما تدعونا اليه إلّا باطلا، والله ما أرى فلانا وفلانا — سمّى ملوكا منهم قد عبدوا الأوثان — إلّا على مثل ما نحن عليه، يأكلون و يشربون

ويتنعّمون مملّكين، ما يَنقُص من دنياهم أمرُهم الذى تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل .

قال : وهمَّ الملك بتعذيب إلياس وقتلِه . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — ذلك وأحسّ بالشرّ، رفضه وخرج عنه . فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملكُ[1] الناسَ إلى عبادة بَعْل ، وآرتقى إليـاسُ — عليـه السلام — أصعب جبـل وأشمَخَه ، فدخل مغارةً فيه . فيقال : إنه بَقِىَ فيـه سبع سنين شَرِيدا طَرِيدا خائفا ، يأوى الشِّعاب والكهوف، و يأكل من نبات الأرض وثمـارِ الشجر وهم فى طلبـه قد وضعوا عليه العيون يتوكّفون[2] أخباره و يجتهدون فى أخذه، والله تعالى يستره و يدفع عنه . فلمّا تمّت له سبعُ سنين أذِن الله تعالى فى إظهاره عليهم، وشفا غيظَه منهـم ، فأمرض الله تعالى آبنا لآجاب الملك وكان أحبّ ولدِه إليه وأعزَّهم عليـه وأشبَهَهم به ، فأَدنفَ[3] حتى يُئس منه ، فدعا صنمَه بَعْلا ؛ وكانوا قـد فُتِنوا به وعظّموه حتى[4] جعلوا له أربعمائة سادِن وكّلوهم به وجعلوهم أنبياءه ، وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة، فيبيّنونها للناس فيعملون بها، و يسمُّونهم الأنبياء . فلمّا آشتدّ مرض آبنِ الملكِ طَلب إليهم أن يشفَعوا إلى بَعْل ، و يطلبوا لآبنه من قِبَله الشفاء والعافية ، فدعَوْه فلم يجبهم ، ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الوُلوجُ فى جوفه ، وهم مجتهـدون فى التضرُّع إليـه ، وهو لا يزداد مع ذلك إلاّ خمودا[5] . فلمّا طال عليهم ذلك قالوا لآجاب : إن فى ناحية الشأم آلهةً أخرى ،وهى

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة : «وعاد الملك الى عبادة بعل» .

(٢) يتوكفون أخباره : ينتظرونها و يسألون عنها .

(٣) أدنف المريض : ثقل ودنا من الموت، وأدنفه المرض، فهو لازم متعدّ .

(٤) فى قصص الأنبياء المطبوعة والمخطوطة : «حتى سموا مدينتهم به فقالوا لها بعلبك وجعلوا... الخ» .

(٥) فى الأصل : «إلا جمودا» والتصويب من قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبي .

فى العِظَم مثلُ إلٰهك ، فابعَثْ إليها أنبياءك فليشفعوا لك إليها . فلعلها أن تشفع لك إلى إلٰهك بعَلْ فإنه غضبان عليك ، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشَفَى لك ٱبنَك . قال آجاب : ومن أجل ماذا غضِب علىّ وأنا أُطيعه وأطلب رضاه منذ كنت لم أُسخطه ساعةً قطّ ؟ قالوا : من أجل أنّك لم تقتل إلياس وفرطتَ فيه حتى نجا سليما وهو كافر بإلٰهك يعبد غيره ، فذلك الذى أغضبَه عليك . قال آجاب : وكيف لى أن أقتل إلياس يومى هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ٱبنى وليس لإلياسَ مطلب ، ولا يُعْرَف له موضع فيُقصَد ، فلو عُوفىَ ٱبنى لتفرَّغتُ لطلبه ، ولم يكن لى همٌّ ولا شغل غيره حتى آخُذَه فأقتله فأريحَ إلٰهى منه وأُرضيَه .

قال : ثم ٱندفعتْ أنبياؤه الأربعمائة ليَشفعوا الى الأرباب التى بالشأم ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملِك ليشفى ٱبنه ، فٱنطلقوا حتى إذا كانوا بحِيال الجبل الذى فيه إلياس أوحَى الله — عزّ وجل — إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضَهم ويستوقفَهم ويكلِّمَهم ، وقال له : لا تَخَفْ فإنّى سأصرف عنك شرَّهم ، وأُلقِى الرعبَ فى قلوبهم . فنزل إلياس — عليه السلام — من الجبل ، فلمّا لقيهم ٱستوقفهم فوقفوا ، وقال ١١٤/١١ لهم : إنّ الله — عزّ وجل — أرسلنى إليكم وإلى مَن وراءكم ، فٱستمعوا أيّها القوم رسالةَ ربكم لتبلغوا صاحبكم ، فٱرجِعوا إليه وقولوا له : إنّ الله تعالى يقول لك : ألستَ تعلم يا آجاب أنّى أنا الله لا إلٰه إلّا أنا إلٰهُ بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم ، أجَهلُك وقلّةُ علمِك حملك على أن تُشرك بى وتطلبَ الشفاء لٱبنك من غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا إلّا ما شئتُ . إنى حلفتُ بٱسمى لأغيظنّك فى ٱبنك ولأُميتنّه فى فوره هذا حتى تعلم أنّ أحدًا لا يملك له شيئا دونى . فلمّا قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد مُلِئوا منه رُعْبا . فلمّا صاروا إلى الملك قالوا له ذلك ، وأخبروه أنّ إلياس ٱنحطّ عليهم ، وهو رجلٌ نحيفٌ طُوالٌ قد قَشِفَ

وقَحِلَ[١] وتمعّط[٢] شعرُه وتقشّر[٣] جلدُه، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خلّها[٤] على صدره بخِلال، فاستوقفَنا، فلمّا صار معنا قُذِفَتْ فى قلوبنا الهيبة والرُّعب، وآنقطعت ألسنُتنا، ونحن فى هذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلامَ إلياس عليه السلام. فقال آجاب: لا ننتفع بالحياة ما دام إلياس حيّا. ما الذى منعكم أن تبطِشوا به حين لقيتموه وتُوثِقوه وتأتونى به، وأنتم تعلمون أنه طَلِبَتِي وعدوّى. قالوا: أخبرناك بالذى مَنَعنا منه ومن كلامه والبطش به. قال آجاب: ما يُطاق إذًا إلياس إلّا بالمكر والخديعة. فقيّض له خمسين رجلا من قومه ذوى قوّة و بأس، وعهِد إليهم عهدَه، وأمرهم بالآحتيال له والآغتيال به[٥] وأن يُطمِعوه فى أنهم قد آمنوا به هم ومَن وراءهم، ليستنيم إليهم و يغترّ بهم، فيمكّنهم من نفسه، فيأتوا به الملِك. فآنطلقوا حتى آرتقَوْا ذلك الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم تفرّقوا [فيه][٦] وهم ينادونه بأعلى أصواتهم ويقولون: يا نبيّ الله، ابرُزْ لنا وأنت آمِنٌ على نفسك [فإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وملكنا آجاب][٦]، وجميع بنى إسرائيل يقرءون عليك السلام ويقولون: قد بلّغتَنا رسالةَ ربّك، وعرفنا ما قلت، وآمنّا بك، وأجبناك إلى ما دعوتَنا، فهلمّ إلينا فأنت نبيّنا ورسولُ ربّنا، [فأقِمْ][٦] بين أظهرنا وآحكم فينا؛ فإنّا ننقاد لما أمرتَنا، وننتهى عمّا نهيتَنا، وليس يسعك أن تتخلّف عنّا مع إيماننا وطاعتنا، فتَدَاركْنا وآرجِع إلينا. وكلّ هذا كان منهم مُماكرةً وخديعةً. فلمّا سمع إلياس — عليه

(١) قحل من باب علم: يبس. ومنه تقحل الشيخ اذا يبس جلده على عظمه من البؤس والكبر.

(٢) تمعط الشعر: تمرّط وسقط من داء يعرض له.

(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة: «واقشعرّ» وفى المطبوعة: «ويبس».

(٤) خلّ الكساء وغيره: جمع أطرافه بخلال.

(٥) كذا فى قصص الأنبياء المخطوطة للثعلبي. ولعل المراد من قوله «والاغتيال به» أخذه من حيث لا يدرى ثم المجيء به. وفى أ: «والاحتيال به».

(٦) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى.

السلام — مقالتهم وقعتْ بقلبه وطمِع فى إيمانهم وخاف الله تعالى وأشفق من سُخْطه إن هو لم يَظهَر لهم ولم يُجبهم بعد الذى سمع منهم . فلمّا أَجمع على أن يبرُز لهم رجع إلى نفسه فقال : لو أنّى دعوتُ الله — عزّ وجلّ — وسألتُه أن يُعلِمَنى ما فى أنفسهم ويُطْلِعَنى على حقيقة أمرهم . فقال : اللهمّ إن كانوا صادقين فيما يقولون فأْذَنْ لى فى البروز إليهم ، و إن كانوا كاذبين فآكفنيهم وآرمِهم بنار تُحرِقهم . فما آستتمّ قوله حتى حُصِبُوا (١) بالنار من فوقهم ، فآحترقوا أجمعين .

قال : و بلغ آجابَ الخبرُ فلم يرتدع ، وآحتال ثانيا فى أمر إلياس ، وجهّز فئةً أخرى مثلَ عدد أولئك أقوى منهم وأمكنَ فى الحيلة والرأى ، فأقبلوا حتى ارتقَوْا قُلَل تلك الجبال [متفرقين] (٢) ، وجعلوا ينادون : يا نبىّ الله ، إنّا نعوذ بالله و بك من غضب الله وسَطَواته . إنّا لسنا كالذين أتوك من قَبْلنا ، إنّ أولئك فرقة نافقتْ وخالفتْنا ، فصاروا إليك ليكيدوك (٣) من غير رأينا ولا علمٍ منّا ، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك ، وخرجوا إليك سرّا ، ولو علِمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤنتهم ، والآن فقد كفاك ربُّك أمرهم وأهلكهم بسوء نيّاتهم وآنتقم لنا ولك منهم . فلمّا سمع إلياس — عليه السلام — مقالتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى ، فأمطر الله عليهم النار ، فآحترقوا عن آخرهم ، كلّ ذلك وآبن الملِك فى البلاء الشديد من وجعه — كما وعده الله تعالى على لسان نبيّه إلياس — لا يُقْضَى عليه فيموت ، ولا يخفَّف عنه من عذابه .

قال : فلمّا سمع الملِك بهلاك أصحابه ثانيا آزداد غضبا إلى غضبه ، وأراد أن يخرج فى (٤) طلب إلياس بنفسه ، إلّا أنه شغله عن ذلك مرضُ آبنه فلم يمكنه ، فوجّه نحو إلياسَ الكاتبَ المؤمنَ الذى هو كاتب آمرأته رجاءَ أن يأنَس به إلياس فينزلَ

(١) حصبوا بالنار : رموا بها . (٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

(٣) فى قصص الأنبياء للثعلبى : « ليمكروا بك » .

(٤) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « إلى طلب إلياس ... » .

معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءا . وإنما أظهر له ذلك لمـا اطّلع عليه من إيمـانه، وكان الملِك مع اطّلاعه يغُضّ عنه لمـا هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسَـدادِ الرأى. فوجّهه نحوه، وأرسـل معه فئةً من أصحابه، وأَوعَزَ إلى الفئة دون الكاتب أن يُوثِقوا إليـاس ويأتُوه به إن أراد أن يتخلّف عنهم، وإن ١١٥/١١ جاء مع الكاتب واثقًا به آنسًا بمكانه لم يُوحِشُوه ولم يروّعوه، ثم أظهر آجاب للكاتب الإنابة وقال : إنه قد آن لى أن أتوب وأتّعظ، وقـد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنـا والبلاءِ الذى فيه ابنى ؛ وقد عرفتُ أنّ ذلك بدعوة إلياس، ولستُ آمَنُ أن يدعوَ على جميع مَن بقِى منّا فنهلِك بدعوته. فانطلِق إليه وأخبره أنّا قد تُبنا وأنبنا، وأنه لا يصلحنا فى توبتنا وما نريد من رضا ربّنا وخلعِ أصنامنا إلّا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا، ويُخبِرُنا بمـا يرضَى به ربُّنا . وأمر الملِك قومه فاعتزلوا الأصنام، وقال له : أخبر إلياس بأنّا قد خلعنا آلهتنا التى كنّا نعبـد وأرجأنا أمرها[1] حتى ينزل إليـاس إلينا؛ فيكون هو الذى يُحرِقها ويُهلِكهـا وكان ذلك مكرا من الملك . فانطلق الكاتب والفئةُ حتى علَوُا الجبل الذى فيه إلياس — عليه السلام — ثم ناداه الكاتب، فعرف إلياس صوتَه، فتاقتْ نفسُه إليه وأنِسَ بمكانه وكان مشتاقا إلى لقائه، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أنِ ابرُز إلى أخيك الصالح فالقَه وجدِّد العهدَ به ؛ فبرز إليه إليـاس وسلّم عليه وصافحه، وقال له : ما الخبر؟ قال له المؤمن : إنّه قد بعثنى إليك هذا الجبّار الطاغيةُ وقومُه، ثم قصّ عليه ما قالوا، ثم قال : وإنِّى خائف إن رجعتُ إليه ولستَ معى أن يقتلنى، فمُرْنى بمـا شئتَ أن أفعلَه وأنتهِىَ إليه، [إن شئتَ انقطعتُ إليك وكنتُ معك وتركتُه، وإن شئتَ جاهدتُه معك][2]

(١) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . وفى المطبوعة : «وقد أهملنا أمرها» . وفى الأصل : «وأرجينا أمرنا» .

(٢) زيادة عن الثعلبى فى قصص الأنبياء المخطوطة والمطبوعة .

وإن شئتَ فأرسلنى إليه بما تحبّ فأبلّغه رسالتك ، وإن شئتَ دعوتَ ربّك أن يجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا .

قال : فأوحى الله — عزّ وجلّ — إلى إلياس عليه السلام أنّ كلّ شىء جاءوك به مكرٌ وخديعةٌ ليَظفَروا بك ، وأن «آجاب» إن أخبرتْه رسلهُ أنّك قد لَقِيتَ هذا الرجل ولم يأتِ بك إليه آتّهَمه وعرَف أنه قد داهن فى أمرك ، فلم يأمن أن يقتله ، فآنطلِق معه فإنّ فى آنطلاقك معه عذرَه وبراءته عند آجاب ، وإنى سأَشغَل عنكما آجاب ، وأضاعِفُ على ابنه البلاء حتى لا يكون له همٌّ غيره ، وأميته على شرّ حال ، فإذا مات فآرجِع عنه ولا تُقِم . فانطلَق معهم حتى قَدِموا على آجاب ، فلمّا قدموا عليه شدّد الله تعالى على ابنه الوجع ، وأخذه الموت ، فشَغَل الله تعالى آجاب وأصحابَه بذلك عن إلياس ، فرجع إلياس سالما إلى مكانه . فلمّا مات ابن آجاب وفرغوا منه وقلّ جزعه ، انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتبَ الذى جاء به ، فقال : ليس لى به علم ، وذلك أنّه شغلنى عنه موتُ ابنك والجزعُ عليه ، ولم أكن أحسبك إلّا قد آستوثقتَ منه . فأضرب عنه آجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه .
فلمّا طال الأمر على إلياس ملّ الكُمُونَ فى الجبال والمُقامَ بها وآشتاق إلى العُمْران وإلى الناس فنزل من الجبل ، وآنطلق حتى نزل بآمرأة من بنى إسرائيل ، وهى أمّ يونس ابن متّى [ذى النون . فآستخفى عندها ستة أشهر][1] ، ويونس يومئذ مولودٌ يرضع ، وكانت أُمّ يونس تخدِمُه بنفسها ، وتواسيه بذات يدها ، ولا تدّخر عنه كرامة تقدِر عليها .

ثم إنّ إلياس سئم ضِيق البيوت بعد مُقامِه بالجبال وسَعَتها ، فأحبّ أن يلتحق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه ، فجزِعتْ أمّ يُونس لفراقه وأوحشَها فقدُه ، ثم لم تلبث إلّا يسيرا حتى مات آبنها [يونس][1] حين فطمتْه ، فعظمتْ مصيبتها فيه ، فخرجتْ فى طلب إلياس ، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف [فيها][1] حتى عثرت عليه ووجدتْه ، فقالت :

(١) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

إنّى قد فُجِعتُ بموت آبنى بعــدَك ، فعظمتْ فيه مصيبتى، وآشــتدّ لفقده بلائى ، وليس لى ولد غيرُه. فآرحمنى وآدْعُ ربّك — جلّ جلاله — فيحيىَ لى آبنى، ويجبر مصيبتى ، وإنى قد تركته مسجًّى لم أدفنه، وإنى قد أخفيتُ مكانه . فقال لهـا إلياس : ليس هذا ممّـا أُمرتُ به ، وإنمـا أنا عبــد مأمور أعمل بمـا يأمرنى به ربّى ، ولم يأمرنى بهــذا . فجزعتِ المرأة وتضرّعتْ، فعطّف الله سبحانه وتعالى قلبَ إلياس عليها، فقال لها: ومتَى مات آبنُكِ ؟ قالت : منذ سبعة أيام . فآنطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى آنتهى إلى منزلهـا فوجد آبنَها يونسَ ميتًا منذ أربعة عشر يوما، فتوضأ وصلّى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونسَ بنَ متّى بدعوة إلياس. فلمّا عاش وجلس وثب إلياس وآنصرف وعاد إلى موضعه. والله أعلم .

ذكر دعاء إلياس على قومه ، وما حلّ بهم من القحط وخبر آليَسَع حين آتّبـع إليــاس

قال : ولمّـا طال عصيان قومه ضاق إليــاس بذلك ذَرْعًا وأجهده البــلاء ، فأَوحَى الله تعالى إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهودٌ : يا إلياس ، ما هذا الحزن والجَزَع الذى أنت فيه ! ألستَ أمينى على وحيى، وحُجّتى فى أرضى، وصفوتى من خَلْقى ! ١١٦ / ١١ فسَلْنى أُعطِك فإنّى ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال : تميتُنِى فتُلحقنى بآبائى، فإنّى قد مَللتُ بنى إسرائيل ومَلُّونى ،وأبغضتُهم فيك وأبغضونى. فأَوحَى الله تعالى إليــه : يا إلياس، ما هذا باليوم الذى أُعرِى منك الأرضَ وأهلَها، وإنمـا قِوامُها وصلاحُها بك وبأشباهِك إن كنتم صبرتم قليلا ، ولكن تسألنى فأعطيك . قال إلياس : فإن لم تُمِتنى يا إلٰهى فأَعطِنى ثأرى من بنى إسرائيل . قال الله تعالى :

وأىّ شىء تريد أن أعطيَك يا إلياس؟ قال : تمكّنى من خزائن السماء سبعَ سنين، فلا تُنشِئ[١] عليهم سحابةً إلّا بدعوتى ، ولا تُمطِر عليهم سبعَ سنين قطرةً إلّا بشفاعتى، فإنهم لا يُذِلّهم إلّا ذلك . قال الله تعالى : يا إلياس ، أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : ستَّ سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين . قال : فخمسَ سنين . قال : أنا أرحم بخَلقى من ذلك وإن كانوا ظالمين، ولكنى أُعطيك ثلاثَ سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، فلا تَنشَأُ[١] عليهم سحابةٌ إلّا بدعوتك ، ولا تَنزِل عليهم قطرةٌ إلّا بشفاعتك . قال إلياس : فبأىّ شىء أعيش؟ قال : أُسخِّر جيشا من الطير تنقل إليك طعامَك وشرابَك من الريف والأرض التى لم تَقحَط . قال إلياس : قد رضيت . قال : فأمسك الله — عزّ وجلّ — عنهم المطر حتى هلكت الماشيةُ والدوابُّ والهوامُّ والشجرُ وجُهِد الناس جَهْدًا شديدًا وإلياسُ على حالته مُستخفٍ من قومه يوضع له الرزقُ حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومُه، فكانوا إذا وجدوا ريحَ الخبز فى بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا البيتَ وطلبوه، ولقِىَ أهلُ ذلك المنزل منهم شرّا .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أصاب بنى إسرائيل ثلاثَ سنين القحطُ، فمرّ إلياس — عليه السلام — بعجوز فقال لها : هل عندك طعام ؟ قالت : نعم، شىء من دقيق وزيت قليل . فجاءته بشىء من الدقيق والزيت، فدعا فيهما بالبركة ومسّهما[٢] ، فبارك الله فى ذلك حتى ملأت جُرُبَها دقيقا وملأت

(١) نشأت السحابة : ارتفعت وبدت، وأنشأها الله : رفعها وأبداها .

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وعبارة الأصل : « فدعا بهما ودعا فيه بالبركة ومسه ... الخ » .

خَوابِيَها زيتا . فلمّا رأوْا ذلك عندها قالوا : من أين لكِ هذا؟ قالت : مرّ بى رجل من حاله كذا وكذا ، فوصفت صفتَه ، فعرفوه وقالوا : ذلك إلياس ؛ فطلبوه فوجدوه فهرَب منهم .

ثم أوَى ليلةً إلى بيت آمرأة من بنى إسرائيل لها آبن يقال له : ٱلْيَسَع آبن أخطوب به ضرّ ، فآوته وأخفتْ أمرَه . فدعا له فعُوفىَ من الضرّ الذى كان به ، وآتّبع ٱلْيَسَعُ إلياسَ وآمن به وصدّقه ولزمه ، وكان يذهب به حيثما ذهب ، وكان إلياس قد أسنّ وكَبِر ، وكان ٱلْيَسَعُ غلاما شابًّا .

ذكر رفع البلاء عن قوم إلياس بدعوته وآستمرارهم على الكفر ورفع إلياس وهلاك آجاب الملك وآمرأته ، ونبوّة ٱلْيَسَع

قال : ثم أوحَى الله تعالى إلى إلياس — عليه السلام — إنك قد أهلكتَ كثيرا من الخلق ممن لم يَعْصِ سوى بنى إسرائيل من البهائم والدوابّ والطير والهوامّ والشجر بحبس المطر عن بنى إسرائيل . فيزعمون — والله أعلم — أنّ إلياسَ قال : يارِبّ دَعْنى أكُنِ الذى أدعو لهم وآتيهم بالفرج ممّا هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلّهم أن يرجعوا ويَنزِعوا عمّا هم عليه من عبادة غيرك . قيل له : نعم . فجاء إلياس — عليه السلام — إلى بنى إسرائيل فقال لهم : إنكم قد هلكتم جوعا وجَهْدًا ، وهلكت البهائمُ والدوابّ والطيرُ والهَوَامُّ والشجرُ بخطاياكم ، وإنكم على باطل وغرور . فإن كنتم تحبّون أن تعلموا ذلك فآخرجوا بأصنامكم هذه ، فإن آستجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل فنَزَعتم ، ودعوتُ آلله — عزّ وجلّ — ففرّج عنكم ما أنتم فيه من البلاء . قالوا : أنصفتَ . فخرجوا بأوثانهم فدعَوْها

فلم تستجب لهم، ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه [من البــلاء] (١) . ثم قالوا لإلياس : يا إلياس، إن الله قــد أهلكنا، فآدعُ الله لنـا . فدعا اللهَ تعـالى لهم ومعه (٢) آليسع بالفرج ممّـا هم فيــه وأن يُسقَوْا، فخرجت سحابةٌ مثل التُّرْس على ظهر البحر وهم ينظرون، فأقبلت نحوهم وطبّقت الآفاق، ثم أرسل الله تعالى عليهم المطر [فأغاثهم] (٣) وحيِيَتْ بلادهم .

فلمّـا كشف الله تعـالى عنهم الضُّرّ نقضوا العهـد ولم ينزِعوا عن كفرهم، ولم يُقلِعـوا عن ضلالتهم، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه . فلمّـا رأى إلياس — عليه السلام — ذلك دعا اللهَ تعالى أن يريحه منهم؛ فقيل له — كما يزعمون — : أُنظُرْ (٤) يومَ كذا وكذا فآخرُجْ فيــه (٥) إلى موضع كذا، فما جاءك من شيء فآركبــه ولا تَهَبْه . فخرج إلياس ومعه آليسع بن أخطوب، حتى إذا كانا بالموضع الذى أُمِر إلياس به، أقبــلَ فرس من نار حتى وقف بين يديه، فوثب عليه إلياس، فآنطلق الفرسُ به، فناداه آليسع، يا إلياس : ما تأمرنى ؟ فقذف اليــه إلياس بكسائه من الجوّ الأعلى، وكان ذلك علامةَ آستخلافه إيّاه على بنى إسرائيل، فكان [ذلك] (٣) آخر العهد به . ورفع الله — عزّ وجلّ — إلياسَ من بين أظهُرهم، وقطع عنه لذّة المطعم والمَشرَب، وكساه الرِّيش، فكان إنسيّا مَلَكيّا أرضيّا سماويّا، وسلّط الله على آجاب الملِك وقومه عدوّا لهم فقصدهم من حيث لم يَشعُروا [به] (٣) حتى رَهِقَهم، فقتل

(١١٧/١١)

---

(١) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبي .

(٢) هذه عبارة الثعلبي . وفى الأصل : « ومعهم » .

(٣) زيادة عن الثعلبي .

(٤) أنظر : بمعنى انتظر .

(٥) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبي . وفى الأصل : « فيهم » .

آجاب وآمرأته أرايل فى بستان مزدكى ، فلم تزل جِيفتاهما ملقاتَين فى تلك الجُنَينة حتى بَلِيتْ لحومُهما ورَمّت عظامُهما (١) .

ذكر نبوّة ٱليَسَع عليه السلام

قال أبو إسحاق — رحمه الله تعالى — : ولمّا رفع الله تعالى إلياسَ — عليه السلام — نبّأ ٱليَسَعَ وبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل ، وأَوحَى إليه وأَيّده بما أَيّد به عبدَه إلياس ؛ فآمنتْ به بنو إسرائيل ، وكانوا يعظّمونه وينتهُون إلى أمره ، وحُكْمُ الله تعالى قائمٌ فيهم إلى أن فارقهم ٱليَسَع عليه السلام .

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — بسند رفعه إلى عبد العزيز بن أبى رَوّاد قال : إلياسُ والخَضِرُ — عليهما السلام — يصومان شهرَ رمضان ببيت المقدس ، ويوافيان الموسمَ فى كلّ عام .

وروى بسند رفعه إلى زيدٍ مَوْلَى عَوْن الطُّفَاوِىّ (٢) عن رجل من أهل عَسْقلان أنّه كان يمشى بالأُرْدُنّ نصفَ النهار، فرأى رجلا فقال له : يا عبد الله، من أنت؟ قال : فجعل لا يكلّمنى . فقلتُ : ياعبد الله ، من أنت ؟ قال : أنا إلياس . قال : فوقعتْ علىّ رِعْدة ، فقلتُ : ادعُ اللهَ يَرفع عنّى ما أجد حتى أفهمَ حديثَك وأَعقِلَ عنك . قال : فدعا لى بثمانِ دَعَواتٍ : يا برّ، يا رحيم، يا حنّان، يا منّان، يا حىّ، ياقيوم، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما . قال : فرفع الله عنّى ما كنتُ أجد، فوضع كفّه بين كَتِفىّ، فوجدتُ بَرْدَها بين ثدييّ . قال فقلت : يُوحَى إليك اليوم ؟ قال : منذ بعث الله محمدًا رسولَه فإنه ليس يُوحَى إلىّ . قال قلتُ له : كم من الأنبياء اليومَ أحياء؟ قال : أربعة، آثنان فى الأرض، وآثنان فى السماء، فى السماء عيسى

(١) رمّ العظم : بلى فهو رميم .

(٢) الطفاوى (بضم الطاء) : نسبة الى طفاوة من قيس عيلان .

وإدريس، وفى الأرض إليـاس والخضر . قلتُ : كم الأبدال(١) ؟ قال : ستون رجلا، خمسون منهم من لَدُن عَرِيش مِصر إلى شاطئ الفُرات ؛ ورجلان بالمَصِّيصة(٢)، ورجلان بعَسْقلان، وستة فى سائر البلدان، كلّما أذهب الله واحداً جاء بآخر [مكانه](٣) بهم يدفع الله عن الناس [البلاء](٣) وبهم يُمْطَرون . قلت : فالخضر أين يكون ؟ قال : فى جزائر البحر . قلتُ : فهـل تلقاه ؟ قال نعم . قلت : أين ؟ قال : بالمَوْسم . قلتُ : فما يكون من حديثكما ؟ قال : يأخذ من شِعْرى وآخذ من شَعْره . قال : وذلك حين كان بين مَرْوان بن الحَكَم وبين أهل الشأم قتـال . قال : فقلتُ : ما تقول فى مَرْوانَ بنِ الحَكَم ؟ قال : ما تصـنع به ! [رجلٌ جبّار](٣) عاتٍ على الله — عزّ وجلّ — القاتل والمقتول والشاهد فى النار .

---

(١) الأبدال : قوم من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم ، بهم يقيم الله عز وجل الأرض . قال ابن دريد : هم سـبعون رجلا فيما زعموا لا تخلو منهم الأرض . أربعون رجلا منهم بالشام وثلاثون بغيرها . قال غيره : لا يموت أحدهم إلا قام بدله آخر من سائر الناس . ونقل المناوى عن أبى البقاء قال : « كأنهم أرادوا أبدال الأنبياء وخلفاءهم ، وهم عند القوم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة ، لكل بدل إقليم فيه ولايتـه : منهم واحد على قدم الخليل وله الإقليم الأوّل ، والثانى على قـدم الكليم ، والثالث على قدم هارون ، والرابع على قدم إدريس ، والخامس على قدم يوسف ، والسادس على قدم عيسى ، والسابع على قدم آدم — عليهم السلام — على ترتيب الأقاليم ، وهم عارفون بمـا أودع الله فى الكواكب السيارة من الأسرار والحركات والمنازل وغيرها . ولهم من الأسماء أسماء الصفات وكل واحد بحسب ما يعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهى من الشمول والإحاطة ومنه يكون تلقيه » اه . وعلامتهم ألا يولد لهم . وقد أفردهم بالتصنيف جماعة منهم السخاوى والجلال السيوطى وغير واحد . وللعزّ بن عبد السلام رسالة فى الرد على من يقول بوجودهم وأقام النكير على قولهم : بهم يحفظ الله الأرض . (راجع شرح القاموس للزبيدى فى مادة بدل) .

(٢) المصيصة (بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى) : مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(٣) الزيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

قال قلت : فإنى قد شهِدتُ فلم أطعُن برمح ولم أرمِ بسهم ولم أضرب بسيف، وأنا أستغفر الله — عزّ وجلّ — أن أعود إلى ذلك المقام أو مثله أبدا . قال : أحسنتَ، هكذا فكن .

قال : فإنى وإيّاه قاعدان إذ وُضِع بين يديه رغيفان أشدّ بياضا من الثلج ، أكلتُ أنا وهو رغيفا وبعضَ آخرَ ثم رُفِع، فما رأيتُ أحداً وضعه ولا أحدا رفعه .

قال : وله ناقة ترعى فى وادى الأُرْدُنّ، فرفع رأسه إليها ، فما دعاها حتى جاءت فبَرَكَتْ بين يديه فركبها. قلتُ : أُريد أن أصحبك . قال : إنك لا تقدِر على صُحبتى. قلتُ : إنى خِلْوٌ مالى زوجة ولا عيال . قال : تزَوَّجْ ، وإيّاكَ والنساءَ الأربعَ ، إيّاك والناشِزَ(١) ، والمختلِعةَ(٢) ، والملاعنة(٣) ، والمبارِئة(٤) ، وتزوج ما بدا لك من النساء .

قال : قلت : فإنى أحبّ لقاءك . قال : إذا رأيتنى فقد رأيتنى، ثم قال :
١١٨ / ١١ إنى أريد أن أعتكف فى بيت المقدس فى شهر رمضان . قال : ثم حالت بينى وبينه شجرة، فوالله ما أدرى كيف ذهب .

فهذا ما أورده فى خبر إلياس وآليسع — عليهما السلام — . والله أعلم .

---

(١) الناشز : المرأة التى تكره زوجها وتبغضه وتستعصى عليه فيضربها ويجفوها .

(٢) المختلعة : المرأة التى تبذل مالا لزوجها ليطلقها .

(٣) الملاعنة : المرأة التى يرميها زوجها برجل أنه زنى بها ، فالإمام يلاعن بينهما ، ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول : أشهد بالله أنها زنت بفلان وإنه لصادق فيما رماها به . وإذا قال ذلك أربع مرات قال فى الخامسة : وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى . ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى، ثم تقول فى الخامسة : وعلىّ غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فعلت ذلك بانت منه ولم تحلّ له أبدا، وإن كانت حاملا فجاءت بولد فهو ولدها ، ولا يلحق بالزوج لأن السنة تنفيه عنه .

(٤) المبارئة : المرأة التى تبرئ الرجل من حقوقها للمفارقة .

ذكر خبر عَيْلى[1] وأشمويل[2] وما يتّصل بذلك

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — قال وهبُ بنُ مُنَبِّه : لمّا قبض الله تعالى ٱليَسَعَ — عليه السلام — خَلَفتْ فى بنى إسرائيل الخلوف ، وعَظُمتْ فيهم الخطايا ، وكان عندهم التابوتُ يتوارثونه صاغِرًا عن كابِر ، فيه السَّكينة[3] وبقيّة[4] ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون ، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدِّمون التابوتَ إلّا هَزَم الله ذلك العدوّ . وكان الله — تبارك وتعالى — قد بارك لهم فى جَبَلهم ، لا يدخله عدوّ ، ولا يحتاجون معه إلى غيره . وكان أحدهم — فيما يذكرون — يضع الترابَ على الصَّخْرة ثم ينثر فيه الحَبّ فيُخرِج اللهُ تعالى له ما يأكله سنةً هو وعيالُه . ويكون لأحدهم الزيتونةُ فيعتصر منها ما يأكله سنةً هو وعيالُه . فلمّا عَظُمتْ أحداثهم وكثرتْ ذنوبهم وتركوا عهدَ الله إليهم سلّط الله عليهم العمالقة — وهم قوم [كانوا][5] يسكنون غَزّةَ وعَسْقلان وساحلَ بحر الروم ما بين مصرَ وفِلَسْطين — وكان جالوت الملك منهم فظهروا على بنى إسرائيل ، وغلبوهم على كثير من أرضهم وسَبَوْا كثيرًا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين غلاما ، فضربوا عليهم الجزية ،

---

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١ من هذا الجزء .

(٢) فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ وما بعدها) « أشمويل » و « شمويل » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٥) : « صموئيل » .

(٣) ورد فى الجزء الثالث من تفسير القرطبي (ص ٢٤٨ — ٢٤٩) أقوال المفسرين فى السكينة وٱختلافهم فى تفسيرها ثم قال المؤلف : قال ٱبن عطية : والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، فكانت النفوس تسكن الى ذلك وتأنس به وتقوى . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٤) ذكر القرطبي فى الجزء الثالث من تفسيره (ص ٢٤٩ — ٢٥٠) أقوال المفسرين أيضا فى البقية وٱختلافهم فى تفسيرها ثم قال : وقال أبو صالح : البقية : عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة . وسيذكر المؤلف تفسيرها فيما بعد .

(٥) زيادة عن الثعلبي .

وأخذوا تَوْراتهم ، ومكثوا على آضطراب من أمرهم وآختلاف من حالهم يتمادَوْن أحيانا فى غيّهم وضلالتهم ، فسلّط الله عليهم مَن ينتقم منهم ليراجعوا التوبة ، حتى بعث الله تعالى فيهم طالوتَ ملِكا . وكانت مدّةُ ما بين وفاة يُوشَع بن نُون إلى نبوّة أشمويل أربَعمائة سنة وستّين سنة ، وكان آخرَ ملوكهم فى هذه المدّة رجل يقال له «إيلاف» وكان يُدبّر أمرهم فى ملكه شيخ يقال له «عَيْلَى» الكاهن ، وكان حِبْرَهم وصاحبَ قُرْبانهم ، وكانوا ينتهون إلى رأيه .

ذكر آبتداء أمر أشمويل وكيف كانت نبوّته

قال الثعلبىّ قال وهب : كان لأبى أشمويل آمرأتان ، إحداهما عجوزٌ عاقرٌ لم تَلِد ، وهى أمّ أشمويل ، والأخرى وَلدتْ عشرةَ أولاد . وكان لبنى إسرائيل عيدٌ من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقرّبوا فيه القَرابِين ، فحضر أبو أشمويل وآمرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلمّا قرّبوا قُربانهم أخذ كلّ واحد منهم نصيبه ، فكان لأمّ الأولاد عشرةُ أنصباء ، وللعجوز نصيبٌ واحد ، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت أمّ الأولاد [للعجوز](1) : الحمد لله الذى كثّرنى بولدى وقللكِ ، فوَجَمتْ العجوز وُجوما شديدًا . فلمّا كان عند السَّحَر عَمَدت العجوزُ إلى متعبَّدها فقالت : اللهمّ بعِلْمِك وسَمْعِك كانت مقالةُ صاحبتى وآستطالتُها علىّ بنعمتك التى أنعمتَ عليها ، وأنت آبتدأتَها بالنعمة والإحسان ، فآرحَمْ ضَعْفى وآرحمنى وآرزقنى ولدًا تقيّا رضيّا أجعله لك ذُخْرا فى مسجد من مساجدك ، يعبدك ولا يكفرك ، ويطيعك ولا يجحدك . وإذا رحمتَ ضَعفى ومسكنتى وأجبتَ دعوتى ، فآجعل لها علامةً أعرفها بها . فلمّا أصبحتْ حاضت وكانت من قبلُ قد يئست من الحيض ، فألمّ بها زوجها ، فحملتْ وكتمتْ أمرَها ، ولقِى بنو إسرائيل

(1) زيادة عن الثعلبى .

فى ذلك الوقت من عدوّهم بلاء وشدّة ، ولم يكن فى بنى إسرائيل مَن يدبّر أمرهم ، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيّا يشير عليهم ويجاهدون عدوّهم معه ، وكان سِبْط النبوّة قد هَلَك ، فلم يبق منهم إلّا هذه المرأة الحُبلى ، فلمّا علموا بحَبَلها تعجّبوا وقالوا : إنما حَبِلتْ بنبيّ ، لأن الآيسات لا يَحبَلن إلّا بالأنبياء ، فأخذوها وحبسوها فى بيتِ رَهْبَةَ أن تَلِدَ جاريةً فتُبدِلَ بها غلاما ، لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها ، فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلاما ، فولدتْ غلاما فسمّته « أشمو يل » وقيل فيه « شِمْعون » . وتقول : سمع الله دعائى . ١١٩/١١

واختُلِف فى نسبه ، فالذى يقول آسمه شِمْعون يقول : هو شِمْعون بنُ صفيّة بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن يَصْهُر بن قاهث بن لَاوِى بن يعقوب .

وقال سائر المفسّرين[1] : هو أشمو يل ، وهو بالعربية إسماعيل بن بالِى ابن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صوف بن علقمة بن ماحت بن عموصا ابن عَزْرَيَا .

قال مُقاتل : هو من نسل هارون — عليه السلام — . وقال مجاهد : أشمو يل ابن هلقانا . والله أعلم .

قالوا : فلمّا كَبِر الغلام أسلمته أمّه يتعلّم التوراة فى بيت المقدس وكَفَله عَيْلَى ، فلمّا بلغ أشمو يلُ الوقتَ الذى يبعثه الله — عزّ وجلّ — نبيّا أتاه جبريل

(١) ورد نسب أشمو يل فى تاريخ الطبرى (ص ٥٤٧ من القسم الأوّل) هكذا : « شمو يل بن بالى بن علقمة بن برخام بن أليهو بن تهو بن صوف » . وورد فى قصص الأنبياء للثعلبى هكذا : « شمو يل وهو بالعبرانية إسماعيل بن بالى بن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا ابن عزريا » . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٤٤) : « صموئيل بن ألقانة بن يروحام بن أليهو ابن توحو بن صوف الأفرايمى » .

وهو نائم إلى جَنْب عَيْلَى الكاهن ، وعَيْلَى لا يأمن عليه أحدًا ، فدعاه بلحن الشيخ : يا أشمويل ، فقام فَزِعا إلى الشيخ فقال : يا أبتاه ، دعوتَنى ؟ فكره الشيخُ أن يقول لا فيفزع الغلام ؛ فقال : يا بُنَىّ ارجِعْ . فرجع فنام ، ثم دعاه ثانيا ، فأتاه فقال : أدعوتَنى ؟ فقال الشيخ : ما شأنُك ؟ فقال : أمَا دعوتَنى ؟ قال : لا . قال أشمويل : فإنى سمعتُ صوتا فى البيت ، وليس فيه غيرُنا . فقال : ارجِعْ فتوضّأْ وصلِّ ، فإذا دُعيتَ بآسمك فأجِب وقل : لَبَّيك ، أنا طَوْعُك ، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى . ففعل الغلام ذلك ، فنودى الثالثة ، فقال : لَبَّيك أنا طوعُك ، فمُرْنى أفعلْ ما تأمرنى . فظهر له جبريل وقال : اِذهبْ إلى قومك فبلِّغهم رسالة ربّك ، فإنّ الله تعالى قد بعثك إليهم نبيّا ، وإن الله تعالى ذَرَأك يَوْمَ ذرأك [للنبوة][1] ورَحِمَ وَحْدَةَ أمِّك فى ذلك اليوم الذى تاهت عليها ضَرَّتُها ، ولا أحد اليوم أشدُّ عَضُدًا[2] ولا أطيبُ وِلادةً منك ، فآنطلِقْ إلى عَيْلَى [فقل له][1] إنك كنتَ خليفة آلله على عباده ، فبقيتَ زمانا تأمر بأمره ، وحاكما بكتابه ، وحافظا لحدوده ؛ فلمّا آمتدّ سنّك ، ودقّ عَظمُك ، وذهبتْ قوّتك ، وفنِىَ عمرُك ، وقَرُب أجلُك ؛ وصرت أفقرَ ما تكون إلى الله تعالى ، ولم تزل فقيرًا إليه ، عطّلتَ الحدود ، وعمِلتَ بالرُّشا ، وأضعتَ حكومات الخَلْق ، حتى عزّ الباطلُ وأهلُه ، وذَلّ الحقُّ وحزْبُه ، وظهَر المكر ، وخفِىَ المعروف ، وفشا الكذب ، وقَلّ الصدق ، وما آللهُ عاهَدَك على هذا ، ولا عليه آستخلَفَك ، فبئس ما خَتَمتَ به عَمَلَك ، والله لا يحبّ الخائنين . فبلِّغه هذه الرسالة ، وقمْ بعده بالخلافة ؛ فلمّا بلَّغ أشمويلُ عَيْلَى هذه الرسالة فَزِع وجَزِع .

---

(١) التكلة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء : «فلا أحد اليوم أشدّ منها عضدا ولا ملاذا» .

قالوا : وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبده عَيْلَى ووبَّخه عليه أنه كان له ٱبنان شابّان، فأَحْدَثا شيئا فى القُرْبان لم يكن فيه، وذلك أنه كان فى مِسْوَاط[1] القُرْبان الذى يَسُوطونه به كُلّابان[2]، فما أخرجا كان للكاهن الذى كان يَسُوطه، فجعل ٱبناه لهما كلاليب، فأوحى ٱلله تعالى إلى أشمويل : ٱنطلقْ إلى عَيْلَى فقل له : منعك حبُّ الولد أن تزجر ٱبنيك أن يُحدِثا فى قُرْبانى وأن يعصيانى ، فلأنزعنّ الكهانة منك ومن ولديك ولأُهلِكَنّك وإياهما . فأخبر أشمويلُ عَيْلَى بذلك، ففزِع فزعا شديدا وسار إليهم عدوّهم . فأمر عَيْلَى ٱبنيه أن يَخرجا بالناس ويقاتلا ذلك العدو ، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عَيْلَى يتوقع الخبر ؛ فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيّه فأخبره أنّ الناس قد ٱنهزموا، وأن ٱبنيه قُتِلا . قال : فما فُعِل بالتابوت ؟ قال : ذهب به العدو . فشَهَق عَيْلَى ووقع ميّتا . ولمّا بلغ ملِكَهم إيلاقَ أن التابوت ٱستُلِب، وأن عَيْلَى قد مات كمدًا مالت عنقه فمات كمدا .

قالوا : فلمّا ماتا وأُخذ التابوت مَرِج[3] أمرُ بنى إسرائيل وٱجترأ عليهم عدوّهم فقالوا لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4] الآيات . وذلك بعد مادبّر أشمويل أمرهم عشر سنين .

(١) المسواط (كمحراب) : خشبة يحرّك بها ما فى القدر ليختلط .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . والذى فى الأصل : « كان فى مسواط للقربان الذى يسوط به كلابين فما أخرجا كان للكاهن الذى يسوطه » .

(٣) مرج، أى ٱختلط وٱضطرب وفسد .

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

و إنما كان قِوَامُ أمرِ بنى إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعةِ الملوك أنبياءَهم، وكان المَلِك هو الذى يسير بالجنود و يقاتِل العدوّ، والنبىّ يقيم له أمرَه و يُشير عليه و يُرشده، و يأتيه بالخبر من الله تعالى .

قال وهب : بعث الله تعالى أشمو يلَ نبيًّا ، فلبثوا أربعين سنةً بأحسن حال، وكان من أمرِ جالُوتَ المَلِكِ والعَمَالِقةِ ما كان، فسألوه أن يَبعث لهم مَلِكا؛ فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾ . فأجابوه بما قصّ الله تعالى فى كتابه : ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾(١) الآية .

قال : فلمّا أخذ أشمويلُ ميثاقَهم فى الطاعة والجهاد سأل اللهَ تعالى أن يَبعث لهم مَلِكا . والله أعلم بالصواب .

١٢٠/١١ ذكر خبر الملك طالوتَ و إتيانِ التابوت وخبر جالوت

قالوا : ولما سألوا أشمو يلَ أن يبعث لهم مَلِكا ، سأل الله تعالى فى ذلك ، فأُتِىَ بعصًا وقَرَنٍ(٢) فيه دُهن القُدْس، وقيل له : إنّ صاحبكم الذى يكون مَلِكا طوله طول هذه العصا ؛ وقيل له : أُنظر إلى القَرَن الذى فيه الدُّهن فإذا دَخَل عليك رجل فنَشّ(٣) الدُّهن الذى فى القَرَن فهو مَلِكُ بنى إسرائيل، فآدهُن به رأسه، وملّكه عليهم؛ فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مِثلَها؛ وكان طالوت — وآسمه بالسّريانيّة «شارك»(٤)

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦ .

(٢) القرن (بفتح القاف والراء المهملة) : الجعبة ما كانت .

(٣) نش الدهن : صوّت عند الغليان .

(٤) فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة «شازك» بالزاى المعجمة والكاف . وفى المطبوعة : «سادل» بالدال المهملة واللام .

وبالعِبْرانيّة شاوُل[1] بن قيس بن أنيال بن ضرار بن أحرب بن أفيح بن آيش بن بَنْيامين ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — رجلا دبّاغا يعمل الأَدَم . قال وهب وعِكْرِمة والسُّدّى : كان سقّاء يَسقى على حمار من النّيل ، فضلّ حمارُه ، فخرج فى طلبه . وقال وهب : بل ضلّت حُمُر لأبى طالوت ، فأرسله وغلاما له يطلبانها ، فمرّا ببيت أشمو يل فقال الغلام لطالوت : لو دخلنا على هذا النبىّ فسألناه عن أمرِ حُمُرنا ليُرشِدَنا ويدعوَ لنا بخير . فقال نعم . فدخلا عليه ، فبينما هما عنده يذكران شأن الحُمُر إذ نشّ الدُّهنُ فى القَرَن فقام أشمـو يلُ وقاس طالوتَ بالعصا ، فكانت على طوله ، فقال لطالوت : قرِّب رأسك . فقرّبه فدَهنه بدُهن القُـدْس ، ثم قال له : أنت مَلِك بنى إسرائيل ، وقد أمرنى الله تعالى أن أُملِّكك عليهم . فقال طالوت : أنا ؟ قال نعم . قال : أو ما علمتَ أن سِبْطى[2] أدنَى الأسباط فى بنى إسرائيـل؟ قال بلى . قال : أفمـا علمت أن بيتى أدنى بيوت بنى إسرائيـل؟ قال بلى . قال : فبأىّ آية أكون مِلكا ؟ قال : بآيةِ أنك ترجع وقد وَجد أبوك حُمُرَه . فكان كذلك .

ثم قال لبنى إسرائيل : ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ[3] ﴾ ؛ وإنمـا قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سِبْطان : سِبْط نبوّة ، وسِبْط مملكة ؛ فكان سِبْطُ النبوّة سِبْطَ لَاوِى بن يعقوب ،

(١) ورد هذا النسب فى قصص الأنبياء للثعلبي المطبوع هكذا : «شاول بن قيس بن أفيل بن صاروا ابن نحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السـلام » وورد فى النسخة المخطوطة منه هكذا : «شامل بن قيس بن اينال بن ضرار بن محرب بن أفيح بن آش بن بنيامين» وورد فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٥٧) هكذا : « شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورت ابن أفيح ابن رجل من بنيامين » .

(٢) السبط من اليهود كالقبيلة من العرب .

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧ .

منهم موسى وهارون — عليهما السلام — وسِبْطُ المملكة سِبْط يهوذَا بن يعقوب، منهم سليمان بن داود؛ ولم يكن طالوت من سِبط النبوّة ولا المملكة، وإنما كان من سِبْط بَنْيامين بن يعقوب، وكانوا عَمِلوا ذنبا عظيما؛ كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا. فغضب الله تعالى عليهم، ونزع النبوة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ﴾ قال أشمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾، أى فضيلة وسعة ﴿فِي ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلمَ بنى إسرائيل فى وقته. وقال الكلبيّ: «فِي العِلْمِ» بالحرب. ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ يعنى بالطُّول والقوّة؛ وكان يفوق الناسَ رأسه ومَنْكِبَيْه؛ وإنما سُمِّيَ طالوتَ لطُوله. وقال ٱبن كَيْسان: للجمال، وكان أجملَ رجل فى بنى إسرائيل وأعلمهم ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. قالوا: فما آية ذلك؟ ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

ذكر قصة التابوت وصفته وما قيل فيه

قال أبو إسحاق الثعْلبيّ — رحمه الله — : قال أهل التفسير وأصحابُ الأخبار: إنّ ٱلله تعالى أَهبط تابوتا على آدمَ حين أُهْبِط آدمُ إلى الأرض، فيه صُوَر الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرُّسُل منهم، وآخرُ البيوت بيت محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلّى وعن يمينه الكَهْلُ المطيع،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٨.

مكتوبٌ على جبينه : هذا أوّل من يتّبعه من أمّته « أبو بكر الصدّيق » وعن يساره «الفاروق» ، مكتوبٌ على جبينه : قَرْن من حديد لا تأخذه فى ٱلله لومةُ لائم ؛ ومن ورائه ذو النُّورَين آخِذٌ بحُجْزَته[1] ، مكتوبٌ على جبينه : بارٌّ من البَرَرَة . ومن بين يديه «علىّ بن أبى طالب» شاهرٌ سيفَه على عاتقه ، مكتوبٌ على جبينه : هذا أخوه وٱبنُ عمه المؤيّد بالنصر من عند الله . وحوله عمومته والخلفاء والنُّقَباء والكَبْكَبَة[2] الخَضْراء — وهم أنصار الله وأنصار رسوله — نورُ حوافِرِ دوابّهم يومَ القيامة مِثلُ نور الشمس فى الدنيا . ١٢١/١١

وكان التابوت نحوًا من ثلاثة أذرع فى ذراعين ، وكان من عود الشِّمْشار[3] الذى تُتخذ منه الأمشاط ، مموّها بالذهب ، فكان عند آدم إلى أن مات ، ثم عند شيث ، ثم توارثه أولادُ آدم إلى أن بلغ إبراهيمَ — عليه السلام — فلمّا مات كان عند إسماعيل ، ثم كان عند قَيْذار بن إسماعيل ، فتنازعه ولدُ إسحاق وقالوا : إنّ النبوّة قد صُرفتْ عنكم ، وليس لكم إلّا هذا النور الواحد ، [يعنى نور محمد صلى الله عليه وسلم][4] فأعْطِنا التابوت . فكان قَيْذار يمتنع عليهم ويقول : إنه وصيّة لأبى ، ولا أعطيه أحدًا من العالمين .

قال : فذهب ذات يوم يفتح التابوت ، فتعسّر عليه فتحُه ، فناداه منادٍ من السماء : مهلا يا قَيْذار ، فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل ، إنه وصيّة نبىّ ،

---

(١) أخذ بحجزة فلان : استظهر به وٱستنصر .

(٢) الكبكبة : الجماعة .

(٣) الشمشار : شجر البقس ، يشبه ورقه ورق الآس ، وعوده أصفر صلب ، وله حب أسود . منابته بلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته . وفى القاموس : «الشمشاذ» بالدال المعجمة (راجع مفردات ابن البيطار وشرح القاموس مادة بقس) .

(٤) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

لا يفتحه إلا نبيّ ، فادفعه لابن عمّك يعقوبَ إسرائيلِ الله ؛ فحمل قَيْذار التابوتَ على عنقه وخرج يريد أرض كَنْعان وكان بها يعقوب — عليه السلام — فلمّا قَرُب منه صَرّ التابوتُ صَرّةً سمعها يعقوب ، فقال لبنيه : أُقسم بالله لقد جاءكم قَيْذار بالتابوت فقوموا نحوه . فقام يعقوب وأولاده جميعا إليه ، فلمّا نظر يعقوب إلى قَيْذار آستَعْبَرَ باكيا وقال : يا قَيْذَار ، مالى أراك متغيّرا وقوّتك ضعيفة ، أَرَهِقَكَ عدوّ أم أتيتَ معصيةً بعد أبيك إسماعيل ؟ قال : ما رَهِقَنى عدوّ ولا أتيتُ معصية ولكن نُقِل من ظهرى نورُ محمد ، فلذلك تغيّر لَوْنى وضَعُف رُكْنى ، قال : أفى بنات إسحاق؟ قال : لا ، فى العربيّة الجُرْهُمِيّة ، وهى العامريّة ، فقال يعقوب : بَخٍ بَخٍ ! شرفا لمحمد ، لم يكن الله — عزّ وجل — لِيُجْرِيَه إلا فى العربيّات الطاهرات يا قيذار ، وأنا مُبشّرك ببشارة . قال : وما هى؟ قال : اِعلم أن العامريّة قد ولدت لك البارحة غلاما . قال قيذار : وما علّمك يآبن عمّى وأنت بأرض الشأم وهى بأرض الحَرَم؟ قال يعقوب : علمتُ ذلك لأنى رأيتُ أبوابَ السماء قد فُتحت ، ورأيتُ نورًا كالقمر الممدودِ بين السماء والأرض ، ورأيتُ الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمتُ أنّ ذلك من أجل محمد — صلى الله عليه وسلّم — فسلم قيذارُ التابوتَ إلى يعقوب ورجع إلى أهله ، فوجدها قد ولدت غلاما ، فسمّاه « حَمَلا » وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم .

قالوا : وكان التابوت فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى — عليه السلام — فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه ، وكان عنده إلى أن مات ، ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت أشمويل ، وكان فيه ما ذكر الله تعالى ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

قال الثعلبيّ: وآختلفوا فى السكينة ما هى؟ فقال علىّ بن أبى طالب: السكينة ريحٌ خَجُوج(١) هفّافة لهـا رأسان [كرأس الهرّة](٢) ووجه كوجه الإنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهِرّة، وذَنَب كذَنَب الهرّة وجناحان. وقال آبن إسحاق عن وهب عن بعض علمـاء بنى إسرائيـل: السكينة، رأس هرّة ميّتة كانت إذا صرَخت فى التابوت بصُراخ هِرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

وقال السُّدّىّ عن أبى مالك عن آبن عبّاس: هى طَسْت من ذهب من الجنة كانت تُغسَل فيه قلوب الأنبياء. وقال بكّار بن عبد الله عن وهب: رُوحٌ من الله تتكلم، إذا آختلفوا فى شىء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبى رَبَاح: هى ما يَعرِفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قَتَادة والكلبيّ: فَعِيلة من السكون أى طُمَأنينـة من ربكم، وفى أىّ مكان كان التابوت آطمأنّوا ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّـا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾.

قالوا: كان فيه عصا موسى ورُضاض(٣) الألواح، وذلك أنّ موسى لمّـا ألقى الألواح تكسرتْ فوقع بعضها، وجمع مابقى فجعله فى التابوت. وكان فيه أيضا لَوْحان من التوراة، وقَفِيزٌ من المنّ الذى كان ينزل عليهم، ونَعلَا موسى، وعِمامةُ هارون وعصاه. وكان التابوت عند بنى إسرائيل، وكانوا إذا آختلفوا فى شىء تكلّم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهم يستفتحون(٤) به على عدوّهم. فلمّا عصَوْا وأفسَدوا سلّط الله — عزّ وجلّ — عليهم العمالقةَ فاستلبوا التابوت كما تقدّم.

(١) ريح خجوج: تخج فى هبوبها، أى تلوى.

(٢) زيادة عن قصص الأنبياء للثعلبى.

(٣) رضاض الشىء (بضادين معجمتين وضم الراء المهملة): دقاق الشىء وفتاته، أى ما رضّ منه.

(٤) استفتح فلان: طلب الفتح وآستنصر، ومنه قوله تعالى: «ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» أى إن طلبتم الظفر.

ذكر إتيان التابوت إلى بنى إسرائيل وسبب عَوْده

١٢٢/١١ قال أبو إسحاق : لمّـا سَلَب العمالقةُ قومَ جالوتَ التابوتَ كان جالوتُ صغيراً، فأَتَوْا بالتابوت قرية من قُرى فَلَسْطين يقال لها أَشدود[1] ، وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغـد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه ، وسمَّروا قدمَي الصنم على التابوت ، فأصبحوا من الغد وقد قُطعتْ يدُ الصنم ورِجلاه ، وأصبح مُلقًى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم كلُّها منكّسة ، فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه فى ناحيـة من مدينتهم ، فأخذ أهلَ تلك الناحيـة وجعٌ فى أعناقهـم حتى هلك أكثرهم ، فقال بعضهـم لبعض : أليس قـد علمتم أن إله بنى إسرائيل لا يقوم له شىء، فأخرِجوه عن مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى، فبعث الله — عزّ وجلّ — على تلك القرية فأرا ، يبيت[2] الرجل صحيحا فيَقْرِضـه الفأر فيصبح ميّتـا قد أكلت ما فى جوفـه ، فأخرجوه منهـا إلى الصحراء ودفنوه فى مَخْرَأةٍ لهم، فكان كلُّ من تبرّز هناك أخذه الباسُور والقُولَنْج[3]، فتحيّروا، فقالت لهم آمرأة كانت عندهم من سَبْيِ بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء : لا تزالون تَرَون ما تكرهون ما دام هـذا التابوتُ فيـكم، فأَخرِجوه عنكم، فأتَوْا بعَجَلَةٍ بإشارة تلك المرأة فحملوا التابوتَ عليهـا ، ثم علّقوها على ثورين ، ثم ضربوا جُنُوبَهما ، فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله تعالى بهما أربعةً من الملائكة يسوقونهما، فلم يمرّ التابوت

(١) كذا فى قاموس العهـد الجديد للدكتور جورج بوست (ج ١ ص ١٠١ ، ٢٧٦ طبع بيروت سنة ١٨٩٤) وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس المتحالفة وقد خرجت فى نصيب يهوذا، وهى المركز الخصوصى لعبادة داجون، وأما موقعها فعلى ٣ أميال من البحر المتوسط بين غزة ويافا، وهى الآن قرية حقيرة تسمى أسدود وفى جوارها خرائب كثيرة . وفى الأصل : « أردود » .

(٢) هذه عبارة الثعلبى فى قصص الأنبياء . وعبارة الأصل محرفة .

(٣) القولنج : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح، معرّب .

بشىء من الأرض إلّا كان مقدّسا ، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيهـا حصاد لبنى إسرائيل فكسرا نُرتَيهما وقطعا حبالهما، ووضعا التابوت فيها ورجعا إلى أرضهما، فلم يَرُع بنى إسرائيل إلّا التابوت، فكبّروا وحمدوا الله تعالى .

وقال الكِسَائىّ : إنهم لمّـا دفنوه إلى جنب الحشّ(١) وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة . فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة، وأخذوا التابوت وهمّوا بفتحه فلم يقدروا فهمّوا بكسره فلم يقدروا(٢)، فتركوه ؛ فكان القوم يتشاءمون به لِمـا كان يصيبهم من البلاء، فحوّلوه إلى خمس مدائن، فقال أهل المدينـة الخامسة : إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأَخْرَجوه . وساق نحو ما تقدّم .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تَسُوقه . فعند ذلك أقرّوا بمُلك طالوت .

وقال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعوه فى دار طالوت، فأقرّوا بمُلكه . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٣) .

قال ابن عبّاس — رضى الله عنهما — إنّ التـابوت وعصا موسى فى بحيـرة طَبَرِيّة(٤)، وإنهما يخرجان يوم القيامة . والله أعلم .

(١) الحش (بالتثليث) : البستان ، وقيل : النخل المجتمع ، و يكنى به عن بيت الخلا لما كان من عاداتهم التغوّط فى البساتين .

(٢) هذه عبارة الكسائىّ فى قصص الأنبياء . وفى الأصلين : « فهم بكسره فلم يقدر » .

(٣) سورة آل عمران آية ٤٩ .

(٤) بحيرة طبرية ، هى كالبركة تحيط بها الجبال و يصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجىء من جهة بانيـاس والساحل والأردن الأكبر ، و ينفصل منهـا نهر عظيم فيسقى أرض الأردن الأصغر ، وهو بلاد الغور ، و يصب فى البحيرة المنتنة قرب أريحا . ومدينة طبرية فى لحف الجبـل مشرفة على البحيرة ، ماؤها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ثقيل . وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام . و بين البحيرة و بيت المقدس نحو من خمسين ميلا . (راجع معجم البلدان لياقوت) .

ذكر مسير طالوت بالجنود وخبرِ النهر الذى آبتُلُوا به

قالوا : فلمّا أقرّوا بمُلك طالوت سألوه أن يغزَو بهم، وهم يومئذ سبعون ألفَ مُقاتل. وقيل : ثمانون ألفًا لم يتخلّف عنه إلّا كبيرٌ لهَرَمه أو مريضٌ لمرضه أو ضريرٌ لضُرّه أو معذورٌ لعُذره ؛ وذلك أنهم لمـا رأَوا التابوت قالوا : قد أتانا التابوت، وهو النصر لا شكّ فيه؛ فسارِعوا إلى الجهاد، فقال طالوت : لا حاجة لى فى كل ما أرى ، لا يخرج معى رجلٌ بنَى بنـاءً لم يفرُغ منه ، ولا صاحبُ تجارةٍ مشتغِلٌ بها، ولا رجلٌ عليه دَيْن، ولا رجلٌ تزوج بامرأة ولم يَبْنِ بها؛ ولا يَتْبَعْنى إلّا الشابّ النشيط الفارغ[1] . فآجتمع له ثمـانون ألفا على شرطه — وكانوا فى حرّ شديد — فشكَوْا قلّة المياه فيما بينهم وبين عدوّهم، وقالوا : إنّ المياه لا تحملنا، فآدع الله تعالى أن يُجرِىَ لنـا نهرا . فقال لهم طالوت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّى ﴾ أى من أهل دِينى وطاعتى؛ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ ؛ ثم آستثنى فقال : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ .

قال الكِسَائىّ : لمّـا سألوه أن يُجرِىَ لهم نهرا قال : أَفعل — إن شاء الله — وسار بهم حتى إذا كانوا فى بَرِّيّة وفقدوا المـاء وأَجْهدهم العطش ، أتَوه، فدعا أن يجرِىَ الله تعـالى لهم نهرا ؛ فأَوحَى الله إليه ما أَخبر به فى كتابه ؛ قال الله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾[2] الآية . قال : وهو نهر الأُرْدُنّ من بلاد فَلَسْطِين. وقال الثعلبىّ : قال آبن عبّاس والسُّدّىّ : هو نهر فلسطين . وقال قَتادة والربيع : هو نهرٌ بين الأُرْدُنّ وفلسطينَ، عَذْب. قال الكِسَائىّ : قالوا : وما تُغْنِى عنّا الغُرْفة ثم عَرَض لهم النهر فآنهمكوا فى شربه . قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْـهُ

(١) الفارغ : المرتفع الحىّ الحسن .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال : وٱختلفوا فى القليل الذين لم يشربوا؛ فقال السُّدِّىّ : كانوا أربعة آلاف . وقال غيره : كانوا ثلاثمائة وبضعةَ عشر ؛ وهو الصحيح، لقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأهل بدر : " أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوتَ حين عبروا النهر " وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر .

قالوا : فلم يزد هؤلاء على الغُرفة فكانت كفايةً لهم ولدوابّهم؛ فمن ٱغترف غُرفة كما أمر الله، نور ٱلله قلبَه وصحّ إيمانُه، وعبر النهرَ سالما . والذين شربوا وخالفوا أمر الله — عزّ وجل — ٱسودّت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرْوَوْا وبقوا على شطّ النهر وجَبُنوا عن لقاء العدوّ؛ فقال طالوت للذين عصَوا ربهم : ارجعوا فلا حاجة لى بكم فرجعوا . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (١) وإنّما قال ذلك الذين عصَوْا وشربوا ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا ٱللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

ذكر خبر دواد حين قتل جالوت الملك

قال ٱلله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ (٣) .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله — : قال المفسّرون بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة : عبر النهرَ مع طالوت إيشَى أبو داود فى ثلاثة عشر ٱبناً له، وكان داود

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٠ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥١ ، وقد وردت هذه الآية الكريمة فى الأصول قبل هذا العنوان . ووردت فى الثعلبى الذى ينقل عنه المؤلف كما أثبتناها هنا وهو الأنسب .

أصغرهم، فأتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمى بقَذّافتى[١] شيئا إلّا صرعتُه. فقال: أَبشر يا بُنىّ فإن الله — عزّ وجل — جعل رزقَك فى قَذّافتك؛ ثم أتاه مرّة أخرى فقال : يا أبتاه، لقد دخلتُ بين الجبال فوجدتُ أسدًا رابضا ، فركبتُه وأخذتُ بأُذنيه فلَم يهِجنِى[٢]، فقال : أَبشر يا بنىّ فإنّ هـذا خير يريده الله بك . ثم أتاه يوما آخر فقال : يا أبتاه ، إنى لأمشى بين الجبال فأسبّح فما يَبْقى جبلٌ إلّا سبّح معى . فقال : أبشر يا بنىّ فإنّ هذا خيرٌ أعطاكه الله عزّ وجل .

قالوا : فأَرسـل جالوتُ إلى طالوت ، أن آبرُزْ إلىّ أو أبرِزْ إلىّ مَن يقاتلنى، فإن قتلنى فلكم مُلكى، وإن قتلته فلى ملككم . فشقّ ذلك على طالوت، فنادَى فى عسكره : مَن قتل جالوتَ زوّجتُه ابنتى وناصَفْتُه مُلكى . فهاب الناسُ جالوتَ فلم يجبه أحد؛ فسأل طالوتُ نبيَّهم — عليه السلام — أن يدعو، فدعا الله — عزّ وجل — فى ذلك ، فأُتِى بقَرن فيـه دُهْن القدس ، وتَنُّورٍ من حديد، فقيل له : إنّ صاحبكم الذى يقتل جالوتَ هو الذى يوضع هذا القَرن على رأسه فيَغْلى الدُّهن ثم يَدهُن به رأسَه ولا يسيل على وجهه، يكون على رأسه كهيئة الإكليل، ويدخل فى هذا التَّنور فيملأه لا يتقلقل فيه؛ فدعا طالوتُ بنى إسرائيل، فجرَّبهم فلم يوافقه منهم أحد ، فأَوحَى الله — عزّ وجل — إلى نبيِّهم أن فى ولد إيشَى من يَقتُل الله به جالوت. فدعا طالوتُ إيشَى وقال له : اعرِض علىّ بَنيك. فأخرَجَ له اثنى عشر رجلا أمثال السوارى، وفيهم رجل فارعٌ عليهم؛ فجعل يَعرِضهم على القَرن فلا يَرَى شيئا، فيقول لذلك الجسيم : اِرجِع فيردّده على التَّنور. فأوحَى الله — عزّ وجل — إليه : إنّا لا نأخذ الرجال على صُوَرهم، ولكنّا نأخذهم على صلاح قلوبهم . فقال لإيشَى :

(١) القذافة : المقلاع .

(٢) لم يهجه : لم يزعجه ولم ينفره .

هل بقىَ لك ولدٌ غيرُهم؟ فقال لا . فقال النبىّ : ربّ إنه زعم أن لا ولد له غيرهم . فقال كذَب . فقال النبىّ : إن ربّى كذّبك . قال : صدق ٱلله يا نبىّ ٱلله ، إنّ لى آبنا صغيرا يقال له داود ٱستَحْيَيْتُ أن يراه الناس لقصَر قامته وحقارته ، فخلّفتُه فى الغنم يرعاها وهو فى شِعْب كذا . وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا مسقاما مُصفارّا[1] أزرقَ أشقرَ . فدعاه طالوت . ويقال : بل خرج طالوت إليه فوجد الوادى قد حال بينه وبين الزَّريبة التى كان يُريح إليها ، فوجده يحمل شاتين شاتين فيُجيزُهما السَّيلَ ولا يخوض بهما الماء؛ فلمّا رآه [أشمويل][2] قال: هذا هو لا شكّ فيه ، هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم . فدعاه ووضع القَرْن على رأسه ففاض؛ فقال له طالوت : هل لك أن تقتل جالوتَ وأزوّجك ٱبنتى وأجرىَ حُكْمَك فى مُلكى ؟ قال نعم . قال : وهل أَنِستَ من نفسك شيئا تتقوّى به على قتله ؟ قال : نعم ، أنا أَرعى فيجىء الأسد أو النَّمر أو الذئب فيأخذُ شاةً فأقوم له فأفتحُ لَحيَيه عنها وأَخرِقُهما إلى قفاه . فردّه إلى عسكره؛ فمرّ داود — عليه السلام — فى الطريق بحَجَر فناداه : ياداود ، احملنى فإنى حَجَر هارون الذى قتل بى مَلِكَ كذا ، فحمله فى مِخلاته . [ثم مرّ بحجر آخر فناداه : يا داود ، احملنى فإنى حجر موسى عليه السلام — الذى قتل به ملك كذا وكذا ، فحمله فى مخلاته][2]. ثم مرّ بحجر آخر فقال : احملنى فإنى حجرك الذى تقتل به جالوت ، وقد خبأنى الله لك ، فوضعه فى مخلاته . فلما تصافّوا للقتال وبرز جالوتُ وسأل المبارَزة ، ٱنتدب له داودُ ، فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا ، فلبس السلاح وركب الفرس ، وسار قريبا ، ثم ٱنصرف فرجع إلى الملِك ، فقال مَن حولَه : جَبُن الغلام . فجاء فوقف على الملك فقال :

(١) عبارة الثعلبى : « وكان داود — عليه السلام — رجلا قصيرا سقيما مصفرا أزرق العينين » .
(٢) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبى .

ما شأنك ؟ قال : إنّ الله — عز وجل — إن لم ينصرنى لم يُغنِ عنّى هذا السلاحُ شيئا ، فدعنى أقاتل كما أريد . قال نعم . فأخذ داود مِخلاته فتقلّدها ، وأخذ المِقلاع ومضى نحو جالوت . وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان له بَيْضة فيها ثلاثمائةِ مَنٍّ حديدا ، فلمّا نظر إلى داود أُلقِىَ فى قلبه الرُّعبُ . فقال له : أنت تَبرُز لى ؟ قال نعم — وكان جالوت على فرس أبلق ، عليه السلاح التام — قال : تأتينى بالمِقلاع والحجر كما يُؤتَى الكلب ؟ قال : نعم، لأنت شرٌّ من الكلب. قال : لا جَرَم لأُقسِّمَنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء . فقال داود : [باسم الله و] يقسِّم الله لحمَك[(1)] . وقال : بسم إله إبراهيم، وأخرج حجرا ، ثم أخرج الآخرَ وقال : بآسم إلهِ إسحاق ، ووضعه فى مِقْلاعه ، ثم أخرج الثالثَ وقال : بآسم إله يعقوب ، ووضعه فى مِقْلاعه ، فصارت كلُّها حجرا واحدا، ودوّر المقلاعَ ورماه به، فسخَّر اللهُ تعالى له الريحَ حتى أصاب الحجرُ أنفَ البَيضة وخالط دماغَه فخرج من قفاه ، وقتل من ورائه ثلاثين رجلا ، وهزم الله تعالى الجيشَ وخرّ جالوتُ قتيلا ، فأخذه داودُ بجَرّه حتى ألقاه بين يدَىْ طالوتَ .

وقال الكسائىّ فى هذه القصة : كان مع طالوتَ سبعةُ إخوة لداود، وكان داود عند أبيه وهو صغير ، فقال له أبوه : قد أبطأ علىّ خبر إخوتك مع طالوت، فآحمل إليهم طعاما وتَعرَّفْ لى خبرَهم . فمضى داود ومعه مِخلاة له فيها الطعام، وقد شَدّ وَسَطَه بمقلاع؛ فبينا هو يسير إذ ناداه حجر من الأرض : خذنى فأنا حجر أبيك إبراهيم . فأخذه ؛ ثم ناداه حجر آخر : خذنى فأنا حجر أبيك إسحاق . فأخذه ؛

---

(1) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى . وفى الأصل : « لو يقسم » .

ثم ناداه حجر آخر : خُذنى فأنا حجر أبيك يعقوبَ . فأخذه وسار حتى أتى العسكر، فنزل على إخوته ، فلمّا كان من الغد تهيّأ الجيشان للمحاربة ، فقال طالوت : أيها الناس، من كفانى منكم أمرَ جالوت زوّجته آبنتى، وأشركتُه فى مُلكى، وجعلتُه خليفتى من بعدى. فلم يجبه أحد إلّا داود؛ فخلع عليه وأركبه وطاف به فى معسكره؛ فلمّا كان من الغد ركبوا ، وأقبل جالوتُ بجيوشه وهو على فيل ، وكان طوله ثمانيةَ عشر ذراعا ، وطول داود عشرة أذرع ، فقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ (١) الآية .

فبرز جالوتُ بين الصفّين فبرَز له داودُ ، فقال له جالوت : إنك صغير ولا سلاحَ معك فآرجع، فأبى ذلك، وأخذ تلك الأحجار فوضعها فى مِقلاعه ورمى بها، فوقع أحدها بمَيْمنة جالوت فهزمها، والثانى فى المَيْسرة فآنهزموا، والثالث وقع على أنف بَيْضة جالوت فخرج من قفاه، فسقط جالوتُ ميّتا، وآنهزم أصحابُه .

قالوا : ولمّا قتل داودُ جالوتَ ذكر الناسُ داودَ وعظُم فى أنفسهم، فجاء إلى طالوت وقال له : أنجِزْ لى ما وعدتَنى، وأعطنى آمرأتى . فقال له طالوت : أتريد آبنةَ الملِك بغير صَدَاق، عجّل صَدَاق آبنتى وشأنَك بها . فقال له داود : ما شرطتَ علىّ صَدَاقا ، وليس لى شىء ، فتحكّم فى الصداق (٢) ما شئتَ وأَقرِضنى مَهرَها وعلىّ الأداء والوفاء لك. فقال طالوت: أَصدِقْها نصيبَك من المُلك. فقالت بنو إسرائيل: لا تظلمه وأنجِزْ له ما وعدتَه به .

فلمّا رأى طالوتُ ميلَ بنى إسرائيل إلى داود وحُسْنَ رأيهم فيه قال : لا حاجة لآبنتى فى المال، ولا أكلّفك إلّا ما تُطيق، أنت رجل جرىء، وفى جبالنا

(١) سورة البقرة آية ٢٥٠

(٢) عبارة الأصول : «فتحكم من الصداق ما شئت» وعبارة الثعلبي : «فتحكم فى الصداق بما تريد» .

أعداء من المشركين غُلْف[1] فٱنطلِقْ وجاهِدْهم ، فإذا قتلتَ منهم مائتى رجل وجئتنى برءوسهم زوّجتُك ٱبنتى . فأتاهم داود، وجعل كلّما قتل منهم رجلا ٱحتزّ رأسه ونظمه فى خيط حتى نَظَم رءوسهم لجاء بهـا إلى طالوت، فألقاها إليـه وقال : ادفع إلىّ ٱمرأتى ، فزوّجه ٱبنته وأجرى خاتَمـه فى مُلكه ، فمـال الناس إلى داود وأحبّـوه وأكثروا من ذكره، فوجَد طالوتُ من ذلك فى نفسه وحسَده وأراد قتله .

قال وهب بن مُنَبِّه : وكانت الملوك يومئذ يتوكّأون على عِصِىٍّ فيغرِزون فى أطرافها أَزِجة من حديد ، وكان بيد طالوت منهـا واحدةٌ، فى رأسها رمّانة من ذهب وفى أسفلها زُجٌّ من حديد، وداود جالس قريبا منه فى ناحية البيت، فرماه بها بغتة ليقتله بها ، فلمّـا أحسّ داود بذلك حاد عن طريقها ، وأمال نفسَـه عنها من غير أن يبرح من موضعه ، فٱرتكزتْ فى الجدَار . فقـال له داود : عمدتَ إلى قتلى؟ قال طالوت : لا ، ولكن أردتُ أن أقف على ثباتك فى الطِّعان ورَبْطِ جأشِـك للأقران . قال داود : فألفيتَه على ما قدّرتَه فىّ ؟ قال : نعم ، ولعلك فَزِعت . قال : معاذ الله أن أخاف إلّا اللهَ تعالى وأرجوَ إلا الله ، ولا يدفع الشرَّ إلا الله . فٱنتزعها من الجِـدَار ثم هَزّها هَزّة منكرة وقال له : أثبُتْ كما ثَبَتُّ لك ، فأيقن طـالوتُ بالهلاك ، فقال له : أَنشُدُكَ اللهَ والحُرمةَ التى بينى وبينك إلّا ما صفحتَ ، فقال داود : إن الله تعالى كتب فى التوراة أن ٱجزِ السيئةَ مثلَها ، واحدةٌ بواحدة والبادى أظلم، فقال طالوت : ألا تقول قول هابيل لأخيه قابيلَ : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] . قال داود : قد عفوتُ عنك لوجه الله تعالى .

(١) هذه عبارة الثعلبى فى النسخة المطبوعة . وفى الأصلين : «وجئتنى بغلفهم زوّجتك ٱبنتى ، فأتاهم داود وجعل كلما قتل منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم غلفهم» والغلف جمع أغلف ، والأغلف : الذى لم يختتن .

(٢) سورة المائدة آية ٢٨

فلبث طالوتُ زمنا يريد قتلَ داود، فعزم على أن يأتيَه و يغتالَه فى داره. فأخبر بذلك بنتَ طالوتَ رجلٌ يقال له : ذو العينين، فقالت لداود : إنك مقتولٌ الليلة؛ قال : ومَن يقتلنى ؟ قالت : أبى ، وأخبرتْه الخبر وقالت : لا عليك أن تغيب الليلةَ حتى تنظر مِصْداقَ ذلك . فأخذ داودُ زِقَّ خمرٍ فوضعَه فى مَضْجَعه على السّرير وسَجّاه ودخل تحت السّرير ودخل طالوتُ نصفَ الليل، فعمد إليه فضربه ضربةً بالسيف فسالتِ الخمرُ، فلمّا وَجَد ريحها قال : رحم ٱلله داود، ما كان أكثر شربَه للخمر ، وخرج . فلمّا أصبح علم أنه لم يصنع شيئا ، فقال : إنّ رجلا طلبتُ منه ما طلبتُ لخليق ألّا يَدَعنى حتى يطالب منى ثأرَه ؛ فٱشتدّ حُجّابه وحُرّاسُه وأغلق دونه الأبوابَ ، فأتاه داود ليلةً وقد هدأتِ العيونُ وأَعْمَى الله الحُجّاب عنه وفتح له الأبواب ، ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سَهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج. فلمّا ٱستيقظ طالوت بصُر بالسهام فعرفها، فقال : رحم الله داود فهو خير منّى، ظفرتُ به فقصدتُ قتلَه، وظفر بى فكفّ عنّى، لو شاء لوَضَع هذا السهمَ فى حلقى وما أنا بالذى آمَنُه . فلمّا كانت الليلةُ القابلة أتاه ثانيا، وأعمى الله الحُجّاب. فدخل وهو نائم، فأخذ إبريق طالوتَ الذى كان يتوضّأ به وكوزَه الذى يشرب منه، وقطع شَعَرات من لحيته وشيئا من هُدْب ثيابه، ثم خرج وهرَب وتَوارَى ؛ فلمّا أصبح ورأى ذلك نصب على داود العيونَ وطلبه أشدَّ الطلب فلم يقدر عليه ، ثم رَكِبَ طالوتُ يوما فوجد داود يمشى فى البرّيّة فقال : اليوم أقتلُ داود ، وكان داودُ إذا فرّ لم يُدرَك ، فركَض داود حتى دخل غارا ، فأمر الله العنكبوتَ أن تَنْسُج ، فنَسَجت عليه بيتا . وجاء طالوتُ إلى الغار فنظر الى بيتِ العنكبوت فقال : لو كان هاهنا لخَرَق بيتَ العنكبوت، فتركه ومضى، وٱنطلق داود إلى الجبل ومعه المتعبّدون، فجعل يتعبّد فيه.

وطَعَن العلماءُ والعبّادُ على طالوتَ فى شأن داود، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن داود إلّا قتله . وأُغرِىَ بقتل العلماء، فلم يكن يقــدر فى بنى إسرائيل على عالم [ويُطيق قتله إلّا قتله](١) ولم يكن طالوت يحارب جيشا إلّا هزمه، حتى أُتِىَ بآمرأة تعلم آسم الله الأعظم، فأمر جبّاره بقتلها ، فرحمها الجبّار وقال : لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها .

ثم وقع فى قلب طالوت التوبةُ، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس ، وكان كلَّ ليـلة يخرج إلى القبور ويبكى وينادى : أَنشُد اللهَ عبدا يعلم لى التوبةَ إلّا أخبرنى . فلمّــا كَثُر عليهم [بكاؤه](١) ناداه منادٍ مِن قبر : يا طالوت، أما ترضَى [أنك](١) قتلتنا حتى تؤذينَــا أمواتا ، فازداد بكاءً وحزنا ، فقال له الجبّار : مالك أيها الملك ؟ قال : هل تعلم لى فى الأرض عالمــا أسأله ؟ هل لى من توبة؟ قال الجبّار : هل تدرى ما مَثَلُك ؟ إنمــا مَثَلُك مَثَلُ ملِكٍ نزل قريةً عِشَاءً، فصاح ديك فتطيّر به ، فقال : لا تتركوا فى هــذه القرية ديكا إلّا ذبحتموه . فلمّــا أراد أن ينــام قال لأصحابه : إذا صاح الدّيك فأيقظونا حتى نَدَّلِج . فقــالوا له : وهل تركتَ ديكا يُسمَع صــوته ؟ وأنت هل تركتَ فى الأرض عالمــا ؟! فآزداد طالوتُ حُزنا وبكاء؛ فلمّــا رأى الجبّار ذلك قال له : أرأيتَك إن دللتُــك على عالم لعلّك أن تقتله ؟ قال لا . فتوثّق منه الجبّار وأخبره أنّ المرأة العالمةَ عنده ؛ قال : فآنطلِقْ بى إليها حتى أسألَهــا هل لى من توبة ؟ — وكان إنمــا يعلم ذلك أهــلُ بيت لهم علمٌ بالآسم الأعظم —(٢) فلمّا بلغ طالوتُ البابَ قال له الجبّار : إنها إن رأتك فزِعتْ ، نخلّفه خَلْفَه، ثم دخل عليها فقال لها : ألستُ أعظمَ عليك حُرمة ، أنجيتُكِ من القتــل وآويتُكِ عنــدى ؟ قالت بلى . قال : فإنّ لى إليك حاجة . قالت :

(١) التكلة من قصص الأنبياء للثعلبى .

(٢) عبارة الثعلبى : « وكانت تعــلم الآسم الأعظم، وكان إنمــا يعلم بهذا الآسم أهل بيت لها فنيت رجالهم وعلمت نساؤهم » .

وما هي ؟ قال : هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فقالت : لا وآلله ما لطالوت من توبة ، ولكن هــل تعلمون مكانَ قَبرِ أشمويل ؟ قال نعم . قالت : فآنطلقوا بى إلى قبره ، ففعلوا ، فصلَّت ثم نادت : يا صاحب القبر أُخرج . فخرج أشمويل من قبره ينفُض رأسَه من التراب . فلمّا نظر إليهم ثلاثتهم . المرأةِ والجبّار وطالوت قال : مالكم ! أقامت القيامة؟ قالت : لا ، ولكنّ طالوت يسألكَ هل له من توبة؟ قال أشمويل : ياطالوت ، ما فعلتَ بعدى؟ قال : لم أَدَع من الشرّ شيئا إلّا فعلتُه ، وقد جئت أطلب التوبة . قال : كم لك من الولد ؟ قال : عشرة رجال . قال : ما أعلم لك من توبة إلّا أن تتخـلّى عن مالك وتخرجَ أنت وولدُك فى سـبيل الله ، ثم تُقدِّم ولدَك حتى يُقتَـلوا بين يديك ، ثم تُقَاتِلَ أنت حتى تُقتَلَ آخرهم . ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميّتا ، ورجـع طالوت أحزنَ ما كان ، رهبـةَ ألّا يتابعَه أولادُه ، وقد بكى حتى سقطت أشفارُ عينيه ، ونحَل جسمُه . فدخل عليه أولاده فقال لهم : أرأيتم لو دُفِعتُ إلى النار هل كنتم تنقذوننى ؟ قالوا : بلى ، ننقذك بمـا قدَرنا عليــه . قال : فإنهـا النار إن لم تفعلوا ما أقول . قالوا : فآعرِضْ علينا ، فذكَر لهم القصـــة . قالوا : فإنك لمقتول؟ ! قال نعم . قالوا : فلا خير لنا فى الحياة بعدك ، قد طابت أنفسُنا بالذى سألتَ . فتجهّزَ للغزْو بماله وولده ، فتقـدّم ولدُه فقاتلوا بين يديه حتى قُتلوا ؛ ثم تقدّم فقاتلَ بعدهم حتى قُتل . فجاء قاتله إلى داود يبشّره وقال : قد قتلتُ عدوّك . فقال داود : ما أنت بالذى تحيا بعده . فضرب عنقَه .

وحكى الكسائىّ : أنّ طالوت لمّـا حسد داود على ما أُوتى من القوّة ، وهمّ بالغدر مرارا فلم يَظفَر به وظفر به داود فأَبقَى عليه ، آعتذر له طالوت وآتفقا ؛ ثم مات أشمويل ، فآنضمّ بنو إسرائيل إلى داود وآختلفوا على طالوت وحاربوه ؛ فآستقلّ داود بالمُلك ، وجاهدَ بنى إسرائيل وقهر الأعداء . والله تعالى أعلم بالصواب ، و إليه المرجع والمآب .

ذكر خلافة داود عليه السلام ونبوّته ومبعثه إلى بنى اسرائيل وما خصه الله عزّ وجل به

هو داود بن إيشى[1] بن عويل بن باعد بن سلمون بن يحسون بن عمى بن مارب آبن أَرَم بن حَضْرُون بن فارَص بن يَهُوذَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل — عليهم السلام — قال الله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾[2] قال الكسائى : لمّا مات أشمويل تفرّق بنو إسرائيل وآشتغلوا باللهو، فبعث الله تعالى داود — عليه السلام — وأعطاه سبعين سطرا من الزّبور، وأعطاه حُسن الصوت، فكان إذا سبّح سبّحت الجبال معه والطير والوحش؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[3] أى مطيع.

وقال أبو إسحاق الثعلبى : قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لمّا آستُشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطَوْه خِزانة طالوت وملّكوه على أنفسهم، وذلك بعد قتل جالوت بسبع سنين، ولم يجتمع بنو إسرائيل بعد يُوشَع بن نُون على ملِكٍ واحدٍ إلّا على داود عليه السلام.

قال : وخصّ آلله تعالى نبيّه داود بخصائص :

منها : أنه أنزل عليه الزّبور بالعبرانية خمسين ومائةَ سورة ، فى خمسين منها ما يكون من بُخْتَنَصَّر وأهلِ بابِل؛ وفى خمسين ما يكون من أهل إبْرُون؛

(١) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٥٦١ من القسم الأوّل) والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٥٧) وذكر أنه بكسر الهمزة . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٤٧٢) : « يسى » بفتح الياء والسين المشدّدة . وقد ورد نسب داود — عليه السلام — فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٢) هكذا : « داود بن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن أرام بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام » . وورد نسبه فى تاريخ الطبرى (ص ٥٥٩ من القسم الأول) هكذا : داود بن إيشى بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن عمى ناذب ابن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم » .

(٢) سورة ص آية ٢٦ (٣) سورة ص آيتى ١٨، ١٩

وفى خمسين منهـا موعظة وحكمة ؛ ولم يكن فيهـا حلال ولا حرام ، ولا حدود ولا أحكام ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا[١] ﴾ .

ومنهـا : الصوت الطيّب ، والنغمة اللذيذة ، والترجيع فى الألحان ؛ ولم يُعْطِ الله تعالى أحدا من خَلقه مثلَ صوته ، فكان يقرأ الزَّبور بسبعين لحنـا بحيث يَعرَق المحموم ويُفيق المَغْشِيّ عليه .

١٢٧/١١ وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرّيّة ، فيقوم ويقرأ ويقوم معه علماء بنى إسرائيل خَلْفَه ، ويقوم الناس خلفَ العلماء ، وتقوم الجنّ خلفَ الناس ، وتقوم الشياطين خلف الجنّ ، وتدنو الوُحوش والسباع حتى تؤخذ بأعناقها ، وتُظِلّه الطيرُ مُصيخة[٢] ، ويركُد المـاء الجارى ويسكن الريح .

قال الثعلبيّ : وما صُنعت المزامير والبرابط[٣] والصُّنوج إلّا على صـوته ، وذلك أنّ إبليس حسده وآشتدّ عليـه أمره ، فقال لعفاريته : ترون ما دهاكم؟ فقالوا : مُرنا بما شئتَ . قال : فإنه لا يصرف الناسَ عن داود إلّا ما يُضادّه ويُحادّه[٤] فى مثل حاله . فهيّأ المزامير والأعواد والأوتار والملاهىَ على أجناس أصوات داود — عليه السلام — فسمِعَها سفهاء الناس فمالوا إليها وآغترّوا بها .

ومنها : تسبيح الجبال والطير معــه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَــدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ[٥] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ[٦] ﴾ . يقال : إن داود كان اذا تخلّل الجبالَ يسبّح اللهَ تعالى جعلت الجبالُ

(١) سـورة النساء آية ١٦٣ (٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى المخطوطة . ومصيخة أى مصغية مستمعة . وفى الأصل : « مسبحة » وهو تحريف .

(٣) البرابط : العيدان . (٤) يحادّه : يعاديه .

(٥) سورة سبأ آية ١٠ (٦) سورة ص آية ١٨

تجاوبه بالتسبيح نحوَ ما يسبِّح . ثم قال فى نفسه ليلةً من الليالى : لأعبُدنَّ ٱللهَ عبادةً لم يُعْبَد مثلَها ، فصعِد الجبلَ ، فلمّا كان فى جوف الليل وهو على جبل داخلته وَحْشة ، فأوحى الله إلى الجبال : أن آنِسِى داود ، فٱصطكّت الجبالُ بالتسبيح والتهليل . فقال داود فى نفسه : كيف يُسمع صوتى مع هذه الأصوات ؟ فهبَط عليه ملَك وأخذ بعَضُده حتى انتهى به إلى البحر، فوكَزَه برجله فانفرج له البحر، فانتهى إلى الأرض فوكزها برجله فانفرجت له الأرض ، حتى انتهى إلى الحوت فوكزه برجله ، فانتهى الى الصخرة ، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت فخرجت منها دودة تَنِش(١) ، فقال : إن الله تعالى يسمع نَشِيش هذه الدودة فى هذا الموضع . قال ٱبن عباس — رضى الله عنهما — : كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر .

ومنها : أن الله تعالى أكرمه بالحكمة وفصل الخطاب . قالوا : والحكمة : الإصابة فى الأمور . واختلفوا فى فصل الخطاب، قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : بيان الكلام . وقال ابن مسعود والحسن : المعنى علمُ الحُكْمِ والنظرُ فى القضاء، كان لا يَتتعتَع(٢) فى القضاء بين الناس . وقال علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — : هو البيّنة على المدّعِى وٱليمينُ على المدّعَى عليه . وقال كعب : الشهود والأيمان . وقال الشعبىّ : سمعتُ زيادا يقول : فصل الخطاب الذى أُعطِىَ داود : أمّا بعد . قال الأستاذ : وهو أوّل من قالها .

ومنها : السلسلة التى أعطاه الله إيّاها، ليَعرِف المُحِقَّ من المبطل فى المحاكمة إليه . قال الثعلبىّ : روى الضحّاك عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : إنّ الله تعالى أَعطى داود سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك، ورأسها عند محراب داود

(١) تنش : تصوّت .

(٢) يتتعتع : يتردّد .

حيث يُتحاكَم إليه، وكانت قوّتها قوّةَ الحديد، ولَوْنُها لونَ النار، وحَلَقُها مستديرة، مفصَّلةً بالجوهر، مدسَّرة بقُضبان اللؤلؤ الرَّطْب، فلا يحدث فى الهواء حَدَث إلّا صلصلت السلسلةُ، فيعلم داود ذلك الحَدَث؛ ولا يلمَسها ذو عاهة إلّا برىءَ، وكان علامة دخول قومه فى الدّين أن يمسّوها بأيديهم ويمسحوا بأكفّهم على صدورهم . وكانوا يتحاكمون إليه، فمن تعدّى على صاحبه أو أنكره حقا أتَوُا السلسلة، فمن كان صادقا مُحقّا مدّ يده إلى السلسلة فنالها، ومن كان كاذبا ظالما لم ينَلها؛ فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة .

قال : فبلَغنا أن بعض ملوكهم أودعَ رجلا جوهرةً ثمينة، فلمّا آستردّها منه أنكره ذلك، فتحاكما إلى السلسلة، فعلم الذى كانت عنده الجوهرة أن يده لا تَنال السلسلة، فعمَد إلى عُكّازة فنقَرها ثم ضمّنها الجوهرة وآعتمد عليها حتى حضر معه غريمه[١] عند السلسلة، فقال لصاحبها : ما أعرِف لك من وديعة، إن كنتَ صادقا فتناوَل السلسلة، فتناولَها بيده وقال للمنكِر : قم أنت أيضا فتناوَلْها، فقال لصاحب الجوهرة : إلزمْ عُكّازتى هذه حتى أتناول السلسلة . فأخذها وقام الرجل وقال : اللهم إن كنت تعلم أنّ هذه الوديعة التى يدّعيها علىّ قد وصلتْ إليه فقرِّب منّى ١٢٨/١١ السلسلة . فمدّ يده وتناوَلها، فشكّ القومُ وتعجّبوا، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة .

وقال الكسائىّ فى خبر السلسلة : أوحى الله تعالى إلى داود أن ينصِب سلسلةً من حديد ويعلّق فيها جرسا، ففعل ذلك؛ وساق فى خبرها نحو ما تقدّم فى أمر المُحقّ والمُبطل .

---

(١) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « حتى حضروا الى السلسلة » .

قال : وجاء خَصمان فادّعى أحدُهما على الآخر أنه أودعه جوهرا ؛ فاعترف به وقال : أعدتُه إليه ، فتقدّم المدّعي وتناولَ السلسلة فدنت منه حتى تناولَها ، ثم قال للمدّعَى عليه : تناوَلْها . وكان قد أخذ الوديعة فجعلها فى قَناة مجوّفة ، فناولها للمدّعي وقال : الزمْ عصايَ هـذه ، ومدّ يده إلى السلسلة فدنت منه حتى كاد يتناولها ؛ ثم آرتفعت وتدلّت إليه مرارا ، ثم تناولَها ، فقال داود للمدّعي : لعلّ هـذا قد سلّم وديعَتك لأهلك . فرجع وسأل أهلَه ، فقالوا : مادَفَع إلينا شيئا . فعاد وأعلَم داود ، فأخذ داود القَناة وشقّها ، فطلعتْ الوديعةُ منها ؛ وآرتفعت السلسلةُ من ذلك اليوم.

قال الثعلبيّ : وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنـه — إذا آشتبه عليـه أمر الخَصْمَين قال : ما أحوجَكما إلى سلسلة بنى إسرائيل؟ كانت تأخذ بعنُق الظالم فتجرّه إلى الحق جرّا . والله أعلم بالصواب .

ومنها : القوّة فى العبادة وشدّة الآجتهاد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ (١) ، أى القوّة فى العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى توّاب مطيع مسبّح .

وكان داود يقوم الليل ، ويصوم يوما ويُفطِر يوما ، وما مرّت ساعةٌ من الليل إلّا وفيها من آل داود قائم يصلّى ، ولا يومٌ من الأيام إلّا وفيه منهم صائم .

ومنها : قوّة المملكة . قال الله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ (٢) أى قوّيناه ، وقرأ الحسن : (وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ) بالتشديد . قال آبن عباس : كان أشدّ ملوك الأرض سلطانا ؛ كان يحرس محرابَه كلَّ ليلة ثلاثةٌ وثلاثون ألف رجل . وقال السُّدّىّ : كان يحرسه فى كل يوم وليلة أربعةُ آلاف .

(١) سورة ص آية ١٧

(٢) سورة ص آية ٢٠

ورُوى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رجلا من بنى إسرائيل آستَعْدَى على رجل من عظمائهم عند داود؛ فقال المستعدِى : إن هذا قد غصبنى بقرى [١] . فسأل داودُ الرجلَ فجحدَه، وسأل الآخرَ البيّنة فلم تكن له بيّنة، فقال لهما داود : قُوما حتى أنظرَ فى أمركما . فقاما من عنده، فأوحَى اللهُ تعالى إلى داود فى منامه أن يقتل الذى آستُعدِى عليه، فقال : هذه رؤيا [ولستُ أعجل حتى أتبيّن [٢]] فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية أن يقتله [فقال : هذه رؤيا، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله [٢]] أو تأتيه العقوبة من الله . فأرسل داود إلى الرجل فقال : إن الله تعالى قد أوحى إلىّ أن أقتلك . فقال : تقتلنى بغير بيّنة ولا تثبُّت؟ . فقال نعم، والله لأُنفِذنّ أمرَ الله فيك . فلمّا عرف الرجل أنه قاتلُه قال : لا تَعْجَل حتى أخبرَك، إنّى والله ما أُخِذتُ بهذا الذنب، ولكنّى [كنتُ [٢]] اغتلتُ والدَ [٣] هذا فقتلتُه . فأمر به داودُ فقتل ؛ فآشتدّت هيبتُه عند بنى إسرائيل وآشتدّ ملكه .

ويقال : كان لداود إذا جلس للحكم عن يمينه ألفُ رجل من الأنبياء، وعن يساره ألفُ رجل من الأحبار .

ومنها : شدّة البطش . فرُوِىَ أنه ما فرّ ولا آنحاز من عدوّ له قطّ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن داود عليه السلام : "كان يصوم يوما ويُفطِر يوما" [٤] .

---

(١) فى نسخة الثعلبي المخطوطة والمطبوعة : « بقرتى » .

(٢) التكملة عن الثعلبي .

(٣) فى نسخة الثعلبي المطبوعة : « ولد » .

(٤) هذا الحديث ورد فى الأصلين فى هذا الموضع ولا محل له فى الكلام هنا، وقد خلت منه نسختا الثعلبي المخطوطة والمطبوعة ، وكان الأولى أن يذكره أثناء كلامه على داود فى قوة العبادة وشدّة الاجتهاد .

ومنها : إلانةُ الحديد له . قال الله تعالى :﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ﴾[1] . قالوا : وكان سبب ذلك أنّ داود — عليه السلام — لمّا ملك أمرَ بنى إسرائيل، كان من عادته أن يخرج للناس متنكّرا، فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدّم إليه وسأله، فيقول له : ما تقول فى داود واليكم هذا؟ أىّ رجل هو ؟ فيُثنون عليه و يقولون خيرا؛ فبينما هو ذاتَ يوم إذ قيّض الله له مَلَكا فى صورة آدمىّ، فتقدّم داود إليه، فسأله على عادته، فقال له : نِعْم الرجلُ هو لولا خَصْلة فيه. فراع داودَ ذلك، فقال : ماهى ياعبدَ الله ؟ قال : إنه يأكل ويُطعِم عيالَه من بيت المال . قال : فتنبّه داود لذلك ، وسأل اللهَ تعالى أن يسبّب له سببا يستغنى به عن بيت المال، فألانَ الله له الحديد، فصار فى يده مثلَ الشَّمْع والعجين والطّين المبلول، فكان يصرّفه بيده كيف شاء من غير إدخال نار ولا ضربٍ بحديد .

وعلّمه الله تعالى صنعةَ الدروع فهو أول من اتّخذها وكانت قبل ذلك صفائح. وقيل : إنه كان يبيع كل دِرْع منها بأربعة آلاف ، فيأكل ويُطعِم عياله ويتصدّق ١٢/١ منها على الفقراء والمساكين، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾[2] الآية . وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ أى دروعا كواملَ واسعاتٍ ﴿ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ﴾، أى لاتجعل المسامير دقاقا فتنفلق، ولا غِلاظا فتكسِر الحَلَق. فكان يفعل ذلك حتى جمع منه مالا .

ورُوِى أنّ لقمان الحكيمَ رأى داود وهو يَعمل الدّروع ، فعجب من ذلك ولم يدر ما هو ؟ فأراد أن يسأله ، فسكت حتى فَرَغ داود من نسج الدروع، فقام وصبّها على نفسه وقال : نِعْم القميصُ هذا للرجل المحارب . فعلِم لقمانُ ما يراد به، فقال : الصمت حكمة وقليلٌ فاعلهُ . والله أعلم .

(١) سورة سبأ آية ١٠ (٢) سورة الأنبياء آية ٨٠

ذكر خبر داود عليه السلام حين آبتُلى بالخَطيئة

قال الثعلبيّ — رحمه الله — : اختلف العلماء فى سبب آمتحان الله تعالى نبيّه داود — عليه السلام — فقيل : إنه تمنّى يوما من الأيام على ربّه تعالى منزلة آبائه إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ الذى كان يمتحنهم به، ويعطيَه من الفضل نحوَ الذى أعطاهم. قال: ورَوَى السُّدّىّ والكلبيّ ومُقاتِل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى حديث بعض، قالوا : كان داود — عليه السلام — قَسَمَ الدهرَ ثلاثةَ أيام[1] : يوما يَقضِى فيه بين الناس، ويوما لعبادة ربّه، ويوما يخلو فيه بنسائه وأولاده وأشغاله ؛ وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب — عليهم السلام — فقال : يا ربّ إنّ الخير كلّه ذهب به آبائى الذين كانوا من قبلى . فأوحى الله تعالى إليه : أنهم ابتلُوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها فصبَروا عليها ؛ آبتُلِيَ إبراهيمُ بالنُّمرود وبذبح آبنه، وآبتُلِيَ إسحاقُ بالذّبح وبذَهاب بصره، وآبتُلِيَ يعقوبُ بالحُزن على يوسف، وإنك لم تُبْتَلَ بشيء من ذلك . فقال داود عليه السلام : ربّ فآبتَلِنِى بمثل ما آبتليتَهم وأَعطنى مثلَ ما أعطيتَهم . فأوحى الله تعالى إليه : إنك مُبتلًى فى شهر كذا فى يوم كذا فآحترِس . فلمّا كان ذلك اليوم الذى وعده الله عز وجل دخل داود محرابَه وأغلقَ بابه، وجعل يصلّى ويقرأ الزبور، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان، تمثّل له فى صورة حمامةٍ من ذهب، فيها من كل لونٍ حَسَنٍ ؛ فوقعت بين رجليه، فمدّ يدَه ليأخذها . وفى بعض الروايات : « ليدفعها إلى آبن له صغير » ، فلمّا أهوَى إليها طارت غيرَ بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ؛ فامتدّ إليها ليأخذها، فتنحّت، فتبعها فطارت حتى وقعت [فى كُوّة][2]، فذهب ليأخذها

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصلين : « أقسام » .

(٢) التكملة عن الثعلبى .

فطارت من الكُوّة ؛ فنظر داود عليه السلام أين تقع فيبعثُ إليها من يصيدها ؛ فأبصرَ آمرأةً في بستان على شطّ بِركةٍ لها تغتسل، هذا قول الكلبيّ. وقال السُّدّيّ: رآها تغتسل على سطح لها . وقال الكسائيّ : سقط الطائر على شجرة إلى جانب الحوض الذي تغتسل فيه نساءُ بني إسرائيل . قالوا : فرأى داودُ آمرأةً من أجمل النساء خَلْقا ، فعجب من حُسنها ، وحانت منها آلتفاتة ، فأبصرت ظِلّه ، فنفضتْ شَعرها فتغطّى بدنُها ، فزاده ذلك إعجابا بها ؛ فسأل عنها ، فقيل هي بَتْشَابَعُ بنتُ سالغ[1] ، آمرأة أُورِيّا بن حُنانا ، وزوجها في غزاةٍ بالبلقاء[2] بُعث مع يوآب[3] ابن صَرُوِيَة آبن أخت داود ، فكتب داود إلى آبن أخته : أن آبعث أُوريّا إلى موضع كذا وكذا، وقدِّمه قبلَ التابوت ؛ وكل من قُدِّم على التابوت لا يحلّ له أن يرجع وراءه [حتى يفتح الله على يديه[4]] أو يُستشهَد ، فبعثه أيوب وقدَّمه ، ففُتِح له ، فكتب إلى داود بذلك ؛ فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا وكذا. فبعثه، ففُتِح له ؛ فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه أيضا : أن آبعثه إلى عدوّ كذا أشدَّ منه بأسا . فبعثه ؛ فقتِل في المرّة الثالثة . فلمّا آنقضت عِدّة المرأة تزوّجها داود — عليه السلام — وهى أمّ سليمان عليه السلام .

وقال آخرون : كان سببُ آمتحانه أن نفسَه حدّثته أنه يُطيق قطع يوم بغير مقارفة سوء .

---

(١) كذا في قصص الأنبياء للثعلبي المخطوطة ، وفي المطبوعة « سابغ بنت شائع » . وفي الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٥٧) : « بتشابع بنت أليعام » . وفي الأصول : « ميشايع بنت سايع » .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى . قصبتها عمان .

(٣) كذا في الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٣) . وفي الأصول : « أيوب بن صوريا » . وانظر الحاشية رقم ٣ ص ٧١ من هذا الجزء .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للثعلبي .

وقد رَوَى الثعلبيّ فى ذلك بسند [سعيد بن](١) مطر عن الحسن قال : إن داود — عليه السلام — جزّأ الدهرَ أربعةَ أجزاء : يوما لنسائه، و يوما للعبادة، و يوما للقضاء بين الناس، و يوما لبنى إسرائيل(٢) يذاكرهم و يذاكرونه، و يُبْكِيهم و يُبكونه. فلمّا كان يوم بنى إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتى على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا؟ فأضمر داود فى نفسه أنه سيُطيق ذلك. فلمّا كان يومُ عبادته غلّق أبوابه، وأمر ألّا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزَّبور؛ فبينما هو يقرأ إذا حمامةٌ من ذهب فيها من كل لونٍ حَسَن وقد وقعت بين يديه. فأهوَى إليها ليأخذها، فطارت فوقعت غيرَ بعيد، ولم تؤيسه من نفسها، فما زال يتبعها حتى أشرف على ١٣٠/١١ آمرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقُها؛ فلمّا رأت ظِلّه فى الأرض جلّلت نفسَها بشَعرها، فزاده ذلك إعجابا بها؛ وكان قد بَعث زوجَها على بعض جيوشه، فكتب إليه : أن سِرْ إلى مكان كذا وكذا — مكان إذا سار إليه قُتِل ولم يرجع — ففعل، فأُصيب. فخطبها داود وتزوّجها.

وقال بعضهم فى سبب ذلك ما رواه أبو إسحاق بسنده عن قَتَادة عن الحسن قال : قال داود — عليه السلام — لبنى إسرائيل حين مَلك : والله لأَعدلنّ بينكم. ولم يستثن؛ فٱبتُلِىَ.

وقال أبو بكر الورّاق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة، فأعجب بعمله وقال : هل فى الأرض أحدٌ يعمل عملى؟ فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله عز وجل يقول : أَعجِبتَ بعبادتك والعجب

(١) التكملة عن الثعلبىّ.

(٢) كذا فى قصص الأنبياء للثعلبى. وفى الأصل : « بنى إسرائيل ».

يأكل العبادة ، فإن أعجبتَ ثانيا وَكَلْتُكَ إلى نفسك . فقال : يا ربِّ كِلْنى إلى نفسى سنة . قال : إنها لكثيرة . قال : شهرا . قال : إنه لكثير . قال : فأسبوعا . قال : إنه لكثير . قال : فيوما . قال : إنه لكثير . قال : فساعة . قال : فشأنك بها . فوكّل الأحراس ولَبِس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينما هو فى نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه ؛ وكان من أمر المرأة ما كان .

قالوا : فلمّا دخل داود عليه السلام بامرأة أُوريّا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله عز وجل مَلَكين فى صورة إنسيّين ، يطلبان أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ؛ فتسوّروا المحراب عليه ، فما شعر وهو يصلّى إلّا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[(١)] ﴾ أى تجر ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ[(٢)] * ﴾ أى وسط الطريق ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ كنى بالنّعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك . ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾. قال ابن عبّاس : أعطنيها . وقال ابن جُبَير عنه : تحوّل لى عنها . وقال أبو العالية : ضُمَّها إلىّ حتى أكفُلَها . وقال ابن كَيْسان : إجعَلْها كِفْلى . أى نصيبى . ﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ[(٣)] ﴾ ، أى غلبنى . وقرأ عُبَيد بن عُمَير : وعازّنى ، من المعازّة ، وهى المغالبة . قال داود : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾

(١) سورة ص آية ٢١
(٢) سورة ص آية ٢٢
(٣) سورة ص آية ٢٣

أى الشركاء ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[1]. وروى السُّدِّىّ أن أحدهما لما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ الآية، قال داود — عليه السلام — للآخر : ما تقول ؟ قال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ولأخى هذا نعجةٌ واحدة، وأنا أريد أن آخذها منه فأكمّل نعاجى مائة وهو كاره . قال داود : وهو كاره ؟ قال نعم . قال : إذًا لا ندعُك وذلك ، وإن رُمْتَ ذلك ضربْنا منك هذا وهذا، يعنى طَرَف الأنف وأصلَ الجَبهة . فقال : يا داود، أنت أحقُّ أن يُضرَبَ منك هذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأُورِيَاء إلا امرأةٌ واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قُتل وتزوجتَ امرأته . فنظر داود — عليه السلام — فلم يَرَ أحدا، فعرف ما قد وقع فيه ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ أى أيقن ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أى ابتليناه . قال سعيد بن جُبَير : إنما كانت فتنة داود النظر . قال الثعلبىّ : ولم يتعمد النظرَ إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر اليها فصارت عليه[2] .

قال : فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير فى قصة امتحان الله تعالى داود عليه السلام . وقد رُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القُصّاص معتقدا صحته جلدتُه حدَّين لعظيم ما ارتكَب وجليل ما احتقَب[3] من الوِزْر والإثم، يَرمى مَنْ قد رفع الله محلَّه وأنابه من خلقه رحمةً للعالمين وحجةً للمجتهدين » ! .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين فى هذه القصة : إن ذنب داود — عليه السلام — إنما كان أنه تمنّى أن تكون له امرأةُ أُورِيَاء حلالًا له، وحدّث نفسه بذلك، فاتفق

(١) سورة ص آية ٢٤

(٢) وذلك مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وعليك الأخيرة » .

(٣) احتقب الشىء : احتمله خلفه . ويريد هنا اكتسب الإثم .

غَزْو أُورِيّاء وتقدُّمُه فى الحرب وهلاكُه . فلمّا بلغه قتلُه لم يجزَع عليه ولم يتوجّع له كما [كان][1] يجزَع على غيره من جُنده إذا هلك، [ووافق قتله مُرادَه، ثم تزوّج آمرأته فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت][1] فهى عظيمة عند الله تعالى.

وقال بعضهم : ذنب داود أن أُورِيّاء كان قد خطب تلك المرأةَ ووطّن نفسه عليها، فلما غاب فى غَزاته خطبها داود، فتزوّجت منه لجلالته؛ فاغتمّ لذلك أُورِيّاء غمًّا شديدا، فعاتبه الله تعالى على ذلك، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأوّل، وقد كانت عنده تسع وتسعون آمرأة.

قالوا : فلما علم داود أنه آبتُلِىَ سجد فمكث أربعين ليلةً ساجدًا باكيا حتى نبت الزرعُ من دموعه، وأكلت الأرض من جبينه، وهو يقول فى سجوده : ربِّ داودَ زل داودُ زَلّةً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربِّ إن لم ترحم ضَعْفَ داود وتَغفِرْ ذنبَه جعلتَ ذنبَه حديثًا فى الخُلُوف من بعده . فجاء جبريل — عليه السلام — بعد أربعين ليلة فقال : يا داود، إن الله تعالى قد غَفَر لك الهمّ الذى هَمَمْتَ به . فقال داود : عرفتُ أن الربّ قادر على أن يغفر لى، وقد عرفتُ أن الله عَدْلٌ لا يَميل، فكيف بفلان إذا جاء يومَ القيامة فقال : يا ربّ، دمى الذى عند داود؟ فقال جبريل : ما سألتُ ربك عن ذلك، ولئن شئتَ لأفعلنّ . قال نعم . فعرَج جبريل — عليه السلام — وسجد داود فمكث ما شاء الله، ثم نزل جبريل فقال : قد سألتُ ياداود ربّك عن الذى أرسلتَنى فيه فقال : قل لداود : إن الله يجمعكما يوم القيامة، فيقول له : هَبْ لى دَمَك الذى عند داود؛ فيقول : هو لك ياربِّ، فيقول : فإن لك فى الجنة ما شئتَ وما آشتهيتَ عوَضًا .

١٣١/١١

(١) التكملة عن الثعلبى .

ورَوَى الثعلبيّ بسند رفعه إلى آبن عبّاس وكعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه ، قالوا جميعا : إن داود — عليه السلام — لما دخل عليه المَلَكان فقَضَى على نفسه تحوَّلَا عن صورتهما ، فعرَجا وهما يقولان : قَضَى الرجل على نفسه . وعلم داود أنه عُنِيَ به ، فخرّ ساجدًا أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب ولا يرفع رأسه إلّا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجدا ، لا يرفع رأسه إلّا لحاجة لا بدّ منها ثم يعود ، فسجد تمامَ أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكى حتى نبت العُشْبُ حول رأسه ، وهو ينادى ربه — عزّ وجل — ويسأله التوبة ، ويدعو بدعاء طويل ذكره الثعلبيّ(١) ، فى آخر كل كلمة منه : سبحان خالقِ النور .

قال : فأتاه نداء : يا داود ، أجائع أنت فتُطْعَم ، أظمآنٌ أنت فتُسْقَى ، أمظلوم أنت فتُنْصَر ، ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشيء . فصاح صيحةً هاج منها ما حوله ؛ ثم نادى : يارب الذنب الذى أصبتُه . فنُودِيَ : ياداود ، ارفع رأسك فقد غفرتُ لك . فلم يرفع رأسه حتى جاء جبريل — عليه السلام — فرفعه .

قال وَهْبٌ : إن داود — عليه السلام — أتاه نِدَاء : إنِّى قد غفرتُ لك . قال : يارب ، كيف وأنت ، لاتظلِم أحدا؟ قال : اذْهَبْ إلى قبر أُورِيَاء ، فنادِه وأنا أُسمِعه نداءك ، فتحلَّلْ منه . فانطلَقَ حتى أتى قبرَه وقد لبِس المُسوح ، فجلس ثم نادى : يا أورِيّاء . فقال : لَبيّك ، مَن هذا الذى قطَع علىّ لذّتى وأيقظنى؟ قال : أنا داود . قال : ما جاء بك يا نبيَّ الله؟ قال : أسألك أن تجعلنى فى حِلّ مما كان منّى إليك . قال : وما كان منك إلىّ؟ قال : عرّضتُك للقتل . قال : عرّضَتنى للجنّة ،

---

(١) سيأتى فى الصفحة التالية بعض هذا الدعاء .

فأنت فى حلٍّ . فأوحى الله تعالى إليه : يا داود، ألم تعلم أنى حَكَمٌ عدلٌ لا أقضى بالغيب والتغرير[١] ! ألّا أعلمته أنك قد تزوجت آمرأته ! .

قال : فرجع إليه فناداه، فأجابه فقال : من هذا الذى قَطَع علىّ لذّتى؟ قال : أنا داود . قال : يانبىّ الله، أليس قد عفوتُ عنك! قال : نعم، ولكن إنما فعلتُ ذلك لمكان آمرأتك فتزوّجتُها ، فسكت ولم يُجبه، وعاوَدَه فلم يجبه، فقام عند قبره وحثا[٢] التراب على رأسه ثم نادى : الويلُ لداود ثم الويلُ لداود إذا نُصبت الموازين القِسْطُ [ليوم القيامة][٣]، سبحان خالقِ النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُؤْخَذ بذَقنه فيُدفع إلى المظلوم، سبحان خالقِ النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يُسْحَبُ على وجهه مع الخاطئين إلى النار، سبحان خالق النور . الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرِّبه الزبانية مع الظالمين إلى النار ، سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء من السماء : ياداود، قد غفرت لك ذنبك، ورَحِمتُ بكاءك، وآستجبتُ دعاءك ، وأقلتُ عَثْرتك . قال : يارَبِّ ، كيف لى أن تعفو عنّى وصاحبى لم يعفُ عنّى؟ قال : ياداود ، أُعطيه يوم القيامة ما لم تَرَ عيناه ، ولم تَسمع أذناه ، فأقول له : رَضِيت عبدى ؟ فيقول : يا ربِّ ، من أين لى هــذا ولم يبلُغه عملى؟ فأقول له : هذا عِوَض من عبدى[٤] داود، فأَستوهبُك منه فَيَهَبُك لى . قال : يارب، الآن قد عرفتُ أنك قــد غفرتَ لى . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ[٥] * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾، أى ذلك الذنب ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ[٦] ﴾ أى وإنّ له بعد المغفرة عندنا يومَ القيامة حُسْنَ مرجع .

(١) كذا فى نسخة الثعلبي المخطوطة . وفى المطبوعة : «إلا بالحق» . وفى الأصول : «بالتعنت» .
(٢) كذا فى الثعلبي . وفى الأصول : « وجعل التراب » .
(٣) التكملة عن نسخة الثعلبي المطبوعة .
(٤) أى من أجل عبدى داود .
(٥) سورة ص آية ٢٤
(٦) سورة ص آية ٢٥

قال الثعلبيّ ورفَعَه إلى وهب بن مُنَبِّه قال : إن داود — عليه السلام — لما تاب اللهُ تعالى عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنةً لا تَرْقَأُ له دمعةٌ ليلا ولا نهارا، وكان أصاب الخطيئة وهو ٱبن سبعين سنة ، فقسَم الدهرَ بعد الخطيئة على أربعة أيام ، فجعل يوما للقضاء بين بنى إسرائيل، ويوما لنسائه، ويوما يَسِيحُ فى الفيافى والجبال والساحل ، ويوما يخلو فى دار له فيها أربعةُ آلاف محراب ؛ فيجتمع إليه الرُّهبان، فينوح معهم على نفسه ، ويساعدونه على ذلك . فإذا كان يومُ سياحته ١٣٢/١١ يخرج فى الفيافى ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى وتبكى معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يَسِيلَ من دموعهم مثلُ الأنهار ؛ ثم يجىء إلى الساحل فيبكى وتبكى معه الحِيتان ودوابُّ البحر والسباعُ وطيرُ الماء، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم نَوْحه نادَى مُنادٍ : إن اليوم نوح داود على نفسه فليَحْضُرْ مَن يساعده . قال : فيدخل الدارَ التى فيها المحاريب، فتُبْسَط له فُرُشٌ من مُسوح حَشْوُها ليف فيجلس عليها ، ويجىء الرُّهبان وهم أربعة آلاف ، عليهم البرانس وفى أيديهم العِصِىّ، فيجلسون فى تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالنَّوح والبكاء، ويرفعُ الرهبانُ معه أصواتَهم، فلا يزال يبكى حتى تَغْرق الفُرُش من دموعه، ويقعَ داود مثلَ الفَرْخ يضطرب، فيجىء ٱبنُه سليمانُ فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفَّيه ، ثم يمسح بها وجهه ويقول : يارب ٱغفر ما تَرَى . قال : فلو عُدِلَ بكاءُ داودَ ببكاء أهل الدنيا لَعَدَلَه .

وقال ثابت : ماشرب داود شرابا بعد المغفرة إلّا ونصفُه ممزوجٌ بدموع عينيه.

وعن الأوزاعىّ قال : بلغنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : " خدت الدموعُ فى وجه داود — عليه السلام — خَديد الماء فى الأرض " .

ذكر ميلاد سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ: كان لداود — عليه السلام — عِدّةٌ من الولد، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولدًا يرث مُلْكَه؛ فرزقه الله تعالى سليمان . فنُودىَ إبليس عند ما حَمَلَتْ به أمه : ياملعون، قد حُمِل فى هذه الليلة برجل يكون طولُ حزنك على يديه، و يكون أولادُك له خُدّاما . ففزِع من ذلك وجمع الشياطين وأخبرَهم بأمر المولود وما سمعه وقال : إنه لا يكون إلّا من داود، فإنه خيرُ أهل الأرض.

قال : فلما وضعتْه أمه أتت الملائكةُ إلى داود وقالوا : أقرّ الله عينَك به . فبادر داود إلى منزله فرأى أعلام الملائكة منصوبةً، فخرّ داود شكرا لله تعالى، وقرّب قُربانا عظيما. ثم جاءه إبليس وقال: يا داود، أقرّ الله عينَك بولدك، غير أنه يقتلك ويَسلُبك مُلْكك . فاقتُله صغيرا وإلّا قتَلك كبيرا . فغضب منه ولعنه، فانصرف وقد خاب أملُه .

قال : ونشأ سليمان، فكان داود إذا تلا الزبور حفظ ما يتلوه لوقته، وحفظ التوراة، وكان يحكم بحضرة أبيه .

ذكر خبر أَبْشالوم بن داود

قال الكسائىّ : كان من خبر « أَبْشَالوم »(١) أنه لما كان من أمر فتنة داود — عليه السلام — ما قدّمناه، تكلّم بعضُ بنى إسرائيل فى ذلك وجاءوا إلى «أبشالوم» وهو ابن بنت طالوت، وقالوا : إن أباك قد كَبِر وعَجَز عن سياستنا، وقد وقع

---

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٥) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٧٠ من القسم الأوّل) « أبشا » وفى قصص الأنبياء للثعلبى : « شالون » وقيل « إيشا » . وفى قصص الأنبياء للكسائى : « انشالوم » . وفى الأصل : « إيشالوم » .

فى هذه الخطيئة ، وأنت أكبرُ أولاده ، والرأى أنْ ندعوَ الناس إليك وتقومَ مقامَه ، فتبِــع رأيَهم وتولّى المُلك . فخاف داود على نفسه من سفهاء بنى إسرائيل ، ففارق منزلَه وآعتزل القوم برجلين من أصحابه . ثم جاء رجل من بنى إسرائيل آسمه أَحيتُوفَل[١] إلى أَبْشالُوم وقال : إنه لا يســتقيم أمرُك إلّا بعد وفاة أبيك ، والرأى أن تُعاجله وتقتلَه ما دام فى الخطيئة ، فهمّ بذلك ثم صرفه الله عنه . فلمــا غفر الله تعالى لداود ورجع إلى قومه آعتزل آبنُــه[٢] « أبشالوم » فى طائفة من بنى إسرائيل . فلمّــا وُلد سليمان أرسل داودُ آبنَ أختٍ له يقال له : « يُوآب[٣] » إلى آبنه « أبشالوم » وقال : سِرْ إليه فإنه آعتزلنى خوفا على نفسه ، وما كنتُ بالذى أقتل ولدى وقد تاب الله تعالى علىّ ورزقنى هذا الولدَ المبارَك ، فإن ظَفِرتَ به فأْتنى به مكرَّما ، وإيّاك أن تقتله ، فإنك إن قتلتَه قتلتُك به . فسار إليه فى نفر من أصحابه ، فآلتقوْا وآقتتلوا قتالا شديدا ، فآنهزم أبشالوم ومن معه . فبينا هو فى هزيمته إذ مرّ بشجرة فعَلِق بُرْنُسُهُ بها ، وخرج الفرس من تحتــه ، فأدركه يوآب فحمله الحَرَج[٤] على قتله فقتله وتركه معلّقا فى الشــجرة ، ورجع إلى داودَ فأخبره الخــبر ، فغضب وقال : إنى قاتلك به لا محالة عاجلا أو آجلا .

قال الثعلبىّ : فلما حضرتْ داودَ الوفاةُ أمرَ سليمانَ أن يقتله ، فقتله بعد فراغه من دفن أبيه .

(١) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٣٠) . وفى الأصول : « نوفل » .

(٢) كذا فى الأصول والكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٠٤) . وفى الثعلبىّ : « ابن أخ » وهو خطأ .

(٣) ورد هذا الاسم فى الأصول وقصص الأنبياء للكسائى هكذا : « نوال » . وفى قصص الأنبياء للثعلبى المطبوعة : « ثواب » . والتصويب عن الكتاب المقدس (ج ١ ص ٥٢٥) والنسخة المخطوطة من قصص الأنبياء للثعلبى . وهو « يوآب بن صروية » .

(٤) الحرج : الضيق .

ذكر خبر الزرع الذى رعته الغنم وما حكم فيه سليمان عليه السلام

١٣٣/١١ قال الكسائىّ : و بينما داود — عليه السلام — فى يوم قَضائه وسليمانُ بين يديه، إذ تقدّم إليه قوم فقالوا : يا نبىّ الله ، إنّا قوم حرثنا أرضا لنا و زرعناها وسقيناها حتى بلغت الحَصَاد، فجاء هؤلاء وأرسلوا أغنامهم فيها بالليل، فرعتْها جميعا حتى لم يبق منها شىء . فقال داود لأصحاب الغنم : ما تقولون؟ قالوا : صدقوا . فقال لأصحاب الزرع : كم قيمةُ زرعكم؟ قالوا : كذا وكذا . وقال لأرباب الغنم : كم قيمة أغنامكم؟ فذكروا قيمتها، فتقاربت القِيمَ، فقال : ادفعوا أغنامكم إليهم بقيمة زرعهم. فقال سليمان : يا أبت إن أذِنتَ لى تكلّمتُ . قال: يابُنَىّ تكلم بما عندك. فقال سليمان لأرباب الغنم : ادفعوا أغنامكم إلى هؤلاء ينتفعوا بأصوافها وألبانها ونتاجها ، وخذوا أنتم أرضهم فآحْرُثوها وآزرعوها وآسقوها حتى يقوم الزرعُ على سُوقه، فإذا بلغ الحَصادَ فسلِّموا إليهم أرضهم بزرعها وخذوا أغنامكم ، فرضُوا جميعا بذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾(١) .

قال : ولما نظر مشايخ بنى إسرائيل إلى جلوس سليمان عن يمين أبيه مع صغر سنّه حسدوه على ذلك. فأوحى الله إلى داود أن يقيم سليمانَ خطيبا ليُسمِعهم من الحكمة ما ألهمه الله ليعلموا فضلَه عليهم. فجمع داودُ الناسَ حتى العُبَّاد والرُّهبانَ وأهلَ السياحة إلى محرابه، وكانت سِنُّ سليمان يومئذ آثنتى عشرةَ سنة، فأخرجه داود إليهم وألبسه لباسَ النبيِّين من الصوف الأبيض وقال : هذا آبنى قد أخرجتُه إليكم خطيبا ليُورِد عليكم مما علّمه الله تعالى . فجلس على منبر أبيه وحمد الله تعالى ووحّده، ووصفَ عجائب خَلْقه وصُنْعه ؛ فسجدوا شكرا لله، ونظروا إليه بعد ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٧٩

بالعين الرفيعة وأجلّوه، وأعطِىَ سليمانُ فى حياة أبيه من العلم ما فسّر لبنى إسرائيل خطبةَ آدم ووصيّةَ شيثٍ ورفعَ إدريسَ وغيرَ ذلك .

ذكر خبر الذين ٱعتدَوْا فى السبت

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ (٢) الآية .

قال الكسائىّ : وكان فى زمن داود — عليه السلام — قومٌ من بنى إسرائيل من أبناء الذين كانوا مع موسى؛ وكانوا ينزلون على ساحل البحر بقرية يقال لها : «أيلة» (٣) وكان الله قد حرّم على بنى إسرائيل أن يشتغلوا يوم السبت، وأوجبَ عليهم فيه العبادة؛ لأنّ موسى — عليه السلام — أمرهم بالعبادة يومَ الجمعة فأبَوْا وقالوا : لا ينبغى لنا أن نشتغل بعبادة الرب إلا فى اليوم الذى فَرَغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت . فلمّا ٱختاروه شدّد الله عليهم فيه ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (٤) . وكان موسى يأمر قومه بتعظيمه؛ فكانوا كذلك مدّة، وكان على ساحل البحر إلى جانب أَيْلة حَجَران أبيضان، وكانت الحيتان تخرج إلى أصلهما ليلةَ السبت ويومَ السبت، لأنها كانت لا تصاد، فإذا أقبلتْ ليلةُ الأحد

---

(١) سورة البقرة آية ٦٥

(٢) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٣) أيلة : فرضة شهيرة فى أدوم واقعة على شاطئ الخليج الشرقى من البحر الأحمر، مر بها الاسرائيليون، وكانت ذات شأن فى زمن سليمان . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٤) سورة النحل آية ١٢٤

خرجتْ منهما إلى البحر، فيتعذّر عليهم صيدها فيه إلّا بمشقّة؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ[1] ﴾ . فجعل فُسّاق أهل « أيلة » يقول بعضهم لبعض : إنما حرّم الله تعالى الاصطيادَ على آبائنا وأجدادنا لا علينا ، ونحن لا ذنب لنا ، وهذه الحيتان تكثر يومَ السبت وليلتَه ، فمن المحال تركُها ؛ فاصطادوها وطبخوها وشَوَوْا منها ، فشمّ المؤمنون رائحتَها في يوم السبت ، فخرجوا إلى الفُسّاق ووعظوهم وحذّروهم ، فلم يكترثوا لذلك ولم ينتهوا عنه، فاجتمع المؤمنون على أبواب القرية بالسلاح ومنعوهم من دخولها، فاشتدّ ذلك على الفُسّاق وشقّ عليهم أن يمتنعوا من الاصطياد في يوم السبت لكثرة الحيتان فيه دون غيره من الأيام، فقالوا : إن هذه [القرية][2] مشتركة بيننا [وبينكم][2] ولا يحلّ لكم أن تمنعونا منها ، فإمّا أن تصبروا على أفعالنا أو تُقاسِمونا القرية فننفرد عنكم . فتراضَوْا على ذلك وقاسموهم القرية، وبنَوْا بينهم حيطانا عالية وبابا يدخلون منه غيرَ بابهم، وانفردت كلُّ طائفة، واشتغل الفُسّاق باللهو واللعب والاصطياد ، وحفروا أنهارًا صغارًا من البحر إلى أبواب دُورهم ، فكانت الحيتان تأتيها في يوم السبت ، فإذا غَرُبت الشمس همّت الحيتان بالرجوع إلى البحر، فيسُدّون أفواهَ تلك الأنهار مما يلي البحر ، ويصيدون تلك الحيتان . هذا والمؤمنون يخوّفونهم عذابَ الله فلا يرجعون . فلمّا طال ذلك وتكرّر منهم قال بعض المؤمنين لبعض : إلى كم ننصح هؤلاء ولا يزيدون إلا تماديا وعُتُوًّا ! قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا[3] ﴾ الآية .

(١) سورة الأعراف آية ١٦٣

(٢) التكملة عن الكسائي .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٤

قال : وٱستغنى الفُسّاق وكثُرت أموالهم، وٱشتروْا الضِّياع وٱنهمكُوا على الفِسق. فبلغ ذلك داودَ — عليه السلام — فلعنهم ودعا عليهم . فبينما هم فى منازلهم فى شرّ ما هم فيــه إذ زُلزلت قريتُهم زلزلة عظيمة ، ففزِع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم ؛ ١٣٤/١١ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّـا نَسُوا ماذُكِّرُوا به أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَـا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاودَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَـا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(٢). فالذين لُعِنوا على لسان داود هم هؤلاء الذين اعتــدَوْا فى السبت، والذين لُعِنوا على لسان عيسى الذين سألوه نزولَ المــائدة، فلمّا نزلت عليهم كفروا .

قال : فمسخ الله هؤلاء الذين ٱعتدَوْا فى السبت قِرَدة، ومسَخَ أصحابَ المــائدة خنازير — وسنذكر إن شاء الله خبر أصحاب المــائدة فى موضعه من أخبار عيسى عليــه السلام — قال : فكان أحدُهم يأتى حميمَه من المؤمنين وعيناه تَذْرِفان دمعا فيقول له : أنت فلان؟ فيشير برأسه، أى نعم . فيقول لهم المؤمنون : قد أنذرناكم عذابَ ربكم وعقوبتَه فلم تتعظوا، فنزل بكم ما نزل .

قال الثعلبىّ قال قَتادة : صارت الشُّبّان قِرَدة، والشيوخُ خنازير، فمــا نجا إلّا الذين نَهَوْا وهلك سائرُهم . قال : ثم برز الممسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيِّرين، فمكثــوا ثلاثةَ أيام ثم هلكوا ، وكذلك لم يلبث مَسْخٌ فوقَ ثلاثةِ أيام ، ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا ؛ ثم بعث ٱلله تعالى عليهم ريحا ومطرا فقذفهم فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله إلى صُــوَرهم الأولى البشرية ، فيــدخلهم النار . والله أعلم .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٥ .

(٢) سورة المــائدة آية ٨٧ .

ذكر آستخلاف داودَ آبنَه سليمانَ عليهما السلام
وخبر الصحيفة وآبتداء أمر الخاتم

قال الكسائى — رحمه الله — : ولمّـا أتى على سليمان بضعٌ وعشرون سنة نزل جبريل على داود بصحيفة ، وأَمَرَه عن الله تعـالى أن يجمـع أولاده ويقرأ عليهم ما فى الصحيفة من المسائل، فمن أجاب عمّـا فيها فهو الخليفة من بعده . فأحضر داود أولاده، وكان سليمان أصغرَهم سنًّا، وقرأ عليهم ما فى الصحيفة، فأقرُّوا بالعجز عن معرفتها ، وذلك بحضور مشيخة بنى إسرائيل، فقال داود — عليه السلام — لسليمان — عليه السلام — : أجب عن هذه المسائل . فقال : أرجو أن يَهْدِيَنى الله تعالى إلى جوابها . فقال : يا سليمان، ما الشىء؟ قال : المؤمن. قال: فما بعضُ الشىء ؟ قال : الفاجر . قال : فما لا شىء ؟ قال : الكافر . قال : فما كلّ شى ؟ قال : المـاء . قال : فما أكبر شىء ؟ قال : الشِّرْك . قال : فما أقلّ شىء؟ قال: اليقين . قال : فما أمرّ شىء ؟ قال : الفقر بعـد الغنى . قال : فمـا أحلى شىء ؟ قال : المـال والولد . قال : فما أقبح شىء؟ قال : الكفر بعد الإيمـان . قال : فما أحسن شىء ؟ قال : الرُّوح فى الجسد . قال : فما أوحشُ شىء؟ قال : الجسد بلا رُوح . قال : فما أقربُ شىء؟ قال : لآخرة [من الدنيا](١) . قال : فما أبعـدُ شىء ؟ قال : الدنيا من الآخرة . قال : فما أشرّ شىء؟ قال : المرأة السوء . قال : فما خير شىء؟ قال : المرأة الصالحة .

قال : وكان داود يصدِّقه عَقِبَ كل مسئلة، ثم آلتفت إلى بنى إسرائيل فقال: ما أنكرتم من قول آبنى؟ قالوا : ماأخطأ فى شىء متّعك الله به، و بارك لنا ولك فيه . قال : أترضَون أن يكون خليفتى عليكم ؟ قالوا نعم . هذا ماأورده الكسائىّ رحمه الله .

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

وقد ذكر الثعلبيّ فى هذه القصة زيادات نذكرها . قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قال أبو هريرة — رضى الله عنه — : نزل كتاب من السماء مختوم بخاتم من الذهب على داودَ فيه ثلاثَ عشرةَ مسألة[1]، فأوحى الله تعالى إليه أن آسأل عنها آبنك سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال : وإن داود — عليه السلام — دعا سبعين قِسِّيسًا وسبعين حَبرا ، ولم يذكر أولاده . قال : وأجلسَ سليمانَ بين أيديهم وقال له : يا بُنَىّ ، إن الله أنزل من السماء كتابا فيه مسائل ، وأُمِرتُ أن أسألك عنها ، فإن أخرجتَها فأنت الخليفة من بعدى . قال سليمان : اسأل يا نبيّ الله عما بدا لك، وما توفيق إلا بالله .

قال داود : أخبرنى يا بُنىّ، ما أقربُ الأشياء ؟ وما أبعدُ الأشياء ؟ وما آنَسُ الأشياء ؟ وما أَوحشُ الأشياء ؟ وما أحسنُ الأشياء ؟ وما أقبحُ الأشياء ؟ وما أقلّ الأشياء ؟ وما أكثرُ الأشياء ؟ وما القائمان ؟ وما المختلفان ؟ وما المتباغضان ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل حَمِدَ آخِرَه ؟ وما الأمرُ الذى إن ركبه الرجل ذمّ آخره ؟ .

قال سليمان : أمّا أقربُ الأشياء فالآخرة. وأما أبعدُ الأشياء فما فاتك من الدنيا. وأما آنَسُ الأشياء فجسد فيه روح . وأما أوحشُ الأشياء فالجسد بلا روح[2]. وأما أحسنُ الأشياء فالإيمان بعد الكفر . وأما أقبحُ الأشياء فالكفر بعد الإيمان . وأما أقل الأشياء فاليقين . وأما أكثرُ الأشياء فالشكّ . وأما القائمان : فالسماء

(١) كذا فى الأصول وقصص الأنبياء للثعلبي . غير أن الثعلبي قد ذكر فى كتابه من المسائل أربع عشرة مسألة، ومن الأجوبة أربعة عشر جوابا ، فزاد فى المسائل قوله : وما الساعيان، وزاد فى الأجوبة قوله : وأما الساعيان فالشمس والقمر .

(٢) هذه عبارة الثعلبي فى النسخة المخطوطة والمطبوعة . وفى الأصول : « فالروح فى الجسد » وهو خطأ من الناسخ .

والأرض . وأما المختلفان : فالليل والنهار . وأما المتباغضان : فالموت والحياة . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل حَمِدَ آخره فالحلم . وأما الأمرُ الذى اذا ركبه الرجل ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب .

قال : ففكّوا الخاتم ، فإذا جواب المسائل سواءً على ما نزل من السماء . فقال القِسِّيسُون والأحبار : لا نرضى حتى نسأله عن مسألة ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة . قال : سلوه . قال سليمان : سلونى وما توفيق إلا بالله . قالوا : ما الشيءُ الذى إذا صَلَح صَلَح كلُّ شيء من الإنسان ، وإذا فسد فسد كلُّ شيء منه ؟ قال : هو القلب . فقام داود وصعِد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله ١٣٥/١١ أمرنى أن أستخلف عليكم سليمان . قال : فضجّت بنو اسرائيل وقالوا : غلام حَدَثٌ يُسْتَخْلَفُ علينا وفينا من هو أعلم وأفضَلُ منه ! فبلغ ذلك داودَ، فدعا رءوس أسباط بنى إسرائيل وقال: إنه بلغتْنى مقالتكم ، فأرُونى عِصيّكم ، فأىّ عصا أثمرتْ فإنّ صاحبها ولىّ هذا الأمر [بعدى]؛ فقالوا : قد رَضِينا . فجاءوا بعِصيِّهم؛ فقال لهم داود : ليكتبْ كل رجل منكم آسمه على عصاه؛ فكتبوا . ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها آسمه ؛ ثم أدخلتْ بيتا وأُغلِقَ عليها الباب وسُكِّرَ بالأقفال ، وحرسه رءوسُ أسباط بنى إسرائيل . فلما أصبح صلّى بهم الغداة؛ ثم أقبل وفتح الباب وأخرج عِصيّهم كما هى ، وعصا سليمانَ قد أثمرتْ وأَورقتْ . قال : فسلّموا ذلك لداود ، فأخذ آبنَه سليمانَ ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال : هذا خليفتى فيكم من بعدى .

قال وهب بن مُنَبِّه : لما آستخلفَ داودُ آبنَه وعظه فقال : يا بنىّ ، إياك والهَزْلَ ؛ فإنّ نفعه قليل ويَهِيجُ العداوةَ بين الإخوان . وإيّاك والغضب ؛ فإن الغضب يستخفّ صاحبه . وعليك بتقوى الله وطاعته ؛ فإنهما يغلبان كل شىء . وإيّاك

وكثرةَ الغَيرةِ على أهلك من غير شيء؛ فإن ذلك يورِث سوءَ الظنّ بالناس وإن كانوا بُرَآء. وٱقطع طمَعك عن الناس؛ فإنه هو الغنى. وإياك والطمعَ فهو الفقر الحاضر. وإياك وما يُعتذَر منــه من القول والفعل. وعوِّد نفسَك ولسانَك الصدق؛ وٱلزم الإحسان؛ فإن ٱستطعتَ أن يكون يومُك خيرا من أمسك فافعــل. وصلّ صلاةَ مودِّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تُمــارِه فى الدِّين. وإذا غضِبتَ فألصِق نفسَك بالأرض وتحوّلْ من مكانك. وٱرجُ رحمةَ الله فإنهــا واسعة وَسعتْ كل شىء.

قالوا: ثم إن سليمان بعــد أن ٱستُخلِف أخفَى أمرَه وتزوج ٱمرأةً وٱستتر عن الناس، وأقبلَ على العــلم والعبادة. ثم إن ٱمرأته قالت له ذات يوم: بأبى أنت وأمّى، ما أكملَ خصالَك وأطيبَ رِيحَــك! ولا أعلم لك خَصلةً أكرهُها إلّا أنك فى مئونة أبى(١)، فلو أنك دخلتَ الســوق فتعرضتَ لرزق الله لرجوتُ ألا يخيّبك الله. قال سليمان: إنى والله ما عَمِلتُ عملًا ولا أُحسِنه، ثم دخل السُّــوق صبيحةَ يومه ذلك فلم يقــدِر على شىء، فرجع فأخبرها. فقــالت له: يكون غدا إن شاء الله.

فلمــا كان فى اليوم الثانى مضى حتى ٱنتهى إلى ساحل البحر وإذا هو بصيّاد، فقال له: هل لك أن أعينك وتُعطِيَنى شــيئا؟ قال نعم، فأعانه. فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين، فأخذهما وحَمِــد الله تعالى، ثم إنه شقّ بطنَ إحداهمــا فإذا هو بخاتَم فى بطنها، فأخذه وصرَّه فى ثوبه. وحَمِــد الله تعــالى، وجاء بالسمكتين إلى منزله، ففرِحت ٱمرأته بذلك، فأخرج الخاتَم [ولبسه فى إصبعه](٢)؛ فعكفت عليه

(١) كذا فى نسختى الثعلبى المخطوطة والمطبوعة. وفى الأصول: «أبيك».

(٢) زيادة عن نسخة الثعلبى المطبوعة.

الطير والريح، ووقع عليه بهاء المُلك ؛ ولم يلبَث أبوه أن مات . [فلما ملك حمَل المرأة وأبويها إلى إصطخر](١) .

وقد قيل فى أمر الخاتم غير ذلك — على ما أورده الكسائىّ — وسنذكره إن شاء الله تعالى بعد هذا فى أخبار سليمان عليه السلام .

ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الكسائىّ : كان داود — عليه السلام — شديدَ الغَيرة على النساء، ويُغلق الأبواب عليهنّ إذا خرج ، ويحمل المفاتيح معه . فقيل : إنه رجع يوما ففتح باب نسائه ، فرأى رجلا فى داره ذا مَهَابة(٢) . فقال له داود — وغضب — : مَن أنت ؟ ومَن أدخلك دارى ؟ قال : أدخلَنى الدار مَن هو أولى بها منك، أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا يمنعُنى دونَهم الحُجّاب والجنود، وأفرّق بين الجمع، أنا ملَك الموت . فآرتعد داود وقال : دَعْنى أدخل إلى أهلى لأودّعهم . قال : لا سبيل إلى ذلك يا داود . فبكى وقال : مَن لبنى اسرائيل من بعدى؟ قال: آبنُك سليمان . قال: الآن طابت نفسى، إمْضِ لما أُمرتَ به، فقبض رُوحَه — عليه السلام — وغسّله سليمانُ و إخوتُه، وكفّنه بأكفان نزلت عليه من الجنة، وحمله إلى قبره،

---

(١) زيادة عن نسخة الثعلبى المخطوطة . و إصطخر : مدينة بفارس قرب مدينة برسبوليس (مدينة الفرس) التى كانت عاصمة تلك البلاد قديما . وهى واقعة فى الشمال الشرقى من شيراز ، على ٣٥ ميلا منها فى الطريق إلى أصبهان ؛ دخلها اسكندر المقدونى وحرق قصر ملوك الفرس فيها سنة ٣٣١ قبل الميلاد . وآسمها الآن « تشهيل منار » أى ذات الأربعين عمودا . (راجع معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلامية للرحوم أمين واصف) .

(٢) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصول : « فى نهاية الجمال » .

ودُفن دون غار إبراهيم — عليه السلام — قال : وعكفت الطير على قبره أربعين يوما .

قال الثعلبي فى خبر وفاة داود : إن داود كانت له وصيفةٌ تُغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام، ويُقبِل داود على وِرْده فى العبادة. فأغلقت ذاتَ ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما فى وسط الدار فقالت : ما أدخلَك هذه الدار ! فإن صاحبها رجل غيور ، نخذ حِذْرك . فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . فسمعه داود، وكان فى المحراب يصلّى، ففزِع واضطرب وقال : علىّ به . فأتاه . فقال : ما أدخلك هذه الدار فى هذا الوقت بغير إذن ؟! فقال : أنا الذى أدخل على الملوك بغير إذن . قال : فأنت مَلَكُ الموت؟ قال نعم . قال : أجئتَ داعياً أم ناعيا ؟ قال : بل ناعيا . قال: فهلّا أرسلتَ إلىّ قبل ذلك وآذنتَنى لأستعدّ للموت ؟ قال : كم أرسلتُ إليك يا داود فلم تنتبه . قال : ومَن كانت رسُلُك ؟ قال : ياداود ، أين أبوك إيشى ؟ وأين أمّك؟ وأين أخوك ؟ وأين قَهْرَمانُك فلان ؟ قال : ماتوا كلهم . قال : أمَا علمتَ أنهم رُسُلى، وأن النوبة تبلُغُك ! ثم قبضه .

قال أهل التاريخ : كان عمر داود مائة سنة، ومدّةُ ملكه أربعين سنة .

وقد تقدّم خبر آدم فيما وَهَب له من عمره .(١)

(١) هنا ينتهى السفر الحادى عشر من هذا الكتاب من النسختين المأخوذتين بالتصوير الشمسى المحفوظتين بدار الكتب المصرية تحت رقمى ٥٤٩ و ٥٩٢ معارف عامة . وصورة ما جاء فى آخر هذا السفر من النسخة الأولى : « كمل السفر الحادى عشر على يد كاتبه نور الدين العاملى غفر الله له ولوالديه فى تاسع عشر ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ » . وصورة ما ورد فى النسخة الثانية : « كمل السفر الحادى عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى وذلك فى مستهل شهر رجب الفرد سنة ٩٦٦ هـ على يد كاتبه الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ ابراهيم الجبرتى الحنفى، غفر الله له ولوالديه آمين » .

ذكر نبوّة[1] سليمان بن داود عليهما السلام وملكه ١/١٢

قال الكسائىّ — رحمه الله — : ولما قام سليمان — عليه السلام — من عَزاء أبيه داود وتفرّق الطير عن قبره ، دخل محرابَ أبيه ، فهبَط عليه جبريل — عليه السلام — وقال له : إن الله تعالى يخصّك بالسلام ويقول لك : المُلك أحبّ إليك أو العِلم ؟ . فخرّ سليمان ساجدا لله تعالى وقال : العِلم أحبّ إلىّ من المُلك ، لأنه أنفع الأشياء . فأوحَى الله تعالى إليه : إنك تواضعتَ واخترتَ العلم على المُلك ، فقد وهبتُ لك العِلم والمُلك ، وأضفتُ إلى ذلك كمالَ العقل وزينةَ الخُلُق ، ونزعتُ عنك العُجْب[2] ، وسأطوى لك الدنيا بأسرها حتى تطأها بجيشك وتشاهدَ عجائبها . فخرّ سليمان ساجدًا لربّه ، و رفع رأسه فإذا الرياح الثمانية قد وقفت بين يديه وقالت له : إن الله سخّرنا لك ، فاركبْنا إذا شئتَ إلى أىّ موضع شئتَ . وأقبلتِ الوحوشُ والسِّباع فوقفت بين يديه وقالت : إن الله أمرنا بالطاعة لك . وأقبلت الطير وقالت : قد أُمرنا أن نُظِلّك بأجنحتنا ولا نخالفك فى أمر . وفوّض الله — عزّ وجل — إلى سليمان أمرَ الدنيا شرقِها وغربِها .

ذكر حشرِ الطير لسليمان بن داود عليهما السلام وكلامها له

قال الكسائىّ : ولما آتاه الله النبوّة والملك أحبّ أن يستنطق الطير ، فحُشِرت إليه ، فكان جبريلُ يحشُر طيرَ المشرق والمغرب من البر[3] ، وميكائيلُ يحشُر طيرَ الهواء والجبال . فنظر سليمان إلى عجائب خَلْقها ، وجعل يسأل كل واحد منها عن مسكنه

---

(١) ابتداء الجزء الثانى عشر من تجزئة الأصل . وقد افتتحه المؤلف بالبسملة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى الكسائى : « الشحّ » .

(٣) فى قصص الأنبياء للكسائى : «الأرض» .

ومعاشــه فيخبره ، وكان بين يديه سبعةُ ألوية من ألوية الأنبياء ، يُمسكها سبعةٌ من الملائكة .

قال : ولما حُشرت الطيرُ له جاءته فَوْجا فَوْجا ؛ فسلّمت عليــه « الخُطّافة » بثلاث لغات(١) وقالت : يانبيّ آلله، أنا ممن آختارنى نوح وحملنى فى السفينة ، ومنّى تناسَل كلُّ خُطّافة فى الدنيــا ، ودعا لى آدمُ وقال : إنكِ تُدرِكين من أولادى مَن خلافتُه مثلُ خلافتى ، تُحشَر إليه الوحوش والطيورُ والمَرَدةُ، فإذا رأيتهِ فاقرئيه منّى السـلام . وقالت له : يا نبيّ الله ، إن معى سُــورةً تعجَب الملائكةُ من نُورها ، ما أُعطيتُ لأحدٍ من بنى آدم غيرَ أبيك إبراهيم ، فإنهــا نزلت كرامــةً له يوم أُلقِىَ فى النار ، فهــل لك أن تسمعها منّى ؟ قال نعم . فقرأت سورة ﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ حتى بلغت ﴿ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ ومدّت صــوتها بآمين وسجــدت ، وسجد معهــا سليمان عليه السلام .

ثم تقــدّم « النَّسر » وهو يومئذ فى صورة عظيمة فقال : السلام عليك يا ملِك الدنيــا ، ما رأيتُ مُلْكا أعظم من مُلْكك ، وإنى صحِبتُ آدم وساعدتُه على كثرة حزنه ، وأنا أوّل من عَلِم بهبُوطه إلى الأرض ، وكنتُ معــه إلى أن تاب آلله عليه وقال : إنه يكون من ذرّيتى من يحشر له الطير ، فإذا رأيتَــه فأَقرِئه منّى الســلام ؛ وقد أدّيتُ إليك وديعتَه ، فآصطنِعنى(٢) يانبيّ آلله ، فإنى عليم بمعادن الأرض وجبالها ، ومعى آيةٌ عظيمة لا يفتُرُ لسانى عنها ، وهى : ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيــهِ ﴾(٣) . ثم سجد وسجد معه سليمان ؛ فلمّا رفع رأسه جعله سليمانُ مِلكا على سائر الطيور .

(١) فى الكسائى : « بثلاث لغات باللغات التى سلمت بها على آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام » .
(٢) كذا فى نسخة أ وفى نسخة ب « مفاوز » .
(٣) سورة النساء آية ٨٧

ثم تقدمت « العُقَاب »[(١)] فوقفت بين يديه وسلّمت عليه وقالت : يا نبيّ الله، إن الله حين خلقني كنتُ أعظم خلقًا من هذا، غير أن حُزني على هابيل يوم قتله قابيلُ صيّرني الى ما ترى. ولقد توحّشت الأرض والجبال يوم قُتِل. ومعى آية أعطانيها ربى، وهى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[(٢)]. ثم قالت : سلّطني على من شئت، فإني قوية سميعة .

ثم تقدمت « العنقاء » وهى يومئذ شديدة البياض . وصدرُها كالذهب الأحمر، ووجهها كوجه الإنسان، ولها ذوائب كذوائب النساء، ورجلان صفراوان، ولها تحت أجنحتها يدان ، فى كل يد ثلاثون إصبعا ، فوقفت بين يديه وسلّمت وقالت : إن الله فضّلك على كثير من الملوك حين أبرزنى اليك فى صورتى هذه ، فمرنى بما شئت ، فوالله ما نطقتُ لأحد إلا لصفوة الله آدم ، فإنى وقفت بين يديه وتعجّب من حسن صورتى ، وقال : ما أشبهك بطيور الجنان ! فمنذ كم خلقك ربك؟ قلت : منذ ألفى عام . ثم تبخترت بين يديه فقال : أيها الطائر، إنك مُعْجَبٌ بخلقك ، والعُجْب يهلك صاحبه، لقد فاز المفلحون وخسر المبطلون .

وللعنقاء خبر عجيب نذكره — إن شاء الله — فى آخر خبر الطير على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ثم تقدّم «الغُراب» فسلّم وقال : يا نبيّ الله، لقد فضّلك الله على كثير من ولد آدم ، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، و إنى كنت أبيض

(١) العقاب : طائر من العتاق مؤنثة، وقيل : العقاب يقع على الذكر والأنثى إلا أن يقولوا : هذا عقاب ذكر .

(٢) سورة الأعلى آيتى ١٤ و ١٥

قبل ذلك ، فصرت كما ترى ، لمّا سمعتهم يقولون : اتخذ الرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ولقد دعا لى أبوك آدم ونوح بطول العمر ؛ وسمعت أباك إبراهيم يتلو آية يخضع لها كل شىء ، وهى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) .

ثم تقدّمت «الحمامة» فسلّمت عليه وقالت : يانبىّ الله ، أنا الحمامة التى آختارنى أبوك آدم لنفسه إلفا وأنيسا ، وكنت آنسُ به وبتسبيحه ؛ وكان اذا ذكر الجنة يصيح صيحة عظيمة ويقول : أترانى أرجع إليها؟ وإن لم أرجع إليها كنت من الخاسرين . وآعلم يا نبىّ الله أنه قد علّمنى كلمات حفظتها عنه ، وهى : آلله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله سيد الأوّلين والآخرين . وقد أقبلتُ إليك طائعة لأمرك ، فمرنى بما شئت .

ثم تقدّم « الهُدْهُد » فسلّم عليه وسجد بين يديه وقال : ما أحببتُ أحدًا كما أحببتك ، لأنى رأيت الدنيا ضاحكة لك ، وقد أعطاك الله مُلكا عظيما ، فآتخذنى رسولا آتك بالأخبار ، وأدلك على مواضع الماء . فقال له : أراك أكيس الطيور ، وأرى فخاخ بنى إسرائيل تصطادك ، ولا تغنى عنك كياستك شيئا . قال الهدهد : يا نبىّ آلله ، الحيلة لا تنفع مع القضاء والقدر ، وإن الله يضيف إلى عقل المخلوق سبعين ضِعفا ثم ينفّذ فيه حكمه وقضاءه . قال : صدقت . ثم سجد بين يديه مرارا .

ثم تقدّم إليه « الديك » وهو آخر من تقدّم ، فوقف بين يديه وهو فى نهاية الحسن ، وضرب بجناحيه ، وصاح صيحة أسمع الملائكة والطيور وجميع من حضر

(١) سورة المدثر آية ٣٨

وقال فى صياحه : يا غافلين اذكروا ٱلله . ثم قال : يا نبيّ الله، إنى كنت مع أبيك ٣/١٢ آدم وكنت أُوقظه أوقات الصلوات ، ومع نوح فى الفُلك ، ومع أبيك إبراهيم وكنت أسمعه يقول : « اللهمّ مالِكَ المُلْكِ تؤتِى الملك مَن تشاء ، وتَنزِع الملك مِمن تشاء ، وتُعزّ من تشاء ، وتُذِلّ من تشاء ، بِيَدِك الخير إنك على كل شىء قدِير » . وٱعلم يا نبيّ ٱلله أنى ما صحت صيحة إلا أفزعت بها الجن والشياطين . ففرِح سليمان به وأمره أن يكون معه حيثما كان . ووقف كل طير بين يديه ، وفرغ من حَشْر الطيور وعرفها بأسمائها ومنطقها ، وكانوا يعبدون الله بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع ، حتى عَرَف كل واحد منهم بٱسمه وصفته ونعته (١) .

ذكر خبر العنقاء فى القضاء والقدر

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — بسند رفعه الى جعفر بن محمد الصادق قال : عاتب سليمان الطير فى بعض عتابه فقال لها : إنك تأتين كذا، وتفعلين كذا ، فقالت له : والله ربِّ السماء والثَّرَى ، إنا لنحرص على الهدى ، ولكن قضاءَ الله يأتى إلى منتهى علمه وقَدَره . قال سليمان : صدقت ، لاحيلة فى القضاء . فقالت العنقاء : لست أُومن بهذا . قال لها سليمان : أفلا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت بلى . قال : إنه وُلد الليلة غلامٌ فى المغرب ، وجارية فى المشرق ، هذا ٱبن ملك

(١) هذه عبارة الكسائى فى النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٤٦٦ أدب ، وعبارة الأصول : « قال : ولما فرغ من حشر الطير وعرفها بأسمائها ولغاتها وكانوا يأتونه بالليل والنهار ، وكذلك الوحوش والسباع حتى عرفها بأسمائها والله أعلم » .

وهــذه بنت ملك ، يجتمعان فى أمنع المواضع وأهولهـا على سِفاح بقدَر الله تعالى فيهما . قالت العنقاء : يا نبيّ آلله ، وقد وُلدا ؟ قال : نعم الليلةَ . قالت : فهــل أُخبرتَ بهما ؟ من همــا وما آسمهما وآسم أبويهما ؟ قال : بلى ، اسمهما كذا وكذا ، وآسم أبويهما كذا وكذا . قالت : يا نبيّ آلله ، فإنى أفــرّق بينهما وأبطل القَــدَر . قال : فإنك لا تقــدِرين على ذلك . قالت بلى . فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البُــومة . ومرّت العنقاء وكانت فى كبر الجمل عِظَما ، ووجهها وجه إنسان ، ويداها وأصابعها كذلك؛ فحلّقت فى الهواء حتى أشرفت على الدنيــا وأبصرت كل دار فيهــا ، وأبصرت الجارية فى مهدها قــد آحتوشتهــا الظئور والخَــوَل ، فاختلست المهــد والجاريةَ وطارت ، ومرّت حتى آنتهت بهــا إلى جبل شاهق فى السماء ، أصــله فى جوف البحر ، وعليه شجرة عاليــة فى السماء ، لا ينالهــا طائر إلا بجهد ، لهــا ألف غصن ، كل غصن كأعظم شجرة فى الأرض ، كثيرة الورق ، فآتخذت لهــا فيه وكرا عجيبا واسعا وطيئا ، وأرضعتها وآحتضنتها تحت جناحها ، وصارت تأتيهــا بأنواع الأطعمة والأشربة ، وتكنّهــا من الحرّ والبرد ، وتؤنسها بالليــل ، ولا تخبر أحدًا بشأنها ، وتغــدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها . وعلم سليمان بذلك ولم يبده لهــا ، وبلغ الغــلام مبلغ الرجال ، وكان ملكا من ملوك الدنيا ، وكان يلهــو بالصيد ويحبّه ويطلبــه حتى نال منه عظيما . فقال يوما لأصحابه : كل صيد البر وفلواته ومفازاته قد تمكنت من صَيده ، فلو ركبت البحر لأنال من صيده فإنه كثير الصيد كثير العجائب ! . فقال وزير من وزرائه : نِعْمَ ما رأيتَ ، وهو أكثر ما خلق آلله صيدا . فأمره بجهازه ، وهيأ السفن وجعل يختار من كل شىء يملكه ، وأخذ من الوزراء والندماء والمُشيرين والجوارى والغلمان والطباخين والخبازين والبُزاة والصقور وغير ذلك ممــا يريده ويشتهيه من الملاهى

والشراب ، وركب ومرّ فى البحر يتصيّد ويتلذذ لا يعرف شيئا غير ذلك ، حتى سار مسيرة شهر ، فأرسل آلله تعالى على سفينته ريحا عاصفا خفيفة ساقتها حتى وصلت بها الى جبل العنقاء الذى فيه الجارية ، وذلك مسيرة خمسين سنة فى خمسين ليلة ، ثم ركدت سفينته بإذن الله تعالى ، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة ، فأخرج رأسه من السفينة ، فرأى الجبل وهو فى لون الزعفران [صفرة][1] ، وطوله لا يُدْرَى أين منتهاه ولا عرضه ، ورأى الشجرة فإذا هى كثيرة الأغصان والورق ، ورقها عرض آذان الفِيَلة ليس لها ثمر ، بيضاء الساق ، فقال : إنى أرى عجبا ، أرى جبلا شاهقا لم أر مثله ، وأرى شجرة حسنة قد أعجبنى منظرها . فحرّك سفينته نحو الجبل ، فسمعت الجارية التى فى عُشّ العنقاء صوت الماء وكلام الناس ، ولم تكن سمعت قبل ذلك شيئا من ذلك ؛ فأخرجت رأسها ٤/١٢ من العُشّ ، فتطلّعت فرأى الملك صورتها فى الماء ، ورأى عجبًا من جمالها وكثرة شعرها وذوائبها ؛ فرفع رأسه إلى الشجرة فرأى الجارية ، فأبصر أمرا عظيما فأخذه القلق ، فناداها : مَنْ أنتِ ؟ فأفهمها الله تعالى لغته وقالت : لا أدرى ما تقول ولا مَنْ أنت إلا أنى أراك يشبه وجهك وجهى وكلامك كلامى ، وإنى لا أعرف شيئا غير العنقاء ، وهى أمى التى ربّتنى وتسمينى بنتها . فقال لها الغلام : وأين العنقاء أمك ؟ قالت : فى نوبتها . قال : وما نوبتها ؟ قالت : تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلّم عليه وتقيم عنده إلى الليل ، ثم تروح وتجيئنى وتحدّثنى بما فعل سليمان وبما حكم وقضى ، وإنه لملك عظيم ، على ما تصف أمى العنقاء ، وإنها تخبرنى أنه يشبهنى إلا أنها تخبر أنه أحسن وجها وأتمّ منى .

(١) الزيادة عن قصص الأنبياء للكسائى .

قال : فآنذعر الغلام وفزِع، ثم قال : قــد عرفته، هو الذى قتل أبى وسبَى ذرّيته، وإنى لمن طُلَقائه وممن يؤدّى إليه الخراج، ورسله الطير والرياح، ثم بكى الغلام. فقالت الجارية : وما يبكيك؟ قال : أبكى على وَحْدتك فى مثل هذا الموضع الذى ليس به أنيس ولا أحد، وإن مثلك فى الدنيا عدد الشجر والمدر، وكلهم فى مقاصير الذهب والفضــة والعيش الهنئ واللّذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعّمون، ويتــوالدون أولادا مثــل خلقتك وخلقتى، أرأيتِ إن هاجت الريح وأزعجتك من وَكْرك مَنْ يمسكك أن تقعى فى البحر؛ فإن وقعت فى البحر فمن ذا الذى يُخرجك. قال : ففزِعت من قوله وقالت : وكيف لى أن يكون معى إنسىّ مثلُك يحــدّثنى مثل حديثك، ويحفظنى من خوف ما ذكرت . فقال لها الغلام : أولا تعلمين أن الله الذى آتخذ سليمان نبيًّا وسخّر له الطير والرياح هو الذى رَحِمك وساقنى إليك إلفًا وصاحبا وأنيسا، وأنى من أبناء الملوك . قالت الجارية : وكيف تصير إلىّ وأصير إليك، وهذه العنقاء تنام وتحضُننى إلى صدرها بين جناحيها ؟ قال الغلام : تُكثرين جزعك ووحشتك وبكاءك على العنقاء ليلتك هــذه إذا آنصرفت إليك، فإذا قالت لك : ما تخشَيْن وما شأنك، فأخبريها بحديثك، ثم آنظرى إلى ما يكون ردّها عليك فتخبرينى به . فراحت العنقاء فوجدتها حزينة كئيبة. فقالت لها : يا بُنَيّة، ماشأنك؟ قالت : الوَحْدة والوَحْشــة، وإنى لجزِعة على نفسى لذلك . فقالت لهــا : يا بُنَيّة لا تخافى ولا تحزنى، فإنى أستأذن سليمان أن آتيه يومًا وأتخلّف عنه يوما . فلمّــا أصبحت أخبرت الغلام بجوابها . فقال لهــا : لا تُريدى هــذا، ولكن سأنحر مرن دوابّى هــذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج ما فى جوفه وأقــيّره وأطيّنه وأدخل أنا فى جوفه، وألقيه على قُرقور[1] سفينتى هــذه، فإذا جاءتكِ العنقاء فقولى لها : إنى

(١) القرقور : ضرب من السفن كبار؛ ولكن سياق كلام المؤلف يدل على أنه أراد به رأس السفينة .

أرى عجبا، خلقة مُلقاةً على هذه السفينة، فلو آختطفتها وحملتها إلى وكرى هـذا، فانظر وأستأنس بها، كان أحبّ إلىّ من كينونتك عندى نهارا وإمساكِك عنى خبر سليمان . فرجعت العنقاء فوجدتها فى مثل حالها، وشُغل سليمان عنها، فلم تصل إليه فى آستئذانها إيّاه بالمُقام يوما فى منزلهـا . فقالت لها : إن نبىّ الله شُغِل عنى اليوم بالحُكْم بين الآدميين فلم أصِلْ اليه . قالت لها : فإنى لا أريد أن تتخلّفى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان، وإنى أرى فى البحر عجبا، شيئا مرتفعا ما هو ؟ قالت العنقاء: هذه سفينة قوم سيّارة ركبوا البحر . قالت : فما هذا الذى أرى مُلقًى على رأس هذه السفينة؟ قالت : كأنه مَيْتة رمَوْها . قالت : فاحمليها إلىّ لأستأنس بها وأنظرَ إليها . فانقضّت العنقاء فآختطفت الفرس والغـلام فى بطنها فحملتها إلى عُشّها . فقالت : يا أمّاه، ما أحسن هذا! وضحكت، ففرِحت العنقاء بذلك وقالت : يا بُنَيّة، لو علمتِ لقد كنت آتيك بمثل هذا منذ حين . ثم طارت العنقاء إلى نَوْبتها إلى سليمان، وخرج الغلام من جوف الفرس فلاعبها ومسّها ولامسها وآفتضّها فأحبلها ، وفرِح كل واحد منهما بصاحبه وآستأنس به .

وجاء الخبر إلى سليمان بآجتماعهما من قِبَل الريح، ووافت العنقاء، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلسَ الطير، فدعا بعُرَفاء الطير وأمرهم ألّا يدَعُوا طائرا إلا حشروه، ففعلوا، ثم أمر عُرَفاء الجنّ فحشروا الجنّ من ساكنى البحار والجزائر والهواء والفَلَوات والأمصار، ففعـلوا وحشروهم، وأحضروا الإنس وكل دابّة، وآشـتدّ الخوف وقالوا : نشهَد بالله أن لنبىّ الله أمرًا قـد أهمّه . فأوّل سهم خرج فى تقديم الطير سهم الحِدَأة . وكانت الطير لا تتقدّم إلا بسهام، فتقـدّمت الحِدَأة وآستَعْدَتْ على زوجها، وكان قد جحدها ولدها، فقالت : يا نبىّ الله، إنه سفَدنى، حتى آحتضنت بيضى وأخرجتُ ولدى جحدنى . فأمر سليمان بولدها فأُتىَ به، فوجد الشبه واحدا،

فألحقه بالذكر وقال لها : لا تمكّنيه من السِّفاد أبدًا حتى تُشهِدى على ذلك الطير لكيلا يجحدَك بعدها أبدا . فإذا سفَدها ذَكَرُها صاحت وقالت : ياطيور سفدنى (١) اشهدى، يا معشر الطير آشهدى .

ثم خرج سهم العنقاء فتقدّمت، فقال لها سليمان : ما قولك فى القَدَر؟ قالت : يا نبىّ الله، إن لى من القوّة والآستطاعة ما أدفع الشر وآتى الخير . قال لها : وأين شَرْطُك الذى بينى و بينك أنك تفرّقين بقوّتك واستطاعتك بين الجارية والغلام ؟ قالت : قد فعلتُ . قال سليمان : الله أكبر ! فأتينى بها الساعة والخَلْق شهودٌ لأعلمَ تصديق ذلك، وأمر عَريف الطير ألّا يفارقها حتى يوافىَ بها . فمرّت العنقاء، وكانت الجارية اذا قَرُبت منها العنقاء تسمع حَفيف أجنحتها، فيبادر الغلام فيدخل جوف فرسه، فقالت كالمَزِعة : إن لكِ لشأنا إذ رجعتِ نهارا . قالت : لعمرى إن لى لشأنا، إن سليمان قد أمرنى بإحضارك الساعةَ لأمرٍ جرى بينى و بينه فى أمرك، فأنا أرجو نُصرتى اليوم فيك . قالت : فكيف تحمليني ؟ قالت : على ظهرى . قالت : وهل أستقرّ على ظهرك وأنا أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزِلّ وأسقُط فأهلِك ! قالت : ففى منقارى . قالت : وهل أصبر فى منقارك ! قالت : فكيف أصنع؟ لابدّ من إحضارك إلى سليمان، وهذا عَريف الطير معى، وقد دعا بكفيلى البُومة . قالت : أدخل جوف هذا الفرس، ثم تحملين الفرس على ظهرك أو فى منقارك، فلا أرى شيئا ولا أسقُط ولا أفزَع . قالت : أصبتِ . فدخلت فى جوف الفرس وآجتمعت مع الغلام، وحملت العنقاء الفرس بما فيه فى منقارها، وطارت حتى وقعت بين يدى سليمان، فقالت : يا نبىّ الله، هى الآن فى جوف الفرس، فأين الغلام ! فتبسّم سليمان — عليه السلام — طويلًا وقال لها : أتؤمنين

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « يا كفور شهرتف » .

بقَدَر الله تعالى وقضائه ! إنه لاحيلَةَ لأحد[1] فى دفع قضاء الله تعالى وقدره وعلمه السابق الكائن من خير وشرّ . قالت العنقاء : أومن بالله وأقول : إن المشيئة للعباد والقوة، فمن شاء فليعمل خيرا ومن شاء فليعمل شرّا . قال سليمان : كذبتِ ماجعل الله من المشيئة إلى العباد شيئا، ولكن مَنْ شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا، فلا يقدِر أحد أن يدفع قضاء الله وَقَدَره بحيلة ولا بفعل ولا بعلم، و إن الغلام الذى قد وُلِد بالمغرب والجاريةَ التى وُلدت بالمشرق قد آجتمعا الآن فى مكان واحد على سِفَاح، وقد حمِلت منه الجارية ولدا . قالت العنقاء : لا تَقُلْ يا نبيّ آلله هذا، فإن الجارية معى فى جوف فرسى هذا . قال سليمان : الله أكبر ! أين البُومة المتكفِّلة بالعنقاء؟ قالت : هأنا . قال سليمان : على مثل قول العنقاء أنت ؟ قالت نعم . قال سليمان : ياقَدَرَ آلله السابقَ قبل الخلق أخرجهما على قضاء الله وقدره . قال : فأخرجهما جميعا من جوف الفرس .

فأما العنقاء فتاهت وفزِعت فطارت فى السماء وأخذت نحو المغرب، وآختفت فى بحر من بحار المغرب وآمنت بالقدر وحلفت لاينظر[2] الطير فى وجهها أبدا آستحياء منها .

وأمّا البُومةُ فلزِمت الآجام والجبال وقالت : أمّا بالنهار فلا خروجَ ولا سبيل إلى المعاش . فهى إذا خرجت نهارا و بّختها الطير وآجتمعت عليها وقالت لها : يا قَدَريّة، فهى تخضع لهذا .

هذا ما كان من شأن العنقاء فى القضاء والقدر . فلنرجع إلى أخبار سليمان عليه السلام .

---

(١) كذا فى نسخة الثعلبي المطبوعة . وفى الأصول والنسخة المخطوطة من الثعلبي : « للروحانيين » .

(٢) فى قصص الأنبياء للثعلبي : « ألا تنظر فى وجه طير » .

ذكر خبر خاتم سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : وأوحى الله تعالى إلى جبريل — عليه السلام — أنه قد سبق فى علمى أنى أُملّك سليمان الدنيا ، ليعلم الجن والإنس أنى لم أخلُق خَلقاً هو أفضل ٦/١٢ من ذرّية آدم ؛ وأمره أن يأخذ خاتَمَ الخلافة من الجنة ويأتيــه به . فجاء جبريل إلى سليمان ومعه الخاتم وهو يضىء كالكوكب الدرّىّ ، ورائحته كالمسك ، وعليه كتابة[1] بغير قلم ، وهى : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فأعطاه لسليمان وقال له : هنيئا لك يآبن داود بهــذه الهديّة ، وكان فى يوم الجمعة لسبع[2] وعشرين خلت من المحــرم . فلمــا صار الخاتمُ فى كفّ سليمان لم يتمكن من النظر إليــه حتى قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وكذلك كل من كان ينظر إليه[3] .

قال وقيــل : إن الخاتَمَ أُنزل من تحت العرش من نور برهان الله ، وقيــل لسليمان : لا تنزِعه من كفّك إلا بأمانة ، وجعل الله عزّه فيــه ، فتختّم سليمان به وصعِد على كرسيّه وآستقبل الناسَ بوجهه ورفع اليه الخاتم وهو يلمع ، وقال : هذا الخاتم جمع فيه عِزّى وسلطانى وفضّلنى به ربى على العالمين ، وسلّطنى على كل شيطان مريد . ثم سجد شكرا لله تعالى وسجد معه الناس . ثم نزل عليه بعــد نزول الخاتم : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فكان لا يقرؤها على شىء إلا خضع وذلّ ، فتلاها على بنى اسرائيــل فلم يسمعها أحد إلا آمتلأ فرحا . ثم أمر بعــد ذلك بآتخاذ البِيْض والسيوف ، فكان عنده اثنا عشر ألف درع من نَسْج داود .

(١) راجع الكسائى فى هذا الموضع ففيه تفصيل عما هنا .

(٢) عبارة الكسائى : « لثلاث بقين من شهر رمضان » .

(٣) هذه عبارة الكسائىّ . وفى الأصول : « فلمــا صار الخاتم فى كفه لم يتمكن من النظر اليه حتى قال : لا اله إلا الله محمد رسول الله » .

وقيل : إن داود لم يعمل أكثر من سبع أدرع ، ثم قال سليمان : يابنى إسرائيل، إنى أُمرت بمجاهدة أعداء الله؛ ثم جمع الخيول[١] وشرع فى الاستعداد للحرب .

ذكر خبر حشر الجن لسليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ : وأمر الله — عز وجل — جبريلَ — عليه السلام — أن يحشر الجنّ، فنشر جناحه الأيمنَ على شرق الأرض، والأيسرَ على غربها، ونادى : أيتها الجنّ والشياطين، أجيبوا سليمان بن داود بإذن الله ، فخرجت من سائر الأماكن وهى تقول : لَبَّيك لَبَّيك يا حجة الله . فحشرها الى سليمان طائعةً ذليلة تُسوقها الملائكة، وهى يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة، كل فرقة تَدِين بدين غير دين الأخرى، فوقفت بأجمعها بين يدَىْ سليمان ، فنظر الى عجائب صُوَرها وسجد لله شكرا؛ ثم قام على قدميه والخاتَم فى إصبعه، فلما نظرت إليه الجنّ خرّت ساجدة ثم رفعت رءوسها وقالت : يا ابن داود ، قد حُشِرنا إليك وأُمرنا بالطاعة لك ، فختم على أكتافهم بخاتمه وجنّدهم وصفّد مَرَدَتهم بالحديد ولم يتخلّف منهم إلا صخر الجنىّ تغيّب فى جزيرة ، وسنذكر خبره إن شاء الله تعالى . قال : وبقى إبليس بغير أعوان وفرّق سليمان الشياطين فى الأعمال المختلفة . من الحديد والنحاس وقَطْع الصخور والأشجار وعمارة القُرَى والمدن والحصون ، وأمرهم بعمل القدور والجِفَان ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾[٢] . قيل : كان يأكل من كل جَفْنة ألفُ إنسان . وشغل

---

(١) فى الكسائىّ : « الجنود » .

(٢) سورة سبأ آية ١٣

طائفة منهم بغَوْص البحار وآستخراج الأصداف والجواهر منها ، وأمر بعضهم بحفر الآبار وشقّ الأنهار والقَنَوات ، و بعضهم بإخراج الكنوز والمعادن، وغير ذلك من الأعمال .

ثم حُشِر له بعد ذلك الهوامّ من الحيّات والعقارب وغيرها من الحشرات وسُخِّرت له . فسأل كلا منها عن آسمها [وضرّها ونفعها][1] ومأكلها ومشربها ومسكنها ومقدار أعمارها وعادتها وغيرِ ذلك من أحوالها ، فأخبرته ، ثم صرفهم وأمرهم ونهاهم . والله أعلم .

ذكر خبر مطابخه عليه السلام

قال الكسائىّ : وأمر سليمان أن تُصْنَع الأطعمة للخلق الذين معه ، حتى كان طبّاخوه ينادون فى عسكره : مَنْ أراد طعاماً فليأت حتى نصنعه له كما يريد ، فإن سليمان نَصَبنا لذلك . وكانت موائده منصوبة ، كل مائدة طول ميل وأطول ، ومعه عدّة من الطبّاخين ، مع كل طباخ شيطان يُعينه ، ورتب فى كل مخبز ألف خباز ، وفى كل مطبخ ألف طباخ .

قال ويقال : إنه كان يُذْبَح فى مطبخه فى كل يوم من الإبل والبقر والغنم زيادة على ثلاثين ألف رأس ، ويستعمل فى مطابخه كل يوم كذا وكذا كُرّا من الملح ، وكانت موائده منصوبة لعامّة الناس فقيرِهم وغنيِّهم ؛ وكان يُؤْتَى للطير فى كل يوم من الحبوب سبعون ألف كُرّ — والكر عشرة أجربة ، والجريب ثلاثون قَفِيزا[2] — وكانت تظل البلاد بأجنحتها .

---

(١) زيادة عن الكسائى .

(٢) القفيز : مكيال ثمانية مكاكيك . والمكوك صاع ونصف . ويقدّر الصاع بالكيل المصرى بقدحين وثلث .

٧/١٢ ذكر خبر الرزق الذى سأل سليمان الله تعالى أن يجريه على يديه

قال الكسائىّ : ولمّا نظر سليمان — عليه السلام — إلى عِظَم ما آتاه الله — عزّ وجل — من المُلك، سأل الله تعالى أن يجعل أرزاق المخلوقات على يديه . فأوحى الله تعالى إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فيوما واحدا ؛ فأوحى الله إليه : إنك لا تطيق ذلك . قال : يا رب فساعة واحدة ؛ فأوحى الله إليه : إنى قد أعطيتك ذلك ، فآستعدّ الآن لأرزاق خلق وآجمع لهم . فأخذ فى الآستعداد حتى جمع ما يُنيف على حمل مائة ألف بغل و بعير ، وسار يريد ساحل البحر ، حتى أتاه و وضع ما جمعه هناك ، ونادى مناديه فى سكّان البحر احضُروا لقبض أرزاقكم . فآجتمع الحيتان والضفادع ودوابّ البحر على صُوَر مختلفة ، و إذا بحوت قد أخرج رأسه وقال : اشبعنى يآبن داود ، وهو على مثال الجبل . فقال سليمان : دونك الطعام ، فأكل جميع ذلك ، ثم قال : زِدْنى يا نبىّ الله ، والله ما أصابنى الجوع منذ خلقنى ربى كما أصابنى اليوم حين جُعِل رزقى على يديك . فعجِب سليمان منه وقال : هل فى البحر مثلُك ؟ فقال : إنى لفى زُمرة من الحيتان فيها سبعون ألف زمرة ، كل زمرة مثلُ عدد الرمل ؛ وفى البحر حيتان لو دخلت أنا فى جوف أحدها ما كنت إلا كخردلة فى أرض فَلاة . فبكى سليمان عند ذلك وقال : رب أَقِلْنى عثْرتى . فأقاله الله تعالى، ثم أوحى إليه : أنْ قِف يآبن داود حتى ترى جنودى ، فإنّ ما رأيت قليل . فوقف و إذا بالبحر قد آضطرب آضطرابا عظيما وخرج منه شىء أعظمُ من الجبل يشقّ البحر شقّا وهو يقول : سبحانَ من تكفّل بأرزاق العباد ، ثم نادى : يآبن داود ، لولا اليَدُ الباسطة عليك لكنتَ أضعف الخلائق ، و إنك لم تقدر أن تُشبع حُوتا واحدا ولا نال كلٌّ طُعمه ، فكيف تقدِر أن تتكفّل بأرزاق الخلائق ! . ثم مرّ ذلك الحوت ، فنظر سليمان إلى خَلْق عظيم ، وقال : إلهى ، هل خلقتَ خلقا

أ كبرَ من هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه : إنّ فى البحر مَن يحتاج أن يأكل سبعين ألفا مثل هـذا ولا يُشبِعه ، ولا يُشبِعه إلا نعمتى ولطفى . فعلِم سليمان أنّ الذى أُعطِيَه ليس بشىء فى قدرة الله عز وجل . والله الواسع المتفضّل .

ذكر خبر بناء بيت المَقْدِس وٱبتداء أمره

قال أبو إسحاق الثعلبىّ — رحمه الله تعالى — فى سبب بنـاء بيت المَقْدِس : إن الله تعالى بارك فى نسـل إبراهيم — عليـه السلام — حتى جعلهم فى الكثرة غاية لا يُحصَوْن . فلما كان زمن داود — عليه السلام — لبِث فيهم مـدّةً مديدةً بأرض فِلَسْطين وهم يزدادون كلّ يوم كثرةً ، فأُعْجِبَ داودُ بكثرتهم فأراد أن يعلَمَ عدد بنى إسرائيل فأمر بعدّهم ، و بعث لذلك عُرَفاء ونُقَباء ، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بَلَغ من عِدّتهم ، فكانوا يَعُـدّون زماناً من الدهر حتى عَجَزوا وأَيِسـوا أن يحيط علمهم بعـدد بنى إسرائيل . فأوحى الله تعالى إلى داود : إنى وعدت أباك إبراهيم يومَ أمرته بذبح ٱبنه فصدّقنى وٱتمر بأمرى أن أبارك له فى ذرّيته حتى يصيروا أكثر من عدد نجوم السماء ، حتى لا يحصيهم العادّون . و إنى قد أقسمتُ أن أبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم ، و يذهب عنك إعجابك بكثرتهم . وخيّره بين أن يبتليهم بالجوع والقحط ثلاث سنين ، و بين أن يسلِّط عليهم عدوهم ثلاثة أشهر ، و بين أن يسلِّط عليهم الطاعون ثلاثة أيام . فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخيّره فيه . فقالوا : أنت أعلم بما هو أيسر لنا ، وأنت نبيّنا فٱنظُرْ لنا غيرَ الجوع فلا صبرَ لنا عليه ، وتسليطُ العدوّ أمر فاضح . فإن كان ولا بدّ فالموت ، لأنه بيده لا بيد غيره . فأمرهم داود أن يتجهّزوا للـوت ، فٱغتسلوا وتحنّطوا ولبسـوا الأكفان و برزوا إلى صعيد بيت المقدس قبـل بناء المسجد بالذرارىّ والأهلين ، وأمرهم داود أن

يَضِجُّوا إلى الله تعالى وأن يتضرّعوا إليه لعله أن يرحمهم . فأرسل الله عليهم الطاعون فأَهْلِكَ منهم فى يومٍ وليلةٍ ألوفٌ كثيرةٌ لا يُدرَى عددُهم ، ولم يفرُغوا من دفنهم ٨/١٢ إلا بعد مدّة شهرين .

فلما أصبحوا فى اليوم الثانى خرّ داود ساجدًا يبتهل إلى الله تعالى، فآستجاب الله تعالى منه وكشَف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت . ورأى داود الملائكة سالّين سيوفَهم فأغمدوها وهم يرقَوْن فى سُلَّم من ذهب من الصخرة إلى السماء . فقال داود لبنى إسرائيل : إن الله قد منّ عليكم ورحمكم فجدِّدوا له شكرا . قالوا : وكيف تأمُرنا ؟ قال : آمركم أن تتّخذوا من هذا الصعيد الذى رحمكم الله فيه مسجدًا لا يزال فيه منكم ومن بعدكم ذكر الله تعالى . فأخذ داود فى بنائه . فلمّا أرادوا أن يبتدئوا البناء جاء رجلٌ صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم فى بنيانهم، فقال لبنى إسرائيل : إنّ لى فيه موضعًا أنا محتاج إليه ، فلا يحلّ لكم أن تحجبونى عن حقى . قالوا له : يا هذا ، ما من أحد من بنى إسرائيل إلا وله فى هذا الصعيد حقّ مثلُ حقّك، فلا تكن أبخلَ الناس ولا تضايقْنا فيه . فقال : أنا أعرف حقى وأنتم لا تعرفون حقكم . قالوا له : إمّا أن ترضَى وتطيبَ نفساً وإلا أخذناه كَرها . قال لهم : أَوَتجدون ذلك فى حكم الله تعالى وحكم داود ؟ ! قال : فرفعوا خبره إلى داود فقال : أرْضُوه . فقالوا : نعم نأخذه منه يانبىّ الله بثمنه . قال : خذوه بمائة شاة . فقال الرجل : زِدْنى يا نبىّ الله ؛ فقال : بمائة بقرة . قال : زدنى يانبىّ الله؛ قال فبمائة بعير . قال : زدنى يا نبىّ الله ، فإنما تشتريه لله تعالى . فقال داود : أمّا إذ قلتَ هذا فآحتكم أُعطِك . قال : تشتريه منى بحائطٍ مثله زيتوناً ونخلًا وعِنَباً ؟ قال نعم . قال : أنت تشتريه لله تعالى فلا تبخَل . قال : سَلْ ما شئت أُعطِك ، وإن شئتَ أُؤْجِرْك نفسى . قال : أوَ تفعل ذلك يا نبىّ الله ؟

قال : نعم إذا شئت . قال : أنت أكرم على الله تعالى من ذلك ، ولكن تَبنى حولَه جِدارًا ثم تملؤه ذهبًا و إن شئتَ وَرِقا . قال داود : هو هيّن . فالتفت الرجل إلى بنى إسرائيل وقال : هذا هو التائب والمخلص . ثم قال لداود : لَأنْ يغفِر الله تعالى لى ذنبًا واحدا أحبُّ إلىّ من كل ما وهبتَ لى ، ولكن كنت أختبركم . فأخذوا فى بناء بيت المقدس ، وذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من خلافة داود . وكان داود ينقل لهم الحجارة على عاتقه ، وكذلك خيارُ[1] بنى إسرائيل حتى رفعوه قامة . فأوحى الله تعالى إليه : إن هذا بيت مقدّس ، وأنت سفّاك للدماء ، ولست بانيَه ، ولكن آبنٌ لك أملّكه بعدك آسمُه سليمان أسلّمه من سفك الدماء وأقضى إتمامَه على يديه و يكون له صيتُه وذكرُه .

قال : فصلَّوْا فيه زمانًا إلى أن توفَّى الله نبيّه داود وآستخلف سليمان وأمره بإتمام بناء بيت المقدِس . فجمع سليمان الإنس والجنّ والشياطين وقَسَم عليهم الأعمال ، فخصّ كلّ طائفة منهم بعمل ، وأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرُّخام والمها[2] الأبيض الصافى من معادنه ؛ وأمر ببناء المدينة بالرُّخام والصُّفّاح ، وجعلها آثنى عشر رَبَضا[3] ، وأنزل كلّ رَبَض منها سِبْطا من الأسباط . فلمّا فرغ من المدينة آبتدأ فى بناء المسجد ، فوجه الشياطين فِرَقا ، فريقًا منهم يستخرجون الذهب والفِضّة من معادنها ، وفريقا يغوصون فى البحر و يستخرجون أنواع الدُّرّ و يقلعون الجواهر والحجارة من أماكنها ، وفريقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر أنواع الطِّيب من أماكنها ؛ فأتِىَ من ذلك بشىء لا يحصيه إلا الله تعالى . ثم أحضر الصُّنّاع

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة : «أحبار» .

(٢) المها : البلور .

(٣) الربض (بالتحريك) هنا : الناحية .

وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنضيدها ألواحا، وإصلاح تلك الجواهر وتثقيبها؛ فكانوا يعالجونها فتصوّت صوتًا شديدا لصلابتها . فكره سليمان تلك الأصوات، فدعا الجنّ فقال لهم : هل لكم حيلةٌ في نحت هذه الجواهر من غير تصويت ؟ فقالوا : يانبي الله، ليس في الجنّ أكثرُ تجاربَ ولا أكثرُ علمًا من صخر. فآستدعاه . وكان من أمره في حضوره إليه والتلطف في تحصيل حجر السامور ما نذكره — إن شاء الله تعالى — في أخبار صخر .

قالوا : فلمّا أُتِيَ بحجر السامور، وهو حجر المـاس، استعمله في أدوات الصُّنّاع، فسهَّل عليهم نحت الحجارة .

قالوا : فبنى سليمان المسجدَ بالرُّخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمَّده بأساطين المَهَا الصافي، وفصَّصه بألواح الجواهر الثمينة، وفصّص سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفَيْروزَج ، فلم يكن يومئذ بيت في الأرض أبهى ولا أنورُ من ذلك المسجد ؛ وكان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر .

قالوا : فلما فرغ من بنائه جمعَ أحبار بني إسرائيل فأعلمهم أنه بناه لله تعالى ، وأنّ كلّ شيء فيه خالص لله تعالى . وآتخذ ذلك اليوم عيدا ، فلم ٩/١٢
يُتخَذْ في الأرض قطُّ أعظمُ منه ولا من الأطعمة التي عُمِلتْ فيه . قيل : إنه ذبح من الخراف خمسين ألفا، ومن البقر خمسة وعشرين ألفا معلوفة ، ومن الغنم أربعمائة ألف شاة .

قالوا : ومن أعاجيب ما آتّخذ سليمان ببيت المَقْدِس أنه بنى بيتًا وطيّن حيطانه بالخُضرة وصقَله ؛ فكان إذا دخله الوَرِع البارّ آستبان خيالَه في ذلك الحائط أبيض؛

و إذا دخله الفاجر آستبان خيالهُ فى الحائط أسود . فارتدع عند ذلك كثير من الناس عن الفجور والخيانة . ونصب فى زاوية من زوايا المسجد عصا آبِنُوس، فكان مَنْ مسّها من أولاد الأنبياء لم تضرّه، ومن مسّها من غيرهم آحترقت يَدُه .

قالوا : ولمّا فرغ من بناء بيت المقدس قرّب قُرباناً على الصخرة، ثم قال : اللّهمّ أنت وهبتَ لى هذا المُلك مَنّاً منك علىّ، وجعلتنى خليفتَك فى أرضك، وأكرمتنى به من قبلِ أن أكون شيئا، فلك الحمدُ. اللّهمّ إنى أسألك لمن دخل هذا المسجدَ خصالًا : ألّا يدخله أحدٌ فيصلّى فيه ركعتين مخلصًا فيهما إلا خرَج من ذنو به كيوم ولدته أمّه، ولا يدخله مستتيب إلا تُبْتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمّنته، ولا سقيم إلا شَفَيتَه، ولا مُجدِبٌ إلا أخصبتَه وأغنيتَه . و إذا أجبتَ دعوتى فآجعلْ علامتها أن تقبل قُرْبانى . قال : فنزلت نارٌ من السماء فسدّت ما بين الخافقين ثم امتدّ منها عنق فاحتمل القُرْبان وصعد به الى السماء .

وقال سعيد بن المسيِّب : لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال فى دُعائه : بصلوات أبى داودَ إلا ما فُتِحتِ الأبوابُ، ففُتحت. ففرّغ له سليمان — عليه السلام — عشرة آلاف من قرّاء بنى إسرائيل، خمسةَ آلاف بالليل، وخمسةَ آلاف بالنهار، فلا تأتى ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله عز وجل يُعبَد فيها فيه .

وحكى الكسائىّ فى خبر بناء بيت المقدس قال : فأوحى الله تعالى إلى سليمان — عليه السلام — أن تبنىَ بيتَ المقدس وترفَعَ قواعدَه كما رفع إبراهيم قواعدَ البيت العتيق، وأن تبنيَه على صخرة المِعْراج. فأمر سليمانُ الجانّ أن تقطع الصخور، وتنقل الرُّخام والأحجار والعَمَد وآلاتِ العمارة إليه؛ ثم أمر بالبناء على الأساس

الذى كان داود وضعه. فلما كمل البناء آنهار وآنهدم؛ فأمر أن يُحْفَر أساسُه حتى يبلغ الماء، وعقَد البناء بالحجارة المنحوتة بعضها على بعض، فغلب الماءُ على البناء فما آنعقد الأساس. فأمر أن تُصْنَع قِلالُ النحاس والرَّصاص، وختمها بخاتَمه، وجعلها تحت الأساس. ثم أمر بالبناء فوقها فبنيت وآرتفع البناء، وعمِل فيه عشرة آلاف عمود من الرُّخام الملوّن، يلى كلَّ عمود ساريةٌ من الذهب، وسارية من الفضة؛ ومحاريب الذهب والفضة، وكُمل البناء والزخرفة فى أربعين يوما.

قال: وكان يَعْمَل فيه فى كل يوم ألفُ عِفْريت من الجنّ وألفُ شيطان وألْفٌ من الإنس. وفرغ منه يوم عرفة، وآتخذ له قناديلَ من الذهب بسلاسل الفضّة.

قال الثعلبيّ: فكان بيتُ المَقْدِس على مابناه سليمان إلى أن غزاه بُخْتَنَصَّر، فخرّب المدينةَ وهدمها، ونقض المسجد، وأخذ ما كان فى سقوفه وحيطانه من الذهب والفضة والدرّ والياقوت وسائر الجواهر، فحمل ذلك معه إلى دار مملكته من أرض العراق. قال: ثم لم يزل خراباً إلى أن بُنِىَ فى الإسلام.

قال الكسائىّ: ثم أمر آلله سليمانَ بجهاد العدوّ، فرغب فى جمع الخيل، فأُهديت إليه من جهة ملوك الأطراف الخيولُ المسوَّمة؛ فآجتمع له ما يُنيف عن سبعين ألف فرس بسروج الذهب والفضة بأجلّة الديباج. وسار صوب بلاد الشأم. وكان إذا خرج للغزو لا يستصحب شيطاناً ولا جِنّيًّا بل العبّاد من بنى إسرائيل. والله المعين.

ذكر خبر وادى النمل وما قيل فيه

قال : ولمّا سار سليمان لقصد الغزو مرّ فى طريقه بوادى النمل . قال الثعلبىّ : إنه مرّ بوادى السدير(١) (واد من الطائف) فأتى وادىَ النمل(٢) . قال الكسائىّ : فنظر إليهم و إذا هم يزيدون على مائة ألف كُرْدوس(٣) مثلَ السحاب ، وهم زُرق العيون ، ولهم أيدٍ وأرجُل . فقال سليمان : إنى أرى سحابة فى الأرض لا أعلم ما هى . فحملت إليه الريح قول النملة كما أخبر الله تعالى عنها : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا(٤) ﴾ . قال : ونزل الناسُ معه ، فقال : أتدرون ما هذا السواد ؟ هذه أُمّة من الأمم يقال لها النمل ، وأخبرهم بقول النملة ، وسجد وسجدوا شكرًا لله تعالى . ودخلت النملُ مساكنَها زُمرةً بعد زُمرة ، والنملة تناديهم : الوَحَا الوَحَا(٥) فقد وافتكم الخيل . فصاح بها سليمانُ وأراها الخاتَم فجاءته خاضعةً ، فوقفت بين يديه وهى أكبر من الذئب ، فسجدتْ بين يديه ثم قالت : يانبىّ الله ، ما سجدتُ قبلك إلا لأبيك إبراهيم ، وهأنا بين يديك مُرْنى بأمرك . فقال : ما الذى تكلّمتِ به قبل وصولى إليك؟ قالت : يا نبىَّ الله ، إنى رأيتك فى مَوْكِبك وعسكرك ، فناديتُ النملَ أن يدخلوا مساكنهم لئلّا يحطمهم جُنْدُك ، وأنا كمثل غيرى من الملوك أُريد الإصلاح لقومى . فقال لها : كم عددكم ؟

١٠/١٢

(١) فى التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لأبى حيان (ج ٧ ص ٦٠) : « وادى السدر من الطائف » .

(٢) وادى النمل : بين بيت جبرون وعسقلان كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان .

(٣) كردوس : فرقة .

(٤) سورة النمل آية ١٨

(٥) الوحا الوحا (بمدّ و يقصر) أى أسرعوا أسرعوا .

وما تأكلون وما تشربون ؟ قالت : يا نبيّ الله ، لو أمرتَ الجنّ والشياطينَ أن يحشرونا إليك لعجَزوا ، وليس على وجه الأرض وادٍ ولا جبلٌ ولا غابةٌ إلا وفى أكنافها مثل سُلطانك كراديس من النمل . ولو تفرّق كُرْدوس واحد فى الأرض لمَا وسعته . ولقد خُلقنا قبل أبيك آدم ، وإنا لنأكل كل رزقَ ربّنا ونشكره . فأمرها أن تَعرِض النمل عليه . فنادتهم ، فمرّوا به زُمرةً بعد زُمرة ، وسلّموا عليه بلُغاتهم وهو ينظر إليهم . فقالت مَلِكةُ النمل : يا نبيّ الله ، مِنّا ما يأوى الجبالَ ، ومِنّا ما يأوِى قُرْبَ المياه والأشجار والزرع ، وفى الهواء وهى الطيّارة ، فإذا نبتت أجنحتها هلكت واختطفتها الطير . والنملة لا تموت حتى يخرج من ظهرها كراديسُ من النمل . وليس على ظهر الأرض أحرصُ من النملة ، وإنها لتجمع فى صيفها ما يملأ بيتها وهى مع ذلك تظن أنها لا تَشْبَعُ . وتسبيحُها تسأل ربّها أن يُوسّع الرزقَ على خلقه . قال الثعلبيّ قال الضحّاك : اسم النملة [التى كلمت سليمان][1] «طاحية»[2] وقيل : «حرمى»[3] . والله أعلم .

ذكر خبر البعوض وما قيل فيه

قال الكسائىّ : ولما نظر سليمان إلى كثرة النمل قال : إلهى هل خلقت أكثر من النمل ؟ فأوحى الله إليه : نعم وسترى ذلك . ثم أمر الله تعالى مَلكَ البَعُوض أن يحشرها لسليمان ، فحشرها من شرق الأرض وغربها . فأقبلت كراديس البَعُوض

---

(١) زيادة عن الثعلبىّ .

(٢) كذا فى نسخة الثعلبى المخطوطة والجزء الخامس من تفسيره المسمى « الكشف والبيان فى تفسير القرآن » المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٧٩٧ تفسير . وفى شرح القاموس مادة « طخى » بالخاء المعجمة والنسخة المطبوعة من الثعلبىّ : « طاخية » وقال صاحب شرح القاموس نقلا عن النهاية : اسمها « عيجلوف » . وفى الأصول : « طاجية » بالجيم المعجمة .

(٣) كذا فى الثعلبى المخطوطة والمطبوعة . وفى شرح القاموس نقلا عن أعلام السهيلى : « حرميا » . وفى الأصول : «جرما» .

كالسَّحاب يتبع بعضُها بعضًا حتى وقف منهم كُرْدُوس على سليمان ، وأقبل مِلِكُهم وقال : يا نبيّ الله ، مالَكَ وللضُّعفَاء من خَلْق ربِّك ألهيتَهم عن التسبيح ! . يآبنَ داود ، إنّا فى هـذه الأرض قبـل أبيك آدم بألفَىْ عام ما عُرِضْنا على آدمىّ غيرك ، نأكل من رزق ربنا ، ولا نفتُرُ عن ذكره صباحًا ولا مساء . قال : أخبِرونى كم أنتم ؟ وأين مأواكم ؟ ومن أين تُرْزَقون ؟ قال مَلِكهم : يا نبىّ الله ، تحت يدى سبعون سحابةً ، كلُّ سحابة تملأ المشرق والمغرب ، لكلِّ زُمرةٍ موضع معلوم ، تأكل كل واحدةٍ رزقَها ، ولولا خوف المعاد لأكلنا ما فى الدنيا . ثم سجدوا وآنصرفوا . وكان سليمان إذا أراد أن يُدرك قومًا بعث إليهم البعوضَ فيأكل جميع ما فى مدينتهم .

ذكر خبر الخيل وما قيل فيها

قال الله تعالى : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (١) . قال أبو الحسن علىّ بن ابراهيم الحَوْفى (٢) فى "كتاب البرهان فى علوم القرآن" فى تفسيره هـذه الآية : الصافن من الخيـل الذى يجمع بين يديه . وقال الفرّاء : الصافن هو القائم . وقال مجـاهد : صُفُون الفرس إذا رفع إحدى رجليـه حتى يكون على طَرَف الحافر . قال ابن زيد : الخيل أخرجها الشيطان لسليمان من مَرْج من مروج البحر . والصَّفْن أن يقوم الفرس على ثلاث و يرفعَ رجلاً واحدة ، يكون طرف الحـافر على الأرض . قال : وكانت لهـا أجنحة . قال : والجيـاد ١١/١٢ السِّراع . وذكر أنها كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة . قال وقوله : "إنى أحببت

(١) سورة ص آية ٣١ وما بعدها .

(٢) الحوفى (بفتح الحاء المهملة وسكون الواو) نسبة الى الحوف : ناحية عمان .

حبّ الخير عن ذكر ربّى حتى توارت بالحجاب" إنه لهَا عن الصلاة حتى فاتته . قال قَتادةُ والسُّدىّ : الخير : الخيل . وروِى عن علىّ — رضى الله عنه — أنه سئل عن الصلاة الوسطى فقال : هى العصر ، وهى التى فُتِن بها سليمان . "حَتَّى توارت بالحجاب" ، يعنى الشمس حتى تغيب فى مَغيبها . وقوله : "رُدُّوهَا عَلَىَّ" أى الخيل التى عُرِضتْ علىّ فشغلتنى عن الصلاة . "فطفق مسحا بالسوق والأعناق" ، أى جعل يمسح فيها السُّوق وهو جمع ساق . قال بعضهم : عقَرها وضرب أعناقها ؛ قاله قَتادة والحسن والسُّدّى . وقال ٱبن عباس — رضى الله عنهما — : جعل يمسَح أعرافَها وعراقيبَها بيده حبًّا لها . وقيل : كشف عن عراقيبها وضرب أعناقها وقال : لا تَشغلينى عن عبادة ربّى مرّة أُخرى . قال أبو إسحاق : يجوز أن يكون الله أباح له ذلك لأنه لا يجعل التوبة من الذنب بذنبٍ أعظمَ منه . والله أعلم .

وقال الثعلبىّ — رحمه الله — فى قصّة الخيل قال الكلبىّ : غزا سليمانُ أهلَ نَصيبِين ، فأصاب منهم ألفَ فرس . وقال مُقاتل : ورِث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، كان داود أصابها من العمالقة .

قالوا : فصلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه ، فعُرِض عليه منها تسعمائةَ فرس[1] ؛ فتنبّه لصلاة العصر ، فإذا الشمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك ؛ فاغتمّ وقال : ردّوها علىّ ، فرُدّت عليه ، فعرقبها بالسيف ، وقرّبها إلى الله — عز وجل — وبقىَ منها مائة فرس . فما فى أيدى الناس من الخيل العِراب فهى من نسل تلك المائة . وقال كعبٌ : كانت الأفراس أربعةَ عشر فرسًا ، فأمر بضرب أعناقها وسُوقها بالسيف وقتلها ؛ فسلبه الله مُلْكَه أربعة عشر يوما ؛ لأنه ظلَم

(١) كذا فى الثعلبى وكتب التفسير . وفى الأصول : « أربعمائة » وهو لا يتفق مع السياق .

الخيـل بقتلها . قال الثعلبىّ وقال قوم : " فطفِق مسحًا بالسُّوق والأعناق" حبسها فى سبيل الله وكَوَى سُوقها وأعناقها بِمِيسَم[(١)] الصَّدَقة . ورُوى عن علىّ بن أبى طالب — رضى الله عنه — أن الله تعالى أمر الملائكة الموكّلين بالشمس فردّوها ، وصلّى سليمان العصر فى وقتها .

ذكر خبر بساط سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : وكان سليمان إذا ركب الرّيح تقدّم أمام بساطه البَعُوض ثم الزنابير وكل ما يطير فى الهواء ، ثم الشياطين . وكان إذا أراد أن يركب الريح دعا الرياح الثمانية : الشّمال والجَنوب والصَّبا والدَّبور والصَّرْصَر والعَقِيم والكرس والراكى[(٢)] ، فيبسُط بعضها على بعض ، ثم يبسط بساطه على هذه الرياح ، وكان من السندس الأخضر ، أخضر البطن أحمر الظهر ، أهداه الله تعالى اليه من الجنة ، لا يعلم طولَه وعرضَه إلا الله تعالى . وقيل : كان طولُه ثلاثمائة وسبعين فرسخًا فى عرض عشرة آلاف ذراع . وكان سليمان إذا ركبه جعل اللّون الأخضر مما يلى الأرض ، فإذا رفع الناس رءوسهم اليه يرونه على لون السماء . وكان يجلس على كرسيّه وعن يمينه ويساره القضاة والعلماء والأحبار من بنى اسرائيل على كراسىّ معدّة لهم ، وهو جالس فى وسط البساط وزمام الريح بيده ، ويتغدّى على مسيرة شهر ويتعشى على مسيرة شهر ؛ قال الله تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[(٣)] .

قال : وكان سليمان إذا ركب الرياح على بساطه يرى كل شىء عليه من الجنّ والإنس والشياطين والهوامّ وغيرهم ، والطير تُظلّه ، ولا يقف على مدينة إلا فتحها .

(١) الميسم (بكسر الميم وفتح السين المهملة) : حديدة تكوى بها إبل الصدقة وغيرها لتعرف وتتميز عن غيرها من الإبل المملوكة .
(٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « الكريس والدالى » .
(٣) سورة سبأ آية ١٢

ذكر خـــبر صخر الجـــنى

قال : وجمع سليمان — عليه السـلام — عفاريت الجنّ والشياطين وأمرهم بإحضار صخر الجنىّ، فقالوا : يانبىّ الله، إنّ الله قد أعطاه قوة جماعةٍ منّا، ويصعُب علينا حمله إليك، وما لنا إلا أمر واحد وهو أنه يأتى فى كل شهر الى عينٍ فى جزيرة ١٢/١٢ فيشرب ماءها . والرأى أن ننزفه منها ونملأها خمرا، فإذا جاء وشرب به وسكِر ذهبت قوته فنحمله ونأتيك به . ثم خرجوا ففعلوا ذلك، وآختفَوْا فى تلك الجزيرة. فجاء صخر ليشربَ فاَشتمّ رائحـةَ الخمر وقال : أيتهـا الخمرة إنك لطيّبة غيرَ أنك تسـلُبين العقل وتجعلين الحليم جاهلا، وأمرُك كلُّه ندامةٌ، وآنصرف ولم يشرب . ثم عاد فى اليوم الثانى وقد أجهده العطش فقال : ما من قضاء يأتى من الله إلا كان مبرمًا، ثم نزل على العين فشرب حتى آمتلأ ، ثم قام ليخرج فسقط، فتبادرت العفاريتُ إليه ومعهـم طابَعُ خاتَمِ سليمان ، فلما رآه ذَلّ وخَضَع ، فحملوه حتى وقفوه بين يدَىْ سليمان وهو يُخرج من فِيهِ لَهَبَ النيران، ومن منخريه الدُّخان . فلما عاين الخاتَمَ ضعُفت قوته وخرّ ساجدًا على وجهه ، ثم رفع رأسه وقال : يا نبىّ الله، سيزول هذا المُلْك عنك ولا يبقى إلا ذكرُه . قال : صــدقتَ . ثم قال له : يا نبىّ الله، ما الذى أحوجك إلىّ وأنا بالبعد منك لا أختلط بالآدميين ؟ فقال له سليمان : إنّ الناس قد اشتكَوْا من وقع الحـديد وصوته على الحجر . فقال : عليك بوَكْر العُقَاب وعُشّه وبيضه، فليس شىء من الطيور أبصرَ منـه ، فأُتِىَ به . فوضعـه فى البرّيّة وغطّاه بجام من القوارير شـديد الصفاء فوضعه على عُشّ العقاب . فجاء العقاب فلم ير عُشّه، فطار فى الهواء حتى نظر إلى عُشّـه فى تلك البرّيّة ، فآنقضّ عليـه وضرب الجام برجله ليكسِرَه فلم يقـدِر على ذلك، فطار وتعـلّق فى الهواء وغاب يومَه وليلته، ثم أقبل صبيحةَ اليوم الثانى وفى منقاره قطعة من حجر السامور، فآنقضّ على الجام بذلك الحجر

فضربه به ، فانشقّ الجام نصفين ولم يُسْمَع له صوت ، وأخذ العقاب عُشّه و بيضه وترك حجر السامور هناك ، فأخذه صخر وهو فى صفاء المرآة وحرّ النار . فدعا سليمان بالعقاب وسأله عن حجر السامور من أين آحتمله ، فأخبره أنه من جبلٍ شاخ . فبعث سليمان الجن والشياطين فحملوا منه ما قَدَرُوا ، فكان يقطع به الأحجار والصخور والجَزْعَ من غير أن يُسْمَع له وَقْع .

قال : ثم قال صخر : يانبىّ الله ، أتحبّ أن أتّخذ لك مدينةً ؟ قال نعم ؛ فآتخذَها . فعجب سليمان من ذلك ، وأمره أن يتّخذ له مدينةً دون تلك المدينة حتى يحملها معه على بساطه حيثما ذهب . فقال : يا نبىّ الله ، لك كلّما أردتَ السفر مدينةٌ على أىّ لون شئت . فبنى له مدينة فى طول عسكره وعرضه ، وجعل لكل سِبْط من الأسباط قصرًا فى طول ألف ذراع وعرضه مثلُ ذلك ، وفى كل قصر بيوت وغُرَف ، ثم بنى بعد ذلك مجلسًا من القوارير فى طول ألف ذراع ، وعرضه مثل ذلك ، يجلس فيه العلماء والقضاة . و بنى لسليمان قصرًا عجيبا فى طول خمسة آلاف ذراع ، وعرضه مثلها ، وزخرفه بألوان القوارير ورصّعه بأنواع الجواهر ، وجعل فيه جميع الصور والتماثيل وأتقن صنعته . وكان ممّا صنع صخر لسليمان الكرسىّ .

ذكر صفة كرسىّ سليمان عليه السلام وما آنتهى إليه أمره

قالوا : وكان مما عمله صخر الجنىّ لسليمان — عليه السلام — الكرسىّ ، وكان سليمان أمره بآتخاذه ليجلس عليه للقضاء ، وأمره بأن يعمله بديعًا مهولًا بحيث إنه إذا رآه مبطل أو شاهدُ زور آرتدعَ وتهيَّب .

قال : فعمِل له الكرسىّ وكان من أنياب الفِيَلة وفصّصه بالياقوت واللؤلؤ والزَّبَرْجَد وأنواع الجوهر ، وحفّه بأربع نَخَلات من ذهب ، شماريخها من الياقوت

الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، على رأس نخلتين طاووسان من ذهب ، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب ، بعضها يقابل بعضا ، وجعل مقابل جنبَي الكرسىّ أسدين من ذهب ، على رأس كل أسد منهما عمود من الزُّمرّد الأخضر ، وعقد على النخلات أشجارَ كروم من الذهب ، عناقيدها من الياقوت الأحمر .

قالوا : وكان سليمان إذا أراد صعودَه وضع قدَمَيْه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسىّ كله بما فيه دَوَرَان الرحا المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وكذلك كان يفعل فى كل درجة يصعد فيها سليمان . فإذا آستوى سليمان بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان ، ثم يستدير الكرسىّ بما فيه ويدور معه ١٣/١٢ النسران والطاووسان ، والأسدان مائلان برءوسهما إلى سليمان ، ينضَحْن عليه من أجوافها المسك والعنبر ، ثم تُناوله حمامة من ذهب جاثمةٌ على عمود من جوهر من أعمدة الكرسىّ التوراةَ ، فيفتحها سليمان — عليه السلام — ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء . فإذا دعا بالبيّنات [و] تقدّمت الشهود لإقامة الشهادات دار الكرسىّ بما فيه من جميع ما حوله دَوَرَان الرحا المسرعة .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ قال معاوية لوَهْب بن مُنَبِّه : ما الذى كان يُدير ذلك الكرسىّ ؟ قال : بُلبلتان[1] من ذهب . قال : فإذا دار الكرسىّ بسط الأسدان أيديَهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاووسان أجنحتها فتفزَع منها الشهود ويداخلهم الرعب الشديد ، فلا يشهدون إلا بالحق .

(١) فى قصص الأنبياء للثعلبىّ المخطوطة : « تنين عظيم » .

قال : فلما توفى الله سليمان — عليه السلام — وجاء بُخْتَنَصَّر إلى بيت المقدس أخذ الكرسىّ وحمله الى أنطاكية[1]، وأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا معرفة بأحواله . فلما وضع قدمه على الدرجة رفع الأسد يده اليمنى فضربه ضربة شديدة دقّه و رماه، فحمل بختنصّر، فلم يزل يعرُج منها و يتوجّع إلى أن مات . و بقى الكرسىّ بأنطاكية حتى غزاهم ملك من ملوك الشام يقال له كداس بن سدارس فهزم خليفة بختنصّر و ردّ الكرسى الى بيت المقدس ، فلم يستطع أحد من الملوك الصعود اليه . فوُضع تحت الصخرة فغاب فلم يعرف له خبر ولا يُدرَى أين هو . والله أعلم بالصواب .

ذكر خبر بلقيس وآبتداء أمرها

قال الكسائىّ قال كعب : هى بِلْقِيس بنة ذى شَرْح[2] ، وهى متولِّدة من الإنس والجنّ . وأمّها عَمِيرةُ بنتِ ملكِ الجنّ . وكان لآتصال ذى شَرْح والد بلقيس بعَمِيرةَ بنت ملك الجنّ سببٌ عجيبٌ نذكره على ما حكاه الكسائىّ، قال : أهلك الله تعالى مساكن سبأ بسيل العَرِم، على ما نذكر ذلك فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، وهو يلى أخبار ملوك قَحْطان، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس

(١) كانت فى القديم حاضرة سوريا ، وهى واقعة على منعطف من نهر العاصى ، وقد فاقت قديما غيرها من المدائن فى الثروة والعلوم والتجارة ، وكان لأهاليها آمتيازات مدنية خصوصية حتى انها كانت الثالثة بين مدن مقاطعات الرومان العظيمة . وقد آشتهرت بحسن موقعها وطيب هوائها ، وكانت محفوفة بغياض السرو الكثيفة ومجارى المياه العذبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) كذا فى كتاب الإكليل للهمدانى (ج ٨ ص ٣٠ طبع بغداد) ونسخة ب فى بعض المواضع مضبوطا بالقلم بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة. وفى نسختى أ ، ج : « ذو أشرح » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٥٧٦ من القسم الأول) : « هى فيما يقول أهل الأنساب : بلقمة بنة اليشرح ، و يقول بعضهم : ابنة ايلى شرح ، و يقول بعضهم : آبنة ذى شرح بن ذى جدن بن ايلى شرح بن الحارث بن قيس...الخ» . وفى الكسائى : « ذو سرح » بالسين المهملة .

فى السفر الثالث عشر[1] من هذه النسخة . قال : فلما آنقرضوا وأبادهم الفَنَاء توارثها بعدهم جماعةٌ من الملوك ليس هذا موضع ذكرهم ، حتى آنتهى المُلْك إلى رجل فظّ غليظ يقال له شَرَاحِى الحِمْيَرِىّ . وكان من عادته مع قومه أنه آفترض على أهل مملكته فى كل أسبوع أن يأتوه بجارية من بناتهم فيفتضّها ثم يردّها الى أهلها . وكان ذو شَرْح وزيره وهو من أبناء ملوك حِمْيَر من ولد سبأ ، وكان لذى شرح ألفُ قصر وألفُ فرس عتيق[2] وألف سيف يمان ، وكان يرجع الى حُسْنٍ وجمالٍ وعقل ، وكان مُولَعا بالصيد ، فكانت الجنّ تتصوّر له فى صورة الظبى ، فإذا صادهم وهمّ بذبحهم كلّموه وقالوا له : لا تَعجَلْ فإنّا إنما جئنا لننظر الى محاسن وجهك . وكانت الجنّ تؤذى أهل اليمن ، فأقسم ذو شرح أن يقتل ملك الجنّ ويتزوّج بآبنته . قال : وكان آسم ملك الجنّ عُمَير ، وكان حسنَ الوجه ، وآبنتُه عَمِيرة . فمرّ ذو شرح ذاتَ يوم فى واد من بلاد اليمن كثير الأشجار فنزل به ، حتى جنّه الليل ، وكان فى جمع قليل من أصحابه ، وكان الوادى الذى نزل به من مساكن الجنّ . فلما مضى بعض الليل سمع هَمْهَمَة الجنّ ، فقام ونادى : يامعشر الجنّ ، قد نزلتُ بكم الليلةَ على أن تُضيفونى فإنى جارٌ لكم ، فأسمعونى من أشعاركم . قال : فأنشدته الجنّ من أشعارها ، وجاءته عَمِيرة بنت عُمَير مَلِك الجن على أحسن صورةٍ . فلما نظر إليها ذَهِلَ عقلُه من حسنها ، وغابت عن عينه فشُغِفَ بحبّها فقال : يامعشر الجنّ ، إن أنتم زوّجتموها منّى وإلّا كنت حربًا لكم ما عشت أبدًا . فنادوه : ياذا شَرْح ، إنك آدمىّ فكيف تقاتل الجنّ ومسكنُهم الهواء وظلمات الأرض ! مهلًا أيها الآدمىّ لا تعرِّض نفسك الى ما لا تقدر عليه وآرجع ، فإن قُدِّر لك أمر فسوف تناله . فلما سمع ذلك أَيِسَ

---

(١) يقع هذا فى نحو الجزء السابع عشر من أجزاء هذه الطبعة .

(٢) فرس عتيق ، أى رائع .

من الترويج وأخذ فى مستأنف أمره فى مؤالفة الجنّ، فكان يُهاديهم بما يصلُح لهم من الهدايا، فصافاه عُمَير ملك الجنّ وآخاه وألِفه حتى صار عنده كالأخ. فلما رأى ١٤/١٢ ذلك ذو شَرْح وأنه قد تمكّن من ملك الجنّ قال له : هل لك أن تزوجنى آبنتك عَمِيرة ليكون لى فى ذلك شرفٌ الى الممات! فرغب فيه عُمَير ملك الجنّ لحسنه و جماله وشرفه وماله؛ فزوّجه آبنته بحضرة سادات الجن. وآنصرف ذو شَرْح الى مدينة سبأ وأهدى هدايا كثيرة الى ملك الجن وساداتِ قومه، ثم زُفّت إليه فوطِئها فحَمَلتْ منه.

ذكر خبر ميلاد بلقيس وكيف كان وسبب مُلْكها

قال: وولَدت عَمِيرةُ بنت ملك الجنّ بِلْقِيس بنت ذى شَرْح على أحسن ما تكون من الصُّوَر، ثم ماتت أمها بعد ذلك بقليل، فربّتها الجن. فلمّا بلغت مبلغ النساء قالت لأبيها : إنّى كرهت المُقَام عند الجن فآحملنى الى بلاد الإنْس فإنهم أحبّ إلىّ. فقال لها : إنّ للإنس مَلِكًا ظالمًا وذكر لها سُنّته فى بلاد قومه، وأنه يفتضّ الأبكار ثم يردّهن الى أهلهنّ. قالت: لا تخشَ ذلك علىّ وآنقلنى، وسترى ما يكون منّى. فبنى لها قصرًا خارجَ مدينة سبأ من أعظم ما يكون من الأبنية، وآتّخذ لها عرشًا من العاج والآبنوس والذهب والفضة، ونقلها الى القصر وآتّخذ لها أوانىَ الجوهر. فأقامت بِلقيس فى قصرها زمنًا طويلا، وآنتشر خبرها إلى ملك سبأ، فركب فى موكبه حتى وقف على باب القصر ورأى حُسْنَ بنائه، فرجع وأرسل بجارية من جواريه إلى بِلقيس، فدخلت عليها ونظرت إليها وإلى ما فى قصرها من التُّحَف العظيمة وما عندها من جوارى الإنس والجنّ، فعادت إلى الملك وأخبرته بما هى عليه من الجمال وأنها آبنة وزيره. فأحضره وأنكر عليه وقال : كيف آتّخذتَ

مثل هـذا القصر ولك مثلُ هـذه البنت وأنت وزيرى ولم تُعلمنى ولا ٱستأذنتَنى فى بنائه ! . فقال : أيها الملك ، أمّا القصر فإنى أنفقت عليه المـال الذى ورثتُـه من أبى . وأمّا البنت فإنها ٱبنة عَميرةَ بنت ملك الجن، ورغِبتْ فى السكن فى بلاد الإنس، فحملتُها الى هـذا المكان ، فهذه قصتها . فقال : صدقتَ فزوِّجْنيها ولا بدّ من ذلك . فقال : أحتاج فى ذلك إلى إذنها . قال : استأذِنْها . فجاء اليها وقال : يا بُنَيّـة ، قد وقعتُ فيما كنت أخشاه عليكِ ، وذكر لهـا مقالة الملك . فقالت : زوِّجنى منه ولا تَخَفْ، فإنه لا يصل إلىّ . فزوّجها منه بحضور أكابر أهل المملكة . ولمـّا تمّ التزويج كتب الملك كتابا إليهـا يقول : إنى قد عشِقتُ ٱسمَكِ قبـل أن أنظر إليك ، فإذا قرأتِ هـذه الرقعة فعجِّلى بحضورك إلىّ . فكتبتْ إليـه : إنى لمشتاقة إلى وجهك أشوقَ منك إلىّ، غير أن قصرى هـذا هو من بناء الجن، وفيه عجائبُ كثيرة، وقد جمعتُ فيه مالا يصلح إلا لمثلك. فإن رأيتَ أن تتحوّل إلى قصرى فٱفعلْ . فلمـا ورد جوابها عليـه ركب لوقته فى حَشَمه وجنوده وسادات قومه . فبلغ بِلْقيس فقالت لأبيها : امضِ إلى الملك وقُـلْ له : إنّ ٱبنتى من بنـات الجن ولم تنظر قطُّ الى مثل هـذه الجنود، ففَرِّقْ هؤلاء وٱدخل إليها منفردا . فقال ذلك للملك ، ففرّق جنوده وأتى إليهـا بمفرده، ودخل القصر وله سبعة أبواب . وكانت بِلقيس قد جعلت عند كل باب جاريةً من بنـات الجن من أحسن ما تكون من النساء ، وفى أيديهنّ أطباق الذّهب فيهـا الدنانير والدراهم والطِّيب، وأمرتهن أن ينثُرنَ ذلك على الملك . فلمـّا دخل توهَّم أنّ كل واحدة منهنّ ٱمرأتُه وهمّ بالنزول عليها، فتقول : أنا خادمتها وهى أمامك ، حتى ٱنتهى إلى آخر الأبواب ، فتقدّمت إليه جارية وأصعدته إلى العرش ، فنظر الى القصر وما فيه من الآلات والزينـة ، فرأى ما لم يخطُر ببالِه . ثم أقبلتْ بِلْقيس والجوارى بين يديهـا ينثُرن على الملك من

أنواع النِّثار وعلى رأسها تاجٌ، فصعِدت على عرشها. فلمّا رآها الملك فُتن بهـا وكاد يَذْهَل عقلُه. وأخذت فى مخادعته وملاعبته، ثم أمرتْ بالطعام فأُحضِر بين يديه. فآمتنع من الأكل وقال: ما أريد أن أغفُل عن وجهك. فأمرتْ بإحضار الشراب فأُتِىَ به فى آلات الجوهر النفيس. وأخذا فى الشرب، فلم تزل به حتى أسكرته وغاب عن عقله ووقع على قفاه لا يعقِل من أمره شيئا. فذبحته بِلْقِيس، ثم دعتْ بأبيها وأعلمته ١٥/١٢ بمـا فعلت. ففـرِح وكتب إلى خُزّان الملِك عن الملِك: إنّى قـد أحببتُ النزول بهذا القصر فآجمعوا ما فى الخزائن من الأموال وأَنْفِذوه إلى عندى [١]. فجمعوا الأموال وأنفذوها الى القصر. ثم أمرتْ بعد ذلك بآتخاذ الأطعمة فصُنعتْ ودعتْ ساداتِ ملوكِ اليمن. فلمّا جلسوا قُدِّمتْ إليهم الأطعمةُ فأكلوا، ثم قُدّم إليهم الشراب فشربوا. فلمـا أخذ منهم أشرفتْ بِلقيس عليهـم وقالت: إنّ الملك يأمركم أن توجِّهوا إليه بنسائكم وبناتكم. فغضبوا وقالوا: أمَا يكفيه أنه فضَح بناتِ العرب حتى طمِع فينا نحن!. فقالت لهم: لا تغضَبوا حتى أرجع إليه وأُعرِّفه غضبكم. ثم أمرتْ أن يُعـاد عليهم الشراب ثانيًا فشربوا ساعةً، فعادت إليهـم وقالت: قد أخبرتُ الملِك بغضبكم ومقالتكم فقال: لا بدّ من ذلك. فآزداد القوم غضـبًا وصاحوا. فقالت: على رِسْلكم حتى أُراجعه وأسأله. ومضتْ وعادت فقالت: إنى عدتُ الى الملك فوجدته قد نام، فمـا رأيُكم فى أمر أفعَـلُه وأُريحكم ممـا أنتم فيـه من شرّه على أن تملّكونى على أنفسكم؟ قالوا نعم. فحلّفتهم على ذلك وأخذت عليهـم العهود والمواثيق، وغابتْ ساعةً وعادتْ ومعها رأسُ الملك فألقتْه إليهـم، ففرحوا بذلك واستبشروا وملّكوها عليهم. فملكت بِضْعَ عشرةَ سنةً حتى بعث الله سليمان نبيًّا.

(١) فى الكسائىّ: «وأتونى بهـا» وهى أفصح لغة.

ذكر خبر سليمان و بلقيس وسبب زواجه بها

قال : وكان سببُ آتّصال خبرها بسليمان عليه السلامُ أنه بينما هــو يسير على بِساطه ، وكان الهُدْهُدُ دليلَه على المــاء لأنه يراه من عِدّة فراسخ ، فآرتفع فى الهواء لطلب المــاء ، فنظر الى هُدْهُدٍ قد أقبل من ناحية اليمن ، فآلتقيا . فقال له الهدهدُ السليمانىّ : مِن أين أنتَ ؟ قال : من اليمن . وسأله الآخر فقال : أنا من الشام من طيور الملك سليمان . قال : ومَنْ سليمان؟ قال : نبىّ الله ملك الجنّ والإنس والطير وجميع المخلوقات . قال : إنّ هذا مَلِكٌ عظيم . قال : وهل فى اليمن ملِكٌ؟ قال : نعم ، مَلِكَةٌ يقال لها « بِلقيس » تحت يدها عشرة آلاف قائد ، تحت يدِ كلِّ قائد كذا وكذا ألفا من العساكر .

وحكى الثعلبىّ أنه قال لمّــا أخبره بمُلْك ســليمان : إن لصاحبكم مُلْكًا عظيما ، ولكن ليس مُلْكُ بِلقيس دونه ، فإنها ملكةُ اليمن وتحت يدها اثنا عشر ألفَ قَيْلٍ مع كل قَيْل مائةُ ألف مقاتل — والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن — فهل أنت مُنطلق معى حتّى تراها؟ قال نعم . فآنطلقَ الهدهدان حتى أتيا بلادَ اليمن وصارا إلى قصرها ؛ فنظر إليها [الهدهد السليمانىّ][1] و إلى قصرها ومُلْكها . وحضر وقتُ الصلاة لسليمان فلم يجد الهدهد ، فقال ما أخبر الله به عنه : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[2] أى بحجة بيّنة . ثم دعا العُقاب وقال : أنت عَريف الطير ، فتعرّفْ لى خبر الهدهد . فطار فى الشرق والغرب ، و إذا هو بالهدهد قد أقبل من جهة اليمن ، فجاء به إلى سليمان . فآستخبره عن سبب غيبتــه فقال : « أَحَطْتُ بمــا لم تُحِط به وجِئْتُك من سَبَإٍ بِنَبَإٍ

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) سورة النمل آيتى ٢٠ ، ٢١

يقين . إنى وجدتُ آمرأةً تملكهم وأُوتِيَتْ من كُلِّ شَىْءٍ ولهـا عَرْشٌ عظيمٌ » . وذكر صفةَ عرشها وما فيه من أصناف الجواهر وغيرها ثم قال : «وَجَدْتُهَا وقومهَا يسجُدُونَ لِلشمسِ من دونِ الله» وخرّ ساجدًا لله ، ثم رفع رأسه وقال : « ألّا يَسْجُدُوا للهِ الذى يُخرِجُ الخَبْءَ(١) فِى السّمٰوَاتِ والأرضِ » . قال سليمان : « سَنَنْظُرُ أصدَقْتَ أم كنتَ مِنَ الكاذِبِينَ » ! . ثم سأله عن المـاء فقال : هو تحت قائمـة كُرسيِّك . فأمر سليمان بتحويل البِساط ، فحُوِّل ونقر الهدهدُ بمنقاره فخرج المـاء ، فشرب الناس وصلَّوْا . ثم قال للهدهد : « اِذْهَبْ بكِتَابِى هـذا فألْقِهْ إليهم ثم تَوَلَّ عنهـم فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعون » وأقبل سليمان على آصف بن بَرْخِيَا وقال : أُكْتُبْ إلى هذه المرأة كتابا لطيفا . فدعا بصحيفةٍ من فِضّة وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنه من ١٦/١٢ سليمان . ألّا تعلُوا علىّ وأتونى مسلمين » . وختم الكتّاب وبعثه مع الهدهد فى زُمرة من الطير ، فأقبلوا نحوَ اليمن وآنقضُّوا على قصرها ، ودخل الهدهد إلى قُبّتها من كُوّة(٢) من كَوَى القُبّـة وهى نائمة ، وقـد وَضَعتْ خاتَم مُلْكها على صدرها ، فوضع الكتابَ على نحرها وطار . فلما آستيقظتْ أخذتِ الكتابَ وجمعتْ قومَها ثم قالت : « إنِّى أُلْقِىَ إلىّ كِتَابٌ كرِيمٌ » وفتحتْه وقالت : إنه من سليمان ، وقرأتْه عليهم وعلمتْ أنه من قِبَل رجل عظيم . وجمعتْ أكابرَ قومها وأهلَ العقل والعـلم الذين فى مملكتها و « قالت يأيها الملأُ أَفْتُونِى فى أمرِى ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتى تَشْهَدُونِ . قالوا نَحْنُ أُولُو قُوّةٍ وأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ والأمْرُ إليكِ فَانْظُرِى ماذا تَأْمُرِينَ » . فعلمتْ عند ذلك أنهم قد أخطئُوا الرأىَ فى عَزْمِهم على الحرب و « قالتْ إنّ الملوك إذا دَخَلوا قريةً أفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أعِزّةَ أهْلِهَا أذِلّةً وكذلك يفعلُونَ . وإنّى مُرْسِلَةٌ إليهم بهَدِيّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ » .

(١) خبء الأرض : نباتها . وخبء السماء : مطرها . (٢) الكوّة : الخرق فى الحائط .

قال : وأرادتْ أن تختبِر حالَ سليمان عليه السلامُ فقالت : إنْ طلب الدنيا أرضيناه بالمال وصرفنا أذاه عنّا، وإنْ كان من الأنبياء ولم ترغِّبه الدنيا لم يكن لنا أمرٌ إلا الطاعةُ له ، فمضَوْا على رأيها ، فأمرتْ بآتّخاذ الهدايا . فعاد الهدهد إلى سليمان وأخبره بما كان من أمرها مع قومها . فأمر سليمان أن يُفرَش مَيْدانه بِلَبِن الذهب والفِضّة، وأن يُبْنَى حولَ الميدان حائطٌ من الفضة شُرُفاته من الذهب، على كل شُرْفةٍ تاجٌ من الذهب مرصّع بالجوهر، وأمر الجنَّ أن يأتوا بأولادهم من الذكور والإناث، وأمر بإحضار كل فرس عجيب الخَلْق .

قال الثعلبيّ : إنّ سليمان عليه السلامُ سأل الجنّ عن أحسن دوابّ رأَوْها فى البحر. قالوا : رأينا دوابَّ فى بحر كذا وكذا منمّرة منقّطة مختلفة ألوانُها، لها اجنحة وأعرافٌ ونواصٍ . قال : عَلَيَّ بها الساعةَ ، فأتَوْه بها . قال : شُدُّوها عن يمين المَيْدان ويساره، ففعلوا . قالوا : وأمر سليمان الشياطين أن يُظهروا من التهويلات ما لم يُظهروه قبل ذلك اليوم .

قال الكِسائيّ : وكانت بِلقيس قد أعدّتْ مائةَ لَبِنةٍ من الذهب، ومائةَ لَبِنةٍ من الفضّة ، ومائةَ غلام أمرد ، لكل غلام ضفائرُ كضفائر النساء ، ومائةَ وصيفةٍ مضموماتِ الشعر .

قال الثعلبيّ : وآختلفوا فى عددهم، فقال الكلبيّ : عشرة غِلْمانٍ وعشر جوارٍ. وقال مُقاتل : مائةُ وصيفٍ ومائةُ وصيفة . وقال مجاهد : مائتا غلام ومائتا جارية . وقال وهب : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية . وألبستْ الغلمانَ ثيابَ الوصائف، وألبست الوصائفَ ثيابَ الغلمان .

وقال الثعلبيّ : قال وَهْبٌ وغيره من أهل الكُتُب : عَمَدتْ بِلْقِيسُ إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجوارِيَ لباسَ الغِلمان، وألبست الغِلمان

لباس الجوارِى ، وجعلتْ فى سواعدهم أساور من ذهب ، وفى أعناقهم أطواقًا من ذهب ، وفى آذانهم أقراطًا وشُنُوفًا[1] من ذهب مرصّعاتٍ بألوان الجواهر ، وحَمَلت الجوارِىَ على خمسمائة رَمَكةٍ[2]، والغلمانَ على خمسمائة بِرْذَوْنٍ، على كل فرس لجامٌ من ذهب مرصّع بالجواهر، وغواشِيها من الدِّيباج الملوّن، و بعثت إليه خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب، وخمسمائة لبِنةٍ من فضة .

قالوا : وعَمَدتْ الى تاجٍ من ذهب مرصّع بالجواهر، ومائةِ فرسٍ من جياد خيول اليمن، عليها براقع الحرير وأجلّة الديباج، و بعثت بحُقّة من ذهب فيها دُرّة غير مثقوبة، وجَزْعٌ يمانىّ مثقوبٍ مُعْوَجّ الثّقب، [وقارورة][3] و بعثتْ ذلك مع وزيرها، وكتبتْ جوابَ كتابِ سليمان وقالت : قد بعثتُ إليك بمائتَىْ وصِيفٍ ووصيفةٍ على سِنّ واحدة، وأحِبّ أن تميّز ذكورَهم من إناثهم من غير أن تكشِف عنهم ، ودُرّةٍ غير مثقوبة تأمر مَن يثقُبها من غير أن تستعين بأحدٍ من الإنس والجنّ والشياطين ، وجَزْعٍ مثقوبٍ تُدخِل فيه خيطا ، وقارورةٍ تملؤها ماءً ما نزل من السماء ولا نبع من الأرض .

فلمّا جاء الرسولُ ونظر الى مَيْدان سليمانَ وحِيطانه وما على شُرُفاتها من التِّيجان والخيول حول الميدان ، دخل على سليمان بالجوارى والغِلمان والحُقّة والقارورة ، ولم يظهر الذهب والفضة والخيل لأنه آستحقرها بالنسبة إلى ما رآه .

---

(١) الاشناف جمع شنف (بفتح الشين المعجمة وسكون النون) وهو ما يعلق فى أعلى الأذن . وأما ما يعلق فى أسفلها فهو قرط (بضم القاف وسكون الراء المهملة) .

(٢) الرمكة : الفرس .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام الآتى .

وقال الثعلبيّ : إنه كان ممـا بعثته خمسمائة لَبِنةٍ من ذهب ، وخمسمائة لبنةٍ من فضة . قال : فلمّـا دنا القوم من الميدان ونظروا الى مُلْك سـليمان ورأَوْا الدوابّ ١٧/١٢ تَرُوثُ على لَبِنِ الذهبِ والفضـة رمَوْا ما معهم من الهدايا . قال : وفى بعض الروايات أنّ سـليمان لمـّا أمر بفراش الميـدان بلَبِنِ الذَّهَب والفضّـة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعًا على قدر اللَّبِنات التى معهم . فلمّـا رأت الرسل موضع اللَّبِنات خاليًا وكل الأرض مفروشـة خافوا أن يُتَّهموا بذلك ، وطرحوا ما معهـم فى ذلك المكان .

قال : ثم مرّوا على الشياطين ، فلمّـا نظروا إليهم فزِعوا . فقِيل لهم : جُوزُوا فلا بأسَ عليكم . وكانوا يمرّون على كُرْدُوسٍ[1] كُرْدوس من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدى سليمان عليه السلام .

قال الكِسائِيّ : فقُدّم الكتابُ إلى سليمان ، فأخبر سليمانُ الرسولَ بمـا فيه قبل فتحه وقراءته ، وميّز الوُصَـفاء من الوصائف ، وأمر دودةً فثقبتْ الدُّرّة وأدخلت الخيط فى الجَزْع ، وأمر أن تُساق الخيلُ حتى تعرَق وتُملأ القارورةُ من عَرَقها ، وأقبل على وزير بِلْقِيس وقال : ارجعْ إلى صاحبتك بمـا جئتَ به من الهديّة وقُلْ لهـا : « أَتُمِدُّونَنِي بِمَـالٍ فَمَـا آتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِمَّـا آتَاكُمْ بَلْ أَنتم بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ . ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

قال : فعاد الوزير إليها بما جاء به من الهديّة وأخبرها بما كان من أمر سليمان . فقالت لقومها : هل علمتم الان أنّ رأيى كان أصوبَ من رأيكم فى ترك المحاربة ؟ ومن أين لنا طاقةٌ بحرب نبيّ ! ! ثم جمعتْ أموالَها وكنوزها وآستصحبت ذلك معها

(١) الكردوس : الكتيبة من الخيالة .

إلّا عَرْشَها فإنّها تركتْه بقصرها وأغلقتْ عليه سبعةَ أبوابٍ وسارتْ إلى سليمان ومعها ملوكُ اليمن وأكابرُها وساداتُها، فبلغ ذلك سليمانَ .

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى : شخصتْ بِلقيس إلى سليمان عليه السلام فى آثنَىْ عشر ألفَ قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يد كل قَيْل منهم مائة ألف . قال ابن عبّاس رضى الله عنهما : وكان سليمان رجلاً مَهِيباً ، لا يُبتدأ بشىء حتى يكون هو الذى يسأل عنه . فخرج يومًا فجلس على سرير مُلْكه فرأى رَهَجاً[1] قريبًا منه، فقال : ما هذا؟ قالوا : بِلقيس . قال: وقد نزلتْ منّا بهذا المكان ؟ قالوا نعم . قال آبن عبّاس رضى الله عنهما : كما بين الكوفة والحِيرة قَدْرُ فرسخ .

قال : فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال : « يأيها المَلَأُ أَيُّكُمْ يأْتِينِى بعَرْشِها قبلَ أنْ يأْتُونى مُسْلمينَ . قال عفْريتٌ من الجنّ أنَا آتيكَ به قبلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامكَ وإنّى عليه لَقَوِىٌّ أمينٌ » قال : أريد أسْرَعَ من ذلك. « قَالَ الَّذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ — وهوآصف بن بَرْخِيَا — أنا آتيك به قبلَ أنْ يرتدّ إليك طَرْفُكَ » . قال: وكان عنده آسمُ الله الأعظم . «فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ ربِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أمْ أَكْفُرُ ومَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَرَ فإنّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ» . ثم قال سليمان : « نَكِّرُوا لها عَرْشَها نَنْظُرْ أتَهْتَدِى أمْ تَكُونَ مِنَ الذين لا يَهْتَدُونَ » . فأقبل عفريتٌ من الجنّ وقال : يا نبىّ الله ، إنّ رجليها كحافر حمارٍ. قال له سليمان : إنْ كان ذلك كما قلتَ وإلا عاقبتُك . قال : يا نبىّ الله ، أريد أن أتّخذ لك صَرْحًا[2] من قَوَارير ، وأُجرِيَ فيه ماءً ، وأُنزل فيه الحيتانَ والسمك ، فلا يشكّ مَنْ رآه أنه

---

(١) الرهج : الغبار أو ما أثير منه .

(٢) الصرح : القصر .

ماءٌ جارٍ، فآتّخذه كذلك . فلمّا فرغ منه شكره. فقال : يا نبيّ الله، أُعفُ عنّى فإنّى كذبت على بِلقيس فى رِجلَيْها ، فعفا سليمان عنه .

وأقبلت بلقيس فجعلتْ تنظر إلى الجنّ والإنس والطير والوحش وغيرهم، وهم قيامٌ لا يضرّ بعضهم بعضا . فلما قاربتِ الصَّرْحَ الممرَّد إذا بعَرْشها ، فتعجبّت . فقيل : أَهَكَذَا عَرْشُك ؟ قالت : كأنه هو ، وعلمتْ أنّه هو ، وأنه من قدرة الأنبياء .

قال : فلمّا أقبلتْ إلى الصرح حَسِبتْه لُجّة وكشفتْ عن ساقَيْها . فناداها سليمان : إنه صرحٌ ممرّد من قوارير . فأرسلت ثوبها على ساقَيْها حياءً من سليمان، ثم «قالت رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّهِ رَبِّ العالمِينَ » ثم أسلم قومُها .

قال الثعلبيّ : اختلف العلماء فى أمرها بعد إسلامها ، فقال أكثرهم : لمّا أسلمتْ بِلقيس أراد سليمان أن يتزوجها . فلمّا همّ بذلك كَرِه ما رأى من كثرة شعر ساقَيْها وقال : ما أقبحَ هذا ! . فسأل الإنس : بِمَ يذهب هذا ؟ فقالوا : بالموسى . فقالت المرأة : لم يَمَسَّنِى الحديدُ قطُّ ، فكرِهه سليمان . فسأل الجنّ ، فقالوا : لا ندرى . فسأل الشياطين فمكروا عليه ، فلمّا ألحّ عليهم قالوا : نحن نحتال عليه حتى يكون كالفضّة البيضاء ، فآتّخذوا لها النُّورةَ(١) والحمّام . قال آبن عبّاس رضى الله عنهما :

١٨/١٢ هو أوّل يوم آتُّخِذَت فيه النُّورة . وقال الكسائىّ فى سياقة خبره : ثم قالت بِلقيس : يا نبيّ الله ، أرى خاتَمك منقوشا ، فما الذى عليه ؟ قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . قالت : ومَنْ محمد ؟ قال : نبيّ يخرج فى آخر الزمان ، فآمنتْ

(١) النورة : حجر الكلس ثم غلب على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره ويستعمل لإزالة الشعر .

بلقيس به . ثم قال لها بعد إيمانها : أتحبّين أن تَرجِعى إلى بلادِك وما كنتِ فيه؟ قالت : لا، بل أكون معك من بعض نسائك، فتزوّج بها سليمان عليه السلام .

هذا ما أورده الكسائىّ . وفيه زياداتٌ نقلها أبو إسحاق الثعلبىّ قد ذكرناها فى أثناء القصّة ونبّهنا عليها ونسبناها إلى قائلها . وحكى الثعلبىّ أيضا فى هذه القصة زياداتٍ قد رأينا إثباتها؛ فمن ذلك وَصْفُ قصرها وعَرْشِها .

ذكر صفة القصر الذى بنته بلقيس وصفة عرشها

قال أبو إسحاق الثعلبىّ قال الشعبىّ : يُرْوَى أنّ بلقيس لمّا ملكت أمرت فحُمِل إليها خمسمائة أسطوانة من الرُّخام، كلُّ أسطوانة خمسون ذراعا، وأمرتْ بها فنُصبت على تلّ قريب من مدينة صَنْعاء، وخَطّت بين كلِّ أُسطوانتين عشرةَ أذرع، ثم جعلت على ذلك سقفًا مبسوطا بألواح الرُّخام وأُلْحِمَ بعضُها إلى بعض بالرَّصاص حتى صارت كأنها لوحٌ واحد . ثم بنَتْ فوق ذلك قصرًا مربّعا من آجُرّ وجعلتْ فى كل زاوية من زواياه قُبّةً من ذهب مُشرفةً فى الهواء، وفيما بين ذلك مجالسُ حيطانُها من ذهبٍ وفضّةٍ مُرصّعةً بأنواع الجواهر الملوّنة، فكانت الشمس إذا طلعت على ذلك القصر ٱلتهبَ الذهبُ والجوهر فيكاد يُعْشِى العيونَ وتَحارُ فيه الأبصار . وجعلتْ بابَ ذلك القصر مما يلى المدينةَ بدَرَجٍ من الرخام الأبيض والأحمر والأخضر، وفى جانبه حُجُرًا لحُجّابها وبوّابيها وحَرَسها وخَدَمها وحَشَمها على قدر مراتبهم .

قال : وأمّا صفة عَرْشها فكان مُقَدَّمُه من ذهب مفصّص بالياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، ومؤخَّره من فضة مكلّل بأنواع الجواهر، وله أربعُ قوائم :

قائمةٌ من ياقوت أحمرَ، وقائمةٌ من ياقوت أصفرَ، وقائمةٌ من زُمُرُّد أخضرَ، وقائمةٌ من دُرٍّ أصفر، وصفائح السرير من ذهب . وعليه سبعةُ بيوت، على كل بيت بابٌ مُغْلَقٌ، وكان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا، وطولُه فى الهواء ثمانون ذراعا ، فـذلك قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . أىْ سرير ضخم .

ذكر خبر وادى القِرَدَة

قال الكسائى : و بينما سليمان عليه السلامُ مع بِلْقِيسَ ذاتَ يوم إذ قال لها : أكُلُّ اليمن فى طاعتك ؟ قالت : نعم، إلّا وادٍ عن يمين سبأ ، فيه أشجار ومياه غلبت عليه القِرَدَةُ وأزاحوا عنه سُكّانه ، وهو وادٍ طويلٌ عريضٌ ، وهم فى كثرة، و إنهم على سُنَن اليهود لا يتبايعون يوم السبت . فبعث سليمانُ العُقَابَ ليأتيه بخبرهم . فطار إلى الوادى وعاد اليه قبل أن يقوم من مُقامه ذلك، وأخبره بكثرتهم . فركب سليمان الريحَ على بِساطه فى قُبّة القوارير ، وسار فى نفر من بنى إسرائيل حتى نزل على شَفِير الوادى ، فعلم القِرَدة أنه سليمان، فبادروا إلى طاعته وأتَوْه، وقالوا : يا نبىّ الله، إنّا من نَسْل اليهود الذين ٱعتدَوْا فى السبت، ونحن على دين موسى نعمَل بأحكام التوراة، وسألوه أن يُقِرّهم فى ذلك الوادى، فأقرّهم فيه وكتب لهم سِجِلًّا على لَوْح من نُحاس وجعله فى عُنق كبيرهم يتوارثونه ، ثم ٱنصرف عنهم . هكذا نقل . والصحيح أنّ الذين ٱعتدَوْا فى السبت وغيرهم ممن مُسِخ لم يُعْقِبوا . وفى الصحيح : إنّ الله لم يجعل لمَسِيخٍ[1] نَسْلا .

(١) مسيخ ، أى ممسوخ .

ذكر خبر الرجل الذى قُبِض بأرض الهند

١٩/١٢ قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ قد سأل الله تعالى أن يُرِيَه مَلَك الموت فأراه إيّاه، وكان يعوده و يأتيه فى كل خميس. فأتاه فى بعض الأيام على صُورة البشر، وجعل يُطيل النظر إلى رجل فى مجلس سليمان حتى ارعبَ ذلك الرجل. فلمّا فارقه مَلَك الموت قال : يانبىّ الله، لقد فزّعنى هذا الرجل الذى كان فى مجلسك من نظره إلىّ، فمَنْ هو؟ قال: هو مَلَك الموت. قال : يانبىّ الله أسألك أنْ تأمُرَ الريح أن تحملنى إلى أرض الهند، فأمرها سليمان فحملته من مجلسه ووضعته بأرض الهند. ثم جاء مَلَك الموت إلى سليمان، فقال له : قد كنتَ اليوم عندى وأنت تنظر إلى ذلك الرجل نظرًا شافيا حتى خاف منك. قال : يانبىّ الله، إنى كنتُ قد أمرت بقبض رُوحه فى موضع من أرض الهند فى هذا اليوم، فلمّا رأيته عندك عجبتُ متى يصل إلى الهند، فإذا الريح قد جاءت به، فألقته فى البقعة التى أُمِرتُ بقبض رُوحه فيها، فقبضتُ روحه هناك. فعجِب سليمان عليه السلام من ذلك.

ذكر خبر الفتنة وذهاب خاتَم سليمان عليه السلام ورجوعه اليه

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلامُ كلّما نزل بمنزلٍ من البرارى بَنَتِ الجنّ والشياطين له قصرًا بديعا، فإذا تحوّل عنه خرّبوه. وكان له قصر على ساحل البحر من بناء الجنّ، فأمرهم أن يتركوه على حالته. فجاء سليمان إلى ذلك القصر فنزله، وكان صخر الجنىّ معه وهو شديد الحرص على أن يَسلبه الخاتَم؛ لأنه كان قد علِم أن مُلْكه فى خاتَمه. وكان لسليمان جاريةٌ آسمها «الأَمينة» فكان إذا أراد الدخول الى الخَلْوة بنسائه يسلّم الخاتَم إليها، فإذا آغتسل أخذ خاتَمه منها، وكذلك إذا أراد الوضوء. فجاء سليمانُ فى بعض الأيام فنزل ذلك القصرَ وأراد

الوضوء، فدفع الخاتَم الى الجارية. فجاء صخرٌ وقد ألقىَ على نفسه صورة سليمان، فقال للجارية : هاتِ الخاتَمَ، فناولته إيّاه وهى لا تعلم. فلمّا صار الخاتَمُ فى يد صخر لم يستقر فى يده لأنه شيطان ، فرماه فى البحر ، فجـاء حُوت بإذن الله فآبتلعه. ومضى صخر وهو على صورة سليمان فجلس على كرسيّه ومعه الناس وهم يظنّون أنه سليمان؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[1] قيل : الجسد هو صخر الجنى .

قال : وخرج سليمان من الخلاء وقـد غيّر الله صورته إلى صورة صخر، فطلب الخاتَمَ، فقالت الجارية : أعوذ بالله منك، قد دفعتُ الخاتم إلى سليمان. فعلم أنّ الله قد أوقع به البليّة ، فخرج يريد القصر و يقول للناس : أنا سليمان، والناسُ يهزءون بقوله و يقولون : لستَ سليمان أنت صخر الجنيّ . فجعل سليمان يدور على جميع الناس وهم على كلمة واحدة فى إنكاره، وجعل يدور فى القرى و يقول : أنا سليمان والناس يَشْتِمُونه حتى لزِق بطنُـه بظهره من الجوع، فقال : إلٰهى إنّك آبتليتَ كثيرا من الأنبياء ولم تَحرِمهـم رِزقك . إلهى إنّى تائب إليك من خطيئتى . فـلم يَزَلْ سليمان كذلك أربعين يوما لم يَطْعَمْ شيئا، ثم وجد قرصةً يابسةً مُلقاةً، فأخذها ولم يقدِر على أكلها ليُبْسها، فأقبل الى ساحل البحر وقعد يبُلّ القرصة فآستلبتْها الأمواج من يده. فقال : إلٰهى رزقتَنى بعد أربعين يومًا قُرصةً يابسة نزلتُ حتى أبلّها فآستلبتْها الأمواج من يدى وأنت المتكفِّل بأرزاق العباد ، وأنا عبدك المذنب، فارزقنى فأنت الرّزاق الكريم . ثم جعل يمشى على الساحل وهو يبكى، فإذا هو بقوم يصطادون السمك ، فسألهم شيئا من الطعام فمنعوه وطردوه وقالوا له : انْصَرِفْ عنّا، فما رأينا أوحش من وجهك . قال : ما عليكم من وجهى إذا أطعمتمونى؟! . قالوا : وحقِّ سليمان

(١) سورة ص آية ٣٤

إنْ قُمْنا إليك لنُوجعنّك ضربًا إن لم تَرُحْ(١) عنّا . قال : يا قوم، فأنا والله سليمانُ . فضربه رجلٌ منهم على رأسه وقال: أتكذِب على نبيّ الله! فبكى حتى بكت الملائكة لبكائه ورحمه أولئك القوم وناولوه سمكةً وأعطَوْه سِكّينًا، فشقّ بطنها ليصلحها ويَشْوِيَها ويأكلَها، فخرج الخاتمُ من بطنها فغسَله وجعله فى إصبعه، وعاد اليه حسنُه وجماله، فوضع السمكة وسار يريد قصره، فجعل يمرّ بتلك القُرَى، فكُلُّ من كان قد أنكره عَرَفه وسَجَد له. فبلغ ذلك صخرًا الجنّيّ فهرَب. وعاد سليمان الى قصره واَجتمع ٢٠/١٢ له الإنس والجن والشياطين والسباع والهوامّ كما كانوا أوّل مرّة . فبعث العفاريت فى طلب صخر فأتَوْه به ، فأمر أن ينقُروا له صخرتين وصفّده بالحديد وجعله بينهما وأطبقهما عليه وختم عليه بخاتَمه وطرحه فى بُحيرة طَبَرِيّة . فيقال : إنه فيها إلى يوم القيامة . ثم أمر الله الرياح أن تَحشُر له سائر الشياطين فحُشِرتْ له، فصفّد مَرَدتهم بالحديد وحبسهم . هذا ما أورده الكِسائىّ فى قصّة الفتنة، وهو أولى ما أورده وأشبه ما نقل .

وحكى الثعلبيّ رحمه الله فى خبر الفتنة قال قال محمد بن إسحاق قال بعض العلماء عن وهب بن مُنَبِّه قال : سمع سليمان عليه السلامُ أنّ فى جزيرة من جزائر البحر رجلًا يقال له «صَيْدون» ملِك عظيم الشأن لم يكن لأحد من الناس عليه سبيل لمكانه فى البحر . وقال غيره : إن هذه الجزيرة مسيرة شهر فى مثله، وفيها عجائب كثيرة وأشجار وأنهار، وفى وسطها مجلس على عمد من مرمر ملوّن ، والمجلس من ذهب مفصل بأنواع الجواهر يُشرف على جميع الجزيرة . وقيل : إنه كان ساحرا ، فكانت الجنّ تُطيف به وتعمل له العجائب ، فدَلّ سليمان عليها فغزاه .

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصول : « تمرّ » .

نَرْجِع إلى سياق الثعلبيّ قال : فخرج سليمان إلى الجزيرة تحمله الريح على ظهر المـاء حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس ، فقتل مَلِكها وسَبَى مافيها ، وأصاب فيما أصاب بنتَ الملك وآسمُها «جرادة» لم يرالناسُ مثلَها حسنًا و جمالًا ، فآصطفاها سليمان لنفسه ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلّة ثقـة ، وأحبّها سليمان حبّا لم يحبّه شيئـا من نسائه ، وكانت منزلتُها عنده منزلةً عظيمة ، وكان لا يذهَب حزنُها ولا ترقأ(١) دمعتُها على أبيها . فشقّ ذلك على سليمان وقال لها : و يحكِ ! ما هذا الحزنُ الذى لا يذهَب ، والدمع الذى لا يرقأ ! . قالت : إنى أذكره وأذكر مُلْكه وما كان فيـه وما أصابه فَيحزُنُنى ذلك . قال سليمان : فقد بدّلك الله مُلْكًا أعظمَ من ملكه ، وسلطانًا أعظمَ من سلطانه ، وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كلّه . قالت : إنّ ذلك كذلك ، ولكن إذا ذكرته أصابنى ما ترى من الحزن . ولو أنك أمرت الشياطين فصوروا لى صورته فى دارى أراها بُكرةً وعشيّة لرجوتُ أن يذهب ذلك ، وأن يسكُنَ عنّى بعضُ ما أجد فى نفسى . فأمر سليمان الشياطين أن يمثّـلوا صورة أبيهـا فى دارها حتى لا تنكر منه شيئا ، فمثّلوه لهـا حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا رُوحَ فيه . فعَمَدتْ إليـه حين صنعوه فأزّرتْه وقمّصته وعمّمته بمثـل ثيابه التى كان يَلْبَس . ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغـدو على ذلك التمثال هى و ولائدُها فيسجُدْن له كما كانت تصـنع ذلك فى مُلْكه ، وتفعل ذلك بكرةً وعشيّة وسليمانُ لا يعلَم بشىء من ذلك أربعين يوما . و بلغ ذلك آصـف بن بَرْخِيَا ، وكان صدّيقا ، وكان لا يُرَدّ من باب سليمان متى أراد دخوله من ليـل أو نهار ، فأتاه فقال : ياَنبيّ الله ، كَبِرتْ سنّى ، ودقّ عظمى ، ونَفِدَ عمرى ، وقد حان منّى الذهاب ، وقد أحببتُ أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله وأُثنى عليهم بعلمى ، وأُعَلِّمَ الناس

---

(١) لا ترقأ : أى لا تجف ولا تنقطع .

ما يجهلون من كثير من أمورهم، فقال : افعَلْ . فجمع له سليمان الناسَ فقام فيهـم خطيبا، فذكر مَنْ مضى من أنبياء الله وأثنى على كلٍّ منهم بما فيه، وذكر ما فضّلهم الله به حتى آنتهى إلى سليمان، فقال : ما كان أحلمَك فى صغرك، وأورعَك وأفضلَك فى صغرك، وأحكمَ أمرَك فى صغرك، وأبعدَك من كل ما تكره فى صغرك، ثم انصرف. فوجَد سليمان فى نفسه من ذلك . فلما دخل سليمان داره أرسل إلى آصِف بن بَرْخِيَا فقال : ذكرتَ مَنْ مضى من أنبياء الله، وأثنيتَ عليهم خيرا فى كل زمانهم، وفى كل حالٍ من أمورهم؛ فلما ذكرتَنى جعلت تُثنى علىّ بخير فى صِغَرى وسكتَّ عما سوى ذلك من أمرى فى كِبَرِى ، فماذا أحدثتُ فى آخر أمرى ؟ قال : لأنّ غيرَ الله يُعْبَد فى دارك أربعين يوما فى هَوَى آمرأة. قال سليمان : فى دارى! قال : نعم فى دارك. فآسترجع سليمانُ ثم دخل داره فكسر ذلك الصنم، وخافت تلك المرأة. ثم أمر سليمان بثياب الطُّهر فأُتِىَ بها، وهى ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا تَمَسُّها آمرأة ذاتُ دم، ٢١/١٢ فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده ، فأمر برماد فَفُرِش له، ثم أقبل تائبا إلى الله حتى جلس على ذلك الرَّماد تذلُّلا لله تعالى وتضرُّعا إليه، يبكى ويدعو ويستغفر مما كان فى داره ، فلم يزل ذلك دأبَه حتى أمسى، ثم رجع إلى داره . وكان له وَليدة يقال لها «الأَمينة»، فكان إذا دخل لحاجته أو أراد إصابة آمرأة من نسائه وضع خاتَمــه عندها حتى يتطهّر، فوضعه يوما من الأيام عندها ثم دخل لقضاء حاجته، فأتاها صخر الجِنّىّ على صورة سليمان لا يُنْكَر منه شىء ، فقال لها : يا أمينة، خاتَمى؛ فناولته إياه، فجعله فى يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الجنّ والإنس والطير. وخرج سليمان فأتى الأمينةَ وقد تغيّر عن حِلْيته وهيئته عند كل مَنْ يراه. فقال : يا أمينة . قالت : ومن أنت ؟ قال : أنا سليمان بن داود . قالت : كذبتَ لستَ سليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتَمه وهو جالس على سريره فى مُلكه،

فعَرَف سليمانُ أنّ خطيئته قد أدركتْه، فجعل يقف على الدار من دور بنى إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيَحْثُون عليــه التراب ويسبُّونه ويقولون : أُنظروا إلى هــذا المجنون يزعم أنه سليمان . فلمّا رأى سليمان ذلك عَمَد إلى البحر ، فكان ينقُل الحِيتان لأصحاب البحر منه الى السوق فيعطونه كلَّ يوم سمكتين، فإذا أمسَى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوى الأخرى فيأكلها . فمكث كذلك أربعين صباحا عدّةَ ما كان ذلك الوثن فى داره .

قال : وأنكر آصِف وعظماءُ بنى إسرائيل حُكْمَ عدوّ الله الشيطان فى تلك المدّة. فقال آصِف : يامعشر بنى اسرائيل ، هل رأيتم من آختلاف حكم سليمان بن داود ما رأيتُ ؟ قالوا نعم . قال : أمهلونى حتى أدخل على نسـائه وأسألهنّ هل أنكرنَ منه فى خاصّة أمره ما أنكرناه فى عامّة أمرِ الناس ، فدخل على نسائه فقال: ويحكنّ! هل أنكرتنّ من أمر نبىّ الله سليمانَ ما أنكرناه ؟ فقلن : أشدّ وأعظم، ما يدع آمرأة منّا فى دمهـا ، ولا يغتسل من جنابة . فقال آصِف : إنّا لله وإنا إليه راجعون، إن هــذا لهو البلاء المبين . ثم خرج إلى بنى اسرائيل فقال : ما فى الخـاصّة أعظَم ممّـا فى العامّة . فلمّا مضت أربعون صباحا طار الشيطان عن مجلسه ثم مرّ بالبحر فقذف الخاتمَ فيه ، فآبتلعته سمكة وأخذها بعض الصيادين ، وقــد عمِل له سليمان صدرَ يومه حتى إذا كان آخرُ النهـار أعطاه سمكتيه ، فأُعطىَ السمكةَ التى آبتلعت الخاتمَ، وحمل سليمان سمكتيه فباع التى ليس فيها الخاتمُ بالأرغفة، ثم عَمَد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها، فآستقبله الخاتم من جوفهـا فأخذه، فجعله فى يده ووقع ساجدا لله تعالى، وعكفت عليه الطير والوحش والجنّ . وأقبل إليه الناس ورجع إلى مُلكه وأظهر التوبة من ذنبه ، وأمر الشياطين بإحضار صخر فأدخله فى صخرة عظيمة ، ثم شدّ عليه أخرى ، ثم أوثقهما بالحديد والرَّصاص، ثم أمر به فقُذِف فى البحر .

هـذا حديث وَهْب . وقال السُّدِّىّ فى سبب الفتنة : كان لسليمان مائةُ آمرأة وكانت منهن آمرأةٌ يقال لهـا « جَرَادَةُ » وهى آثر نسائه وآمنهنّ عنده ، وكان إذا أجنبَ أو أتى حاجته نزع خاتَمه ولم يأتمن عليه غيرَها . فجاءها يوما من الأيام فقالت له : إنّ أخى بينه و بين فـلان خصومة ، و إنى أُحبّ أن تقضىَ له إذا جاءك . قال نعم، ولم يفعل؛ فآبتُلِىَ بقوله وأعطاها خاتَمَـه ودخل المَذْهَب[1]، فخرج الشيطان فى صورته فقال لها : هاتى الخاتم ، فأعطته إيّاه، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعده فسألها أن تُعطيَه الخاتم فقالت : ألم تأخذه؟ قال : لا ! وخرج من مكانه . ومكث الشيطان يحكم بين النـاس أربعين يوما ، فأنكر الناس حكمه، فآجتمع قرّاء بنى إسرائيل وعلمـاؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا : إنّا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمانَ فقد ذهب عقلُه وأنكرنا حكمه[2]، فأبكى النساءَ عند ذلك . فأقبلوا يمشون حتى أتَوْه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرءوها ، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرْفة والخاتم معه حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم فى البحر فآبتلعه الحوت . فأقبل سليمان فى حالته التى كان فيهـا حتى آنتهى إلى صيّادين وهو جائع فآستطعمهم من صيدهم وقال : إنّى سليمان بن داود . فقـام إليه بعضهم فضربه ٢٢ / ١٢ بعصاه فشجّه . فجعل يغسِل دمه وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيّادون صاحبه الذى ضربه وقالوا : بئسما صنعتَ حيث ضربته . فقال : إنه زعم أنه سليمان بن داود!

---

(١) المذهب : المتوضأ .

(٢) كذا فى الأصول . وعبارة الثعلبى : «واجتمع قراء بنى اسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فذكروا لهن ما أنكروا فقالوا : ونحن قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لنا صبر على ذلك ، فبكى النساء عند ذلك ... الخ » .

فأعطاه سمكتين . فقام إلى ساحل البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما ، فأخذه ولبسه و ردّ الله تعالى عليه مُلكه و بهاءه ، وجاءت الطير فعكفت عليه ، فعرفه القوم فقاموا يعتذرون إليه مما صنعوا . فقال : ما أؤاخذكم على عُدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم ، هذا ما كان لا بدّ منه . وجاء حتى أتى مُلكه ، فأخذ الشيطانَ فجعله فى صندوق من حديد ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختَمه بخاتمه ، ثم أمر به فأُلقِىَ فى البحر ، وهو فيه كذلك(١) إلى يوم القيامة .

قال : وفى بعض الروايات أنّ سليمان لمّا ٱفتُتِن سقط الخاتم من يده ، فأخذه سليمان فأعاده الى يده ، فسقط من يده . فلما رآه لا يثبت فى يده أيقن بالفتنة . وقال آصف لسليمان : إنّك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك أربعةَ عشر يوما ، ففِرَّ إلى الله تعالى تائبا من ذنبك وأنا أقوم مقامك وأسير فى عملك وأهل بيوتك بسيرتك حتى يتوب الله عليك و يردّك إلى مُلكك . ففرّ سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم و وضعه فى يده فثبت . و إنّ الجسد الذى قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علمٌ من الكتاب . فأقام آصف فى مُلك سليمان يسير سيرته و يعمل بعمله أربعةَ عشر يوما ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ، وردّ الله تعالى عليه مُلكه ، وقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيّه وأعاد الخاتم فى يده فثبت فيها .

قال أبو إسحاق : وقيل فى سبب ذلك ما رُوِىَ عن سعيد بن المسيِّب أنّ سليمان ٱحتجب عن الناس ثلاثةَ أيّام ، فأوحى الله تعالى إليه أنْ يا سليمان ٱحتجبتَ عن عبادى ثلاثة أيام فلم تنظر فى أمورهم ولم تُنصف مظلوما من ظالم . وذكر

---

(١) هذه عبارة الثعلبى . وفى الأصول : « وهو حىٌّ كذلك الى الساعة »

حديث الخاتم وأخْذَ الشيطان إيّاه كما تقدّم، وقال فى آخره : قال علىّ : فذكرت ذلك للحسن فقال : ما كان الله ليسلّطه على نسائه[١] .

قال وقال بعض المفسّرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أُمِر ألّا يتزوج آمرأة إلّا من بنى إسرائيل، فتزوج من غيرهم فعُوقب على ذلك .

وقيل : إن سليمان لمّا أصاب آبنة الملك صَيْدون أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت وآمتنعت ، فخوّفها فقالت : إنْ أكرهتنى على الإسلام قتلتُ نفسى . فخاف سليمان أن تقتل نفسها ، فتزوج بها وهى مشركة أربعين يوما، وكانت تعبد صنمًا لها فى خُفْية من سليمان إلى أن أسلمتْ ، فعُوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما .

قال وقال الشعبىّ فى سبب ذلك : إنّ سليمان وُلد له ولد، فآجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض : إنْ عاش له ولد لم ننفكّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخْرة، وما لنا إلا أن نقتل ولده أو نَخْبَله . فعلم سليمان بذلك، فأمر السحاب أن يأخذ آبنه، وأمر الريح فحملته، وغدا آبنُه فى السحاب خوفًا من مضرّة الشيطان . فعاقبه الله تعالى بخوفه من الشيطان، ومات الولد فأُلقِىَ ميّتا على كرسيّه، فهو الجسد الذى ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

---

(١) فى نسخة الثعلبى المطبوعة بعد هذه العبارة ما نصه : « ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة . وكيف يعتقد ذلك أحد وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح . وهذا قول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب الى التقوى ... الخ » .

ذكر عزم سليمان عليه السلام أن يطوف على نسائه

قال الكسائىّ : كان سليمان عليه السلام قد أُعطِىَ من القوّة ما إنه يأتى على خمسمائة حرّة وسبعمائة سُرِّيّة . فقال فى يوم : لأطوفنّ على ألف آمرأة وأجامعهنّ كلهنّ، فتحمِل كل واحدة منهنّ بغلامين فارِسَيْن يركبون الخيل و يغزون البلاد ، ولم يقل إن شاء الله . وطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ غير واحدة ، حملتْ بنصف إنسان ، قيل : إنه الجسد الذى أُلقِىَ على كرسىّ سليمان . والله تعالى أعلم .

والذى ثبت من هذه القصة ما رويناه من صحيح البخارىّ بسندنا المتقدّم اليه .

٢٣/١٢ قال البخارىّ حدّثنا خالد بن مَخْلَد حدّثنا مُغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزِّناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "قال سليمان بن داود لأَطوفنّ الليلةَ على سبعين آمرأةً تحمِل كل آمرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبُه إن شاء الله فلم يقل، ولم تحمِل شيئا إلا واحدا ساقطا إحدى شِقَّيه فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله . قال شُعَيب وآبن أبى الزناد تسعين وهو أصح"[1] .

ذكر وفاة بلقيس زوجة سليمان عليه السلام

قال الكسائىّ : أقامت بِلقيس عند سليمان سبعَ سنين وسبعةَ أشهر ثم تُوُفِّيت ، فدفنها بمدينة تَدْمُر[2] من أرض الشام تحت حائط ، ولم يعلم أحد بموضع قبرها إلى أيّام الوليد بن عبد الملك بن مروان .

(١) راجع صحيح البخارى (ج ٤ ص ١٢٦ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ) .

(٢) تدمر : مدينة قديمة معناها بالعبرانية « النخيل » وكانت عامرة ذات تجارة واسعة ، وهى واقعة بطرف بادية الشام فى الشمال الشرقى من دمشق ، تمرّ عليها القوافل بين الشام والعراق من القرن السادس قبل الميلاد . (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية) .

قال موسى بن نُصَيْر : بُعِثتُ فى أيّام الوليد إلى مدينـة تَدْمُر ومعى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، بخاء مطر عظيم فآنهار بعضُ حائط المدينة ، فآنكشفت عن تابوت طولُه ستون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا مُتَّخَذٍ من حجر كالزَّعْفران مكتوبٍ عليه : «هذا تابوتُ بِلقيس الصالحة أسلمت لثلاثَ عشرةَ سنة خلت من مُلْك سليمان ، وتزوّج بها يوم عاشوراء سنة أربع عشرة خلت من مُلكه ، وتوفّيت يوم الاثنين من ربيع الأوّل سنةَ إحدى وعشرين مضت من مُلكه ، وقد دُفنت ليلا فى حائط مدينة تدمُر، ولم يطّلع على دفنها إنس ولا جنّ ولا شيطان» . قال : فرفعنا غطاء التابوت واذا هى غضّـة كانها دُفنت ليلتَها . فكتبنا بذلك إلى الوليـد فأمر بتركه فى مكانه ، وأن يُبنَى عليه بالصخر والمرمر، ففعلنا ذلك .

ذكر خبر وفاة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الكسائىّ : مَلَك سليمان شرق الأرض وغربها وطاف أقطارها حتى آنتهى إلى السَّـدّ[1] الذى هو بالقُرب من جبـل قاف[2] ، فوقف هناك ثم قال للريح : هل

---

(١) هو السـدّ الذى بناه الاسكندر ذو القرنين وهو المعروف بسدّ يأجوج ومأجوج . وقد أرسل الخليفة الواثق بالله سنة ٢٣١ هـ بعثة علمية برياسة سلام الترجمان مزوّدة بالمال والماء والزاد لتأتيه بخبره وحاله . وابن خرداذبه هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم استملاه من الكتاب الذى كان كتبه فى هـذا المعنى لخليفة الواثق بالله (راجع المسالك والممالك طبع ليـدن سنة ١٣٠٦ هـ ص ١٦٢ — ١٧٠) . وعن ابن خرداذبه نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الادريسى وابن رسته وابن الفقيه الهمذانى والمقدسىّ . أما سنة إرسال هذه البعثة فقد أخذناها عن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) كان الاعتقاد السائد قديما أن هناك جبلا واحدا محيطا بأكثر بسيط المعمور، وليس هو كالبحر محيطا بجميع كرة الأرض ، هو جبـل قاف ، ولا يعرف فى الجنوب إلا بهذه التسمية ، ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا . ولهم فى مبدأ هذا الجبل ومنتهاه رأى تراه مبسوطا فى الجزء الأوّل من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٤٧) . وقد ذكر فى كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (ص ٢٢) باسم «قافونيا» بالفاء فى رواية و (بالقاف) فى رواية أخرى . وسمى كذلك باسم «اصطيفون» أو «اصطيقون» .

جريتِ هاهنا قطّ؟ قالت : لا يا نبيّ الله، و إنه آخر الدنيا وليس وراءه إلا علم الله تعالى . ثم أمر الريح فآحتملته حتى نظر إلى التِّنِّين المُحْـدِقِ بالعالم ، فسار أياما على طَرَف من أطرافه فإذا هو بملَك ، فقال : يآبن داود إن هـذا التنّين محيط بالعالم الذى هو مسيرة خمسمائة عام . ثم آرتفع إلى مستقرّ الغمام ونظر إلى مجمع القَطر، ونزل من هناك إلى مسكن الليل والنهار فاذا هو بملَك يقول : اللهم أعطِ كل مُنفق خَلَفا وكل ممسك تَلَفا . ثم أمر الريح أن تحطّ بساطه إلى الأرض المقدسة، وكانت مدّةُ غيبته مائة وثلاثين يوما . وكان فى طول سَفْرته هـذه يرى شخصا بين يديه يسبق كل شيء ، فسأله من هو ؟ فأخبره أنه ملَك الموت ، فوقعت عليـه الرِّعدة وتغيّر لونه وجعل آبنـه رَحْبَعَم خليفتَـه ، وأوصى النـاس بالسمع والطاعة له . وأخذ فى الصوم والصلاة طول ليله ، فإذا أصبح خرج من محرابه إلى روضة هناك فيهـا نبات حسن يتسلّى به . فخرج فى بعض الأيام فرأى نبتًا غريبا لم يكن قد رآه قبل ذلك اليـوم . فقال : أيهـا النبت ما أنت ؟ قال : أنا الخَرْنوب الذى لا أنبت فى موضع إلا خرّبته . فقال سليمان : فما تصنع هاهنا فلستَ من نبات الرياض بل من نبات البرارى؟ قال : قد أُمرت أن أنبت هاهنا . فعاد سليمان من الغد وهو على حاله وقد زاد نبـاته . فقال له سليمان : ألم آمُرْك أنـ تلحقَ بموضعك من البرراى ! . قال الخرنوب : يا نبيّ الله، إنّ هـذا الموضع سَيخْرَب عن قريب ، فسكت سليمان . فلما ضَعُف عن العبادة توكّأ على عصاه . فبينا هو فى محرابه متوكئا قائما يتلو الزّبور والتوراة إذ أتاه ملَك الموت ،فرفع رأسَه إليه فناوله شمّةً فشمّها فمات . وبقى سليمان على حالته لم يسقُط إلى الأرض ولم يتحرّك ولا مال . فهابوه وما جَسَروا أن يتقدّموا إليه . وقالوا : إنه لم يمتْ، ولم تزل الإنس والجنّ والشياطين والوحش

والطير فى الطاعة والأعمال حتى مضت سنة ، ثم وقعت الأَرَضة فى أسفل العصا؛ فذلك قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْـهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ فخرّ سليمانُ عند ذلك كالخشبة اليابسـة ، وكانت الجنّ قبـل ذلك تدّعى علم الغيب ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّـا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَـذَابِ الْمُهِينِ ﴾(١) أى فى تلك السـنة فى نقل الصخور والبنيان وغير ذلك .

وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى خبر وفاة سليمان عليـه السلام : قال أهـل التاريخ : لبث سليمان فى مُلكه بعد أن ردّه الله عليه تعمل له الجنّ ما يشاء من محاريب وتماثيـل وجِفان كالجوابى و قدور راسـيات وغير ذلك ، ويعذِّب من الشياطين مَن يشاء ، ويأمرهم بحمـل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحبّ . فأتاهم إبليس وهم فى العمـل فقال : كيف أنتم ؟ فقالوا : ما بنـا طاقة لمـا نحن فيه . فقال لهم : تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فُرَّاغا لا تحملون شيئا ؟ قالوا نعم . قال : فأنتم فى راحة . فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يحمـلوا ذاهبين و راجعين . فقـال لهم إبليس : تعملون بالليـل ؟ قالوا لا . قال : فأنتم فى راحة . فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار . فأتاهم إبليس فسألهم فشكَوْا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار . فقال لهم إبليس : وفعلها ؟ قالوا : نعم . قال : فتوقّعوا الفرج ، فقد بلغ الأمر منتهاه . فمـا لبثوا إلا يسيرا حتى مات سليمان .

(١) سورة سبأ آية ١٤

قال آبن عبّاس وغيره : كان سليمان يتحنّث[١] فى بيت المَقْدِس السنةَ والسنتين والشهرَ والشهرين وأقلّ من ذلك وأكثر، يدخله ومعه طعامه وشرابه، فدخله فى المرّة التى مات فيها . قال : وكان بدء ذلك أنه لم يكن يومًا يُصبِحُ فيه إلا نبَتَ فى بيت المقدس شجرةٌ فيسألها سليمان ما آسمُك ؟ فتقول الشجرة : آسمى كذا وكذا. فيقول: لأى شىء تصلُحين ؟ فتقول : لكذا وكذا، [فيأمر بها فتُقْطَع][٢]، فإن كانت تنبت لغرس غرسها ، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا . فبينا هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها : ما آسمك ؟ فقالت : الخَرْنوبةُ . قال : ولأىّ شىء نبتّ؟ قالت : لخراب هذا المسجد . فقال سليمان : ما كان الله ليُخرِبَه وأنا حىّ، أنتِ الذى على وجهك هلاكى وخرابُ بيت المقدس. فنزعها وغرسها فى حائط له، ثم قال : اللهمّ عَمِّ عن الجنّ موتى حتى يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب . وكانت الجنّ يخبرون الإنس أنهم يعلمون الغيب وأنهم يعلمون ما فى غَدٍ .

قال : ثم دخل سليمان المحرابَ فقام يصلّى متكئا على عصاه، فمات على تلك الحالة، ولم يعلم بذلك أحدٌ من الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم .

قال وقال عبد الرحمن [بن زيد][٢] قال سليمان لملك الموت : إذا أُمِرتَ بى فأعلِمْنى . قال : فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمرتُ بك وقد بَقِيَتْ لك سُوَيعة . فدعا الشياطين فبنَوْا عليه صرحا من قوارير ليس له باب ، فقام يصلّى وآتكأ على عصاه، فدخل عليه ملَك الموت فقبض رُوحه وهو متكئٌ على عصاه .

---

(١) يتحنث : يتعبد .

(٢) زيادة عن الثعلبى .

قال وفى رواية أخرى : أنّ سليمان قال ذاتَ يوم لأصحابه : قد آتانى الله من المُلْك ما تَرَوْن، وما مرّ علىّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكَدَر، وقد أحببت أن يكون لى يومٌ واحد يصفو لى إلى الليل ولا أغتمّ فيه، وليكن ذلك غدا . فلما كان من الغد دخل قصرا له ، وأمر بإغلاق أبوابه ومَنَع النـاس من الدخول عليه ورَفْع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئا يسوءه ، ثم أخذ عصاه بيده وصعِد فوق قصره وآتكأ عليها ينظر فى ممالكه ، إذ نظر إلى شابّ حسنِ الوجه ، عليه ثياب بيض قد خرج عليه من جانب قصره فقال : السلامُ عليك يا سليمان . فقال سليمان : وعليكم السلام ، كيف دخلتَ هذا القصر وقد مَنعتُ من دخوله ؟ أمَا منعك البوّاب والحجّاب ! . أمَا هِبتَنى حين دخلت قصرى بغير إذنى ! ! فقال : أنا الذى لا يحجُبُنى حاجب ، ولا يمنعنى بوّاب ، ولا أهاب الملوك ، ولا أقبل الرِّشا ، وما كنتُ لأدخل هذا القصر بغير إذْن . فقال سليمان : فَمَن أذِنَ لك فى دخوله ؟ قال : ربّه . فآرتعـد سليمان وعلم أنه مَلَك الموت . فقال له : أنت ملَك الموت ؟ قال نعم . قال : فِيمَ جئتَ ؟ قال : جئتُ لأقبِض رُوحك . قال : يا ملك الموت ، هذا يوم أردتُ أن يصفو لى ٢٥/١٢ وما أسمع فيـه ما يغمّنى . قال له : يا سليمان ، إنك أردت يوما يصفو لك فيـه عيشك حتى لا تغتمّ فيه ، وذلك اليوم لم يُخْلَق فى الدنيا ، فآرضَ بقضاء ربك فإنه لا مَرَدّ له . قال : فآقبِضْ كما أُمرت ، فقبض مَلَك الموت رُوحه وهو متكئ على عصاه .

قال الثعلبىّ قالوا : وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه ومُصَلّاه أينما كان . وكان للمحراب كُوًى بين يديه ومن خلفـه ، فكان الشـيطان الذى يريد أن يدخل يقول : ألستُ جليـدًا إن دخلتُ فخرجت من ذلك الجانب ، فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أولئك فمرّ ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان

فى المحراب إلا آحترق، فمرّ ولم يَسْمَع صوت سليمان، ثم رجع ولم يَسْمَع، ثم رجع فوقع فى البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميّتا، فخرج فأخبر الناس أنّ سليمان قد مات، ففتحوا عنه وأخرجوه ووجدوا مِنْسَأته — وهى العصا بلسان الحبشة — قد[1] أكلتها[2] الأَرَضة، فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا، فأيقن الناس أنّ الجنّ كانوا يكذِبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان، فلم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون .

قال : ثم إنّ الشياطين قالوا للأَرَضة : لو كنتِ تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب طعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكننا سننقل إليك الماء والطين . قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فهو مما تأتيها به الشياطين شكرا لها، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ ﴾ وهى الأَرَضة، ويقال لها القادح أيضا ، وهى دُوَيْبَّةٌ تأكل العيدان ﴿ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ أى عصاه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ... ﴾ الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة، ومدّة ملكه أربعين سنة ، ومُلِّك يوم ملك وهو آبن ثلاث عشرة سنة .

وقال الكسائىّ قال وهب : عاش سليمان ستين سنة ، منها فى الملك والنبوّة أربعون سنة . قال : وتفرّقت الإنس والجنّ وغيرهم، فتفرّق بنو إسرائيل بعده

(١) الذى فى كتب اللغة أن المنسأة اسم آلة، من نسأت الدابة إذا زجرتها ليزداد سيرها .

(٢) هذه الجملة لم ترد فى الأصول وقد نقلناها عن الثعلبي، وقد أورد بعدها هذه العبارة : «فلم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حىّ ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته قبل ذلك . وفى رواية ابن مسعود : فمكثوا ... الخ» .

ثلاث فِرَق : فرقة كفروا وآتبعوا السحَرة، وفرقة آعتزلوا وقالوا : لانطيع بعده أحدا، وفرقة آتبعوا آبنه رَحبعم[١] .

قال الثعلبيّ : ملك بعد سليمان عليه السلام آبنُه رَحْبعَم، وكان قد استخلفه فنبّأه الله تعالى ولم يكن رسولا ثم قُبِض، وكان مُلْكه سبعَ عشرةَ سنة . ثم ملك بعده آبنه أَيشا[٢] بن رحبعم، وكان مُلكه ثلاثا وستين سنة . ثم ابنه أينا .

وقال الكسائىّ: ملك بعد رحبعم ابنه لايِى، وملك بعد لايى آبنه أَيْشا بن لايى، ثم بعث الله تعالى بعد أن قبض أيشا، شَعْيا[٣] وهو من ولد هارون بن عمران .

وقال الثعلبيّ فى سياقه : لمّا ملك أَينا بن أَيشا، وكان رجلا صالحا، وكان أعرج، وكان به عِرْق النَّسَا، فطمعت الملوك فيه لضَعْفه، وافترقت ملوك بنى إسرائيل، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له « زَرِج[٤] الهندىّ» فى جمع كثير، فبعث الله تعالى عليهم ملائكة فهزموهم، فقصدوا البحر حتى ركبوه جميعا، فبعث الله تعالى عليهم الرياح والأمواج حتى ضربت سُفُنَهم بعضها ببعض، فتكسّرت وغرق زَرَجٌ ومَن كان معه، وألقت الأمواج أثقالهم وأموالهم وسلَبهم إلى محَلّة بنى إسرائيل، ونُودُوا أنْ خذوا ما غنّمكم الله وكونوا فيه من الشاكرين. ثم لم يزل يغزوهم الملِك بعد الملِك من ملوك العراق وغيرهم، فيُهلكهم الله تعالى الى أن ظهر فيهم الظلم والفساد، وفشت فيهم المعاصى، وعَبَد بعضُ ملوكهم الأصنام، فكان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) وتاريخ مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٥٥ طبع بيروت) وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٧٦) : «رحبعام» . وفى الأصول : «رجعيم» .

(٢) كذا فى الأصول . وفى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٨٣) : « أبيام » .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٧ من القسم الأوّل) . وفى القاموس المحيط : « سعيا » بالسين المهملة والشين لغة . وفى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٣٢٤) : « أشعيا » .

(٤) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٦١٩ من القسم الأوّل) : وفى الأصول « روح » .

الباب الثالث
من القسم الثالث من الفن الخامس
فى أخبار شعيا و إرميا عليهما السلام وخبر بختنصّر وخراب بيت المقدس وعمارته وما يتصل بذلك من خبر عُزَير وفتنة اليهود

ذكر قصة شَعْيَا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : كان المَلِك اذا مَلَكَ من بنى إسرائيل بعث الله معه نبيّا يُرشده و يسدّده و يكون فيما بين الناس و بين الله تعالى، ولا يُنزِل الله تعالى عليه كتابا إنما يأمر بأحكام التوراة وينهَى عن المعصية، و يدعو الناس الى ما تركوا من الطاعة . وكان ممن مَلَك منهم « صَدِيقة ». فلمّا ملك بعث الله تعالى ٢٦/١٢ شَعْيَا بن أمْصِيَا[(١)] ، فملَك ذلك الملك بنى إسرائيل و بيت المقدس زمانا، ثم كثُرت فى بنى إسرائيل الأحداث ، فبعث الله سَنْحَارِيب[(٢)] ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل حتى نزل حول بيت المقدس والملِكُ إذ ذاك مريض فى ساقه قَرْحة ، فجاء النبيّ شَعْيا عليه السلام فقال لملك بنى إسرائيل : إنّ سَنْحارِيب ملِكَ بابلَ قد أقبل ونزل بك فى ستمائة ألف راية ، وقد هابهم النـاس وفَرِقُوا منهم . فكبُر ذلك على الملك وقال : يا نبيّ الله ، هل أتاك وحىٌ فيما حدَث فتخبرَنا به كيف يفعل الله

---

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٣٢٤) : « آموص » .

(٢) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٦٣٧) وتاريخ الطبرى (ص ٦٣٨ من القسم الأوّل) ومختصر تاريخ الدول لابن العبرى (ص ٦٤) وورد فى هامشه : أن معنى سنحاريب « القمر يكثر الإخوة » ومن هنا يؤخذ أن الأشوريين كانوا يتفاءلون بالأسماء كالعرب . فسمى هذا سنحاريب تفاؤلا بكثرة الإخوة . وفى الأصول : « سنجاريب » بالجيم المعجمة وهو تحريف .

تعالى بنـا وسَنْحارِيب ؟ قال : لم يأتنى وَحْى . فبينما هم كذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا أنِ آئتِ ملك بنى إسرائيل فمُرْه أن يُوصِىَ بوصية ويستخلف على مُلكه مَنْ يشاء من أهـل بيته . فأتاه شَعْيَا فقال : إنّ ربك عز وجل قـد أوحى إلىّ أن آمرك أن تُوصِىَ وصيّتك وتستخلف من شئتَ على مُلكك من أهل بيتك فإنك ميّت . فلمّـا قال له شـعيا ذلك أقبـل صَدِيقة الملِك على القِبـلة فصلّى ودعا وبكى ، فقــال وهو يبــكى و يتضرّع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكّل وصبر : [اللهمّ ربَّ الأرباب و إلٰهَ الآلهـة القُدّوس المقدّس ، يا رحمن يا رحيم ، يارءوف يامن لاتأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، اذْكُرْنى بنيّتى وفعلى وحُسْن قضائى فى بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به منّى سرّى وَعَلانِيَتى لك][(١)] ، فآستجاب الله تعالى دعاءه ، وكان عبدا صالحا . فأوحى الله تعـالى إلى شَـعْيَا أن أخبر صَدِيقـة أن الله آستجاب له وقَبِـلَ منه ورحمـه وأخّر أجله خمسَ عشرةَ سـنة ، وأنجاه من عدوّه سَنْحَاريب وجنوده . فأتاه شـعيا فأخبره بذلك ، فذهب عنه الجَزَع وخرّ ساجدا لله تعالى ودعاه . فلمـا رفع رأسـه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صدِيقة يأمر عبـدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قَرْحة ساقه فيُشفَى ويبرأ ، ففعل ذلك فشُفِىَ . وقال الملك لِشَعْيَا : سَلْ ربّك أن يجعل لنـا عِلْما بما هو صانع بعدوّنا هـذا . فقال الله تعالى لِشَعْيَا : قل له إنى كفيتك عدوّك وأنجيتك منهم ، وإنهـم سيُصبحون موتى إلا سَنْحَاريب وخمسةَ نفر من كتّابه . فلمّـا أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة : ياملك بنى اسرائيل ، إن الله تعالى قد كفاك أمر عدوّك ؛ فإن سَنْحَاريب ومن معه قد هلكوا . فخـرج الملك فآلتمس سنحاريب فلم يوجد فى الموتى . فبعث الملك فى طلبه ، فأدركه الطَّلَبُ فى مغارة وخمسةٌ من كتّابه ، أحدهم

(١) التكملة عن الثعلبى .

بُخْتَنَصَّرُ، بجعلوهم فى الجوامع[1] ثم أتوا بهم ملك بنى إسرائيل، فلما رآهم خرّ ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنحاريب : كيف ترى فعلَ ربّنا ؟ ألم يقتلكم بحوله وقوّته ونحن وأنتم غافلون ؟ ! فقال سنحاريب : قد أتانى خبرُ ربّكم ونصرُه إيّاكم، ورحمتُـه التى رحمكم بها قبل أن أخرج من بلادى، فلم أُطِعْ مرشدا ولم يُلقنى فى الشِّقوة إلّا قلّة عقلى، ولو سمعت أو عَقَلْتُ ما غزوتكم، ولكن الشقوة غلبت علىّ وعلى مَن معى. فقال صَدِيقة : الحمد لله رب العزّة الذى كفاناكم بما شاء. إنّ ربّنا لم يُبقك ومَن معك لكرامة لك عليه، ولكنّه إنما أبقاك ومَن معك لتزدادوا شقْوةً فى الدنيا وعذابا فى الآخرة، ولتُخبروا مَنْ وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا. وَلَدَمُك ودمُ مَن معك أهونُ على الله تعالى من دم قُرَادة لو قُتلت. ثم أمر صَدِيقة أمير جيشه أن يقذف فى رقابهم الجوامع، فطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس و إيليا[2]، وكان يرزقهم فى كل يوم خُبزتَيْن من شعير لكل رجل. فقال سَنْحَاريب لملك بنى إسرائيل : القتل خير مما تفعل بنا، فآفعل ما أُمرت. فأمر بهم الملك الى سجن القتل، فأوحى الله تعالى إلى شعيا : أن قل لملك بنى إسرائيل : يرسل سنحاريب ومَن معه ليُنذروا مَنْ وراءهم، وأن يُكرِمَهم ويَحملهم حتى يبلُغوا بلادهم. فبلّغ شَعْيَا الملكَ ذلك، ففعل ما أُمِر به، وخرج سنحاريب ومَن معه حتى قدموا بابِل[3].

(١) الجوامع : القيود. (٢) ورد فى معجم البلدان لياقوت : أن إيلياء (بكسر أوله واللام و ياء وألف ممدودة) اسم مدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله، وحكى الحفصى فيه القصر. وفيه لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال : إلياء (بسكون اللام والمدّ). قال أبو علىّ : وقد سمى البيت المقدّس إيلياء بقول الفرزدق :

و بيتان بيت الله نحن ولاته * وقصر بأعلى إيلياء مشرّف

وسميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. (٣) بابل : مدينة من أقدم وأكبر مدن العالم القديم، على الجانب الأيسر من نهر الفرات، بناها الكلدان، وهى مدينة النمروذ، اشتهرت فى الأزمان الغابرة بالثروة والحضارة وفيها مات الاسكندر المقدونى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وحملت جثته الى الاسكندرية. وهذه المدينة الآن خراب لا يوجد غير أطلالها وفى مكان أطلالها قرية الحلة. (راجع معجم الخريطة التاريخية الاسلامية للرحوم أمين واصف بك وقاموس الجغرافية القديمة للرحوم أحمد زكى باشا).

فلمّا قدِموا جمَع سنحاريبُ النـاسَ وأخبرهم كيف فعـل الله بجنوده . فقـال له كُهّانه وسَحَرته : قد كنا نقُصّ عليك خبر ربهم وخبر نبيّهم ووحىَ الله إلى نبيّهم، فلم تُطِعنا، وهى أمّة لا يستطيعها أحد من ربّهم . ولبِث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات . وٱستُخلف بُخْتَنَصَّرُ ٱبنُ ٱبنـه على ما كان عليه جدّه، فعمِل بعمله وقضى بقضائه، فلبث سبعَ عشرةَ سنة ثم قَبَضَ الله تعالى صَدِيقةَ ملِكَ بنى إسرائيل، فمرِج[(١)] أمرُ بنى إسرائيل وتنافسوا المُلْك حتى قتل بعضهم بعضا، ونبيّهم شَعْيَا معهم لا يرجِعون إليه ولا يقبلون منه . فلما فعلوا ذلك أوحى الله تعالى إلى شَعْيَا : أنْ قُم فى قومك أُوحِ على لسانك . فلمّا قام أوحى الله تعالى على لسانه وأنطقه بالوحى فقال : ياسماء ٱسمعى ، و يا أرض أنصتى؛ فإنّ الله يريد أن يقصّ شأن بنى إسرائيل الذين ربّاهم ٢٧/١٢ بنعمته ، وٱصطنعهم لنفسه، وخصّهم بكرامتـه، وفضّلهم على عباده ، وٱستقبلهم بالكرامة ، وهم كالغنم الضائعة التى لا راعىَ لهـا ؛ فآوَى شاردَها ، وجمع ضالّها ، وجَبَرَ كَسيرها، وداوَى مريضَها ، وأسمن مهزولها ، وحفِظ سمينها . فلمّا فعل ذلك بها تناطحت كِباشها فقتل بعضها بعضا، حتى لم يبق منهم عظم صحيح يُجبَر إليه آخر كَسير. فو يلٌ لهـذه الأمة الخاطئـة الذين لا يدرون ما جاءهم من الخير . إنّ البعير ممـا يذكر وطنه فيأتيه، وإنّ الحمار ممـا يذكر الآرِىّ[(٢)] الذى يشبَع عليـه فيراجعُه، وإنّ الثور ممـا يذكر المَرْج[(٣)] الذى يَسمَن فيـه فينتابه ، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أينَ[(٤)] جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير، وإنى ضارب لهم مثلا فليسمعوه .

---

(١) مرج الأمر : فسد وٱختلط واضطرب . وفى الأصول : « فخرج » وهو تحريف .

(٢) الآرى : محبس الدابة . (٣) المرج : الموضع الذى ترعى فيه الدواب .

(٤) فى الأصول : «من حيث» .

قل لهم : كيف تَرَوْن فى أرض كانت جُرُزا[١] زمانًا خَرِبةً مَوَاتا لا عُمْران فيها، وكان لها ربّ حكيمٌ قوىّ، فأقبلَ عليها بالعمارة وكَرِه أن تخْرَب أرضُه، فأحاط عليها جِدارًا وشيّد فيها قصرًا وأنبط فيها نهرا، وصفّف فيها غِرَاسا من الزيتون والرمّان والنخيل والأعناب وألوان الثِّمار كلها، وولَّى ذلك وٱستحفظه ذا رأى وهمّة حفيظا قويّا أمينا، فٱنتظرها، فلمّا أطلعتْ جاء طَلْعها خرُّوبا ؟ ! . قالوا : بئستِ الأرض هذه ! نرى أن يُهْدَم جِدارُها وقصرُها ويُدَمَّر نهرها ويُقبَضَ قيِّمها ويُحْرَق غرسُها حتى تصير كما كانت أوّلَ مرّة خرابا مَوَاتا لا عُمران فيها. قال الله عزّ وجلّ لهم : إنّ الجدارَ ذِمّتى، وإنّ القصر شريعتى، وإنّ النهرَ كتابى، وإنّ القيِّم نبيِّى، وإنّ الغِرَاس هُمْ، وإن الخرُّوب الذى أطلعَ الغراسُ أعمالُهم الخبيثة، وإنّى قضيتُ عليهم قضاءهم على أنفسهم، فإنه مَثَلٌ ضربه الله لهم. يتقرّبون إلىّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالنى اللحمُ ولا آكلُه . ويدّعون أنهم يتقرّبون إلىّ بالتقوى والكفّ عن ذبح الأنفُس التى حرّمتُها، فأيديهم مخضوبةٌ منها، وثيابهم مترمِّلةٌ[٢] بدمائها؛ يُشيِّدون لىَ البيوت مساجدَ ويطهِّرون أجوافَها، وينجِّسون قلوبهم وأجسادَهم ويُدنِّسونها. فأىّ حاجةٍ لى إلى تشييد البيوت ولستُ أسكنها! وأىّ حاجةٍ لى إلى تزويقِ المساجد ولستُ أدخلها! إنما أَمرتُ برفعها لأُذْكَرَ فيها ولأُسبَّح، ولتكون مُصَلًّى لمن أراد أن يصلّى فيها . يقولون : لو كان الله يقدِر على أن يجمع أُلْفَتَنا لجمَعَها، ولو كان الله يَقدِر على أن يُفقه قلوبنا لأفقهها، فٱعمِدْ إلى عُودين يابسين ثم آئتِ بهما ناديَهم فى أجمع ما يكونون، فقل للعودين : إنّ الله يأمركما أن تكونا عودًا واحدًا . فلمّا قال لهما ذلك ٱختلطا فصارا واحدا. فقال الله تعالى [قل][٣] لهم : إنى قد قَدَرتُ على أن أُفقه العودين اليابسين،

---

(١) الجرز : الأرض التى قطع نباتها . (٢) مترملة : متلطخة .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

وعلىّ أن أؤلّف بينهما ، فكيف لا أقدر على أن أجمع أُلفتَهم إن شئتُ ! أم كيف لا أقدر على أن أفقه قلوبهم وأنا الذى صوّرتُها ! . يقولون : صُمنا فلم يُرفَع صيامُنا ، وصلّينا فلم تُنوَّر صلاتُنا ، وتصدّقنا فلم تزْكُ صدقاتُنا ، ودعَوْنا بمثل حَنِينِ الحمام ، و بكَيْنا بمثل عُوَاءِ الذئاب ، فى كل ذلك لا يُسمَع ولا يُستجاب لنا . قال الله تعالى : فسَلْهم : ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ! ألستُ أسمعَ السامعين ، وأبصَرَ الناظرين ، وأقرَبَ المُجيبين ، وأرحَمَ الراحمين ! ألأنّ ذاتَ يدِى قلّتْ ! وكيف ويداىَ مبسوطتان بالخير أُنفق كيف أشاء ، ومفاتيحُ الخزائن عندى لا يفتحها غيرى ! . أوْ لأن رحمتى ضاقتْ ! فكيف ورحمتى وَسِعتْ كلّ شىء ، إنما يتراحَم المتراحمون بفضلها ! . أو لأنّ البخل يعترينى ! أَوَلستُ أكرَمَ الأكرمين . والنفّاحَ بالخيرات أجْوَدَ مَن أعطَى وأكرمَ مَن سُئِل ! . لو أنّ هؤلاء القوم نظروا لأنفسهم بالحكمة التى تُورِث فى قلوبهم [النور][1] فنبذوها وآشترَوْا بها الدنيا ، إذًا لأبصروا من حيثُ أتوا ، و إذًا لأيقنوا أنّ أنفسهم هى أعدَى العُداة لهم . فكيف أرفع صيامهم وهم يَلبِسونه بقول الزُّور و يتقوّون عليه بطُعْمة الحرام ! وكيف أُنوِّر صلاتَهم وقلوبُهم صاغيةٌ إلى من يحاربنى و ينتهك محارمى ! أم كيف تزكُو عندى صدقاتُهم وهم يتصدّقون بأموال غيرهم ! إنما آجُر عليها أهلَها المغصوبين . أم كيف أستجيب لهم دعاءهم ، و إنما هو قولٌ بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد ! . إنما أَستجيب الداعى البَرّ ، و إنما أسمع قول المستعِفّ المستكين . و إنّ من علامة رضاىَ رِضا المساكين . فلو رَحِموا المساكين ، وقرّبوا الضعفاء ، وأنصفوا المظلوم ، ونصروا المغصوب ، وعدلوا للغائب ، وأدّوا إلى اليتيم والأَرْملة والمسكين وكلّ ذى حقّ حقّه ، ثم لو كان ينبغى لى أن أكلّم البشر إذًا لكلّمتهم ؛ ٢٨/١٢ وإذًا لكنتُ نورَ أبصارهم ، وسمعَ آذانهم ، ومعقولَ قلوبهم ؛ و إذًا لدَعَمْتُ أركانَهم فكنتُ قوّة أيديهم وأرجلهم ؛ و إذًا لثبّتُّ ألسنَتهم وعقولَهم .

(١) زيادة عن الثعلبى .

يقولون لمّا سمعوا كلامي وبلغتهم رسالاتي إنها أقاويلُ منقولةٌ، وأحاديثُ متوارَثةٌ، وتآليفُ مما يؤلِّف السَّحرة والكَهَنة، و زعموا أنهم لوشاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، وأن يطّلعوا على علم الغيب بما يُوحِى إليهم الشياطين لاطلعوا، وكلهم يَستخفِي بالذى يقول ويُسِرّه، وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يُبدون وما يكتُمون. و إنى قد قضيتُ يوم خلقتُ السماء والأرضَ قضاءً أثبتُّه على نفسى وجعلتُ دُونه أجلا مؤجّلا لابدّ أنه واقع، فإن صدَقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليُخبروك متى أُنفِذه، وفى أىّ زمان يكون. و إن كانوا يقدِرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل القُدرة التى بها أَقضى؛ فإنّى مُظهره على الدِّين كله ولو كَرِهَ المشركون. و إن كانوا يقدِرون على أن يؤلّفوا ما يشاءون فليؤلّفوا مثلَ الحكمة التى أدبِّر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين. فإنى قضيتُ يومَ خلقتُ السمواتِ والأرضَ أن أجعل النبوّة فى الأُجَراء[1]، وأجعلَ المُلْك فى الرِّعاء، والعزَّ فى الأذلاّء، والقوّة فى الضعفاء، والغِنَى فى الفقراء، والثروةَ فى الأقلّاء، والمدائن فى الفَلَوات، والآجام[2] فى المفاوز، والبَرْى فى الغيطان، والعِلم فى الجَهَلة، والحُكْمَ فى الأُمِّيِّين. فسَلْهم متى هذا ومَنِ القيِّم به وعلى يَدَىْ مَن أُسبِّبه، ومَن أعوانُ هذا الأمر وأنصارُه. و إن كانوا يعلمون فإنى باعثٌ لذلك نبيًّا أُمّيًّا لا أعمى من العُمْيان ولا ضالّا من الضالِّين، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب فى الأسواق، ولا متزيِّنٍ بالفُحْش، ولا قوّالٍ للخَنَا، أُسدّده لكل جميل، وأَهَبُ له كلَّ خُلُق كريم، ثم أجعل السكينة لباسَه، والبِرَّ شعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ معقولَه، والصدقَ والوفاءَ طبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقه، والعدلَ سيرته، والحقَّ شريعتَه، والهدى إمامَه، والإسلامَ ملّته، أحمدُ آسمُه، أَهدِى به بعدَ الضَّلالة، وأُعلِّم به بعد الجَهَالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأُشهِر

(١) الأجراء: جمع أجير وهو من سلم نفسه بعوض.

(٢) الآجام: جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف.

به بعد النَّكِرَة ، وأُكَثِّر به بعد القِلّة ، وأُغْنِي به بعد العَيْلة ، وأَجمعُ به بعد الفُرقة ؛ وأُؤلِّف به قلوبا مختلفةً ، وأهواءً مُتشتِّتة ، وأُممًا متفرّقة ، وأجعل أمّته خيرَ أمّة أخرِجتْ للناس ، يأمرون بالمعروف و ينهَوْن عن المنكر ، إيمانًا بى ، وتوحيدًا لى ، و إخلاصا بى[1] ، يُصلُّون قياما وقُعودا ، ورُكَّعا وسُجودا ، و يُقاتلون فى سبيلى صفوفا وزُحوفا ، و يخرجون من ديارهم وأموالهم آبتغاء رضوانى [ألوفا][2] . أُلهِمُهم التكبيرَ والتوحيدَ ، والتسبيحَ والتحميد ، فى مجالسهم ومَسيرهم ومضاجعهم ومُتقلَّبهم ومَثْواهم ؛ يكبِّرون ويُهلِّلون و يقدّسون على رءوس الأشراف ، ويُطهِّرون لى الوجوه والأطراف ، ويعقدون الثيابَ إلى الأنصاف ؛ قُربانُهم دماؤهم ، وأناجيلُهم صدورهم ؛ رُهبانٌ بالليل ، ليوثٌ بالنهار . ذلك فضلِى أُوتِيه مَن أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .

قال : فلمّا فرغ نبيُّهم شَعْيَا من مقالته عَدَوا عليه ليقتلوه فهرَب منهم فآنفلقت له شجرة فدخل فيها ، فأدركه الشيطان فأخذ بهُدبةٍ من ثوبه فأراهم إيّاها ، فوضعوا المنشار فى وَسَطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وَسَطها .

ذكر قصة إرميا عليه السلام

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : استخلَفَ الله تعالى على بنى إسرائيل بعد قتلهم شَعْيَا عليه السلام رجلا منهم يقال له « ناشِيَةُ بن آمُوص » ، و بعث لهم الخَضِرَ نبيّا . قال : وآسم الخَضِر إرْمِيَا بن حِلْقِيَّا ، وكان من سِبْط هارون ابن عمران . قال : و إنما سُمِّى الخَضِر لأنه جلس على فَرْوة بيضاء فقام عنها وهى تهتزّ[3] خضراءَ . فقال الله عزّ وجل لإرْمِيَا حين بعثه إلى بنى إسرائيل : يا إرميا ، من قَبل أن خَلَقْتُك آخترتُك ، ومن قبل أن أُصوِّرك فى بطن أمّك قدّستُك ، ومن

(١) هذه الكلمة ليست فى الثعلبي ، وتعدية الإخلاص هنا بالباء لا ترضاه اللغة .
(٢) زيادة عن الثعلبي . (٣) فى الثعلبي المطبوعة : « تزهر » .

قبل أن أُخرِجَك من بطن أمّك طهّرتُك، ومن قبل أن تبلُغ السَّعْىَ نبّأتُك، ولأمرٍ عظيمٍ آجتبيتُك، فذكّر قومَك نِعَمِى، وعرّفهم أحداثهم، وآدعُهم إلىّ. وكانت الأحداث قد عظُمت فى بنى إسرائيل فركبوا المعاصِى وآستحلّوا المحارم. فقال ٢٩ / ١٢
إرميا : إنى ضعيف إن لم تُقوّنى، عاجزٌ إن لم تنصُرنى. فقال الله عزّ وجل : أنا أُلهِمُك. فقام إرْمِيَا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزّ وجل خطبة طويلةً بليغةً، بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال فى آخرها : وإنى أحلف بعزّتى لأُقَيِّضَنّ لهم فِتنةً يتحيّر فيها الحكيم، ولأُسلِّطنّ عليهم جبّارا قاسيا قلبُه، أُلبِسه الهيبةَ وأَنزِعُ من صدره الرحمة، يتبعه عددٌ مثلُ سوادِ الليل المظلم. ثم أوحَى الله تعالى إلى إرْمِيَا : إنّى مُهلكٌ بنى إسرائيل بيَافَثَ، و يافَثُ أهلُ بابلَ، وهم من ولد يافَثَ بن نوح. فلمّا سمع ذلك إرْمِيَا صاح و بكى وشقّ ثيابه ونبذ الرَّمادَ على رأسه. فلمّا سمع الله عزّ وجل تضرّعه و بكاءه ناداه : يا إرْمِيَا، أشقّ عليك ما أوحيتُ إليك ؟ قال : نعم يارِبّ، أهلِكْنِى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أُسَرّ به. فقال الله عزّ وجل : وعِزّتى لا أهلك بنى إسرائيل حتى يكون الأمرُ فى ذلك من قِبَلك. ففرح بذلك إرميا وطابتْ نفسُه وقال : لا والذى بعث موسى بالحقّ لا أرضَى بهلاك بنى إسرائيل. ثم أتى الملكَ فأخبره بذلك، وكان ملكا صالحا، ففرِح وآستبشر وقال : إنْ يعذّبنا ربُّنا فبذنوبٍ كثيرة، وإن عفا عنّا فبرحمته. ثم إنهم لبِثوا بعد الوحى ثلاثَ سنين لم يزدادوا إلّا معصيةً وتمادياً فى الشرّ، وذلك حين آقترب هَلاكُهم ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلّط الله عليهم بُخْتَنَصّر فخرج فى ستمائة ألف راية يريد بيت المَقْدِس. فلمّا فَصَل(١) سائرا أتى الخبرُ الملِكَ فقال لإرميا : أين ما زعمتَ أنّ الله أوحَى إليك ؟ فقال إرميا : إن الله عزّ وجلّ

(١) فصل فلان من البلد : خرج منه.

لا يُخلِف الميعـاد وأنا به واثقٌ . فلمّـا قرُب الأجلُ وعزم الله عز وجل على هلاكهم بعث الله تعالى إلى إرميا ملَكا فتمثّل له رجلا من بنى إسرائيـل فقال له : يانبىّ الله، أَستَفتِيك فى أهل رَحِمِى، وصلتُ أرحامَهم ولم آتِ اليهم إلا حُسْنا، ولا يزيد إكرامى إيّاهم إلا إسخاطا لى ، فأفتِنِى فيهم . فقال له : أحْسِنْ فيما بينك و بين الله وصِلْهم وأبشر بخير . فانصرف المَلَك فمكث أياما ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه ، فقال له إرميا : أوَما ظَهَرَتْ أخلاقُهم لك بعدُ؟ فقال: يا نبىّ الله، والذى بعثك بالحقّ ما أعلم كرامةً يأتيها أحدٌ من الناس إلى أهل رَحِمه إلا قدّمتُها إليهم وأفضَل . فقال له إرميا : اِرجعْ إلى أهلك وأحسِنْ إليهم، وآسالِ الله تعالى الذى أصلحَ عباده الصالحين أن يُصلِحهم . فقام الملك فمكث أيّاما وقد نزل بختنصّر وجنودُه حولَ بيتِ المقدِس بأكثر من الجراد ، ففزِع منهم بنــو إسرائيل وشقّ عليهم . فقال ملكهم لإرْمِيَا : يانبىّ الله، أين ماوعَدَك الله ؟ قال : إنى بربّ واثق . ثم أقبــل الملك إلى إرميا وهــو قاعد على جِدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذى وعده، فقعد بين يديه وقال له : أنا الذى أتيتُك فى شأن أهلى مرّتين . فقال إرْمِيَا : ألم يأنِ لهم أن يُفيقوا من الذى هم فيــه ؟ فقال الملك : يانبىّ الله، كل شىء يُصيبنى منهم قبلَ اليوم كنتُ أصبِر عليه، فاليومَ رأيتُهم فى عمل لا يُرضِى الله عز وجل . فقال إرمِيا : على أىّ عمــل رأيتَهم ؟ قال : على عمــل عظيمٍ من سُخْــط الله ، فغضِبتُ لله ولك وأتيتُك لأُخبرَك . وإنى أسألك بالله الذى بعثك بالحقّ إلّا مادعوتَ الله عليهم ليُهلكهم . قال إرْمِيَا : يامَلِكَ السمواتِ والأرضِ إن كانوا على حقّ وصــوابٍ فأبقهم ، وإن كانوا على سُخْطك وعمــلٍ لا ترضاه فأهلِكهم . فلمّا خرجتِ الكلمة من فم إرميا أرسل الله عز وجل صاعقةً من السماءِ فى بيت المَقْدِس فآلتهبَ مكانُ القُربان وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها .

فلمّا رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابَه ونَبَـذَ الرَّماد على رأسـه وقال : يا مَلِك السمواتِ والأرضِ ، أين ميعادُك الذى وعدتَنى ! فنُودِىَ : إنه لم يُصبهم الذى أصابهم إلّا بفُتياك ودعائك . فاستيقَنَ إرْمِيَا أنها فُتياه ، وأن ذلك السائل كان رسول ربه . فطار إرميا حتى خالَطَ الوحوش . ودخل بختنصّر وجنودُه بيتَ المقدس ووطِئ الشام وقَتَل بنى إسرائيل حتى أفناهم وخرّب بيت المقدس ؛ ثم أمر جنودَه أن يملأ كلّ رجلٍ منهم تُرسه ترابا ثم يَقذِفه فى بيت المقدس ، فَقَذَفوا فيه التراب حتى مَلَئوه ؛ ثم أمرهم أن يجمعوا مَن كان فى بلدان بيت المقدس كلّهم ، فجمعوا عنده كل صغير وكبير من بنى إسرائيل ، فآختار منهم مائةَ ألفِ صبىّ ، وقيل سبعين ألف صبىّ . فلمّا خرجت غنائم جُنده لتُقْسَم قال له الملوك الذين كانوا معه : أيّها الملك ، لك غنائمها كلها ، فاْقسِمْ بيننا هؤلاء الصِّبيان الذين آخترتَهم من بنى إسرائيل ، ففعل ذلك ، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة غِلْمة . وكان من أولئك الغلمان دانِيَال وحَنَانِيَا وعزَارِيَا[1] وميشائيل ، ٣٠/١٢ وسبعةُ آلاف من أهل بيت داود عليه السلام ، وأحدَ عشر ألفا من سِبْط يوسف ابن يعقوب ، وأخيه بِنْيَامين عليه السلام ، وثمانيةُ آلاف من سِبْط أشْرَس[2] بن يعقوب ، وأربعةَ عشر ألفا من سِبْط ريالون[3] بن يعقوب ونَفْتَالِى[4] بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سِبْط يَهُوذا بن يعقوب ، وأربعةُ آلاف من سِبط رُوبِيل[5] ولَاوِى آبْنَى يعقوب ، ومَن بَقِىَ من بنى إسرائيل .

---

(١) فى الكتاب المقدّس (ج ٢ ص ٦٢٥) : « حننيا ... ... وعزريا » . وراجع ما كتبه عنهم الدكتور جورج بوست فى قاموس الكتاب المقدّس .

(٢) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « أشير » .

(٣) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « زبولون » .

(٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٨٦) . وورد فى الأصول بحروف مهملة .

(٥) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ٥٠) : « رأوبين » .

قال : وجعل بُخْتَنَصر مَن بَقِيَ[1] من بنى إسرائيل ثلاث فِرَق، فثُلُثًا أقرّ بالشام، وثُلُثًا سَبَى، وثُلُثا قَتَل . وذهب بآنيةِ بيت المقدس وسَلَبَ حُلِيَّه حتى أقدم ذلك بابِلَ ، فكان على سبعين ألفا ومائةَ ألفِ عَجَلةٍ من حُلِيّ . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعنى بختنصّر وأصحابه ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾[2] فهذه الواقعةُ الأولى التى أنزلها الله ببنى إسرائيل لاختلافهم وظلمهم . ولنصل هذا الفصل بخبر بختنصّر .

ذكر خبر بختنصر وابتداء أمره وكيف ملك

يقال فى اسمه : بُخْتَنَصّر[3] (بتشديد الصاد وإسكانها) ويقال فيه : بختناصر . وقد اختُلِف فى أمره، فقال قوم : إنه مَلَكَ الدنيا أجمع . وقال آخرون : بل مَلَكَ بابِل وما افتتحه . وقال قوم : إنما كان مَرْزُبَانًا للهراسف الفارسىّ . وقال قوم : كان أصله من أبناء الملوك ، وقيل : بل كان من الفقراء . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما نَقِفُ عليه من ذلك . فمن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسير قوله عزّ وجل : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ... ﴾ الآيات بسندٍ رفعه إلى سَعيد بن جُبَير قال : كان رجل من بنى إسرائيل يقرأ التوراة، حتى إذا بلغ « بَعَثنا عليكم عِبادًا لنا أُولِى بأسٍ شديدٍ » بكى وفاضت عيناه ثم أطبق المصحفَ وقال : أى ربّ أرِنِى هذا الرجلَ الذى جعلتَ هَلاكَ بنى إسرائيل على يديه ، فأُرِىَ

---

(١) الذى فى الثعلبى : « فجعل بختنصر سبايا بنى اسرائيل » .

(٢) سورة الإسراء آيتى ٤ ، ٥

(٣) ويقال له أيضا : « نبوخذ نصر » و « نبوكد نصر » . (راجع تاريخ المشرق لماسبيرو ص ١١٣ والكتاب المقدس ج ١ ص ٦٤٩) .

فى المنـام مسكينٌ ببابلَ يقال له بُخْتَنَصَّر، فانطلق بمـال وأعبُد له وكانـــ رجلا مُوسِرًا . فقيل له : أين تريد؟ قال : أريد التجارة . فسار حتى نزل بابِلَ ، فنزل دارا فاكتراها ، ليس فيها أحدٌ غيرُه ، فجعـل يدعو المساكين ويَلْطُفُ بهـم حتى لا يأتيـه أحدٌ إلا أعطاه . فقال : هل بَقِىَ مسكينٌ غيركم ؟ قالوا : نعم، مسكينٌ بفجّ آل فلان مريضٌ يقال له بختنصّر . فقال لِغلْمته : آنطلِقُوا بنا ، فآنطلقَ حتى أتاه فقال له : ما آسمُك ؟ قال بختنصّر . فقال لغِلْمته : آحتملوه، فنقله إليه فمرّضه حتى برِئ، فكساه وأعطاه نفقةً، ثم آذن الإسرائيلىّ بالرحيل، فبكى بختنصّر . فقال له الإسرائيـلىّ : ما يُبْكِيك ؟ قال : أبكى أنك فعلتَ بى ما فعلتَ، ولا أجد شيئا أَجزِيك به . قال : بلى، شيئا يســيرا . فقال له : وما هــو ؟ قال : إن مُلِّكْتَ أطعتَنى . فجعل يتبعه ويقــول : تستهزئ بى ! ولا يمنعه من أن يُعطِيَــه ما سأله إلّا أنه يرى أنه يستهزئ به . فبكى الإسرائيلى وقال : لقد علمتُ ما يمنعك مما سألتك إلّا أنّ الله تعالى يريد أن يُنفِّذ ما قد أمضَى وكتب فى كتابه .

قال : وضرب الدهرُ ضَرَبانه[1] فقال صَيْحون[2] وهو ملِك فارس ببابلَ : لو أنّا بَعثنا طليعةً إلى الشام؟ قالوا : وما ضرَّك لو فعلتَ؟ قال : فمن تَرَوْن؟ قالوا : فلان . فبعث رجلا وأعطاه مائة ألف فارس، وخرج بختنصّر فى مطبخه لا يخرج إلا ليأكل من مطبخه [ويعيش منه][3] . فلمّـا قدِم الشام رأى صاحبُ الطليعــة أكثرَ خلقِ الله فُرسانا ورِجالًا ، فكسر ذلك فى ذَرْعه فلم يسأل . فجعل بختنصّر يجلس فى مجالس

(١) ضربان الدهر : حدثانه .

(٢) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى (ص ٦٥٦ من القسم الأول) . وفى تاريخ الطبرى أيضا (ص ٦٥٧ من القسم الأول) : « صيحائين » . وفى الأصول فى بعض المواضع : « صحانين » .

(٣) زيادة عن الثعلبى .

أهل الشام فيقول : ما يمنعكم أن تغزوا بابِلَ! فلو غَزَوْتموها فما دُون بيتِ ما لها شيءٌ. قالوا : لا نُحسِن القتالَ ولا نُقاتل، حتى انتفذ مجالسَ أهلِ الشامِ. ثم رجع أميرُ الطليعةِ فأخبر الملكَ بما رأى. وجعل بختنصر يقول لفوارس الملك : لو دعانى الملكُ لأخبرتُه غيرَ ما أخبره فلان . فرُفع ذلك إلى الملك فدعاه، فقال : إنّ فلانا لمّا رأى أكثرَ أرضِ الله كُراعًا(١) و رِجالًا كَسَر ذلك فى ذَرْعه ولم يسألهم عن شيء، و إنى لم أدع مجلسا بالشام إلا جالستُ أهلَه فقلت لهم كذا وكذا ، فقالوا لى كذا وكذا . فقال صاحب الطليعة لبختنصّر : بصحبتى لك مائةُ ألف دينار وتنزع عما قلتَ. قال : لو أعطيتَنى بيت مالِ بابلَ ما نزعتُ . فضرب الدهر ضَرَبانه فقال الملك : لو بعثنا جريدة خَيل الى الشامِ، فإن وجدوا مَساغًا سَاغُوا و إلّا آستلبُوا ما قدروا عليه . قالوا : ما ضرّك لو فعلتَ ؟ قال : فمَن تَرَوْن ؟ قالوا : فلان . قال : بل الرجل الذى أخبرنى بما أخبرنى . فدعا بختنصّر وأرسله وآنتخب معه أربعةَ آلافٍ من فرسانهم ، فآنطلقوا فجاسُوا خِلال الديار ، فسبَوْا ما شاء الله ولم يخرّبوا ولم يقتلوا . ومات صَيْحون الملك ، فقالوا : استخلفوا رجلا . فقالوا : على رِسْلكم حتى يأتى أصحابكم فإنهم فُرسانكم . فأَمهلوا [وأخّروا ذلك](٢) حتى جاء بختنصّر بالسَّبْى وما معه، فقسّم ذلك فى الناس . فقالوا : ما رأينا أحدا أحقّ بالمُلْك من هذا فملّكوه .

٣١ / ١٢

قال : وقال السُّدِّىّ بإسناده : إنّ رجلا من بنى إسرائيل رأى فى المنام أنّ خرابَ بيتِ المَقْدِسِ وهَلاكَ بنى إسرائيل على يَدَىْ غلام يتيم آبن أَرْمَلَة من أهل بابل يُدعَى بختنصّر ، وكانوا يَصدُقون فتَصدُق رؤياهم. فأقبل فسأل عنه حتى نزل على أمه وهو يحتطب. فلمّا جاء وعلى رأسه الحطب ألقَى الحُزْمة ثم قعد فى جانب

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) أكارع الأرض : أطرافها القاصية .

من البيت ، فكلّمه ثم أعطاه ثلاثةَ دراهم وقال : اشترِ بهذه طعاما وشرابا، فاشترى بدرهم لحما، وبدرهم خبزا، وبدرهم خمرا؛ فأكلوا وشربوا، حتى إذا كان اليوم الثانى فعل به كذلك ؛ وفى اليوم الثالث كذلك . ثم قال : إنى أحبّ أن تكتب لى أمانا إن أنتَ مُلِّكتَ يوما من الدهر. قال: تسخَر منّى؟ قال: إنى لا أسخر منك، ولكن ماعليك أن تتخذها عندى يدا ! فكلّمتْه أمه فقالت : ماعليك إن كان، و إلّا لم ينقصك شيئا ، فكتب له أمانا . فقال له : أرأيتَ إن جئتَ والناسُ حَوْلك قد حالوا بينى و بينك فآجعَلْ لى آيةً تعرفنى بها . قال: ترفع صحيفتَك على قَصَبة فأَعرِفك بها ، فكساه وأعطاه . ثم إنّ ملِك بنى إسرائيل كان يُكرم يحيي بن زكريا عليهما السلام ويُدنى مجلسه ويستشيره فى أمره ولا يقطع أمرًا دُونه ، وإنه هَوِىَ أن يتزوج بنت آمرأته . — قال وقيل : كانت بنت أخيه ، قال الثعلبىّ : وهو الأصح (١) إن شاء الله — فسأله عن ذلك ، فنهاه عن نكاحها وقال : لن أرضاها لك . فبلغ ذلك أمّها فحقَدت على يحيي عليه السلام حين نهاه أن يتزوج بنتَها ، فعمَدت أمّ الجارية حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رِقاقًا حمراءَ وطيّبتها وألبستها من الحُلىّ ، وألبستها فوق ذلك كساءً أسودَ وأرسلتها الى الملك ، وأمرتها أن تَسقيَه وأن تتعرّض إليه ، فإن أرادها على نفسها أبتْ عليه حتى يُعطيهَا ما سألتْه ، فإذا أعطاها ذلك سألته أن يُؤتَى برأس يحيي بن زكريا فى طَسْتٍ ، ففعلتْ . فلمّا أخذ منه الشرابُ أرادها على نفسها ، فقالت : لا أفعل حتى تُعطيَنى ما أسألك . قال : ماتَسألينى ؟ قالت : أسألك

---

(١) ذكر الثعلبىّ تأييدا لصحة قوله مانصه : «لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث عيسى بن مريم يحيي بن زكريا فى اثنى عشر من الحواريين يعلمون الناس . فكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ . قال : وكانت لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن ينكحها وكانت لها فى كل يوم حاجة يقضيها ، فسأل يحيي بن زكريا عن ذلك فنهاه عن نكاحها ... الخ » .

أن تبعث إلى يحيى بن زكريّا فتُـؤتَى برأسه فى طَسْتٍ . فقال : ويحَك ! سَلِينى غيرهذا . قالت : ما أريد إلّا هذا . فلمّا أبتْ عليه بعث إليه فأُتِىَ برأسه، والرأس يتكلّم حتى وُضِع بين يديه وهو يقول : لا يحِلّ لك . فلمّا أصبح إذا دَمُه يَغْلِى، فأمر بترابٍ فأُلْقِىَ عليه ، فرقِىَ الدمُ فوق التراب يَغْلِى، فأُلقِىَ عليه أيضا فارتفع الدمُ فوقه، فلم يزل يُلقَى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يغلى . فبلغ صَيْحون ملك بابل ذلك فنادى فى الناس، وأراد أن يبعث إليهم جيشا [ويؤمّر عليهم رجلا](1) . فأتاه بختنصّر فكلّمه وقال : إنّ الذى كنتَ أرسلتَ تلك المرّة ضعيفٌ ، وإنّى قد دخلتُ المدينة وسمعتُ كلام أهلها [فآبعثنى](1) فبعثه . فسار بختنصّر، حتى إذا بلغوا ذلك المكان تحصّنوا منـه فى مدائنهم فلم يُطقْهم . فلمّـا آشتدّ عليه المُقامُ وجاع أصحابُه وأرادوا الرجوع خرجت آمرأةٌ عجوزٌ من عجائز بنى إسرائيل فقالت : أين أميرُ الجُنْد؟ فأُتِىَ بها إليه . فقالت : إنه بلغنى أنك تريد أن ترجع بجُنْـدك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال : نعم ، قد طال مُقامى وجاع أصحـابى، فلستُ أستطيع المُقام فوق الذى كان منّى . فقالت : أرأيتَـك إن فُتِحَتْ لك المدينـةُ أتُعطِينى ما أسألك ، فتقتُل مَن أمرتُك بقتله، وتكُفّ إذا أمرتُك أن تكفّ ؟ فقال لهـا نعم . قالت : إذا أصبحتَ فآقسِمْ جندَك أربعةَ أرباع، ثم آجعَلْ فى كل زاويةٍ رُبْعًا، ثم آرفعوا أيديَكم إلى السماء فنـادُوا : إنّا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريّا، فإنها سوف تَسّاقط، ففعلوا؛ فتساقطتِ المدينةُ فدخلوا من جوانبها . فقالت : كُفّ يدك وآقتل على هذا الدم حتى يسكُن، وآنطلقت به الى دم يحيى بن زكريّا، وهو على تراب كثير، فقتل عليه حتى سَكَنَ ، فقتل سبعين ألفا . فلمّـا سكن الدم قالت له : كُفّ يدك ٣٢ — ١٢
فإنّ الله تعـالى إذا قُتِلَ نبىّ لم يرضَ حتى يُقتَـل مَن قتله ومَن رضِىَ قَتْـلَه . وأتاه

(١) زيادة عن الثعلبى .

صاحبُ الصحيفة بصحيفته فكفّ عنه وعن أهل بيته ، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تُطرَح الجِيَف فيه ، وقال : مَن طَرَح فيه جِيفةً فله جِزْيتُه تلك السنة . قال : وأعانه الروم على خرابه من أجل أنّ بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا .

قال : فلمّا خرّبه بختنصّر ذهب معه بوُجُوه بنى إسرائيل وسَرَاتهم وذهب بدَانِيَالَ وقومٍ من أولاد الأنبياء وذهب معه برأس جالوت الملك ، فلمّا قَدِم وجد صَيْحون مَلِكَ بابِلَ قد مات فمُلِّكَ مكانه .

ذكر خبر بختنصّر مع دانِيَال

قال : ولمّا سار بختنصّر إلى بابِلَ ومُلِّك بعد موت الملك كان معه دانِيَالُ ، وكان أكرَمَ الناس عليه هو وأصحابُه ، فحسدهم المَجُوس على ذلك ، فوشَوْا بهم إليه وقالوا : إنّ دانيالَ وأصحابَه لايعبدون إلٰهك ولا يأكلون ذَبِيحتك . فدعاهم فسألهم ، فقالوا : أجَلْ ، إنّ لنا ربّا نعبُده ، ولسنا نأكل من ذبيحتكم . فأمر أن يُخَدّ[1] لهم أُخدودٌ فخُدّ لهم وأُلقوا فيه وهم ستّة ، وأُلقِيَ معهم سَبُعٌ ضارٍ ليأكلهم ، ثم قال : اذهبوا بنا لنأكل ونشرب ، فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم عادوا فوجدوهم سبعة والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم يخدِش منهم أحدا . فقالوا : ما بالُ هذا السابع إنما كانوا ستّة ! فخرج السابع إلى بختنصّر ، وكان مَلَكا من الملائكة ، فلطَمه لطمةً فصار من الوحش [ومسخه الله[2] سبع سنين ، [ثم ردّه الله الى صورته وردّ عليه ملكه[2]] . هذا ما حكاه السدّىّ .

وروى الثعلبيّ بسنده إلى وَهْب قال : لمّا سار بختنصّر الى بابل ومُلِّك بعد موت ملكها واستتبّ أمرُه لبِثَ على ذلك مدّة ، ثم رأى رؤيا عجيبة فأفزعته وسأل عنها الكَهَنةَ والسحَرةَ فعجزوا عن تعبيرها . فبلغ ذلك دانِيَالَ وكان فى السجن

(١) يخدّ : يحفر . والأخدود : الحفرة المستطيلة فى الأرض . (٢) زيادة عن الثعلبى .

مع أصحابه وقد أحبّه صاحب السجن وأُعْجِبَ به لِمَا رأى من حسن سَمْته . فقال له دانيال : إنك قد أحسنتَ إلىّ ، و إنّ صاحبكم قد رأى رؤيا ، فدُلَّه علىّ لأُعبِّرها له . فجاء السجّان فأخبر بختنصّر بقصّة دانيال ، فآستدعاه فجاء إليه . وكان من عادة من حَضَر بين يَدَىِ الملك أن يسجُد له ، فلما أتَوْا بدانيال قام بين يديه ولم يسجُد له . فقال : ما الذى منعك من السجود؟ فقال : إن لى ربّا آتانى العلمَ والحكمةَ وأمرنى ألّا أسجُد لغيره ، فخشيتُ إن سجدتُ لغيره أن ينتزِع منّى الحكمة والعلم ويُهلكنى . فأُعجِب به وقال : نِعْمَ ما فعلتَ حيث وفّيتَ بعهده ، وأجللتَ علمه ؛ ثم قال : هل عندك علمُ هذه الرؤيا ؟ قال : نَعَمْ وأبشر ، فأخبره برؤياه قبل أن يخبره الملك بها ، وعبّرها له . قال الثعلبىّ : وكانت الرؤيا على ما أخبرَنا به عبد الله بن حامد فى إسناده عن وهب بن منبِّه قال : إنّ بختنصّر رأى فى آخر زمانه صنمًا رأسه من ذهب ، وصدره من فضّة ، وبطنه من نُحاس ، وفخذاه من حديد ، وساقاه من فخّار ، ثم رأى حجرا من السماء وقع عليه فدقّه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلُها فى الأرض وفرعُها فى السماء ، ثم رأى عليها رجلا بيده فأس وسمع مناديا ينادى : اضرِبْ جِذْعَها ليتفرّق الطيرُ من فروعها ، وتتفرّق الدوابّ والسباع من تحتها ، وآترك أصلَها قائما . فعبّرها دانيال عليه السلام له فقال : أمّا الصنمُ الذى رأيتَ ، فأنت الرأس وأنت أفضلُ الملوك . وأما الصدرُ الذى من فضة فآبنك يملك من بعدك . وأما البطنُ الذى رأيتَ من نُحاس فملكٌ يكون بعد آبنك . وأما ما رأيتَ من الفَخذَيْن من حديد فيتفرّق الناس فرقتين فى فارس يكون أشدّ الملوك . وأما الفَخّار فآخرُ ملكهم يكون دون الحديد . وأما الحجر الذى رأيتَه قد ربا حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب فنبىّ يبعثه الله تعالى فى آخر الزمان فيفرِّق مُلْكَهم كلَّه ، و يربو مُلكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب .

وأما الشجرةُ التى رأيتَ والطيرُ التى عليها والسِّباعُ والدوابُّ التى تحتها وما أمر بقطعها، فيذهب مُلكك و يردّك الله طائرا تكون نسرا ملِك الطير، ثم يردّك الله ثورا ملك الدوابّ، ثم يردّك الله أسدا ملِك السباع والوحش سبع سنين، وفى كل ذلك قلبك قلب إنسان، حتى تعلم أنّ الله له مُلْك السموات والأرض، يقدر على الأرض ومَن عليها، وكما رأيتَ أصلها قائما فإن مُلكك قائم. ٣٣/١٢

قال: فمُسِخَ بختنصّر نسرًا فى الطيور، وثورا فى الدوابّ، وأسدا فى السباع، فكان مسخه كله سبع سنين، ثم ردّ الله تعالى إليه مُلكه، فآمن ودعا الناس إلى الله تعالى.

قال: وسُئل وهب بن منبِّه: أكان بختنصّر مؤمنا؟ فقال: وجدتُ أهل الكتاب قد اختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنا، ومنهم من قال: مات كافرا؛ لأنه حرَّق بيت المقدس وكُتُبَ الله وقتَل الأنبياء، فغضِب الله تعالى عليه ولم يقبل توبته.

قالوا: فلمّا عبّر دانيال لبختنصّر رؤياه أكرمه وصحِبَه واستشاره فى أموره وقرّبه منه حتى كان أكرَمَ الناسِ عليه وأحبّهم إليه، فحسده المجوس على ذلك و وشَوْا به و بأصحابه الى بختنصّر فقالوا: إنّ دانيَال وأصحابه لا يعبدون إلٰهك، ولا يأكلون ذَبيحتك. فدعاهم وسألهم فقالوا: إن لنا ربّا نعبده ولسنا نأكل من ذبائحكم. فأمر بختنصّر بأخدود، فخُدّ لهم وألقوا فيه، وهم ستّة، وأُلقِيَ معهم سبُعٌ ضارٍ ليأكلهم، ثم قالوا: انطلِقوا لنأكل ونشربَ، فأكلوا وشربوا، ثم راحوا فوجدوهم جلوسا والسبع مفترش ذراعَيْه بينهم ولم يخدِش منهم أحدا ولم ينكأهم[1] بشىء، و وجدوا معهم رجلا فعدُّوهم فوجدوهم سبعة، فقالوا: ما بال هذا السابع وإنما

(١) ينكأهم: يجرحهم.

كانوا ستّة ! . فخرج إليهم السابع ، وكان ملكا من الملائكة ، فلطم بختنصّر لطمةً فصار فى الوحوش ، ومسخه الله تعالى سبعَ سنين ثم ردّه الله تعالى إلى صورته وردّ عليه مُلْكه .

قال السُّدّىّ : ثم إن بختنصر لمّا رجع إلى صورته بعد المسخ وردّ الله تعالى عليه مُلْكه ، كان دانيَالُ وأصحابُه أكرمَ الناس عليه ، فحسدته المجوسُ ووشَوْا به ثانية فقالوا لبختنصّر : إنّ دانيَالَ إذا شرب الخمرَ لم يملك نفسه أن يبُول ، وكان ذلك فيهم عارًا . فجعل بختنصّر لهم طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا وقالوا للبوّابين : أنظروا أوّل مَن يخرج إليكم ليبول فآضربوه بالطَّبَرْزِين(١) ، وإن قال لكم أنا بختنصّر فقولوا له : كذبتَ ، بختنصّر أمرنا بهذا . فحبس الله تعالى عن دانيال البَوْل ، وكان أوّلُ مَن قام من القوم يريد البَوْل بختنصّر ، فقام مُدِلًّا وذلك ليلا ، فخرج يسحَب ثيابه ، فشدّ عليه البوّاب فقال : أنا بختنصّر . فقال : كذبتَ ، بختنصّر أمرنى أن أقتل أوّلَ مَن يخرج ، فضربه فقتله .

وحكى محمد بن إسحاق بن يَسَار فى سبب هلاك بختنصّر غير ما حكاه السُّدّىّ ، وذلك أنه قال بإسناده : لمّا أراد الله تعالى هَلاكَ بختنصّر آنبعثَ فقال لمن كان فى يده من بنى إسرائيل : أرأيتم هذا البيتَ الذى خرّبتُه ، وهؤلاء الناس الذين قتلتُهم مَن هم ؟ وما هذا البيت ؟ قالوا : هذا بيتُ الله ومسجدٌ من مساجده ، وهؤلاء أهله ، كانوا من ذرارِى الأنبياء فظلموا وتعدَّوْا وعصَوْا ، فسُلِّطتَ عليهم بذنوبهم ، وكان ربُّهم ربُّ السموات والأرض وربّ الخلق كلهم ، يُكرمهم ويمنعهم

(١) الطبرزين : جمعه طبرزينات . وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسية (تبر ، تبر) ومعناها الفأس ، وهى آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان ، وكانوا يعلّقونها فى السرج ليستخدمها الفارس فى وقت النزال والبراز . (راجع شفاء الغليل وصبح الأعشى ج ١ ص ٣٦٥ وقاموس دوزى) .

ويُعزّهم، فلمّا فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله تعالى وسلّط عليهم غيرهم . قال : فأخبرونى ما الذى يطلُع بى الى السماء العُليا لعلّى أطّلع إليها وأقتل مَن فيها وأتّخذها مُلْكا فإنى قد فرغت من الأرض ومَن فيها؟ قالوا : ما يقدِر على هذا أحدٌ من الخلائق . قال: لَتفعلُنّ أو لأقتلنّكم عن آخركم. فبكَوْا وتضرّعوا إلى الله تعالى، فبعث الله عز وجل عليه بقدرته ليُرِيه ضَعفَه وهوانه بعوضةً فدخلت فى مَنْخَره ثم ساخت فيه حتى عضّت بأمّ دماغه فما يَقِرّ ولا يسكن حتى يُوجأ[1] له رأسُه على أمّ دماغه . فلمّا عرف أنه الموت قال لخاصّته من أهله : اذا مُتّ فشُقُّوا رأسى فآنظروا ما هذا الذى قتلنى . فلمّا مات شقّوا رأسه فوجدوا البعوضةَ عاضّة بأمّ دماغه ليُرِىَ الله تعالى عباده قُدرتَه وسلطانَه ، ونجّى الله تعالى مَن بَقِىَ فى يديه من بنى إسرائيل وردّهم إلى إيليا والشام ، فبنَوْا فيه وربوا وكثُروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه . قال : فيزعمون أنّ الله تعالى أحيا أولئك الموتَى الذين قُتلوا ولحِقوا بهم . قال : ثم إنهم لمّا رجعوا الى الشام وقد أُحرق التوراةُ وليس معهم عهد من الله تعالى جدّد الله عز وجل تَوْراتَهم وردّها عليهم على لسان عُزَيْر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

٣٤/١٢ قال : وكان عُمر بختنصّر بأيام مَسْخه نَيِّفا وخمسين سنة وخمسين يوما . فلمّا مات بختنصّر آستُخلف [آبنه][2] بلسطاس[3] . وكانت آنيةُ بيتِ المقدِس التى حملَها بختنصّر إلى بابل باقيةً، فنجّسها بلحوم الخنازير وأكل وشرب فيها، وأقصى دانيالَ ولم يقبل منه، وآعتزله دانيال. فبينما بلسطاس ذات يوم إذ بدت له كف بغير ساعد وكتبت ثلاثةَ أحرُف بمشهده ثم غابت، فعجِب من ذلك ولم يدر ما هى، فآستدعَى دانيالَ وآعتذر اليه وسأله أن يقرأ تلك الكتابة ويخبره بتأويلها. فقرأها دانيال، فإذا

(١) يوجأ : يضرب . (٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) فى تاريخ ابن العبرى (ص ٧٨) : « بلطشاصر » .

هى : «بسم الله الرحمن الرحيم . وُزِنَ نخفّ[1]، ووُعِد فنجز، وجُمِع فتفرّق» . فقال دانيال : أمّا قوله وُزن نخفّ، أى وُزِن عملُك فى الميزان نخفّ . ووُعِد مُلْكٌ فنجز اليوم، وجُمِع فتفرّق، أى جُمِع لك ولوالدك من قبلك مُلْكٌ عظيمٌ فتفرّق اليوم فلا يرجع إلى يوم القيامة . فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكهم الله تعالى وضعُف مُلكهم، وبَقِىَ دانيال بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس[2] .

فهذه الأقاويلُ التى وردت فى بختنصّر هى على ماجاء فى التفسير[3] والمبتدا[4] . وأمّا قول من قال إنه كان مَرْزُبانًا للهراسف الملك الفارسىّ فسنذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار ملوك الفُرْس، على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى فى موضعه وهو فى الباب الثالث من القسم الرابع من هذا الفنّ فى السفر الثالث عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا . وهذه الاخبار التى قدّمنا ذكرها أوردها أبو إسحاق الثعلبىّ فى تفسيره وفى كتابه المترجم بـ «يواقيت البيان فى قصص القرآن» . وقال فى تفسيره : إلّا أنّ رواية مَن رَوَى أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريّا عليهما السلام غلَطٌ عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين . وذلك أنهم مُجمعون على أن بختنصّر غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيّهم شَعْيَا وفى عهد إرميَا بن حِلْقِيّا عليهم السلام، وهى الوقعة الأولى التى قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ يعنى بختنصّر وجنوده .

قال الثعلبىّ قالوا : ومن عهد إِرْميَا وتخريب بختنصّر البيت المقدّس الى مولد يحيى بن زكريّا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة . والله أعلم .

(١) فى الأصول : « ... وزن نخفف ... وجمع ففرق ... » وقد أثبتناه كما فى الثعلبى لوضوحه .
(٢) السوس التى بها قبر دانيال عليه السلام : بلدة بخوزستان (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٨٨ طبع أوربا) . (٣) هو الكشف والبيان فى تفسير القرآن لأبى إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ومنه بعض أجزاء مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية .
(٤) هو اسم كتاب أيضا .

ذكر خبر عمارة بيت المقدس بعد أن خرّبه بختنصّر وخبر الذى مرّ على قرية

قال الله عزّ وجل : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴾(١) الآية .

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : اختلفوا فى ذلك المارّ مَن كان ، فقال عِكْرِمة وقَتَادة والرَّبيع بن أَنس والضحّاك والسُّدّىّ وناجية بن كعب وسليمان بن بُرَيدة(٢) وسَلْم الخوّاص : هو عُزَير بن شرخيا . وقال وهب بن مُنَبِّه وعبد الله بن عبيد ابن عُمَير : هو إرْمِيَا بن حِلْقِيَا ، وكان من سِبْط هارون بن عمران ، وقد تقدّم ذكره .

قال : وآختلفوا أيضا فى القرية التى مرّ عليها ، فقال وهب وعِكْرمة وقَتَادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحّاك : هى الأرض المقدّسة . وقال آبن زَيْد : هى الأرض التى أهلك الله تعالى بها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت . وقال الكلبىّ : هى دَيْر سَابُرَا بَاذ . وقال السُّدّىّ : هى سلماباذ . وقيل : هى دَيْر هِزْقِل(٣) . وقيل : هى قرية العِنَب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس .

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩

(٢) كذا فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٨) طبع دار الكتب المصرية وتهذيب التهذيب لابن حجر (ج ٤ ص ١٧٤) . وفى الأصول : «يزيد» وهو تحريف .

(٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت وذكر أنه (بكسر أوّله وزاء معجمة ساكنة وقاف مكسورة) وقال : وأصله حزقيل ثم نقل الى هزقل ، وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم (خاص بالمجانين) ، وللمبرد حكاية فيه مع أحد عقلاء المجانين ، وقد ذكره دعبل بن على حين هجا أبا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دير هزقل مفلت * حنق يجرّ سلاسل الأقياد

وفى الأصول والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٣ ص ٢٨٩ طبع دار الكتب المصرية) : «هرقل» بالراء المهملة وهو خطأ . (راجع ياقوت ج ٢ ص ٥٤٢ ، ٧٠٦ طبع أوربا ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) .

قال فالذى يقول : إن المــار إرْمِيَا و إنّ القرية بيت المقدس ، هو ما رواه محمــد آبن إسحــاق بن يَسَار عن وهب بن مُنَبِّه : أنه لمــا كان من أمر إرْمِيَا ما قدّمناه، وأنه طار لمــا آلتهب مكان القُرْبان وخُسف بسبعة أبواب من أبواب بيت المقدس حتى خالط إرْمِيَا الوحش ودخل بختنصّر وجنودُه بيت المقدس وخُرِّب كما تقدّم . فلمّا رجع بختنصّر عن بيت المقدس أقبل إرْمِيَا على حمار له معــه عَصيرُ عنب فى رِكْوَة(١) وسَلّةُ تينٍ حتى غَشِيَ إيلِيَاء(٢) . فلمّا وقف عليها ورأى خرابها قال : «أنّى يُحيِي هذه الله بعد موتها» ! . قال : ثم ربط إرْمِيَا حماره بحبل جديد، فألقَى الله تعالى عليه النوم، ٣٥/١٢ فلمّا نام نَزَع منه الرُّوح مائةَ عام وأمات حمارَه ، وعَصِيرُه وتينُه عنده ، وأعمى الله تعالى عنــه العيون فلم يره أحد وذلك ضُحًى ، ومنع الله السباعَ والطيرَ لحمه . فلمّا مضى من نومــه سبعون ســنة أرســل الله عز وجل مَلَكًا إلى مَــلِك عظيم من ملوك فارس يقــال له : « بُوســك »(٣) فقــال له : إن الله عز وجل يأمرك أن تنفــر بقومك فتعمِّر بيت المقدس و إيلياءَ وأرضَها حتى تعود أحسنَ ما كانت، فانتدب الملك ألف قَهْرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل ، فجعلوا يعمِّرونها فعُمِّرت ، ونجّى الله تعالى مَن بَقِيَ من بنى إسرائيل ولم يمت ببابل أحدٌ منهم وردّهم الله تعالى إلى بيت المقدس وعمّروها ثلاثين ســنة حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ؛ وذلك بعــد أن خُرِّبت سبعين ســنة . فلمّــا مضت المــائة سنةٍ أحيا الله عز وجل منه عينيه وسائرُ جســده ميّتٌ ، ثم أحيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامُه منفرّقةٌ بيضٌ تلوح، فسمع صوتا من السماء : أيّتهــا العظامُ الباليــةُ إن الله

(١) الركوة : إناء صغير من جلد .

(٢) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس . معناه بيت الله .

(٣) كذا فى الأصــول . وفى قصص الأنبيــاء للثعلبي المطبوعة : «بوشــك» . وفى المخطوطة : «نوشك» . وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ٤ ص ٢٩١) : « كوشك» .

يأمركِ أن تجتمعى، فآجتمع بعضها إلى بعض وآتّصل بعضها ببعض . ثم نُودِىَ : إن الله يأمركِ أن تكتسِىَ لحما وجِلْدا فكان كذلك . ثم نُودِىَ : إن الله يأمركَ أن تحيا، فقام بإذن الله ونَهَق . وعمّر الله تعالى إرْمِيَا، فهو الذى يُرَى فى الفَلَوَات؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أن الله تعالى أماته ضُحًى فى أوّل النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال : «لبثتُ يوما»، وهو يرى أن الشمس قد غَرُبت، ثم آلتفت فرأى بقيّةً من الشمس فقال : «أو بعضَ يوم»، بمعنى بل بعض يوم ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعنى التّين ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعنى العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى لم يتغيّر ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) . قال وهب : ليس فى الجنة كلبٌ ولا حمارٌ إلا كلبُ أصحابِ أهلِ الكهف وحمارُ إرْمِيَا الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . هذا قول من قال إنه إرميا بن حِلْقِيَا .

* * *

وأمّا من قال إنه عُزَيْر، فإنه يقول : إنّ بختنصّر لمّا خرّب بيتَ المقدس قتل أربعين ألفا من قرّاء التوراة والعلماء، وقتل منهم أبا عُزَيْر وحدَه . وكان عُزَيْر يومئذ غلاما قد قرأ التوراة وتقدّم فى العلم، وأقدمه بختنصّر مع بنى إسرائيل إلى أرض بابل، وهو من ولد هارون . فلمّا نجا عُزَير من بابل آرتحل على حمار حتى نزل على دير هِزْقِل على شطّ دِجْلة، وطاف فى القرية فلم ير فيها أحدا، وعامّة شجرها حامل، فأكل من الفاكهة وآعتصر من العنب وشرب منه، وجعل فضل الفاكهة

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩

فى سَلّة وفضل العصير فى زِقّ . فلمّا رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الآية ، وساق فيه نحو ما تقدّم فى خبر إرْميَا .

وقال قوم فى قوله تعالى : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ إنّ الله تعالى لم يُمِتْ حمارَه فأحيا الله تعالى عينيه و رأسَه وسائرُ جسده ميّتٌ فقال له : « أُنظُرْ الى حمارك » فنظر الى حماره قائمًا كهيئته يومَ ربطه حيًّا ، لم يَطْعَم ولم يشرَب مائةَ عام ، ونظر الى الرُّمّة فى عُنُقه جديدة ؛ وهذا قول الضحّاك وقَتَادة . وقال الآخرون : أراد عظام حماره كما تقدّم فى قصّة إرْميَا . وقوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى عبرةً ودلالةً على البعث بعد الموت . وقال الضحّاك : وهو أنه عاد إلى قريته وأولادُه وأولادُ أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللّحية .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : أحيا الله تعالى عُزَيرا بعد مائة سنة ، فركب حماره حتى جاء مَحلّته(١) ، فأنكره النـاسُ وأنكر الناسَ ومنازلَه ، فآنطلق على وَهْمِ حتى أتى منزلَه ، و إذا هو بعجوز عمياءَ قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنةً ، وكانت أمَةً لهم ، نخرج عنهم عُزَير وهى آبنة عشرين سـنة ، وكانت قد عَرَفته وعَقَلَتْه ؛ فلما أصابها الكِبَرُ والزَّمَنُ(٢) قال لها عُزَير : يا هذه ، هذا منزل(٣) عُزَير ؟ قالت : نعم هـذا منزل عُزَير و بكت وقالت : ما رأيتُ أحدًا من كذا وكذا سـنة يذكر عُزَيرا وقد نَسِيَه الناس . قال : فإنى عُزَير . قالت : سبحان الله ! فإنّ عُزَيرا قد فقدناه من مائة سنة . قال : فإنّى أنا عُزَير ، إنّ الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت : فإن عُزَيرا ٣٦ ١٢
كان رجلا مُجابَ الدعوة ، يدعو للمريض وصاحبِ البلاء بالعافية والشفاء ، فآدعُ الله

(١) كذا فى الثعلبى . وو ردت محرّفة فى الأصول . (٢) الزمن : مصدر زمن يزمن (مثل فرح) زمنا وزمنة وزمانة . وعبارة الثعلبى : « فلما أصابها الكبر لحقتها زمانة » .

(٣) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « هذه منازل » ولا تتفق مع السياق .

يردّ علىّ بَصَرى حتى أراك، فإن كنتَ عُزَيْرا عرفتُك. فدعا ربّه تعالى فاستجاب له ومسح بيده على وجهها وعينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال لها: قومى بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجليْها، فقامت صحيحةً كأنما نَشِطَت من عِقَال، فنظرت اليه فقالت: أشهد أنك عُزَير. فانطلقت إلى مَحَلّة بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وٱبنٌ لعُزَير شيخٌ ٱبن مائة سنة وثمانيةَ عشرَ سنة و بنو ٱبنه شيوخٌ فى المجالس، فنادت: هذا عُزَير قد قَدِم وجاءكم، فكذّبوها. فقالت: وأنا فلانةُ مولاتكم دعا لى ربّه فردّ الله علىّ عينىّ وأطلق رجلىّ، و زعم أنّ الله أماته مائة عام ثم بعثه. فنهض الناسُ وأقبلوا إليه، فقال ٱبنه: إنه كان لأبى شامةٌ سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه و إذا هو عُزَير.

*
* *

وأمّا خبرُ فتنة اليهود به وقولهم عُزَيرٌ ٱبن الله، فقد رَوَى عطيّة العَوْفِىّ عن ٱبن عباس رضى الله عنهما قال: كان عُزَير من أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعمِلُوا بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعَمِلوا بغير الحقّ، وكان التابوت فيهم. فلمّا رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراةَ وعَمِلوا بالأهواء رَفَع عنهم التابوتَ وأنساهم التوراة ونَسَخها من صدورهم، وأرسل عليهم مرضا، فٱستطاقت بطونُهم، حتى إنّ الرجل يَمَسّ كَبِدَه، حتى نَسُوا التوراة وفيهم عُزَير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نُسِخَت التوراةُ من صدورهم. وكان عُزَير دعا الله وٱبتهل إليه أن يردّ إليه الذى نُسِخَ من صدورهم. فبينما هو يصلّى و يبتهل إلى الله تعالى إذ نزل نورٌ من السماء فدخل فى جَوْفه، فعاد إليه الذى كان ذهب من التوراة، فأذّن فى قومه فقال: يا قوم، قد أتانِىَ الله التوراة وردّها إلىّ، فطفِق يُعلِّمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلّمهم. ثم إنّ التابوتَ نزل بعد ذلك. فلمّا رأَوْا

التابوت عَرَضوا ما كان فيه على الذى كان يعلّمهم عُزَير فوجدوه مثلَه، فقالوا: والله ما أُوتِىَ عزير هذا إلّا وهو آبن آلله.

وقال السُّدّىّ وآبنُ عبّاس فى رواية عمّار بن ياسر: إنما قالت اليهودُ هذا لأنّ العمالقةَ ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهَرَب علماؤهم الذين بَقُوا ودفنُوا التوراة فى الجبال وغيرها، ولحق عُزَير بالجبال والوحوش، وجعل يتعبّد فى رءوس الجبال ولا يخالط الناس ولا ينزل إلّا يوم عيد، وجعل يبكى ويقول: ياربّ تركتُ بنى إسرائيل بغير عالم، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرّةً الى العيد، فلمّا رجع إذا هو بامرأة قد تمثّلت له عند قبر من القبور تبكى وتقول: يا مُطْعِماه، ويا كاسياه!. فقال لها عُزَير: ياهذه آتقى الله وآصبِرِى وآحتسبى، أمَا علمتِ أنّ الموت مكتوبٌ على الناس!. وقال لها: وَيْحَكِ! مَن كان يُطعِمُكِ ويكسوكِ قبل هذا الرجل؟ (يعنى زوجها التى كانت تندُبه). قالت له: الله تعالى. قال: فإن الله تعالى حىّ لا يموت. فقالت: يا عُزَير، مَن كان يعلِّم العلماء قبلَ بنى إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلِمَ تبكى عليهم وقد علمتَ أنّ الموت حقّ وأن الله حىّ لم يمت. فلمّا علم عُزَير أنه قد خُصِم ولّى مُدبرا. فقالت له: يا عُزَير، لستُ بامرأة ولكنّى الدنيا. أمَا أنه ستنبعُ لك فى مُصَلّاك عينٌ وتنبتُ لك شجرةٌ، فكُلْ من ثمرة تلك الشجرة وآشرَبْ من ماء تلك العين وآغتسل وصلّ ركعتين؛ فإنه سيأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخذ منه. فلمّا أصبح نبعت العين فى مُصلّاه ونبَتَتِ الشجرة، ففعل ما أمرتْه به، وجاء شيخ وقال له: افتح فاك، ففتح فاه فألقَى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعا كهيئة القوارير ثلاث مرّات، ثم قال له: أُدخُل هذه العينَ فآمشِ فيها حتى تبلُغ قومك. قال: فدخلها فجعل لا يرفع قدمه إلّا زِيدَ فى علمه، فرجع إليهم وهو أعلم الناس بالتوراة. فقال: يا بنى إسرائيل، قد جئتكم بالتوراة. فقالوا:

يا عُزَير، ما كنتَ كذّابا . فربط على كلّ إصبع له قلمًا وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراةَ كلَّها عن ظهر قلبه، فأحيا لبنى إسرائيل التوراة وأحيا لهم السُّنّة . فلمّا رَجَع العلماء استخرجوا كُتُبَهم التى كانوا دفنوها ، فعارَضُوا بها توراةَ عُزَير فوجدوها مثلها، فقالوا : ما أعطاه الله تعالى هذا إلّا أنه آبنه .

وقال الكلبيّ : إنّ بختنصّر لمّا ظهر على بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل مَرّةَ قُرّاء التوراة ، كان عُزَير إذ ذاك غلاما صغيرا ، فآستضعفه فلم يقتله ، ولم يدرِ أنه يقرأ التوراة . فلمّا تُوفِّىَ مائة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس منهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عز وجل عُزَيرًا ليجدّد لهم التوراةَ ويكون لهم آية، فأتاهم فقال : أنا عُزَير . فكذّبوه وقالوا : إن كنتَ عُزَيرًا كما تزعمُ فآتلُ علينا التوراةَ . فكتبها وقال : هذه التوراة . ثم إنّ رجلا قال : إنّ أبى حدّثنى عن جدّى أن التوراة جُعِلتْ فى خابية ثم دُفنت فى كَرْم . فآنطلقوا معه حتى آحتفروها وأخرجوا التوراة، فعارضوها بما كتب عُزَير فلم يجدوه غادر منها [آية ولا] (١) حرفا ، فعجِبوا وقالوا : إن الله لم يقذِف التوراة فى قلب رجل واحد منّا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلّا أنه آبنه؛ فعند ذلك قالت اليهود : عُزَير آبن الله .

(١) زيادة عن الثعلبيّ .

الباب الرابع
من القسم الثالث من الفن الخامس
فى قصة ذى النُّون يونس بن مَتَّى عليه السلام وخبر بلوقيا

ذكر قصة ذى النُّون يونُس بن مَتّى عليه السلام

قال الكسائىّ رحمه الله قال وهب بن مُنَبِّه : كان مَتَّى رجلا صالحا من أهل بيت النبوّة ، ولم يُرْزَق الولدَ الى آخر عمره بعد أن أسنّ هو وزوجته ، فسأل الله تعالى الولدَ ، فنُودِىَ : إنّ الله قد آستجاب دعاءك ، فآنطلِقْ إلى حَضِيرة التوبة ، وهو الموضع الذى أمر الله تعالى بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فيه لمّا عبدوا العِجْل . فصار إلى هناك وإذا بملَكٍ قد هَبَط من السماء فضرب قُبّة على باب حَضِيرة التوبة ، وذلك فى ليلة عاشوراءَ ، وأمرهما أن يدخلاها فدخلا وواقعها ، فحملت بيونُسَ ، ثم آنصرفا إلى منزلها . فلمّا صار لها أربعةَ أشهُر تُوُفِّىَ متّى وبقيتْ آمرأتُه أرملةً ليس لها إلاّ قَصْعة كانت لآل هارون ، فكانت تُصِيب رزقَها فى المَسَاء والصباح من عند الله . فلمّا وَضَعَت يونُسَ لم يكن لها لبَن يكفيه ، فكانت أمّه تأتى إلى الرُّعاة وتسألهم اللبنَ فلا يجيبونها ، فكانت تقول : اللّهمّ هذا الولد هِبَتُك فلا تُهلكه جُوعا ، فكانت المواشِى تأتيه وتَمجّ[1] عليه بضَرْعها حتى يشبَع ، فإذا شَبِعَ يقول : الحمد لله[2] ، فآمنَ به جماعةٌ من الرُّعاة ، فبقِىَ كذلك حتى فَطَمته أمه ،

(١) كذا فى الأصول والكسائى . (٢) فى الكسائى : « الحمد لله الذى سقانى وآوانى ، فكانوا يدهشون إليه من فصاحته على صغر سنه فآمن به فى ذلك الوقت سبعون راعيا يقولون آمنا بالذى أسقى هذا الغلام من هذه الغنم ... ... الخ » .

وكان يُسمَّى يتيم بنى اسرائيل، حتى أتت عليه سبعُ سنين، فأقبل على أمه فقال : يا أمّاه، لا ينبغى أن تذهب أيّامى بالبِطالة، وأُريد أن تُلبسينى ثوبا من الصوف حتى أَلحقَ بالعُبّاد وأكون معهم. فقالت : يا بنىّ، أنت صغير ولم يأنِ لك أن تَسيح. فلم يزل بأمّه حتى أجابته إلى ذلك ولَحِق بالعُبّاد وآشتهر ذكرُه فيهم بكثرة العبادة حتى آستكمل من العُمْر خمسًا وعشرين سنة، فرأى فى منامه : إنّ الله يأمرك أن تمضىَ الى مدينة الرَّمْلة[1] فإنّ فيها وليّا من أوليائى وله آبنةٌ عفيفةٌ فتزوجها منه . فلمّا أصبح عزَم على المسير، وصَحِبه جماعةٌ من بنى إسرائيل من أصحابه، وسار حتى دخل مدينة الرَّمْلة، وسأل عنه فقيل : إنه فى السُّوق يبيع ويشترى . فعجِب يونس من ذلك وجاء الى السُّوق فرآه وهو يبيع الطِّيب ويُكثر الضَّحِك . فقال يونس : ليس هذا من صفات الأولياء والعبّاد . فنظر إليه زكرِيّا[2] وقام إليه وصافحه وسلّم عليه بآسمه وآسم أبيه . قال : وكيف عرفتَنى ؟ قال : رأيتك فى المنام وأُمِرتُ أن أزوّج آبنتى منك . وتوجّه به إلى منزله وقدّم له الطعام فأكلا، وذكر له رؤياه وأنها سببُ مَسِيره الى الرملة، ثم سأله عن مكسبه بالبيع والشراء فقال : أمّا البيعُ والشراء فمباحٌ، والتاجر فاجر إلّا من أَخَذ الحقّ وأعطاه، وآتقَى الله ولم يمدَح سِلْعته . ٣٨ / ١٢

فلمّا أقبلَ الليل نزع زكريّا ما كان عليه من الثياب ولبِس الصوف ودخل محرابه ولم يزل فى صلاته ودعائه وتضرُّعه حتى أصبح ، فنزع الصوف ولبِس ما كان عليه بالأمس وبَرَز إلى السوق ويونسُ معه، فكان ذلك دأبَه .

ثم زوّج آبنته من يونس ووَهَب لهما بعضَ ماله . وأقام يونس عنده، ورزق الله يونس من زوجته وَلَدَيْن ومات زكريّا ، فآحتمل يونس زوجته إلى بيت

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . (٢) فى الأصول : «زكريا عليه السلام» والمذكور هنا هو زكريا بن عبدان، وليس زكريا النبىّ أبا يحيى عليهما السلام .

المقدس وأقام هناك يعبد الله تعالى . وشَعْيَا يومئذ ببيت المقدس وهو نبيّ فى بنى اسرائيل إلى أن بعث الله تعالى يونس نبيّاً .

قال : وكان فى بلاد نِينَوَى[1] مَلِكٌ[2] وكانت جيوشه كثيرة ، قيل : إنها كانت تزيد على عشرة آلاف قائد[3] . وكان إذا غزا تكون معه تماثيل من الأسود والفِيَلة متّخذة من النحاس والحديد ، يخرج من أفواهها لَهَبُ النِّيران ، ومعه رجال يلعبون بالنيران . فغزا هذا الملك بنى إسرائيل على هذه الصورة ، فقتل من بنى إسرائيل وسبَى ، ثم عاد الى بلاد نِينَوَى ، وغزاهم ثانيةً وتكرّرت غزواته فيهم . فأوحَى الله تعالى إلى شَعْيَا نبيّ بنى إسرائيل أن يختار من عُبّاد بنى إسرائيل أمينا قويّا يبعثه إلى بلاد نِينَوَى رسولا إلى مَن بها من الملوك وغيرهم ؛ فإنهم قد جحدوا حقّى وأنكروا معرفتى . فدخل شَعْيَا على حِزْقِيّا الملك وأمره أن ينادِىَ فى عُبّاد بيت المقدس ، وبها يومئذ عشرة آلاف عابد ، لباسُهم الشعر والصوف ونعالُهم الخُوص ، فنادى فيهم بالآجتماع فآجتمعوا ، فاختار منهم ثلاثة وآختار من الثلاثة يونُس بن مَتّى ، ثم قال له حِزْقِيّا : إن الله أوحَى إلى نبيّه شَعْيَا أن يختار من جملة هؤلاء العُبّاد والزُّهّاد أعبدَهم وأتقاهم ، وقد وقع آختياره عليك لتُبْعَث [إلى أهل[4]] بلاد نِينَوَى . قال يونس : إن فى بنى إسرائيل مَن هو أعبدُ منّى وأزهدُ ، فآبعث أيها الملِك غيرى . قال : لا أبعث سواك ، فآنهض

(١) نينوى : كانت قصبة أشور وأعظم مدنها . أسسها أشور على ضفة دجلة الشرقية قبالة الموصل ، وهى تبعد عن بابل نحو ٢٥٠ ميلا وعن خليج فارس إلى الشمال الغربى منه ٥٥٠ ميلا . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور جورج بوست) .

(٢) فى الكسائى : « يقال له ثعلب بن الأسارد » .

(٣) فى الكسائى بعد هذا : « ومع كل قائد خلق كثير » .

(٤) التكملة عن قصص الأنبياء للكسائى .

ولا تخالفنى فإنّ هذا عن أمر الله. فآنصرَف يونُس إلى أمّه وأخبرها الخبر وآستشارها، فقالت: إن الله أنطق الملكَ فى حقّك بالرسالة فسِرْ كما أُمِرتَ ولا تعص الله ونبيًّنا شَعْيَا وملكًا حِزْقِيّا. فعزم على المسير وودَّع أمّه وحمل أهــلَه حتى بلغ شاطئ دِجْلة، فنزل هناك وفكَّر فى أمره وضَعْفه وعياله وقال: كيف لى بمُطاولة الجبابرة والفراعنة! وأقبل على أهــله وقال: قــد عزمتُ على الفِرَار، فنهاه أهله عن ذلك. فسكت وقام ليعبُر دِجْلة إلى بلاد نِينَوَى فعــبَرَ بولده الأكبر، ثم رجع وأخذ ولده الثانى. فلمّــا توسّط دِجْلة زاد المــاء فغَرِق آبنــه الذى كان معــه، وكان فى يده نُقْرةٌ[1] من الذهب كان قد ورثها من حَمِيه فغَرِقت، وجاء ذئبٌ إلى ولده الذى عَبَر به فآحتمله. فصاحت المرأة: يا يونس، إن آبنــك أخذه الذئب. فخرج من المــاء يعدو خلف الذئب فآلتفتَ إليه وقال: اِرْجِعْ يا يونُس فإنى مأمور، فرجع يونس باكيا على ولديه. فلمّا بلغ الشطّ لم يرَ أهله، فجلس يبكى. فأوحى الله إليه: إنك شكوتَ كثرة العيال، وقــد أرحتُك منهــم، فآذهب الآن إلى قومك فإنى سأردّ عليــك أهلك ووَلَدَيْك وأنا على كل شئ قــدير. فطابت نفســه وسار حتى بلغ بلاد نِينَوَى فتوسّــط سُوقها ونادَى: يا قوم، قولوا بأجمعكم: لا إلٰهَ إلا الله وأنّى يونس عبدُه ورسولُه. فلمّــا سَمِعوا ذلك أقبــلوا على مَلِكهم وأخبروه به وبمقالتــه. فأحضره الملك وقال له: من أين أنت؟ قال: رسول الله إليــك وإلى أهــل مملكتك فآمِنوا بى تنجوا من النار. فأمر الملك بحبسه ثم بعث إليه وزيره، وهو من أهل بيت المقدس، وآسمه سنجير[2]، فقال له: أُدخُل على هذا الرجل يونس وتعرَّف أمره. فدخل عليه وسأله عن آسمه وآسم أبيــه، ومن أين أقبل وفيماذا جاء. فــذكر له أنه رسول الله

(١) النقرة من الذهب: ماسبك مجتمعا منها.

(٢) كذا فى الأصول. وفى الكسائى: «سنحاريب».

إليهم. فقال له الوزير : أرى أن ترفُق فإني أخشى عليك من هذا الملك فإنه جبّار. وآنصرف الوزير إلى الملك وقال له : قد عرفتُ الرجل، وقد ذكر أنه رسول من إله السماء. فهمّ الملك بقتله، فآستوهبه الوزيرُ منه على أن يكون في البلد ولا يقول مثل مقالته. فآستدعى الوزير يونس وذكر له ذلك. فقال له : أمّا القتلُ فلا أخشى منه، والرسالةُ فلا أتركها حتى يحكم الله بيني و بينه. ثم إنّ الملك خلّى سبيله على أنه مجنون. فلم يزل يونس يدعوهم إلى طاعة الله تعالى في كل يوم عامّة نهاره، حتى إذا ٣٩/١٢
جاء المَسَاء أتى شطّ دِجْلة فيُصَلّي حتى يُصبِح، ثم يعود إليهم والناس يضربونه و يرجمونه و يسبّونه حتى ضجِر فآستغاث إلى ربّه. فأوحى الله تعالى إليه : يا يونس، إنك دعوتَ القوم فلا تعجَل عليهم وآدعُهم أربعين يوما، فإن آمنوا و إلّا جاءهم العذابُ. فدعاهم حتى آستكمل العِدّة ولم يؤمنوا. فأوحى الله إليه أنِ آخرُج من بين أظهرهم، فخرج حتى بلغ شاطئ دِجْلة، فقعد ينظر إلى العذاب كيف ينزل بالقوم. فأمر الله تعالى جبريلَ أن يُرسل على قوم يونس سحابةً فيها ألوانُ العذاب، فآنطلقَ إلى مالك وأمره بذلك، فأخرجَ شرارةً من الحُطَمة[1] على مثال سحابةٍ سوداءَ مظلمة. فجاءت بها الزبانيةُ حتى بلغت بلادَ نِينَوَى وآنبسطتْ حتى أظلّتْ عليها، فظنّ القوم أنها مطر. فنظر وزير الملك إلى السحابة يخرج من أطرافها شَرَرُ النار، فدخل على الملك وقال : الحَذَرَ الحَذَرَ! فليست هذه سحابةَ مطر بل هي سحابةُ عذاب، وأخشى أن يكون ذلك لتكذيبنا يونس نبيّ الله. ثم قال : أُنظروا إلى يونس إن كان معكم في بلدكم فلا تخافوا، و إن كان قد خرج عنكم فقد هلكتم. فطلبوا يونس فلم يجدوه. وجعلت السحابة تدنو حتى قَرُبتْ منهم و رمتهم بشرر كالرّماد الأحمر لا يقع على

(١) الحطمة : اسم لجهنم.

شيء إلّا أحرقه . فبينا النـاس يقولون : أين نطلب يونس إذا هم بالملك قد خرج عليهم وجميع أصحابه وهم يقولون : أين أنت يا يونس ! فإنا لانعود إلى مخالفتك، فلم يجدوه . فأقبل عليهم سنجير الوزير وقال : أيها الملك، إن يكن يونس قد غاب عنّا فإن إلٰهــه لم يغب، فتعالَوْا حتى نتضرّع إلى الله لعلّه يرحمنا . فخرجوا بأجمعهم ونسائهم وأطفالهم إلى ظاهر البـلد يبكون ويتضرّعون، فقام سنجير فيهم وقال : إلٰهنـا إنك أمرتَنا أن نُعْتِق رقابَ عَبِيدنا وإمائنا ونحن عبيدك وإماؤك فأَعْتِقْنا . إلٰهنا إنك أمرتَنا أن نعفو عمن ظلمنا فآغفر لنا وآعفُ عنا . اللهم أَعْتِقْنا من عذابك فإنّا قد آمنا بنبيّك يونس وبجميع النبيّين فآغفر لنا ذنوبنا، ثم خَرُّوا سُجَّدا بأجمعهم . فأوحى الله تعالى إلى ملائكة العذاب أنِ آرجعوا، فآنصرفت السحابة عنهم، وسمعوا صوتا : أبشِرُوا يأهــل نِينَوَى برحمــةٍ من ربكم؛ فرجعوا إلى المدينــة وقد آمنوا . وجاء يونس لينظر إلى ما نزل بهم من العذاب، فلقيه إبليس فى صورة شيخ . فقال له يونس : من أين أقبلت أيها الشيخ ؟ [قال](١) : من نِينَوَى . قال : فما نزل بهم اليوم ؟ قال : ما نزل بنا إلّا سحابة بيضاء أمطرت مطرا جَوْدا(٢)، وكان يونس قــد وعدنا بالعذاب فلم يكن وعَلِمنــا كذبَه . فغضب يونس وقال : لا أعود إلى قوم كذّبونى، وسار . قال الله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(٣) . قال مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبىّ : معناه أن لن نقضيَ عليه بالعقوبة، وهى رواية العَوْفىّ عن آبن عبّاس؛ ودليل ذلك قراءة عمر بن عبد العزيز والزُّهرىّ « فظنّ أن لن نُقَدِّر عليه » بالتشديد . وقال عطاء وكثير من العلماء : معناه نضيّق عليه الحبس .

---

(١) التكملة عن الكسائى .
(٢) الجود من المطر : الغزير .
(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧

قال الكسائىّ : فلم يزل يسير حتى لحق بساحل البحر ، فإذا هو بسفينة مارّة فلوّح إليهم فدخلوا إليـه فقال : احملونى معكم فإنّى رجل منقطعٌ غريبٌ من بيت المقدس . فحملوه فقعد على كَوْثَل[(١)] السفينة . فلمّا توسّطوا البحر هبّت عليهم رياح كثيرةٌ من جميع الجوانب وأشرفوا على الغرق ، فأخذوا فى الدعاء والتضرّع ويونس لا يتكلّم ، فأقبل أهل السفينة عليه وقالوا : لِمَ لم تدعُ أنت معنا؟ قال : لأنى مغموم لذهاب الأهل والولد . فلم يزالوا به حتى دعا ، فآزداد البحر هَيَجانا . قال يونس : اطرحونى فى البحر فإنّ هذا من أَجْلى . قالوا : ما نفعل . قال : فآقترِعُوا . فآقترَعُوا فوقعت القُرعةُ عليه . فقالوا : إنّ القرعة تُخطئ وتصيب ، ولكن تعالَوْا حتى نتساهم . فجعل كل واحد منهم لنفسه سهما ثم رمَوْا بها فى البحر ، فغرقت إلّا سَهْمَ يونس فإنه بَقِىَ على وجه المـاء . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾[(٢)] . ثم أقبل حوت عظيم من بحر الهند حتى بلغ جانب السفينة ، فقام يونس ليرمى بنفسه ، فتعلّق القوم به وقالوا : ألا ترى هذه الأمواج وهذا الحوتُ العظيم! فأقعدوه والبحر يزيد عليهم بكثرة أمواجه وأهواله ، فصار إلى جانب السفينة ليرمى بنفسه ، فإذا بالحوت قد دار إلى الجانب الذى قصد أن يَرمىَ نفسه منه ، فعلم يونس أنه هو المراد ، فغطّى وجهـه بكسائه ورَمَى نفسه فى البحر[(٣)] فآبتلعه الحوت . قال الله تعالى : ﴿ فَآلْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[(٤)] معناه يلوم نفسه على ما فعله . وبقِىَ فى جوف الحوت وهو يسمع

---

(١) الكوثل (بالثاء المثلثة) : ذنب السـفينة . وفى أ : « كوبل » بالباء الموحدة . وفى ب : « كوتل » بالتاء المثناة وكلاهما تصحيف . (٢) سورة الصافات آية ١٤١

(٣) ورد فى الكسائىّ عن كعب الأحبار : أن ذلك البحر هو بحر الروم . وفى قاموس الجغرافيـة القديمة للرحوم أحمد زكى باشا (ص ٢٢) : أن بحر الروم هو البحر الأبيض المتوسط ، وسمى ببحر الروم لأن البلاد التى على سواحله كانت كلها فى ملك الروم . (٤) سورة الصافات آية ١٤٢

٤٠/١٢ تسبيح الحيتان بلغاتهم، فلم يزل كذلك حتى بلغ [الى موضع يُسمَع فيه صَريف الأقلام][1]. وهو اذا سجد يكون سجوده على كبد الحوت وهو يقول له : يا يونس، أسمعنى تسبيح المغمومين المحبوسين فى حَبْس لم يُحْبَس فيـه أحد من الآدميّين ، و يونس يقول : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، وكانت الملائكة تقول: إلهنا إنّا نسـمع تسبيح مكروب كان لك شاكرا ، اللهـمّ آرحمه فى غُربتـه . قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾[2] الآية . قيل : ظُلْمة الليل، وظُلْمة البحر، وظُلْمة بطن الحُوت . قال الله تعـالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾[3] أى المصلّين ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[4] . وآختُلف فى مدّة لُبْثه ، فمنهم من قال : لبث أربعين يوما، وقيل : ثلاثة أيام. فلمّا آنقضت المدّة التى قدّر الله عليه ألهمَ الله الحوت أن يرجع إلى الموضع الذى آبتلعه فيه. فشقّ ذلك على الحوت لأنه كان قد أنِس به و بتسبيحه، فناداه الملك أنِ آقذفه من بطنك فليس هو مَطعمٌ لك . فتقدّم الحُوت إلى الساحل وقذفه. قال الله تعالى :﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[5]. قال : خرج كالفرخ الذى لا ريش له، وهو لا يقدر على القيام، فأنبت الله عليه شجرة من يَقْطِين[6] كان لهـا ثلاثة أغصان : غصن قِبَلَ المشرق، وغصن قِبَـلَ المغرب، والغصن الثالث على رأسه . وجاءه جبريل فقال : يايونس، إنّ الله قد أعطاك من الجنة ما ترضَى به، ثم أمرَّ يده على رأسه وجسمه فأنبت الله شعره ولحيته، وأمر

(١) كذا فى تفسير القرطبي . وصريف الأقلام، أى صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه وما ينتسخونه من اللوح المحفوظ (كما فى النهاية لابن الأثير) . وفى الأصـول : « حتى بلغ حصن الرجال » وهو تحريف .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ — (٣) سورة الصافات آية ١٤٣

(٤) سورة الصافات آية ١٤٤ — (٥) سورة الصافات آية ١٤٥

(٦) اليقطين : شجر القرع .

الله ظبية فوقفت بين يدَىْ يونس وكلّمته بإذن الله، فمصّ من لبنها فقوِىَ عند شُربه؛ ثم بشّرته بإيمان قومه وأخبرته بما كان من أمرهم وسبب إيمانهم وذكرت آشتياقهم إلى رؤيته. وكانت الظبية ترعَى حولَ يونس فإذا جاع أو عطِش أرضعته، فلم يزل كذلك أربعين يوما. فنام فى بعض الأيام ثم آنتبه فرأى اليقطينةَ قد جفّت والظبيةَ قد غابت، فآغتمّ لذلك، فعلم يونس أن الله ضرب له مثلا بقومه، ثم هبط عليه مَلَكٌ وقال: قُم إلى قومك فإنهم يتمنّوْن رؤيتك، وأتاه بحُلّتين فأُتزر بواحدة وآرتدى بالأخرى، ثم سار حتى دخل قريةً كثيرة الأشجار والخيرات وأهلها يقطعون تلك الأشجار ويُلقون ثمارها فى الأرض، فقال: ياقوم، كيف تفعلون ذلك وتُبطلون على أنفسكم ثمارها! فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، إنك أشفقتَ على قوم لاتعرفهم من قطعهم الأشجار ولم تُشفِق على قومك وهم مائة ألف أو يزيدون! فعلم يونس أنّ هذا مثلٌ ضربه الله تعالى له، فقال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدًا. ثم سار حتى دخل قرية أخرى وقت المساء، فتلقّاه رجلٌ من أهل القرية وسأله أن ينزل عليه فنزل. فلمّا أكل وشرب نظر إلى بيت الرجل وفيه فخّار كثير يريد أن يُوقد عليه. فأوحى الله تعالى إليه: يايونس، قل لهذا الفاخرانىّ أن يكسر الفخّار الذى قد عمِلَه. فقال يونس ذلك للفاخرانىّ، فقال: ياهذا أضفتُك لِمَا رأيتُ فيك من أثر الخير وإذا أنت رجل مجنون، تأمرنى أن أُكسّر فخّارا قد أتعبت فيه نفسى لأنتفع بثمنه! قُم الآن فآخرج من عندى، وأخرجه. فأوحَى الله تعالى إليه: يايونس، إنه أشفق على فخّاره وسمّاك مجنونا وأخرجك من منزله حين أمرتَه بكسره، وأنتَ بُعِثت إلى مائة ألف أو يزيدون فدعوتَ عليهم ولم تفكّر فى هلاكهم فترحمهم!. قال: إلٰهى لا أعود إلى ذلك أبدا. فلمّا أصبح سار فإذا هو برجل يزرع زرعا، فقال له الرجل: ادعُ الله عز وجل حتى يبارك لى فى زرعى، فدعا له فأنبته الله تعالى من ساعته

وقام على سُوقه ، ففرح الرجل وأتى بيونس إلى منزله . فأوحى(١) الله تعالى إليه : يايونس، قد حزِنت على إرسال الجراد على الزرع ولم تزرعه، ولم تحزن على إرسال العذاب على مائة ألف أو يزيدون ! . قال: إلهى تبتُ إليك من ذنبى لا أعود إليه أبدا. وسار حتى دخل قرية وهناك آمرأة معها رجل وهو ينادى : مَن [يحمل](٢) هذه المرأة إلى بلاد نِينَوَى [ويردّها](٢) إلى زوجها وله مائةُ مثقال من الذهب؟ فنظر إليها يونس فإذا هى آمرأته ، فقال : أيها الرجل، ماقصّة هذه المرأة ؟ قال : إنها كانت قاعدةً على شاطئ دِجلة تنتظر زوجها يونس، فمرّ بها ملكٌ من ملوك هذه القرية فآحتملها وأراد أن يفجُر بها ، فأيبس الله يَدَيْه و رجلَيْه ، فسألها أن تدعوَ له بالفرج ولا يعود إلى ذلك ، فدعت له . فلمّا عافاه الله لوقته دفعها إلىّ وأعطانى مائة مثقال ذهبا على أن أحملها إلى بلاد نِينَوَى ، وما يمكننى ذلك . قال يونس : أنا أحملها فأعطِنى الذهب ، فأعطاه إياه وسلّم إليه المرأة . فسارا وقد فرحا حتى أتَيا 41/12 قريةً أخرى ، و إذا برجل يبيع سمكة ، فآشتراها يونس وقعد ليُصلحها فشقّ بطنها فوجد فيها تلك الصرّة الذهب التى وقعت منه فى دجلة ، فقال : الحمد لله الذى ردّ علىّ أهلى ومالى ، اللهمّ فآردُدْ علىّ أولادى ياأرحم الراحمين ، ثم سار فإذا هو برجل على دابّة ومن ورائه غلامٌ ، فإذا هو ولد يونس الصغير . فتعلّق به ، فقال له الرجل : مَن أنت ؟ قال : أنا يونس . فسلّم اليه الغلام وقال : الحمد لله الذى ردّ الأمانة الى أهلها وخلّص ذمّتى . فسأله يونس عن قصّة الغلام فقال : أنا رجل صيّاد ، وكنتُ قد ألقيتُ الشبكة فى طرف دِجْلة فوقع هذا الغلام فيها فأخذتُه ، و إذا بهاتف يقول :

---

(١) سقط هنا ما معناه : « فأرسل الله جرادا الى الزرع فأكله ، فحزن يونس لذلك ، فأوحى الله ... الخ » . وخبر الزرع وصاحبه ليس فى الكسائى .

(٢) التكملة عن الكسائىّ .

يا صيّاد، احفَظ هـذا الغلام حتى يأتِيَ اليك يونس فإنه أبوه فادفَعْه اليه . ثم قال له : يا نبيّ الله ، أُدعُ لى أن يُغنِيَنى الله عن صيد السمك، فدعا له فرزقه الله مالا وولدا . وسار يونس حتى قرُب من بلاد نِينَوَى ، فإذا هو براعٍ على قارعة الطريق يرعَى غنما وهو يقول : اللهمّ اردد علىّ والدى ، فرآه يونس فعرَفه وهو ولده الأكبر، فتعانقا وبكيا طويلا، ثم قال له : يا أبتِ إنّ هذه الأغنامَ لرجلٍ فى القرية فسِرْ معى حتى أرُدّها اليه، فسارا إلى القرية و إذا بشيخ على باب داره، فقال له الغلام : هذا أبى . فقام الشيخ الى يونُس وسلّم عليه . فقال له يونُس : هل تعرف قصّـة هذا الغلام ؟ قال الشيخ : نعم، كنتُ أرعَى هذه الغنمَ، و إذا بهذا الغلام على ظهر ذئبٍ فكلّمنى الذئب بقدرة الله وقال : إذا جاء اليك يونس فآدفَعْ اليه هذا الغلام . ثم قال له : يا نبيّ الله، أدعُ الله أن يغفرلى ذنوبى وأن يُميتنى فى وقتى هذا، فدعا له فقبضه الله لوقته، فغسّله يونس وكفّنه وصلّى عليه ودفنه . ثم سار حتى قرُب من المدينة، فإذا هو بغلام يرعى غنما فوقف يونس عليه السلام وقال : يا غلام، هل من لَبَنٍ ؟ قال الغلام : يا هذا، والذى بعث إلينا يونس نبيّا ما ذقتُ اللبن منذ غاب عنّا نبيّنا يونس . قال : فأنا يونس نبىّ الله . فقبّل الغلام رأسَه وقال : لو رأيتَنا يا نبىّ الله ونحن نجول تحت العذاب لَرحِمتَنا . قال : يا غلام ، اذهبِ الآن الى المدينة وأخبرِ الناس أنك قد رأيتَنى . قال : أخشى أن يكذّبونى . فقال : سِرْ اليهم [وهذه الأغنام شهودٌ لك] (١) . فمضى حتى توسّط سوق المدينة وقال : أيها الناس، الْبُشْرَى فقد رجع إلينا يونس نبيّنا وقد لقيتُه . فاتّصل الخبر بالملك فقام عن سريره وقال : علىّ بالغلام، فأُتِيَ به، فسأله فأخبره بمَقْدَم يونس . ففرح وخرج الملك وأهلُ المدينة وآلتقَوْا بيونس وأدخلوه المدينة وأجلسه الملك فى موضعه، ووقف بين يديه، وفرح به أهل المدينة . فقام

(١) التكملة عن الكسائى .

يونس فيهم ما شاء الله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الى أن مات الملك وماتت آمرأةُ يونس وولداه جميعا ، فآستخلف يونس الراعى على مدينة نِينَوَى وخرج هو وسبعون رجلا من العُبّاد حتى جاء الى جبل يقال له صِهْيَوْن[1] فكانوا هناك يعبدون الله حقّ عبادته ، حتى مات يونس عليه السلام ، ومات العُبّاد الذين صحبوه ، فَقُبِرُوا هناك فى جبل صِهْيَوْن ، رضى الله عنهم ورحمهم .

ذكر خبر بُلُوقِيَا وما شاهد من العجائب

وهذه القصّة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعضُ من يقف عليها لغرابتها وليست بمستنكرة بعد أن ثبت فى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بَلِّغوا عنّى ولو آيةً[2] وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ ومَن كَذَبَ علىّ مُتعمِّدا فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَه من النار " . ولنأخذ الآن فى سَرْد القصّة .

قال أبو إسحاق الثعلبى رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بيواقيت البيان فى قصص القرآن بسند رفعه عن عبد الله بن سلّام قال :

---

(١) صهيون (الجبل المشمس أو الجاف) قد يطلق هذا الاسم للدلالة على كل أورشليم إلا أنه يختصر غالبا فى الجبل الجنوبى الغربى من المدينة . وكان هذا الجبل محاطا من كل جانب إلا جانب الشمال بأودية عميقة الجوانب شاهقتها ، فكان وادى الجبانين الى شرقيه يفصله عن موريا وأوفل ووادى ابن هنوم الى جنوبيه وغربيه ، وسمى جزؤه المحاذى المدينة عربا وادى جيحون . (راجع قاموس الكتاب المقدّس للدكتور بوست) .

(٢) أى آية من القرآن ، أو المراد بالآية العلامة الظاهرة ، أى ولو كان المبلغ فعلا أو إشارة ونحوهما . (راجع القسطلانى ج ٥ ص ٥٠٤ طبع بلاق) .

كان في بني إسرائيل رجل يقال له « أوشيا » وكان من علمائهم ، وكان كثير المال، وكان إماما لبني إسرائيل ، وكان قد عَرَف نَعْت[(١)] النبيّ صلى الله عليه وسلم في التوراة، نخبأه وكتمه عنهم . وكان له آبنٌ يقال له بُلُوقِيَا خليفة أبيه في بني إسرائيل، وذلك بعد سليمان بن داود عليهما السلام . فلمّا مات ٤٢/١٢ أوشيا بقِيَ آبنه بُلُوقِيَا والأمانة في يده والقضاء ، ففتّش يوما خزائن أبيه فوجد فيها تابوتا من حديد مُقفلا بقُفْلٍ حديدٍ، فسأل الخُزّان عن ذلك، فقالوا : لا ندرى . فآحتال على القفل حتى فكّه ، فإذا فيه صندوق من خشب الساج، ففكّه وإذا فيه أوراق، فقرأها فإذا فيها نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته وهي مختومةٌ بالمسك، فقرأ ذلك على بني إسرائيل ثم قال : الويل لك يا أبتِ من الله فيما كتبتَ وكتمتَ من الحقّ وأهله ! . فقالت بنو اسرائيل: يا بُلُوقِيَا، لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبشنا قبره وأخرجناه منه وحرّقناه بالنار . قال : يا قوم، [لا ضَيْر][(٢)] إنما ترك حظّ نفسه وخسِر في دينه ودُنياه، فألحقوا نعت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأُمّته بالتوراة . قال : وكانت أمّ بلوقيا في الأحياء، فآستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام، وكانوا يومئذ في بلاد مصر . فقالت : وما تصنع بالشام ؟ قال : أسأل عن محمد وأمّته ، فلعلّ الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه ، فأذِنتْ له . فبرَز بُلُوقِيَا وقدِم بلاد الشام. فبينما هو يسير إذا آنتهى إلى جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيّات كأمثال الإبل عِظَما وفي الطُّول ما شاء الله وهنّ يقلن : لا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله . فقلن له : أيها الخَلْق المخلوق مَن أنت ؟ وما آسمُك ؟ قال : آسمي بُلُوقِيَا ، وأنا من بني إسرائيل. فقُلْنَ : وما إسرائيل؟ قلت : من ولد آدم . فقُلْنَ : سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم

(١) كذا في الثعلبيّ . وفي الأصول : «بعث النبيّ» .

(٢) التكملة عن الثعلبي .

إسرائيل . فقال بلوقيا : أيتها الحيّات مَن أنتنّ؟ فقلن : نحن حيّات من حيّات جهنّم ونحن نعذّب الكفّار فيها يوم القيامة . قال بلوقيا : وما تصنعن هاهنا؟ وكيف عرفتُنّ محمدا؟ فقُلنَ : إن جهنّم تفور وتزفر فى كل سنة مرّتين فتُلقينا هاهنا ثم نعود إليها ، فشدّة الحرّ فى الصيف من حرّها ، وشدّة البرد فى الشتاء من بردها . وليس فى جهنّم دَرَك من دركاتها ، ولا بابٌ من أبوابها ، ولا سُرادق من سُرادقاتها إلا وقـد كُتب عليـه : « لا إله إلّا الله محمّد رسـول الله » فمن أجل هذا عَرَفْنا محمـدا صلى الله عليه وسلم . قال بلوقيـا : أيتها الحيّـات ، هل فى جهنّم مثلكنّ أو أكبر منكنّ ؟ فقُلنَ : إنـ فى جهنّم حيّات تدخل إحدانا فى أنف إحداهنّ وتخـرج من فمها ولا تشعر بذلك لعظمها . قال : فسلّم بلوقيا عليهنّ ومضى حتى أتى جزيرة أخرى ، فإذا هو بحيّات كأمثال الجذوع والسوارِى ، وعلى متن إحداهنّ حيّة صغرى صفراء كلما مشتْ اجتمعتِ الحيّات حولهـا فإذا نفخت صِرْنَ تحت الأرض خوفا منها . فلمّا رآها ورأته قالت له : أيها الخَلْق المخلوق مَن أنتَ؟ وما آسمُك؟ قال : آسمى بلوقيا ، وأنا من بنى اسرائيل من ولد ابراهيم . فاخبريني أيتها الحيّة مَن أنتِ؟ قالت : أنا موكّلة بالحيّـات وآسمى تمليخا ، ولولا أنى موكّلة بهنّ لقتلتِ الحيّات بنى آدم كلهم فى يوم واحد ، ولكنّى اذا صفّرتُ صفرة [واحدة](١) وسمِعنَ صوتى دخلنَ فى المـاء الذى تحت الأرض . ولـكن يا بلوقيا إن لَقِيتَ محمدا صلى الله عليه وسلم فأَقرئه منّى السلام .

قال : ومضى بُلُوقِيَا إلى بلاد الشام فأتى بيت المقدس ، وكان بها حَبْرٌ من أحبارهم يسمّى عفّان الخير ، فأتاه فسلّم عليه وقصّ عليه قصّته . فقال له : ليس هذا زمان محمد ولا زمان أُمّته ، بينك و بينه بُعْدُ سنين وقرون . ثم قال عفّان : يا بلوقيا أرِنِى موضع الحية التى آسمها تمليخا ، فإن قدرتُ أن أصيدها رجوتُ أن أنال معك مُلكا

(١) التكملة عن الثعلبى .

عظيما ونحيا حياة طيّبة الى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فندخل فى دينه. قال : فمن حِرْص بلوقيا على الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أنا أُريك المكان. فقام عفّان وأخذ تابوتا من حديد وحمل فيه قدَحين من فضّة فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن؛ ثم سارا جميعا حتى آنتهيا الى موضع الحيّة ففتحا باب التابوت وتنحّيا. وجاءت الحيّة تبغى الرائحة فدخلت التابوت وشربت من اللبن والخمر حتى سَكِرتْ ونامت. فقام عفّان ودبّ الى التابوت دبيبا خفيفا فأغلق بابه وآحتضنه وسارا جميعا فلم يمرّا بشجرة ولا بيت إلا كلمهما بإذن الله تعالى. فمرّا بشجرة يقال لها الدواء فقالت : يا عفان ، مَن يأخذنى و يقطعنى و يدقّنى و يَعصر مائى ودُهْنى و يطلِي به قدميه فإنه يغوص البحار السبعة ولا تبتلّ قدماه ولا يغرق. فقال عفّان : إيّاكِ طلبتُ ، فقطع تلك الشجرة فدقّها وعصر دُهنها وجعله فى كوز ثم خلّى عن الحيّة فطارت بين السماء والأرض وهى تقول : يا بنى آدم ما أجرأكم على الله تعالى ، ولن تصلوا الى ما تريدون ، وذهبت الحيّة . وسار عفانُ و بُلُوقِيَا الى اليمّ فطليا أقدامهما ثم عَبَرا البحر ٤٣/١٢
ومشيا على المـاء كما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأوّل ثم الثانى ، فإذا هما بجبل فى وسَط البحر ليس بعـالٍ ولا متدانٍ ترابه كالمسك ، عليه غمامٌ أبيض ، وفيه كهفٌ ، وفى الكهف سريرٌ من الذهب عليه شابٌ مُستلقٍ على قفاه ذو وفرة[1] ، واضعٌ يده اليمنى على صدره واليسرى على بطنه بمنزلة النائم وليس بنائم وهو ميّت ، وعلى رأسه تنّين وخاتَمه فى الشمال . قال : وكان ذلك سليمان بن داود ، ومُلْك سليمان فى خاتمه ، وكانت حَلْقته من ذهب وفصّه من ياقوت أحمر مربّع ، مكتوبٌ عليه أربعة أسطر ، فى كل سطر آسمٌ من أسمـاء الله الأعظم . وكان عند عفّان عِلمٌ من الكتاب ، فقال بلوقيا : مَن هذا؟ قال : هذا سليمان بن داود ، نريد أن نأخذ خاتمه

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس .

فنملك مُلكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم. فقال بلوقيا : أليس قد سأل سليمانُ ربه : « ربِّ هَبْ لى مُلْكا لايَنْبغِي لأحدٍ من بعدى» فأعطاه الله إيّاه على ماسأل، ولا يُنال مُلك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه . فقال عفّان : يا بلوقيا اسكُت إنّ الله معنا ومعنا آسم الله الأعظم، ولكن أنت يا بلوقيا فآقرأ التوراة . فتقدّم عفّان لينزِع خاتمَ سليمان من إصبعه، فقال التنّين : ما أجرأك على الله ! إن غلبتنا بآسم الله فنحن نغلبك بقوّة الله . قال : فكلّما نفخ التنّين ذكر بلوقيا آسمَ الله، فلم تعمل نفخات التنّين فيهما . ودنا عفّان من السرير لينزِعَ الخاتم من إصبع سليمان، فآشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل من السماء، فلمّا نزل صاح بهما صيحة ارتجّتِ الأرض والجبال وتزلزت منها وآختلطت مياه البحار وماجت وآلتطمت حتى صار كلّ عَذْب مِلْحا من شدّة صيحته، وسَقط عفان على وجهه، ونفخ التنّين فخرجت من بطنه شُعلة نار كأنها البرق الخاطف، فاحترق عفّان وعادت نفخته فى البحر فما مرّتِ البرقة بشئ إلّا أحرقته ولا بماء إلا أجاشته وأَغلته . وذكر بلوقيا آسم الله الأعظم فلم ينله مكروه، ثم تراءى له جبريل فى صورة رجل فقال له : يآبن آدم ما أجرأك على الله تعالى ! فقال له بلوقيا : مَن أنت رحمك الله؟ قال : أنا جبريل أمين ربّ العالمين . قال له يا جبريل، إنما خرجتُ حبّا لمحمد ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمّده . قال : فبذلك نجوتَ . ثم صعِد جبريل إلى السماء، ومضى بلوقيا فطَلَى قدميه بذلك الدُّهن فأضلّ الطريق الذى جاء منه وأخذ فى طريق آخر، وسار فقطع ستّة أبحر ووقع فى السابع فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الوَرْس(١) والزعفران وأشجارها النخل والرمّان . قال بلوقيا : ما أشبه هذا المكان بالجنّة على ما وُصِفتْ ! . ثم دنا من بعض تلك الأشجار فتناول من ثمرها، فقالت الشجرة : ياخاطئ آبن الخاطئ

(١) الورس : نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن و يصبغ به و يتخذ منه الغمرة (طلاء) للوجه فاذا جف عند إدراكه تفتقت خرائطه فينفض فينتفض منه الورس .

لا تأخذ منّى شيئا . فتعجّب ، و إذا بحيال الشجرة قوم يترا كضون ، بأيديهم سيوفٌ مسلولة ، يتناوش بعضهم بعضا بالطعن والضرب . فلمّا رأَوْا بلوقيا طافوا به وأحدقوا من ورائه وهمُّوا به سوءا ، فذكر آسم الله فهابوه وعجبوا منه وأغمدوا سيوفهم وقالوا بأجمعهم : لا إلٰه إلاّ الله محمد رسول الله . ثم قالوا له : مَن أنتَ ياعبد الله؟ قال : أنا من بنى آدم اسمى بُلُوقِيَا . قالوا : نعرف آدمَ ولا نعرفك فما أوقعك إلينا ؟ قال : إنى خرجت فى طلب نبىّ يسمّى محمدا و إننى قد ضَلَلْتُ عن الطريق الذى أردته فرأيت من الأهوال كذا وكذا . قالوا : يا بلوقيا نحن من الجنّ مؤمنون ، ونحن مع ملائكة الله فى السماء ، ثم نزلنا إلى الأرض وقاتلنا كَفَرة الجنّ ونحن هاهنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة ، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت لا تصبر معنا . فقال بلوقيا لملك الجنّ : ياصخر ، أخبرنى عن خَلْق الجنّ كيف كان؟ قال : لمـّا خلق الله جهنّم خلق لها سبعة أبواب وسبعة ألسُن ، خلق منها خَلْقين : خلق فى سمائه [سمّاه][١] حيليت[٢] ، وخَلْق فى أرضه [سمّاه][١] تمليت[٣] . فأمّا حيليت فإنه خُلق على صورة أسد ، وتمليت فى صورة ذئب ، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى ، وجعل طول كلّ واحد منهما مسيرة خمسمائة عام ، وجعل ذنب الذئب بمنزلة ذنب العقرب ، وذنب الأسد بمنزلة الحيّة ، وأمرهما أن ينتفضا فى النار آنتفاضة ففعلا ، فسقط من ذنب الذئب عقارب[٤] ، ومن ذنب الأسد حيّات[٥] . فعقارب جهنّم وحيّاتها من ذلك . ثم أمرهما أن يتناكحا ففعلا ، فحمل الذئب من الأسد فولد سبعة بنين وسبع بنات . ٤٤/١٢
فأوحى الله تعالى إليهم أن يزوج البنات من البنين كما أمر آدم ، فستّة بنين

---

(١) التكملة عن الثعلبىّ . (٢) فى الثعلبىّ : «جبليت» . (٣) فى الثعلبىّ : «يمليت» .

(٤) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « عقرب » .

(٥) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « حية » .

أطاعوا وواحد لم يُطِع ولم يتزوج فلعنه أبوه وهو إبليس . وكان آسمه الحارث ، وكنيته أبو مرّة ؛ فهذا أوّل خلق الجنّ . ثم قال له : يا بلوقيا إنّ دوابّنا لا تثبُت مع الإنس ولكن أُجلّل فرسي وأبرقعه حتى لا يعرف راكبه ، فآركب عليه على آسم الله تعالى ؛ فإذا آنتهيتَ إلى أقصى أعمالي[1] على ساحل بحر كذا و إذا شيخ وشابٌّ ومشايخ معهما فإنك ستلقاهما هناك فآدفع الفرس إليهما وآمض فى حفظ الله راشدا . فجاء بلوقيا على الفرس حتى آنتهى إليهم فسلّم على الشيخ والشابّ ونزل عن الفرس ودفعه إليهما . وكان قد فَصَل من عند ملك الجنّ عند صلاة الغداة ووصل إليهما نصف النهار . فقالا لبلوقيا : مذ كم فارقتَ الملك ؟ قال : فارقته غدوةَ . فقالا له : ما أسرع ماجئتَ ! قد أتعبتَ فرسنا . فقال بلوقيا : والله ما مددتُ إليه يدا ولا حرّكتُ عليه رِجلًا ولم أركُضه عُنفا . قالا : صدقتَ ولكن فرسنا أحسّ بك و بمنزلتك[2] ، فطار ما بين السماء والأرض ليُرِيح نفسه منك ، فكم تراه جاء بك؟ قال : خمسة فراسخ أو أقلّ أو أكثر . قالا : بل جاء بك مسيرة مائة وعشرين سنة ، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون «قاف» وأنت لا تعلم . فحوّلوا عنه السَّرج واللِّجام والبُرقع و إذا العرق يقطُر من كلّ شعرة منه ، وله جَناحان انقضّا من كثرة الطيران . فقال بلوقيا : هذا والله العجب . فقالوا : يا بلوقيا عجائب الله لا تنقضى . ثم سلّم عليهم ومضى فركب اليمّ . فبينما هو يسير إذ رأى مَلَكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فسلّم عليه بلوقيا ، فقال له الملك : مَن أنت أيها الخَلْق المخلوق ؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم . ثم قال له : أيها الملك ما آسمك؟ قال : [اسمى يوحاييل وأنا موكّل بضوء النهار وظلمة الليل . فقال : فما بال يديك مبسوطتين ؟ فقال له : فى يدى اليمنى ضوء النهار،

(١) فى الثعلبي : « أقصى عمار » . (٢) فى الثعلبي : «و بنقلك» .

وفى يدى اليسرى ظُلْمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السمواتُ والأَرَضُون، ولم يكن الليــل أبدا، ولو سبقتِ الظلْمة النــور لأظلمتِ السماء والأرض ولم يكن ضوء أبدا. و بين يديه لَوْح معلّق فيه سطران سطرٌ أبيضُ وسطرٌ أسودُ، فإذا رأيتَ السواد ينتقص نقصتُ الظلمة، و إذا رأيتَ السوادَ يزيد زدتُ الظُّلمة، و إذا رأيتَ الســطر الأبيض يزداد زدتُ فى البياض والنــور، و إذا انتقص نقصتُ؛ فلذلك الليل فى الشــتاء أطول والنهار أقصر؛ وفى الصيف النهار أطول والليــل أقصر.

ثم سلّم بلوقيا ومضى، فإذا هو بمَلَك قائمٍ يده اليمنى فى السماء و يده اليسرى فى الأرض فى المــاء تحت الثرى وهو يقول : لا إله الله محمد رسول الله. فسلّم عليه بلوقيا، فقال له : مَن أنت وما آسمك؟ قال اسمى بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم. قال له بلوقيا : أيها الملك ما آسمك؟ قال][1] : اسمى ميخاييل[2]. قال : فمــا لى أراك يمينك فى السماء وشمالك فى المــاء؟ قال : أحبس الريح بيمينى والمــاءَ بشمالى، ولو رفعتُ شمــالى عن المــاء لزخرت البحار كلّها فى ساعة واحدة ولَطَمَت بإذن الله تعــالى، و يدى اليُمنى فى الهواء أحبس الريح عن بنى آدم لأنّ فى السماء ريحا يقال لهــا الهائمة[3] لو أرسلتُها لقتلتْ مَن فى السماء ومَن فى الأرض من بَرْدها. فسلّم عليه بُلُوقِيَا ومضى، و إذا بأربعةٍ من الملائكة، أحدهم رأسه كرأس الثَّور[4]، والآخر رأسه كرأس النسر، والثالث رأسه كرأس الأســد؛ والرابع رأسه كرأس الإنسان. فالذى رأسه كرأس الثَّور يقول : اللهم ارفع العذابَ عن البهائم، وآرفع عنهم بَرْد الشتاء وحرّ الصيف، وآجعل لهم فى قلوب بنى آدم الرأفة والرحمة كيلا يُكْرِهْنَّ[5] ولا يكلّفوهن فوق طاقتهن،

(١) التكملة عن الثعلبى. (٢) فى أ «محايل». وفى الثعلبى : «صمحاييل».

(٣) فى الثعلبى : «الهــائجة». (٤) فى الأصول بعد قوله «كرأس الثور» هذه العبارة : «وهو يقول : اللهم ارحم البهائم» ولعلها مقحمة من الناسخ لأنها ستذكر بعد سطور ولم ترد فى الثعلبى.

(٥) كذا فى الثعلبى. وفى الأصول : «كيلا يكرهوهم ولا يحملوهم فوق طاقتهم».

وآجعلني من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس النسر فيقول : اللهمّ ارحم الطيور ولا تعذّبها ، وآدفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، وآجعلني من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الأسد فإنه يقول : اللهمّ ارحم السِّباع ولا تعذبها وآدفع عنها بَرْد الشتاء وحرّ الصيف ، وآجعلني من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأمّا الذى رأسه كرأس الإنسان فإنه يقول : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، اللهمّ آرحم المسلمين ولا تعذّبهم وآدفع عنهم حرّ النار ، وآجعلني من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . فسلّم عليهم ومضى حتى أتى على جبل قافٍ وإذا هو بمَلَكٍ قائم على قاف ، وهو جبل محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء . فسلّم بلوقيا على الملك ، فقال له : مَن أنت؟ فقال : أنا بلوقيا وأنا من بنى إسرائيل من ولد آدم . فقال الملك : وأين تريد؟ قال : خرجتُ فى طلب مَن يُسمى محمدا ، ولستُ أرى أمره ولا أدرى فى أىّ بلاد أنا . فقال الملك : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، قد أُمرنا بالصلاة على محمد . قال بلوقيا : أيها المَلَك ، ما آسمك؟ قال : اسمى حزقاييل . قال : وما تصنع هنا؟ قال : أنا أمين الله على قاف ، وإذا فى يده وَتَرٌ مرّةً يعقده ومرّةً يُحُلّه ، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر فى كفّ الملك [قال :] (1) فإذا أراد الله أن يضيّق على عباده أمرنى أن أمُدّ الوتر وأعقده وأرتق (2) عُروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد والبلاد . وإذا أراد الله أن يوسّع عليهم أمرنى أن أرخى الوتر وأفتق عروق الأرض فتتّسع الدنيا على العباد والبلاد . وإذا أراد أن يخوّف قوما أمرنى أن أحرّك عروق ٤٥/١٢ تلك الأرض ، فمن أجل ذلك موضع يهتزّ وموضع لا يهتزّ ، وموضع يتزلزل وموضع

---

(1) التكملة عن الثعلبىّ .

(2) أرتق : أسدّ وأغلق .

لا يتزلزل . قال بلوقيا : أيها الملك ، ماوراء قاف؟ قال : وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التي جئتَ منها ، فى كلّ دنيا أربعمائة ألف[1] باب ، فى كل باب أربعة آلاف ضعف مثل الدنيا التي جئتَ منها ، وليس فيها ظُلمة بل كلّها نور وأرضها ذهب عليها حُجُبٌ من نور ، وسكّانها الملائكة لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنّم وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لذلك أُلهِمُوا وله خُلِقُوا وبه أُمِرُوا الى يوم القيامة . قال بلوقيا : فما وراءهم؟ قال : حُجُبٌ ووراءَ الحُجُب علم الله وقُدرته . قال بلوقيا : أخبرنى أيها الملك على أىّ شيء هـذا الجبل موضوعا ؟ قال : على قرنَىْ ثور وآسمه قرياطيه[2] وهو أبيض ، رأســه بالمشرق ومؤخّره بالمغــرب ، وما بين قرنَيْــه مسيرة ثلاثين ألف سنة وهو ساجد لربّه على صخرة بيضاء . قال بلوقيا : أيهــا الملك ، كم الأرضون؟ وكم البحار؟ قال : الأَرَضُون سبعٌ ، والبحار سبع . قال : فجهنّم أين هى؟ قال : تحت الأرض السابعة . قال : فسلّم بلوقيا عليه ومضى حتى آنتهى الى حجابٍ طرفه فى السماء وأسفله فى المــاء ، عليه باب مُقْفَل وعليه خاتَم من نور ، وعلى الباب مَلَكان أحدهما رأسه كرأس الثور ، والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور وهما يقولان : لا إله إلّا الله محمد رسول الله . قال : فسلّم بُلُوقِيَا عليهما فردّا عليه السلام وقالا : أيها الخَلْق الضعيف المخلوق مَن أنتَ؟ وما آسمُك؟ قال : آسمى بلوقيا وأنا من بنى اسرائيل من ولد آدم . فقالا : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ، هذه أسامى ما عرفناها . قال بلوقيا ؟ كيف عرفتم محمــدًا ولم تعرفوا آدم ومحمدٌ من نَسْــله ؟ . فقالا : لهذا خُلِقنا وبذلك أُمِرنا ، ولم نسمع بآسم آدم ولا إسرائيل . فقال بُلُوقِيَا : افتحا لى الباب حتى أجوز . فقالا : ما نحسن فتحه ، وإنّ لله فى السماء مَلَكا آسمه

(١) كلمــة « ألف » ليست فى الثعلبىّ .

(٢) فى الثعلبىّ المخطوطة هكذا : « مرسطه وهو أنبط » . وفى المطبوعة : « واسمه يهموت وهو أبيض » .

جبرائيل عسى أن يقــدر على فَتحه . فدعا بلوقيا، فأمر الله تعالى جبريل فنزل عليه وفتح الباب، ثم قال : يا بن آدم ما أجرأك على الله ! . ثم جاز بلوقيا حتى آنتهى الى بحرين : بحرٌ مالح و بحر عَذْب . فلمّا وصل إليهما رأى بينهما حاجزا، وفى البحر المـالح جبل من ذهب، وفى البحر العذب جبلٌ من فضّة، وبينهما مَلَك على صورة النمل ومعه ملائكة على تلك الصورة . فسلّم عليهم فردّوا عليــه السلام وقالوا له : مَن أنت ؟ فأخبرهم بقصّته . ثم قال بلوقيا : مَن أنتم ؟ قالوا : نحن أمنـاء الله تعالى على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان . فقال لهم بلوقيا : ما هــذا الجبل الأحمر ؟ قالوا : هذا كنز الله فى الأرض وكلّ ذهبٍ فى الأرض إنمـا هو من نصاب هذا الجبل، وكلّ ما فى الدنيا من ماء عَذْبٍ هو من هذا البحر . وهذا البحر إنما يجىء من تحت العرش من قبل أن خلقَ الله تعالى الملائكة ؛ وكل ما يجرى من ماءٍ مالح فهــو من ذلك البحر المِلْح . وهذا الجبل الأبيض هو من فضّة وهو كنز الله تعالى ؛ وكل كنز فى الدنيا وكل مَعدِنِ فضّةٍ فهو من عروق هــذا الجبل . فسلّم بلوقيا عليهم ومضى حتى آنتهى الى بحر عظيم، فإذا هو بحيتان كثيرة عظيمة وقد آجتمعت و بينها حُوتٌ عظيم يقضى بين الحِيتَان . فلمّا نظر الى بلوقيا قال : لا إله إلّا الله محمد رسول الله . فســلّم بلوقيا وأخبره بحــال النبىّ صــلى الله عليه وســلم وأنه خرج فى طلبــه، فردّ الســلام ثم قال : يا بُلُوقِيا، إن لقيتَ محمــدا فأقرئه منّى الســلام . فقال : نعم إن شاء الله . ثم قال : أيتها الحِيتان إنى جائع عطشان وماء البحر ملحٌ وما أجد ما آكل . فقال الحــوت الأعظم : يا بُلُوقِيَا سأُطعمك طعاما تسـير أربعين ســنةً لا تَعيَا ولا تجــوع ولا تعطَش، قال : فأطعمه ذلك الحوت قُرصا أبيضَ، فأكله ومضى حتى بلغ العُمْران . قال : ومن قبل أن يبلُغ العُمْران رأى شاباً يجرى على المـاء كأنه البدر . فقال له بلوقيا : مَن أنت ؟ قال : سَلِ الذى خَلَقَنِى . فسار بُلُوقِيَا يوما

وليلةً فإذا هو بآخر يمرّ على المـاء ضوءُه كضوء النجوم . فقال له بلوقيا : يا فتى، مَن أنت ؟ قالْ : سَلِ الذى خَلَقَنى . فسار بلوقيا يوما وليلةً، فإذا هو بشابّ كأنه القمر يلوح فى آخر الشمس[1]، فقال بلوقيا : أَنْشُدُكَ الله إلّا وقفتَ . قال : فوقف وقال: لمـاذا استحلفتَنى ؟ قال : خَشِيتُ أن تفوتنى مثـل أصحابك المـاضين ، فمَنْ كان الأوّل ؟ قال : إسرافيل صاحب الصُّور، والثانى ميكائيل صاحب المطر ، والثالث جبرائيـل أمين ربّ العالمين . فقال بلوقيا : ما ذا تصنعون فى اليمّ؟ قال جبريل : ٤٦/١٢ حيّة من حيّات البحر قد آذت سُكّانه، فَدَعَوُا الله عليها فآستجاب الله دعاءهم وأمرنا أن نسـوقها الى جهنّم ليعذّب الله بها الكفّار يوم القيامة . قال بلوقيا : كم طولُها وكم عَرْضُها ؟ قال : طولُها مسيرة ثلاثين سنة، وعَرْضُها مسيرة عشرين سـنة . فقال بلوقيا : يا جبريل، أيكون فى جهنّم مثل هذه أو أكبر منها ؟ فقال جبريل : إنّ فى جهنّم من الحيّات ما تدخل هـذه فى أنف إحداهنّ ولا تشعر بها من عِظَم خِلْقتها . فسلّم بلوقيا عليه ومضى الى جزيرة أخرى، وإذا هو بغلام أمردَ بين قبرين، فسـلّم عليه بلوقيا وقال : يا شابّ ، مَن أنت وما آسمـك ؟ قال : اسمى صالح . قال : فما هذان القبران ؟ قال : أحدهما أبى والآخر أمّى، كانا سائحَيْن فماتا هاهنا، وأنا عند قبريهما حتى أموت . فسلّم بلوقيا ومضى حتى آنتهى الى جزيرة، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائرٌ رأسه من ذهب، وعيناه من ياقوت ، ومنقاره من لؤلؤ، وبدنه من زعفران، وقوائمه من زُمُرد، واذا مائدةٌ موضوعة تحت الشجرة وعليها طعامٌ وحُوتٌ مَشْوِىّ . فسلّم عليه بلوقيا فردّ عليه الطائر السلام . فقال بلوقيا : أيها الطائر مَن أنت ؟ قال : أنا من طيور الجنّـة ، وأنّ الله تعـالى بعثنى الى آدم بهذه المـائدة لمّـا هبط من الجنة وكنتُ معه حتى لقِى حوّاء، وأنا هاهنا من ذلك

(١) كذا فى الأصول ونسخة الثعلبي المطبوعة . وفى نسخة الثعلبي المخطوطة : « آخر الشهر » .

الله تعالى قد بعثه رسولا إلى بنى إسرائيل . فخرّ زكريّا ساجدًا لله تعالى على ذلك، وخرج إلى بنى إسرائيل ودعاهم، فكذّبه بعضهم وصدّقه آخرون . فأقام زكريّا فى بنى إسرائيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وعِمْران يعبد الله . وكان ٤٧/١٢ زكريّا وعِمْران لم يُرزقا الولد . فبينا حَنّة ذاتَ يوم جالسة إلى جانب عمران إذ رأت حمامة تَزُقّ فرخا لها، فبكت شوقا منها إلى ولد، وذكرت ذلك لزوجها عمران فقال : قُومى ندعو الله ربّنا فى ذلك، فقاما جميعا وصلّيا ودعَوَا الله تعالى أن يرزقهما ولدا، فرأى عمران فى منامه إن الله قد استجاب دعاءك . فقام إلى زوجته فواقعها فحملت منه، وقالت ما أخبر الله تعالى عنها . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) . قال : وكان الناس فى ذلك الزمان يتقرّبون إلى الله عز وجل بتحرير أولادهم، وكانوا يخدمون بيت المقدس فى صغرهم إذا بلغوا، فمَنْ أحبَّ أن يقيم على الخدمة أقام، ومن آختار الآنصراف انصرف .

ذكر ميلاد مريم بنة عمران عليه السلام

قال الكسائىّ : ولمّا حرّرتها أمّها لله تعالى قال لها زوجها : إنكِ حرّرتِ ما فى بطنك، فإن كان أنثى كيف يكون محرّرا؟ فآغتمّت لذلك حتى وضعت مريم . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٢) ثم قالت : «ربِّ إنّى كنت نذرتُ لك ما فى بطنِى محرّرا فتقبّلها منّى» . قال

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٥

(٢) سورة آل عمران آية ٣٦

الله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (١) . قال : ثم حملتها حتى دخلت بيت المقدس وزكريّا هنالك فى نفر من عُبّاد بنى إسرائيل، فقال لها : ماهذه ياحَنّة ؟ قالت : هذه آبنتى مريم، قد جعلتُها مُحرَّرةً وقد قبلها الله منّى فاَقبلوها ولا تردّوها ، فأقبل بنو إسرائيل على زكريّا وقالوا : ماتقول فى هذه ؟ قال : لابدّ لها من مُكَفِّل إلى أن تبلُغ مبلغ الخدمة ثم تكون خادمةً فى المسجد . قالوا : أيّنا يَكْفُلها ؟ قال زكريّا : أنا أولى بها لأنّى زوج خالتها ، ولكنّا نقترع ، فأخذوا أقلامهم وصاروا إلى عَيْن سُلْوان (٢) وقالوا : نَرمِى بأقلامنا فيها فأيّنا وقف قلمُه فهو الذى يكفُلها ، فالقَوها فرسبتْ أقلامهم جميعا إلّا قلم زكريّا فإنه طفا وغالَبَ الجِرْية ، فأخذها وآسترضع لها بعض نساء بنى إسرائيل . ثم مات عِمْرانُ والد مريم . قال : وبنى لها زكريّا بيتا لايُصْعَد إليه إلّا بسُلّم ، وكان لا يصعَد إليها إلّا زكريّا يحمل إليها الطعام ، وآبن خال لها يقال له يوسف بن يعقوب النجّار ، وكان من العبّاد المحرَّرين ، وكان زكريّا إذا صعِد إليها وجد عندها فى الصيف فواكه الشتاء ، وفى الشتاء فواكه الصيف ، فيعجَب من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣٧

(٢) سلوان : محلة فى ربض مدينة بيت المقدس تحتها عين عذبة تسق جنانا عظيمة وقفها عثمان ابن عفان رضى الله عنه على ضعفاء البلد . قال عبد الله الفقير : ليس من هذا الوصف اليوم شىء لأن عين سلوان محلة فى وادى جهنم فى ظاهر بيت المقدس لا عمارة عندها البتة إلا أن يكون مسجدا أو ما يشابهه وليس هناك جنان ولا ربض . ولعل هذا كان قديما . والله أعلم . (عن معجم البلدان لياقوت) .

ذكر دعاء زكريا أن يرزقه الله عز وجل الولد
ومولد يحيى بن زكريا

قال الكسائيّ : فلمّا نظر زكريّا الى ما رَزَق الله عزّ وجلّ من الفاكهة في غير وقتها قال : إن الذى رزق هذه الفواكهَ لقادرٌ على أن يرزق من العجوز العقيم والشيخ الكبير الولد . قال الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾(١) . قال : ولمّا أراد زكريّا أن يدعو استحيا من الله تعالى، فجلس سبعة أيّام ثم قام الى المحراب ووافق ذلك يوم عاشوراء، فكلّمه المحراب بإذن الله تعالى وقال : يازكريّا ، أوجدتَ ربّك بخيلا ! يازكريّا إنّ ربك أبدا رحيم . فعند ذلك عزم على الدعاء واجتهد في العبادة، ثم رفع يديه « ونادَى ربّه نداءً خفيًّا » معناه أخفاه عن قومه « قال ربّ إنّي وَهَنَ العَظْمُ منّي واشتَعَلَ الرأسُ شَيْبا » يعنى غلب بياضه على سواده « ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً » معناه لم تخيّبني في الدعاء « وإنّي خِفْتُ المَوَالِيَ من ورائى » يعنى الذرّيّة من بعدى أن تصير الحبوريّة في غير أولاد الأنبياء « فَهَبْ لى من لدنك وليّاً يرِثُني ويَرِثُ من آل ٤٨/١٢
يعقوب » يعنى مكاني وحُبوريّتي والتابوت الذى فيه وأقلام المحرّرين ومفاتيح القُرْبان، ثم قال : «واجعلْه ربّ رضيّاً» في بني اسرائيل . فاستجابَ الله تعالى دعاءه وأمر جبريل أن ينزل عليه بالبُشْرَى فأتاه وأتته الملائكة وأحدقوا بالمحراب . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾(٢) الآية . وقال تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ

(١) سورة آل عمران آية ٣٨
(٢) سورة آل عمران آية ٣٩

مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (١) ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٢) ﴾ . قال الكلبي : كان زكريّا يوم بُشّر بالولد آبن آثنتين وتسعين سنة . وروى الضحّاك عن آبن عبّاس رضى الله عنهما قال : كان آبن مائة وعشرين سنة . وكانت آمرأته بنت ثمانٍ وتسعين .

قالوا : ولمّا جامع زكريّا آمرأته آغتسل وعاد الى محرابه ، فجاءته نساء بنى إسرائيل وقالوا له : نرى أمرك أعجبُ من آمرأتك ، فذهب زكريّا ليتكلّم فلم يقدِر على الكلام ، فعلم أن آمرأته قد حملت فكتب لهم فى الأرض، إنّى لا أقدر على الكلام ثلاثة أيام .

قال الثعلبىّ رحمه الله : فإن قيل : لِمَ أنكر زكريّا ذلك وسأل الآية بعد ما بشّرته الملائكة ؟ أكان ذلك شكّا فى وَحْيه ؟ ، أم إنكارًا لقُدْرته ، وهذا لا يجوز أن يُوصَف به أهل الإيمان فكيف الأنبياء ؟ ! فالجواب عنه ماقال عِكْرِمة والسُّدّىّ : إنّ زكريّا لمّا سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يازكريّا إنّ الصوت الذى سمِعتَ ليس من الله إنما هو من الشيطان سَخِر بك ، ولو كان من الله لأوحاه إليك خَفيًّا كما ناديته خَفِيًّا وكما يوحى إليك فى سائر الأمور ؛ فقال ذلك دفعًا للوسوسة . قال : وفيه جواب آخر ، وهو أنه لم يشُكّ فى الولد و إنما شكّ فى كيفيته والوجه الذى يكون منه الولد فقال : أنّى يكون لى ؟ أى كيف يكون لى ولد ؟ أتجعلنى وآمرأتى شابّين أو ترزقنا على كِبَرنا ، أو ترزقنى من آمرأة عاقر ، أم من غيرها من النساء ؟ فقال

(١) سورة مريم آية ٩

(٢) سورة آل عمران آية ٤١

ذلك مستخبرا لا مستنكرا . وهذا قول الحسن . « قال ربّ اجعلْ لى آيةً قال آيتُك ألّا تُكلِّم الناس » تكُفّ عن الكلام ثلاثة أيام وتُقْبِل بكليّتك على عبادتى وطاعتى؛ لأنه ما حبس لسانه عن الكلام ولكنه نُهِى عنه؛ و يدلّ عليه قوله : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ والإِبْكَارِ ﴾ . هذا قول قوم من أهل المعانى . وقال آخرون : عُقِلَ لسانُه عقوبةً له لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهةِ الملائكة إيّاه، فلم يقدِر على الكلام ثلاثة أيام، لأنهم كانوا اذا صاموا لم يتكلّموا إلّا رَمْزاً .

قال : و فى بعض الأخبار أنه لمـّا وُلد يحيي رُفع الى السماء فغُذِّىَ بأنهـار الجنّة حتى فُطِم ثم أُنزِل الى أبيه ، فكان يُضيء البيت لنُوره .

وآختلفوا فى تسـميته بيحيي ولمَ سُمِّىَ بذلك؟ قال آبن عبّاس رضى الله عنهما : لأنّ الله تعـالى أحيا به عُقْر أمّـه . وقال قَتَادة وغيرُه : لأنّ الله تعالى أحيا قلبَـه بالإيمـان والنبوّة . وقال الحُسين بن الفَضْل : لأنّ الله تعـالى أحياه بالطاعة حتى لم يَعْصِ ولم يَهِمّ بمعصية . وقيل : سُمِّى بذلك لأنه آستُشهد والشهداء أحياء عنـد ربهم يُرزَقون .

و يحيي أوّل من أقرّ بعيسى عليه السلام وصدّقه؛ وذلك أنه لمـّا كان فى بطن أمّه استقبلتها مريم وقـد حَمَلتْ بعيسى، فقالت لهـا أمّ يحيي : يا مريم ، أحاملٌ أنت؟ فقالت : لمـاذا تقولين؟ قالت : إنى أرى ما فى بطنى يسجُد لمـا فى بطنك؛ فذلك تصديقه و إيمـانه . وكان يحيى أكبر من عيسى بستّة أشهر، وقُتِل قبل رفع عيسى . وقوله تعالى فيـه : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ قال آبن جُبَير : السـيِّد الذى يطيع ربّه عز وجل . وقال الضحّاك : السـيّد الحَسَن الخُـلُق . وقال عِكْرِمة : السـيّد الذى لا يَغضَب . وقال سُفيان : السيّد الذى لايحسُد . وحَصُورا، قال

ابن مسعود وابن عبّاس وغيرهما : هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهنّ ، فَعُول بمعنى فاعل ، يعنى أنه حَصَر نفسه عن الشهوات : وقال المبرّد : الحَصُور : الذى لا يدخل فى اللّعِب ولا الباطل .

ذكر صفة يحيي بن زكريا وحِلْيته

قال كعب الأحبار : كان يحيي بن زكريّا عليهما السلام حَسَنَ الوجه والصُّورة ، ٤٩/١٢ لَيِّن الجَنَاح ، قصيرَ الأصابع ، طويلَ الأنف ، مقرونَ الحاجبين ، رقيقَ الصوت ، كثير العبادة ، قويّا فى طاعة الله عزّ وجلّ وقد ساد الناس فى عبادته .

ذكر نبوّة يحيي عليه السلام وسيرته وزهده

قال الله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (١) . قيل : هو أن يحيي عليه السلام قال له أقرانه من الصبيان : يا يحيي اذهب بنا نلعب ؛ فقال : أللّعِب خُلِقتُ ! . وقال الآخرون : هو أنه نبىّ وهو صغير ، وكان يَعِظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجَمعهم يدعوهم الى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس .

ولمّا بعثه الله عز وجل إلى بنى إسرائيل أمره أن يأمرهم بخمس خِصال وضَرَب لكلّ خَصْلة منها مثلا :

أمرهم أن يعبدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئا وقال : مَثَلُ الشِّرْكِ مَثَلُ رجل اشترى عَبِيدا من خالص ماله ثم أسكنهم داراً له ودفع لهم مالاً يتجرون فيه ويأكل كل واحد منهم مايكفيه ، ويؤدّون إليه فضل الرِّبح ، فعمَد العَبِيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى غير سيّدهم .

---

(١) سورة مريم آية ١٢

وأَمَرهم بالصلاة وقال : إنّ مَثَلَ المُصلِّى كمَثَل رجل استأذنَ على ملكٍ فأذِن له ودخل عليه ، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته و يقضىَ حاجته ، فلما دخل الرجل آلتفت يمينا وشمالا ولم يَهُمّ بحاجته ، فأعرض الملك عنه بوجهه ولم يقض حاجته .

وأَمَرهم بالصدقة وقال : مثلها كمثل رجل أسره العدو فآشترى منهم نفسه بثمن معلوم ، فجعل يعمَل فى بلادهم و يؤدِّى إليهم من كَسْبه القليلَ والكثيرَ حتى وفّى ثمنه فأُعتق .

وأَمَرهم بذكر الله تعالى وقال : مَثَلُ الذِّكْر مثل قوم لهم حِصْنٌ ولهم عدوّ ، فإذا أقبل عليهم عدوّهم دخلوا حِصْنهم فلم يقدر العدو عليهم ، كذلك مَن ذكر الله عزّ وجلّ لا يقدِر عليه الشيطان .

وأَمَرهم بالصيام وقال : مثله كالجُنّة (١) لا يصل عدوّه إليه . وكان عليه السلام فيهم كثير التقشّف والعبادة والزهد والسياحة إلى أن قُتل عليه السلام .

ذكر مقتل يحيى بن زكريّا وأبيه زكريّا عليهما السلام

اختلف العلماء فى سبب قتل يحيى ؛ فقال بعضهم : كان يحيى عليه السلام فى زمن مَلِكٍ من ملوك بنى إسرائيل ، وكانت له آمرأةٌ وهى بنت ملك صَيدا (٢) ، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين ، وكانت عاهرة تبرُز للناس ، وكان يحيى يزجُرُها

---

(١) الجنة (بضم الجيم المعجمة) : كل ما وقى من سلاح . وفى العبارة إيجاز والمعنى المراد واضح .

(٢) صيدا (بالقصر والمد) : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق ، شرقى صور ، بينهما ستة فراسخ . كان لها فى القرن السابع عشر إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد شهرة عظيمة فى التجارة والحضارة ، وتفوق كبير فى الملاحة . ولما انتقلت السيادة إلى جارتها مدينة صور حفظت مركزها أيضا وبقيت قاعدة مملكة كنعان . فتحها المسلمون فى خلافة عمر سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ) . (راجع تاريخ صيدا ومعجم الخريطة التاريخية) .

عن ذلك ويقول لها : لاتُبرزين كاشفةً عن وجهك . وكان كثيرا مايقول لهـا : مكتوبٌ فى التوارة : إنّ الزُّناة يُوقَفُون يوم القيامة وريحهم أنتنُ من الجِيَف . فأمرتْ بيحيى فسُجِن . وكان قد حُبِس رجلٌ من أبناء الملوك، وكان يختلف إليها، فعلم بها وبه يحيى فزجره، فبلغ ذلك آمرأة الملك فحملتْ بنتا لهـا وآستقبلت بها زوجها . فقال : لم فعلتِ ذلك ؟ فقالت : وَجَب لهـا عليك حقّ . فقال : سَلِيني ماشئتِ . فسألته أهـلَ السجن . فظنّ أنها ترحمهم وتسرّحهم فقال : قد فعلتُ . فأمرت المرأة بأهل السجن فعُرضوا . فلمّا مُرّ بيحيى أمرت به فذُبح فى طَسْت ثم حملت الطست إلى أبيهـا بأمر أمّها وقالت : أيهـا الملك ، إنى ذبحتُ لك ذبيحـةً من أعظم ما وجدتُ ، ولو كان مثـلُه ألفاً لذبحتهـم لك . فقال : ومن هـو ؟ قالت : يحيى بن زكريا . قال : هلكتِ وأهلكتِ أبويك . فغيّر الله ما بهم من النعم ، وسلّط عليهم عدوّهم فذبح البنت وأبويها ، وسلّط عليهم الكلاب حتى أكلتهم .

وقال الثعلبيّ فى تفسـيره : والصحيح من ذلك ما ذكره محمـد بن إسحاق بن يَسَار قال : عبرت(١) بنو اسرائيل بعد ما عمرت الشام، وعادوا اليها بعدخراب بُخْتَنَصَّر إياها وسَبْيهم منها ، فجعلوا بعد ذلك يُحدثون الأحداث بعد مَهْلَك عُزَير عليه السلام ، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذّبون وفريقا يقتلون، حتى كان آخرُ من بعث الله تعـالى فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السـلام . ٥٠/١٢ فمات زكريا وقُتل يحيى بسبب نَهْيه الملك عن نكاح آبنته فى قول عبد الله بن الزبير، وآبنة آمرأته فى قول السُّـدّيّ ، وآبنة أخيـه فى قول آبن عباس رضى الله عنهما وهو الأصح إن شاء الله تعـالى ؛ لِمَـا رَوَى الأعمش عن المِنْهَال عن سَعيد بن جُبير عن آبن عبـاس رضى الله عنهما قال : بَعَث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا عليهم

(١) كذا فى الأصول ! !

السلام فى آثنى عشر من الحَوَاريّين يعلّمون الناس ، فكان مما نَهَوْهم عنه نكاحُ آبنة الأخ . قال : وكانت لملكهم آبنة أخ تُعجبه يريد أن يتزوّجها ، وكانت لها فى كل يوم حاجةٌ يقضيها لها . فلمّا بلغ ذلك أمّها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ قالت [لآبنتها : اذا دخلتِ على الملك فسألكِ فقولى له : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فلمّا دخلت عليه سألها حاجتها قالت : حاجتى أن تذبح لى يحيى بن زكريا . فقال :](١) سَلِينى غير هــذا . قالت : لا أسألك إلا هذا . فلمّا أبت عليه دعا بيحيى ودعا بطَسْت فذبحه فيه ، فندّت من دمه قطرة على الأرض ، فلم تزل تَغْلِى حتى بعث الله عز وجل ملك بابل ، فقتــل عليها من بنى إسرائيل حتى سكنت . وقد تقدّم أيضا خبر مقتله ، وأنّ بختنصّر هو الذى قَتَل على دمه حتى سكن(٢) . والصحيح أن بختنصّر إنمــا قَتَل بسبب قتل شَعْيَا عليه السلام .

قال الثعلبىّ أيضا : وقال علماء النصارى : إنّ قتل يحيى كان على يدَىْ ملك من ملوك بنى إسرائيل يقال له هِيرُودُس بسبب آمرأة يقال لهــا هَرْدُوبَا ، كانت امرأة أخ له يقال له فَلْفُوس ، عَشِقها فوافقته على الفجور ، فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحــلّ له ، فسألت المرأة هِيرُودُس أن يأتيها برأس يحيى ففعل ، ثم سُقِطَ فى يده(٣) وجَزِع جَزَعا شديدا .

وقال كعب : كان يحيى عليه السلام من أحسن الناس وجها وأجملهم فى زمانه ، فأحبّته آمرأة الملك الذى كان فى ذلك الزمان حبّا شــديدا ، فأرسلت اليه تراوده ،

---

(١) التكملة عن الثعلبىّ والطبرى (ص ٧١٣ من القسم الأوّل) . وعبارة الأصول : « عن نكاح بنت الأخ قالت : تذبح يحيى بن زكريا قال » وهى مضطربة من الناسخ .

(٢) راجع (ص ١٥٧) من هذا الجزء .

(٣) يقال لكل من ندم أو حزن وتحسر على فائت من فعل أو ترك أو عجز : قد سقط فى يده .

فأرسل إليها أنه لا عِلْم له بالنساء والملِك أحقّ أن يطأ فِراشَه . فلمّا جاءها الرسول غضِبتْ وقالت : كيف لى أن أقتله حتى لا يخبر الناسَ أنى قد راودته ! . فلم تزل بالملك حتى وهب لها رأسَ يحيى بن زكريّا ، وأرسلت إليه وهو قائم يصلّى فى محراب داود فى بيت المقدس فضُرِب عنقه وأخذ رأسه . فلمّا أرادوا أن يأخذوا رأس يحيى خَسَف الله بها و بأهلها الأرض عقوبةً لقتلها يحيى عليه السلام .

قال كعب : فلمّا رأى زكريّا أن آبنه يحيى قد قُتِل وخُسِف بالقوم انطلق هار با فى الأرض ، حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه أشجار . وأرسل الملك فى طلبه غضبًا لما لَقِيتِ المرأة وأهلها . فمرّ زكريّا بشجرة من تلك الأشجار فنادته الشجرة : يا نبيّ الله ، هَلُمّ إلى هاهنا . فلمّا أتاها التفّت عليه الشجرة ودخل زكريا عليه السلام فى وَسَطها ، فآنطلق عدوّ الله إبليس لعنه الله حتى أخذ بطَرَف ردائه ، فأخرجه من الشجرة ليصدّقوه إذا أخبرهم ، وجاء الذين يلتمسون زكريّا ، فأخبرهم إبليس أنه دخل الشجرة ؛ فقالوا : لا نصدّقك . قال : فإنى أُريكم علامة تصدّقوننى بها . قالوا : فأَرِناها ، فأراهم طَرَف ردائه ، فأخذوا الفؤوس فضربوا الشجرة حتى قطعوها بآثنتين ، فسلّط الله عليهم أخبثَ أهل الأرض عِلْجا مجوسيًّا ، فآنتقم الله من بنى إسرائيل بدم يحيى وزكريّا ، فقتل عظماء بنى إسرائيل وسَبَى منهم مائة ألف وعشرين ألفا .

وقد قيل فى سبب قتل زكريا غير هذا ، وسنذكره إن شاء الله فى أثناء أخبار عيسى بن مريم على ما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر هلاك بنى إسرائيل وخراب بيت المقدس ثانيا

قال الثعلبيّ رحمه الله تعالى فى بعض طُرُقه عن محمد بن إسحاق : إنّ خراب بيت المقدس ثانيا وقَتْلَ بنى إسرائيل كان بعد رفع عيسى بن مريم وقَتْلِ يحيى بن زكريّا . فلمّا فعلوا ذلك سلّط الله تعالى عليهم مِلِكا من ملوك بابل يقال له خَرْدُوس[١] ، فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ؛ فلمّا ظهر عليهم أمر رأسا من رءوس أجناده يدعى نَبُوزَرَادَان[٢] صاحب الفيل[٣] فقال له : إنى قد كنتُ حلفتُ بالهى إن أنا ظهرتُ على أهل بيت المقدس لأقتلنّهم حتى تَسيل دماؤهم فى وسَط عسكرى إلى ألّا أجد أحدا أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، وأن نَبُوزَرَادَان ٥١/١٢ دخل بيت المقدس فقتلهم فى البقعة التى كانوا يقرّبون فيها قُربانهم ، فوجدوا فيها دما يَغْلِى فسألهم عنه فقالوا : هذا دَمُ قُربان قرّبناه فلم يُتَقَبَّلْ منّا فلذلك هو يَغْلِى كما تراه ، ولقد قرّبنا منذ ثمانمائة سنة القُربان فتُقُبِّل منّا إلّا هذا القربان . فقال : ماصَدَقتمونى الخبر . قالوا له : لو كان كأوّل دمائنا لقُبل ولكنّه قد آنقطع منّا المُلْك والنبوّة والوَحْى فلذلك لم يُقْبَل . فذبح منهم نَبُوزَرَادَان على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رُوحا من رءوسهم فلم يهدأ ، فأمر بسبعة آلاف من سبيهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد . فلمّا رأى نَبُوزَرَادَان أن الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يابنى إسرائيل! أُصْدُقونى وآصبروا على أمر ربكم ، فقد طالما ملكتم الأرض تفعلون فيها ماشئتم ، قبل

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الاول والبحر المحيط لأبى حيان (ج ٦ ص ١١) وفى نسختى أ ، ب : «جردوس» بالجيم المعجمة . وفى نسخة ج «حردوس» بالحاء المهملة .

(٢) كذا فى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١) . وفى تاريخ الطبرى (ص ٧٢٠ من القسم الأول) «نبوزراذان» . وفى الأصول : «بيورزاذان» .

(٣) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى . وفى الكتاب المقدس (ج ١ ص ٦٥١) : «رئيس الشرط» . وفى نسخة من تاريخ الطبرى أشير اليها فى الهامش (ص ٧٢٠ من القسم الأول) : «صاحب القتل» .

ألّا أترك نافخ نار ذكر أو أنثى إلا قتلته . فلمّـا رأَوُا الجهد وشدّة القتل صدّقوه الخبر فقالوا : إن هذا دم نبيّ منّا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله ، فلو أطعناه لكان أرشد لنا ، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدّقه فقتلناه فهذا دمه . فقال لهم : ما كان آسمُه؟ قالوا : كان اسمه يحيى بن زكريّا . قال : الآن صدّقتمونى ، لمثل هذا ينتقم منكم ربكم . ولمّـا رأى أنهم قد صَدَقوه خرّ ساجدا وقال لمن حوله : أغلقوا باب المدينة وأخرجوا مَن كان هاهنا من جيش خَرْدُوس . وخلا فى بنى اسرائيل ثم قال : يا يحيى بن زكريا ، قد علم ربّى وربّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قُتِل منهم ، فآهدأ بإذن الله تعالى قبل ألّا أُبقى من قومك أحدا ، فهدأ دم يحيى بن زكريّا بإذن الله تعالى ، ورفع نَبُوزَرَادان عنهم القتل وقال : آمنتُ بما آمنت به بنو اسرائيل وصدّقت به وأيقنت أنه لا ربّ غيره . فأوحى الله تعالى الى رأس من رءوس بقيّة الأنبياء عليهم السلام أن نَبُوزَرَادان حَبُور صَدُوق — والحبور بالعبرانية حديث الإيمان — فقال نَبُوزَرَادان : يا بنى إسرائيـل ، إنّ عدوّ الله خَرْدُوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسـيل دماؤكم وَسَط عسكره ، وإنى لستُ أستطيع أن أعصيه . قالوا له : افعل ما أُمرتَ به ، فأمرهم أن يحفِروا خَـنْدَقا وأمر بأموالهم من الخيـل والبغال والحمُـر والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتلوا قبل ذلك فطُرِحوا على ما قُتل من مواشيهم حتى كانوا فوقها . فلمّا بلغ الدم عسكر خَرْدُوس أرسل الى نَبُوزَرَادَان أنِ آرفع عنهم القتل فقد بلغتنى دماؤهم . ثم آنصرف عنهم الى بابل وقد أفنى بنى إسرائيـل أو كاد . وهـذه هى الوقعة الآخرة التى أنزل الله تعـالى فيها وفى الأولى : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[1] فكان بختنصر

(١) سورة الاسراء آيتى ٤ و ٥

وجنودَه . ثم ردّ الله لهُم الكرّة عليهم . وكانت الوقعة الآخرة خَرْدُوس وجنوده فلم تقُم لهم بعد ذلك راية . وانتقل المُلك بالشام ونواحيها الى الروم واليونان، إلّا أنّ بقايا بنى إسرائيل كثروا وآنتشروا بعد ذلك . وكانت لهم الديانة والرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك . وكانوا فى نَعْمة ومَنَعَة الى أن بدّلوا وأحدثوا الأحداث وآستحلّوا المحارم وضيّعوا الحدود، فسلّط الله تعالى عليهم طَطُوس[1] بن اسفَيَانوس[2] الرومى فأخرب بلادهم وطردهم عنها، ونزع الله تعالى منهم المُلْك والرياسة وضرب عليهم الذلّ، فليسوا فى أمّة من الأمم إلّا وعليهم الصَّغار[3] والجزية والمُلْك فى غيرهم . وبقى بيت المقدس خرابا الى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعمّره المسلمون بأمره .

قال : وروَى أبو عَوَانة عن أبى بشر قال : سألت سَعِيد بن جُبَير عن قول الله عز وجل : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ الآيات فقال : أمّا الذين جاسوا[4] خلال الديار فكان صَرْخان[5] الخزرى شعَّث من الديار وتبّر[6] . ثم قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الى قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ الى قوله : ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ قال : هذا بختنصّر الذى خرّب بيت المقدس . ثم قال لهم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ قال : فعادوا فعِيدَ عليهم ، فبعث الله تعالى عليهم ملك الروم . ثم عادوا أيضا فعِيدَ عليهم ، فبعث عليهم درم أوزن[7] ملك الرىّ . ثم عادوا أيضا فعيد عليهم ، فبعث عليهم سابورَ ذا الأكتاف .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٣ من القسم الأوّل) ونسخة ج . وفى نسختَى ا ، ب : «طحوص» . (٢) فى تاريخ الطبرى : « سلفسيانوس » . (٣) الصغار : الذل .
(٤) جاسوا : عاثوا وقتلوا . (٥) وفى الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ١٠ ص ٢١٦) : « وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى : (ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) هو سنحاريب من أهل نينوى بالموصل ملك الروم » . (٦) تبر : أهلك ودمر .
(٧) كذا فى الأصول ولم نجد هذا الاسم فى المظان .

وقال قَتادة : هذه الآيةُ قضاءٌ قُضِىَ على القوم كما يسمعون ، فبعث عليهم فى الأولى جالوت فسبى وقتل وخرّب بيتَ المَقْدِس وسامهم سوء العذاب ، ثم قال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ فعاد الله عليهم برحمته . ثم عاد القوم بشرّ ما يحضُرهم . فبعث الله تعالى عليهم ما شاء أن يبعث من نِقْمته وعقوبته . ثم بعث الله تعالى عليهم هذا ٥٢/١٢ الحىّ من العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾(١) فهم بهم فى عذاب الى يوم القيامة .

وهذه الأخبار التى أوردناها فى هذا المكان من خبر زكريّا ويحيى وخراب بيت المقدس ثانيا ، منها ما كان فى زمن عيسى عليه السلام ، ومنها ما كان بعد رفعه . وإنما أوردناها سياقة وتركنا خبر عيسى عليه السلام لئلا تنقطع بغيرها وليتلو بعضها بعضا . فلنرجع الى أخبار عيسى بن مريم عليه السلام .

ذكر خبر حمل مريم بنة عمران بعيسى عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله تعالى : وكانت مريم تنمو وتزيد فى كل يوم وتعبد الله تعالى حتى برّزت فى العبادة على نساء بنى اسرائيل . فلمّا بلغت مبلغ النساء أتت منزل زكريّا ، فقال لها : كيف خرجتِ من بيتك ومفتاحه معى ؟ قالت : إنى رأيت أمرا قبيحا — أرادت بذلك الحيض — فجئتك بإذن الله . فأمرها زكريّا أن تكون عند خالتها حتى تطهُر ، ففعلت ذلك . فلما طهُرت واغتسلت عادت إلى عبادتها . فكان ذلك عادتها وشأنها اذا حاضت . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾(٢) أى سترا ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ يعنى جبريل ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أى فى صورة رجل

(١) سورة الأعراف آية ١٦٧ (٢) سورة مريم آية ١٦ وما بعدها .

﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْـكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لربك ﴿ قَالَ إِنَّمَـا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَـةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِـيًّا ﴾ ثم نفخ فى جيبهـا فوصلت النفخة الى جوفها فحملت بعيسى لوقتها . ويقـال : إنّ زكريّا فى ذلك الوقت أفضى إلى آمرأته فحملت بيحيى . وقيل : إنّ آمرأة زكريّا حملت قبل مريم بثلاثة أشهر، وقيل ستة أشهر . وكانت مريم إذ ذاك بنت خمس عشرة سنة ، وقيل ثلاث عشرة سنة .

وحكى الثعلبىّ فى قصة حمـل مريم أنه كان معها فى المسجد آبن عمّ لهـا من المحرَّرين يقال له يوسف بن يعقوب النجّار ، وكان رجلا حكيما نجّارا ، يتصـدّق بعمل يديه ، وكان يوسف ومريم اذا نفِد ماؤهما أخذ كل واحد منهما قُلّته وآنطلق إلى المغارة التى فيها المـاءُ يستقيان منـه ثم يرجعان إلى الكنيسة . فلمّا كان اليومُ الذى لَقِيها فيه جبريل ، وكان أطول يوم فى السنة وأشدَّ حرًّا ، نفِد ماؤها ، فقالت : يايوسف ، ألَا تذهب بنا نستقى ؟ فقال لهـا : إنّ عندى لفضلا من ماء أكتفى به فى يومى هذا إلى غد . قالت : لكنى والله ما عندى ماء ، فأخذت قُلّتها ثم آنطلقت وحدها حتى دخلت المغارة ، فوجدت عندها جبريل عليه السلام ، قد مثّله الله عزوجل بشرا سويّا ؛ فقال لهـا : يا مريم ، إنّ الله قد بعثنى اليك لأَهَبَ لكِ غلاما زكيّا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منـك إن كنت تقيّـا . قال عِكْرِمة : وكان جبريل قد عرَض لهـا فى صورة شابّ أمرَدَ وضىء الوجه ، جَعْدِ الشعر ، سوىّ الخَلْق . قال الحكماء : وإنمـا أرسله الله تعالى فى صورة البشر لتثبُت مريم عليها السـلام وتقدر على آستمـاع كلامه ، ولو أتاها على صورته التى هو عليهـا لَفَزِعت ونفَرت عنـه ، ولم تقـدِر على آستماع كلامه . فلمّا آستعاذت مريم منه قال : ﴿ إِنَّمَـا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكِ ﴾ الآية . فلما قال ذلك استسلمتْ لقضاء الله تعالى . فنفخ جبريل فى جيب دِرْعها ، وكانت قــد وضعته، ثم انصرف عنها . فلمــا لبست مريم درعها حملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قُلّتها وانصرفت الى المسجد . وقال السُّدّى وعِكْرمة : إنّ مريم عليها السلام كانت تكون فى المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحولت الى بيت خالتها حتى إذا طهُرت عادت إلى المسجد . فبينما هى تغتسل من الحيض وقد أخذت مكانا شرقيّا — قال الحسن : إنما اتخذت النصارى الشرق قِبلةً لأن مريم انتبذت مكانا شرقيّا — فاتخــذت، فضربت من دونهم حجابا ، أى ســترا . وقال مقاتل : جعلت الجبــل بينها و بين قومها ، فبينما هى كذلك اذ عرض لهــا جبريل و بشّرها ونفخ فى جيب درعها .

قالوا : فلما اشتملت على عيسى وتبيّن حملُها داخلها الغمّ وعلمت أنّ بنى إسرائيل ٥٣/١٢ سوف يقذفونها ، فنادتها الملائكة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ أى من الحيض ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَامَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . قال : و بشّرها الله تعالى بعيسى فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْــهُ ٱسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(١) . ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٢) الآية فطابت نفسهــا . قال وَهْب : فلمّا اشتملت على عيسى وكان معها يوسف النجار، وكانا منطلقين الى المسجد الذى بجبل صِهْيَوْن — وجبل صهيون على باب بيت المقدس — وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم، وكانت مريم و يوسف يخدمان ذلك المسجد، وكان لخدمته فضل عظيم، فكانا يَلِيان معالجته بأنفسهما وتطهيره ، وكان لا يُعْلَمَ أحدٌ من أهل زمانهما أشدّ اجتهادا وعبادة

(١) سورة آل عمران آيتى ٤٥ ، ٤٦ (٢) سورة آل عمران آية ٤٨ وما بعدها .

منهما . فكان أوّل مَن أنكر حمل مريم يوسف النجّار . فلما رأى ما بها استعظمه وقُطِع به ولم يدر على ماذا يضع أمرَها . فكان إذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تَغِب عنه ، وإذا أراد أن يبرّئها رأى الذى ظهر بها من الحمل . فلما آشتدّ ذلك عليه كلّمها ، فكان أوّل ما كلّمها به أن قال لها : إنه قد وقع فى نفسى منك ومن أمرك شىء ، وقد حَرَصت على أن أكتُمه فغلبنى ذلك ورأيتُ أنّ الكلام فيه أشفَى لصدرى . فقالت : قل قولا جميلا . قال : خبّرينى يا مريم ، هل ينبُت زرع بغير بَذْر ؟ قالت نعم . قال : فهل تنبُت شجرة بغير غيث يصيبها ؟ قالت نعم . قال : فهل يكونُ ولدٌ من غير فَحْل؟ قالت : ألم تعلم أنّ الله عزّ وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بَذْر، والبِذارُ إنما تكون من الزرع الذى كان أنبته من غير بذر ! . ألم تعلم أن الله عزّ وجل أنبت الشجر من غير غيث، وبالقَدَر جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحدة على حدة ! . أوَ تقول إن الله لا يقدر على إنباته ! . قال يوسف لها : لا أقول هذا ، ولكنى أعلم أن الله تبارك وتعالى يقدر على مايشاء ، يقول لذلك : كُنْ فيكونُ . فقالت له مريم : أوَ لم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وآمرأته حوّاء من غير ذكر ولا أنثى ! . قال بلى . فلمّا قالت له ذلك وقع فى نفسه أن الذى بها شىء من أمر الله ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه ، وذلك لِما رأى من كتمانها . وقال الكسائىّ : لما قال يوسف لمريم : هل يكون ولد من غير فَحْل؟ قالت : نعم، آدم من غير أب وأمّ . قال صدقتِ . ثم قال : هذا الولد الذى فى بطنك مَن أبوه ؟ قالت : هذا هبة ربّى لى ، ومَثَلُه كمثل آدم خلقه من تراب . فنطق عيسى فى بطنها وقال : يا يوسف ما هذه الأمثال التى تضربها ! قم فآشتغل بصلاتك وآستغفر لذنبك مما قد وقع فى قلبك . فقام يوسف وجاء الى زكريّا وأخبره ، فاغتمّ وقال لآمرأته : إنّ مريم حاملٌ ، وأخاف من فُسّاق

بنى إسرائيـل أن يتهموا يوسف بها . قالت : توكّل على الله وٱستعن به فإنه يردّ عنها مقالة الفُسّاق .

قالوا : ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمله فيه لمـا رأى من رقّة جسمها ، وٱصـفرار لونها ، وكَلَف وجهها ، ونتوء بطنها ، وضعف قوتها . والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام

قال الكسائىّ رحمه الله : فلمّا دنا وقت الولادة خرجت مريم فى جوف الليل من منزل زكريا حتى صارت إلى خارج بيت المقدس، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ . قال : وأخذها الطَّلْق، فنظرت إلى نخلة يابسة فجلست تحتها فاخضَرَّت النخلة من ساعتها وصار لهـا سَعَفًا وخُوصا وحملت الرُّطَب لوقتها، وأنبع الله فى أصل النخلة عينا من المـاء . قال : وعن وهب أنه لمـّا دنت ولادة مريم عليها السلام أوحى الله تعالى إليها أن تخرج من المحراب فتتبوّأ منزلا تلد فيه ، فتحولت إلى بيت خالتها أمّ يحيى بن زكريا لتَلِد فى بيتها . قال : فلمّا دخلت عليها استقبلتها أمّ يحيى وسلّمت عليها . فلما ٱلتقيا أحسّت أمّ يحيى بسجود مَن فى بطنها، فقالت : يا مريم، إن الذى فى بطنى يسجد لمـا فى بطنك .

قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى مريم أن تخرج من أرض بَيْتَ لَحْمَ (١) إلى جهة من الأرض تلِد فيها، فحملها يوسف النجّار على حمار بأُكَاف (٢) ليس بينها و بين الأُكَاف غير

---

(١) بيت لحم : قرية صغيرة مبنية على أكمة تبعد ٦ أميال الى الجنوب من أورشلم وهى محاطة بتلال تكسوها الأشجار والنباتات الجميلة، وفيها مياه عذبة تتفجر من أراضيها الخصبة . (راجع قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج بوست) .

(٢) أكاف الحمار (بضم أوله وكسره) : برذعته .

٥٤/١٢ ثوبها وهى مُثقلة لا تكاد تقوم . فانطلقا فى سواد الليل من بَيْتَ لَحْمَ يؤمّان الجبال، حتى إذا كانا ببعض الطريق بين نخلات ينزلها الرُّكبان، بينهنّ أَوارِىّ[1] مبنية بناها السَّفْر[2] ليعلِّقوا فيها دوابّهم . فنزلا ذلك المنزل، فأدركها المخاض، فٱلتجأت إلى بعض تلك الأوارِىّ وهو فى أصل جِذْع نخلة يابس قَحْل ليس فيه عَراجين[3] ولا غيرها، فأنبته الله تعالى وأثمره حتى أظلّها وأكنّها وتدلّت عليها غصونه من كل جانب حتى سترها السَّعف والعراجين . وٱشتدّ بها الطَّلْق وداومها سبع ليال، وأشرفت على الموت، فقالت ما أخبر الله تعالى به عنها، قال الله تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾[4]. قال: وٱشتدّ عليها البرد، فعمَد يوسف الى حطب فجعله حولها كالحظيرة، ثم أشعل فيه النار فأدفأها، وكسر لها سبع جَوْزات فأكلتها. فمن أجل ذلك تُوقد النصارى النارَ ليلة الميلاد وتلعب بالجوز . قال وقال كعب: إنها خرجت منفردة، فلمّا فقدها زكريّا أهمّه ذلك، وبعث يوسف النجّار فى طلبها، فجاء حتى نظر إليها تحت النخلة . قال: ولمّا شكت من ألم الولادة ما شكت وقالت: « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هٰـذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيا » أى لا تُعرف ولا تذكر ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ — قيل: إن الذى ناداها عيسى . وقيل: جبريل — ﴿ أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وهو الجدول الصغير . قالوا: كان نهرا من ماء عذب، يكون باردًا إذا شربت منه، وفاترا إذا ٱستعملته ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ أى نضيجا ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى كلى وٱشربى من الماء الذى أنبعه الله لك وقَرّى عينا بهذا الولد ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا ﴾ أى صمتا ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

(١) أوارىّ: جمع آرىّ وهو محبس الدابة . (٢) السفر: جماعة المسافرين .
(٣) عراجين: جمع عرجون، وهو أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابسا . سمى بذلك لانعراجه . (٤) سورة مريم آية ٢٣ وما بعدها .

قال : فلما جاء يوسف النجّار كلّمها فلم تتكلم ، فتكلّم عيسى فى حِجْرها وقال : يا يوسف ، أبشر وقَرّ عينًا وطِبْ نفسا ، فقد أخرجنى ربى من ظلمة الأرحام الى ضوء الدنيا ، وسآتى بنى إسرائيل وأدعوهم الى طاعة الله .

واختلف العلمــاء فى مدّة حمل مريم عليها السلام بعيسى ووقت وضعها إياه ، فقال بعضهم : كان تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل : ثمانيــة أشهر ، وكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعش مولود يوضع لثمانيــة أشهر غير عيسى ، وقيل : ســتة أشهر ، وقيل : ثلاث ساعات ، وقيــل ساعة واحدة . وقال آبن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت ، ولم يكن بين الحمل والآنتباذ إلا ساعة واحدة ؛ لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلا . وقال مُقاتل : حملته مريم فى ساعة وصُوّر فى ساعة ووضعته فى ساعة حين زالت الشمس من يومهــا وهى بنت عشر سنيــن ، وقــد كانت حاضت حيضتين قبــل أن تحمل بعيسى عليه الســلام . قال : فآنصرف يوسف الى زكــريّا وأخبره بولادة مريم وكلام عيسى ، فآزداد زكريّا غمًّــا لمــا يقوله النــاس .

قال الثعلبىّ قال وهب : فلما وُلد عيسى عليه الســلام أصبحتِ الأصنام كلها بكل أرض منكوســة على رءوسها ، ففَزِعت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إبليس وهو على عرش له فى لُجّة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على المــاء ، فأتَوْه وقــد خلت ستّ ساعات من النهــار . فلمّا رأى إبليس جماعته فزع من ذلك ولم يرهم جميعا منذ فرّقهم قبــل تلك الساعة إنما كان يراهم أشتاتا ، فسألهم ، فأخبروه أنه حدث فى الأرض حادث أصبحت الأصنام كلها منكوسة على رءوسها ، ولم يكن شىء أعون على هلاك بنى آدم منها لمــا يدخل فى أجوافها فتكلّمهم وتدبّر أمرهم ، فيظنّون أنها هى التى تكلّمهم ، فلمّا أصابها هذا الحادث صغّرها فى أعيُن

بنى آدم وأذلّها ، وقد خَشِينا ألّا يعبدوها بعد هذا . وآعلم إنّا لم نأتك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شىء ، فلم نزدد بما أردنا إلا جهلا . فقال لهم إبليس : إنّ هذا لأمرٌ عظيم ، فكونوا على مكانكم . وطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات ، فمرّ بالمكان الذى وُلد فيه عيسى عليه السلام . فلمّا رأى الملائكة مُحْدِقِين بذلك المكان علم أنّ ذلك الحادث فيه ، فأراد إبليس أن يأتيه من فوقه فإذا فوقه رءوس الملائكة ومناكبهم الى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدامُ الملائكة راسيةٌ ، فأراد أن يدخل من بينهم فنحّوْه عن ذلك ، فرجع إبليس إلى أصحابه فقال : ماجئتكم حتى أحصيت الأرض كلها شرقها وغربها وبرّها و بحرها والخافِقَيْنِ والجوّ الأعلى ، وكل هذا بلغته فى ثلاث ساعات ، وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام وقال : ما آشتملت قبله أمّ على ولد إلّا بعلمى ، ولا وضعته قطّ إلّا وأنا ٥٥ / ١٢
حاضرها . و إنى لأرجو أن أُضِـلّ به كثيرا ممن يهتدى ، وما كان نبىّ قبله أشـدّ علىّ وعليكم من هذا المولود .

قال : ثم خرج من تلك الليلة قوم يؤمّونه من أجل نجم طلَع ، وكانوا قبل ذلك يتحدّثون أنّ مطلع ذلك النجم من علامات مولود فى كتاب دانيَال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمرُّ واللُّبان ، فمرّوا بملك(١) من ملوك الشام ، فسألهم أين تريدون ؟ فأخبروه بخبرهم . قال : فما بال الذهب والمرّ واللُّبان أهديتموه له من بين الأشياء

---

(١) هو هيرودس الأكبر الذى حكم من ٤٠ — ٤ قبل الميلاد ، والتاريخ المسيحى متأخر عن وقته الأصلى بأربع سنين ، ولذلك يكون ميلاد المسيح فى السنة الأخيرة من ملكه . وكان هيرودس هذا حديد الذهن قوىّ الارادة مشهورا بالحيل غير أنه كان عنيفا صارما لا يبالى الحق فى إجراء مقاصـده . (راجع الكتاب المقـدس ج ٣ ص ٣ وقاموس الكتاب المقـدس للدكتور بوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأول) .

كلها[1]؟ قالوا : تلك أمثاله ؛ لأنّ الذهب سيّد المتاع كله ، وكذلك هذا النبيّ سيد أهل زمانه . ولأنّ المرّ يجبر به الكسر والجُرْح ، وكذلك هذا النبيّ يَشْفِى الله تعالى به كل سقيم ومريض . ولأن اللُّبان يبلغ دُخَانه إلى السماء ولا يبلغها دُخان غيره ، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله تعالى إلى السماء ولا يرفع فى زمانه أحدا غيره . فلمّا قالوا ذلك للملك حدّث نفسه بقتله فقال : اذهبوا ، فإذا علمتم مكانه فأعلمونى ذلك فإنى راغب فى مثل ما رغبتم فيه من أمره . فآنطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهديّة إلى مريم ، وأرادوا أن يرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكان عيسى ، فلقيهم مَلَكٌ فقال لهم : لا ترجِعوا إليه ولا تعلموه بمكانه فإنه إنما أراد بذلك ليقتله ، فآنصرَفوا فى طريق آخر . وقال مُجاهد : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدّثنى وحدّثته ، فإذا شغلنى عنه شىء سبّح فى بطنى وأنا أسمع .

قالوا : وكان مولد عيسى عليه السلام بعد مضىّ آثنتين وأربعين سنة من مُلْك أغوسطوس[2] ، وخمسين سنة مضت من مُلك الأشغانيين[3] ملوك الطوائف . وكانت المملكة لملوك الطوائف ، والرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم ، والملك عليها من قِبَل قَيْصر هِيرُودُس[4] ، وقيل فى آسمه هرادوس .

---

(١) هذه عبارة الثعلبى الذى ينقل عنه المؤلف . وفى الأصل : « ... ... أهديتموه بهذه الأشياء » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٤٠ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « أعسوطوس » وهو تحريف .

(٣) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٠٦ من القسم الأوّل) . وذكر الطبرى أن الأشغانيين استمرّ ملكهم ستا وستين ومائتى سنة . وفى الأصول : « الأسكانين » .

(٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٣) وقاموس الكتاب المقدّس لبوست وتاريخ الطبرى ص ٧٤٠ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « هردوس » .

ذكر رجوع مريم بعيسى عليه السلام بعد مولده الى قومها

قال الكسائى : ثم قامت مريم بعد الولادة وحملت عيسى على صدرها حتى أشرفت به على بنى إسرائيل وزكريا بينهم . وقال الثعلبى قال الكلبى : احتمل يوسفُ مريمَ وعيسى الى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تَعَالَّتْ[1] مريم من نفاسها ، ثم جاء بهما فكلّمها عيسى فى الطريق فقال : يا أمّاه ، أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه . قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾[2] . فلما نظروا اليها بكَوْا و ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى عظيما فظيعا لا يُعرف منك ولا من أهل بيتك ، وكانوا أهل بيت صالحين . ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ واختلف فى سبب قولهم لها « يا أخت هارون » ، فقال الكسائى : ناداها هارون وكان أخاها من أمها ، وهو من أحبار بنى إسرائيل وعُبّادهم ، وقال لها : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، فمن أين لك هذا الولد ! وقال الثعلبى قال قتادة : كان هارون رجلا صالحا من أتقياء بنى إسرائيل ، وليس هارون أخا موسى . وقال وهب : كان هارون من أفسق بنى إسرائيل وأظهرهم فسادا ، فشبّهوها به . ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى كلّموه . ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ! ، وضربوا بأيديهم على جباههم تعجُّبا ، فتنحنح عيسى و ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ . قالوا : فلما سمع ذلك أحبار بنى إسرائيل علموا أنه لا أبَ له وأنّ الله تعالى خلقه كما خلق آدم . فقال زكريا : الحمد لله الذى برّأنا بقول عيسى من فُسّاق بنى إسرائيل . قالوا : ثم لم يتكلم عيسى بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان . وقيل غير هذا . والله أعلم .

(١) تعالّت المرأة من نفاسها : خرجت منه وطهرت . (٢) سورة مريم آية ٢٧ وما بعدها .

ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

وما ظهر له من المعجزات فى مسيره ومدّة مُقامه إلى أن عاد ٥٦/١٢

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾(١) . اختلف العلماء فى الرَّبوة فقال عبد الله بن سَلَام : هى دمشق . وقال أبو هريرة : هى الرَّملة . وقال قَتَادة وكعب : هى بيت المقدس . وقال كعب : هى أقرب الأرض إلى السماء . وقال أبو زيد : هى مصر . وقال الضحّاك : هى غُوطَة دمشق . وقال أبو العالية : هى أيلة . وقال بعض المفسرين : هى قرية من قرى مصر تسمى سَدَمَنْت . وسَدَمَنْت : بلد من بلاد إقليم الفيوم معروفة مشهورة . وقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ القرار : الأرض المستوية . والمعين : الماء الظاهر . وكان سبب خروج مريم إلى مصر ما حكاه الكسائىّ وغيره من أهل السير قالوا : وبلغ الملك هِيرُودُس خبر عيسى فهمّ بقتل مريم وآبنها ، نخاف زكريا والمؤمنون عليهما من القتل ، وذلك بعد مولد عيسى بأيام قلائل ، فقال زكريا لمريم : إنى أخاف عليك وعلى آبنك من هذا الملك ، وأمر يوسف النجّار أن ينقلهما إلى أرض مصر ، وأعطاهما أتانا و زودهم ، فسار يوسف بهما نحو مصر .

***

وكان من المعجزات التى ظهرت على يَدَىْ عيسى عليه السلام فى مسيره ومُقامه بمصر أنه بينما هم سائرون إلى أرض مصر رأى يوسف النجّار فى بعض الطريق أسدا ففزع منه ، فقال عيسى : قرّبانى إلى الأسد ولا تقرَباه أنتم ، فقرّبوه ؛ فلما صار بين يَدَىِ الأسد قال عيسى : أيها الوحش ، ما وقوفك على قارعة الطريق؟ قال : لثور

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠

يمرّ علىّ لا بدّلى منه . قال عيسى : هذا الثور لقوم مساكين ليس لهم سواه ، ولكن انطلق إلى برّيّة كذا وكذا ، فإنك سترى جملا ميّتا فكُلْه ، وآترك هذا الثور لأصحابه ، فمضى الأسد نحو الميتة وتركهم . والله أعلم بالصواب .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا ، فرأَوْا قوما قد آجتمعوا بالقُرب من دار ملك من الملوك . فقال لهم عيسى : ما وقوفكم هاهنا ؟ . قالوا : امض أيها الصبىّ لشأنك . قال : أتحبّون أن أخبركم بوقوفكم ؟ قالوا نعم . قال : إنكم تريدون دخول هذه الدار اذا جنّ الليل فتأخذون مال هذا الملك ، فلا تفعلوا فإنه مؤمن ، ودلّهم على كنز وقال : إنه كان لقوم ماتوا ، فسار أولئك إليه وآقتسموا منه مالا عظيما .

معجزة أخرى :

قال : ثم ساروا حتى دخلوا قرية عامرة وقد آجتمع الناس على باب ملكها ومعهم صنم من حجر وهم يبكون و يسجدون لذلك الصنم . فقال عيسى : ماشأنكم أيها القوم؟ فقالوا : إنّ امرأة هذا الملك قد عسُر عليها وضع الولد ، وقد أمرنا الملك أن نسجد لهذا الصنم ونسأله أن يخفّف عنها ما هى فيه . قال عيسى : اذهبوا الى الملك وقولوا له : لو وضعتُ يدى على بطنها يخرج الولد عاجلا . فأخبروا الملك فقال : ائتونى به ، فأدخلت مريم وعيسى على الملك ، فعجِب من نطقه وهو صغير ، وأدخل على المرأة ، فقال عيسى : إن أخبرتك بما فى بطنها وخرج كما أقول أتؤمن بربّى الذى خلقنى من روحه؟ . قال نعم . قال عيسى : فى بطنها غلام على خدّه خال أسود ، وعلى ظهره شامة بيضاء ، ثم وضع يده على بطن المرأة وقال : أيها الجنين ، بالذى خلق الخلق وأسبغ عليهم سعة الرزق أُخرُج . فخرج الولد على ما وصفه عيسى .

فهمّ الملك أن يؤمن، فقال وزراؤه : إنّ هذه المرأة ساحرة، وهذا الصبيّ مثلها، وقد طردوهما من بيت المقدس، ولم يزالوا به حتى ردّوه عن الإيمان . فأرسل الله تعالى على الملك وقومه صاعقة فأهلكتهم . ثم مضى يوسف بهما حتى دخلوا مصر، ونزلت مريم دار دِهقان (١) هنالك، ولم يكن لها ماتعيش منه إلّا الغَزْل، فكانت تغزل الكتّان والصوف بالأُجرة لأهل مصر، ويوسف يحتطب ويبيع الحطب مدّة ليس لهم رزق إلا من ذلك .

معجزة أخرى :

قال الثعلبيّ قال وهب : كان أوّل آية رآها النـاس من عيسى أنّ أمه كانت ٥٧ / ١٢
نازلة فى دار دِهقان من أهل مصر أنزلها به يوسف النجّار حين ذهب بها إلى مصر، وكانت داره يأوِى إليها المساكين، فسُرق للدّهقان مال من خزانته فلم يتّهم المساكين، فحزِنت مريم لمصيبة الدهقان . فلمّا رأى عيسى حُزْن أمّه بمصيبة صاحب ضيافتها قال لهـا : يا أمّاه ، أتحبّين أن أدلّه على ماله؟ قالت : نعم يا بنيّ . قال: قولى له يجمـع لى مساكين داره . فقالت مريم ذلك للدهقان، فجمع له المساكين . فلمـا اجتمعوا عمَد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له : قُم به . فقال الأعمى : أنا أضعف من ذلك . فقـال عيسى : وكيف قويت على ذلك البارحة! . فلمّا سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فلما استقلّ قائمـا هوى المُقعَد إلى كُوة الخزانة . فقال عيسى عليـه السلام : هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوّته والمقعد بعينيه . فقال المقعد والأعمى : صدق، فردّا على الدهقان ماله . فقال الدهقان لمـريم : خذى نصف المـال . فقالت : إنى لم أُخلق لهـذا . قال : فأعطه ابنـك . قالت : هو أعظم منى شأنا . والله أعلم بالصواب .

(١) الدهقان : التاجر أو رئيس الإقليم .

معجزة أخرى :

قال : ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس آبنا له ، فصنع له عيدا فجمع عليه أهل مصر وكان يُطعمهم شهرين . فلمّا انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب . فلمّا رأى عيسى آهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه جرار، فأمرّ عيسى يده على أفواهها وهو يمشى ، فكلّما مرّ بيده على جرّة امتلأت شرابا حتى أتى على آخرها ، وهو يومئذ ابن آثنتى عشرة سنة .

معجزة أخرى :

قال : وبينا عيسى يلعب مع الصبيان بأرض مصر، إذ وثب غلام منهم على غلام آخر فقتله . فجاء أهله وتعلّقوا بجميع الصبيان وفيهم عيسى وأتَوْا بهم الى القاضى . فقال القاضى : مَن قتل هذا ؟ قالوا : هذا ، وأشاروا إلى عيسى . فقال له القاضى : لم قتلتَ هذا الغلام ؟ قال : أراك حاكما جاهلا ، كان يجب أن تسألنى : أقتلته أم لا ! قال القاضى : أراك ذا عقل ، فما آسمك ؟ قال : عيسى بن مريم . قال : يا عيسى ، لم قتلتَه؟ قال : ياجاهل ، أبهذا أمرتك؟ ثم دنا عيسى من الغلام وقال : قم بإذن الله الذى يحيى العظام وهى رميم ، فآستوى جالسا وقال له : مَن قتلك ؟ قال : قتلنى فلان بن فلان ، وهذا عيسى بن مريم برىء من دمى . فعجب الناس من ذلك وقتلوا قاتل الغلام ، وأخذت مريم بيد عيسى وآنطلقت .

معجزة أخرى :

قال : وأتت به أمّه الى معلّم ليعلّمه ، فقال : إنّ ربى قد أغنانى عن تعليم المعلّمين وقد علّمنى التوراة والإنجيل . قالت : صدقت ، ولكن تكون عند معلّم خير من أن تلعب مع الصبيان . فأتت به الى معلّم يعلّمه ، فعلّمه عيسى . قال الثعلبىّ : وروى

محمد الباقر رحمه الله قال : لمــا وُلد عيسى عليه السلام كان آبنَ يوم كأنه آبن شهر ، فلمّا كان آبنَ تسعة أشهر أخذت والدته بيــده وجاءت به الى كتّاب وأقعدته بين يدَيِ المؤدّب . فقال له المؤدّب : قل : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » فقالهــا عيسى عليه السلام . فقال المؤدّب : قل : أبجد ، فرفع عيسى رأسه وقال للمؤدّب : هل تدرى ما أبجد؟ فعلاه ليضربه . فقال : يا مؤدّب ، لا تضربنى ، إن كنت تدرى وإلّا فسَلْنى حتى أُفسّر لك . فقال : فسِّره لى . فقال عيسى عليــه السلام : الألف آلاء الله ، والباء بهجة الله ، والجيم جلال الله ، والدال دين الله . هوّز ، الهاء هى جهنم وهى الهاوية ، والواو ويل لأهل النار ، والزاى زفير جهنم . حُطِّى ، حُطّت الخطايا عن المستغفرين . كَلَمُن ، كلام الله غير مخلوق لا مبدّل لكلماته . سعفص ، صاع بصاع ٥٨/١٢ والجزاء بالجزاء . قَرَشَتْ تقرشهم حين تحشرهم ، أى تجمعهم . فقال المؤدّب لأمه : أيتها المرأة ، خذى بيد آبنك فقد عُلِّم ولا حاجة له الى مؤدّب . وقال سَعيد بن جُبَير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ عيسى عليه السلام أرسلته أمّه الى الكُتّاب ليتعلّم ، فقال له المعلّم قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال وما باسم الله . قال لا أدرى . قال الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم مملكته " . والله أعلم الموفّق .

معجزة أخرى :

قال الكسائىّ : وآنطلقت به أمّــه إلى صبّاغ ليعلّمه صنعة الصباغة . فأخذه الصبّاغ وأمره أن يمــلأ التّيغارات (١) من تيغار كبير ، وناوله أصباغا وأمره أن يجعل فى كل تيغار صِبْغًا ، وأن يصبُغ الثياب فى تلك التيغارات على آختلاف ألوانها ، وفارقه الصبّاغ وخرج إلى منزله . فعمَد عيسى إلى تيغار واحد وملأه ماء وأخذ جميع تلك

(١) فى كتب اللغــة : التيغار : الإجانة (بكسر الهمزة وتشــديد الجيم) . والإجانة : إناء تغسل فيه الثياب جمعه أجاجين .

الأصباغ بجعلها فيه، ووضع جميع تلك الثياب فيه وانصرف إلى أُمّه . فلما كان من الغد جاء الصبّاغ إلى الحانوت فنظر إلى ما فعله عيسى، فقال له : يا عيسى أهلكتنى وأفسدت ثياب الناس . قال عيسى : ياصبّاغ، ما دِينك؟ قال : دين اليهود . قال : قل : لا إله إلا الله وأنّى عيسى رُوح الله، وأدخل يدك فى هذا التيغار وأخرج كل ثوب على ما تريد . فآمن الصبّاغ بالله و بعيسى عليه السلام وأدخل يده فأخرج كل ثوب على ما أراده أصحابه . قال : وظهر لعيسى بمصر معجزات كثيرة .

ذكر خبر زكريا عليه السلام
مع هيرودس الملك وما كان من أمره

قال الكسائىّ : ولمّا كان من أمر عيسى عليه السلام وكلامه ما قدّمناه وتنكّست الأصنام ليلة مولده، جاء إبليس لعنه الله إلى الملك فى صورة شيخ وقال له : أيها الملك، إن لك عندى نصيحة فآخلُ معى . فخلا به وقال : ما نصيحتك؟ قال : قد بلغك ما كان من شأن المولود الذى تكلم فى المهد . قال نعم . قال : وقد رأيتَ ما حلّ بالأصنام من شؤم مولده، و إنه لخليق أن يشمَل الأرض كلها بشؤمه، وأنت فلا يمكنك قتله الآن لخروجه من بلادك، وأرى أن تفعل أمرا يتشاءم الناس بسببه بهذا المولود ويُعينونك على قتله، وأنت مع ذلك تطلبه، فإن ظفرتَ به ذبحته . قال الملك : فما الذى رأيت ؟ فلعمرى لقد وقع فى نفسى إنك لخليق أن يكون عندك رأى ومكيدة . قال : تذبح الولدان، فإن ذلك يبغّضه إلى الناس ويتشاءمون به فيكفوك أمره . قال : لقد أتيت بالأمر على وجهه، وأمر بذبح الولدان من سنتين فما دونهما، فوقع الذبح فى صبيان بنى اسرائيل . قال : ثم انطلق إبليس إلى مجالس بنى اسرائيل ونواديهم يقول : الفاحشة فى مريم ويقذفها بزكريا، يعرّض

بذلك لخيارهم ، ويبوح به ويصرح لشرارهم ، حتى شاعت الفاحشة على زكريّا . فلما رأى زكريا ذلك هرب وآتّبعه سفاؤهم وشرارهم ، وسلك فى واد كثير النبت ، حتى اذا توسّط الوادى انفرجت له شجرة فدخلها وأقبل القوم فى طلبه ، وإبليس يقدُمهم حتى أوقفهم عليه وهو فى الشجرة وقد آلتحمت عليه ، فأشار عليهم بقطعها ، فقُطعت . ثم قال لهم : أىّ العقوبة والنكال أبلغ فى هذا الذى أورث آباءكم الطيبين إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذرّيتهم من بعدهم الفضيحة والعار؟! . قالوا : القتل أو النشر . فأشار عليهم بنشره ، فنشروه نصفين ثم آنصرفوا عنه ، وغاب عنهم إبليس لعنه الله . وبعث الله تعالى الملائكة فغسلوا زكريّا وصلّوا عليه ثلاثة أيام ثم دفنوه . وقد قيل فى مقتل زكريا غير هذا ، وقد تقدّم فى أخباره . والله أعلم .

ذكر رجوع عيسى ومريم عليهما السلام من مصر ٥٩/١٢

قال الكسائىّ قال وهب : وأقامت مريم وآبنها عيسى بمصر آثنتى عشرة سنة حتى أهلك الله الملك هيرُودُس . قال : وأوحى الله تعالى إلى مريم بوفاة الملك وأمرها أن ترجع إلى بلادها بالشام ، فجاء يوسف النجار فرجع بها . فلم تزل هى وآبنها يسكنان بجبل الخليل بقرية يقال لها الناصرة(١) ، وبها سمّيت النصارى ، وبها آبتُدعت النصرانية . قال : ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى بعد أن تمت له ثلاثون سنة أن يبرز إلى الناس ويدعوهم إلى الله تعالى ، وأنزل عليه الإنجيل . فكان يسير فى البلاد ويدعو

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت والكتاب المقدّس (ح ٣ ص ٩٧) . وهى مدينة اشتهرت بكونها وطن المسيح مدّة طفولته وصباه إلى أن ابتدأت خدمته . وهى تبعد ١٤ ميلا عن بحر الجليل و ٦ أميال عن تابور و ٦٦ ميلا عن أورشلم . وفى الأصول : « ناصورية » .

الناس إلى الله عز وجل، ويرغّبهم فيما عنده، ويزهّدهم فى الدنيا ويضرب لهم أمثالا، ويداوى المرضى والزَّمْنَى[١]، ويُبرئ الأكمه والأبرص. فأحبّه الناس وسكنوا إليه، وكثُرت أتباعه حتى آمتنع وعلا أمره. ثم أحيا الموتى بإذن الله تعالى.

قالوا: وربما آجتمع عليه من المرضى والزَّمْنَى فى الساعة الواحدة خمسون ألفا، فمن أطاق منهم أن يبلُغه بلغه، ومن لم يقدر على ذلك أتاه عيسى يمشى إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان.

ذكر خبر الحواريّين[٢]

حين آتبعوا عيسى عليه السلام وآمنوا به

قال الكسائىّ رحمه الله: ومرّ عيسى على قوم يَصيدون السمك وهم أربعة: شِمْعُون، وأخ له آسمه أَندريُوس، ويعقوب، ويُوحنّا. فوعظهم وزهّدهم فى الدنيا ووعدهم الجنة ونعيمها فآمنوا به وآتّبعوه. قال: ومرّ بطائفة أخرى فوجدهم على نهر يغسلون الثياب، منهم لُوقا، وتوما، ومرقوس، ويُوحنّا، وأخوان لهم صبيّان لم يبلُغا الحُلُم، أحدهما شِمْعُون والآخر يعقوب، وقيل فى أسمائهم غير هذا. والله تعالى أعلم. فقال لهم عيسى: يا قوم، إنكم تقصّرون هذه الثياب وتنظّفونها من أوساخها، فلم لا تفعلون ذلك مع قلوبكم! . ثم قال لهم: إنّى رسول الله إليكم جميعا، وبشّرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٣]

(١) الزمنى: أصحاب العاهات.

(٢) الحواريون: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا قصارين وصباغين. وهم خاصة الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال تعالى: «من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله» وقال عليه الصلاة والسلام: "لكل نبىّ حوارىّ وحوارىّ الزبير". وأسماؤهم كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ١٦) سِمْعان وأَنْدَرَاوُس ويعقوب بن زَبَدَى ويوحنّا وفيلُبُّس وبَرْتُلْمَاوُس وتُومَا ومتّى العشّار ويعقوب آبن حَلْفَى وتَدَّاوُس وسِمْعان القانوىّ ويهوذ الإسخريوطىّ.

(٣) سورة الصف آية ٦

قال : فآمنوا به واتّبعوه، وكانوا كلهم آثنى عشر رجلا، أربعة منهم كانوا يصيدون السمك، وثمانية يقصّرون الثياب . وكان من القصّارين رجل أسفلَ النهر يقال له يوذا[1] لم يسمع كلام عيسى. فلمّا رأى أصحابه اتّبعوه لحق بهم، وهو الذى ارتدّ بعد ذلك ودل اليهود على عيسى ، فصاروا به قبل آرتداده ثلاثة عشر .

ذكر الخصائص والايات والمعجزات

التى أظهرها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام بعد مبعثه

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي[2]﴾ الآيات. قوله تعالى : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ قال الحسن : ذكر النعمة : شكرها، وأراد بقوله : ﴿ نِعْمَتِي ﴾ نعمى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[3] ﴾. ثم ذكر تعالى النعم فقال : ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وقال : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ[4] ﴾. وآختلفوا فى روح القدُس ماهو ؟ فقال الربيع بن أ َ ں : هو الرُّوح الذى نفخ فيه، أضافه سبحانه الى نفسه ٦٠/١٢

(١) اسمه « يهوذا الإسخريوطى » كما فى الكتاب المقدّس (ج ٣ ص ٨٥) .

(٢) سورة المائدة آية ١١٠ (٣) سورة ابراهيم آية ٣٤ (٤) سورة البقرة آية ٨٧ وورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى عن روح القدس مانصه : أنه جبريل عليه السلام وهو الأصح . قال النحاس : وسمى جبريل روحا وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحا من غير ولادة والد ولده ؛ وقال حسان :

وجبريل رسول الله فينا ☼ وروح القدس ليس به خفاء

(راجع ج ٢ ص ٢٤ من الطبعة الثانية وج ٦ ص ٣٦٢ من الطبعة الأولى) .

تكرُّما وتخصيصا، نحو : بيت الله، وناقة الله . والقدس : هو الله تعالى يدلّ عليه قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾(١) . وقال آخرون : أراد الله تعالى بالقدس : الطهارة، يعنى الروح الطاهرة، سُمِّى روحه قدسا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحولة إنما كان أمرا من الله تعالى . وقال السُّدِّىّ وكعب : روح القدس هو جبريل، وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام هو أنه كان رفيقه وقرينه يُوحِى اليه و يعينه و يسير معه حيثما سار الى أن صَعِد به الى السماء. وقال سعيد بن جُبَير وعُبيد بن عُمير: هو اسم الله الأعظم، و به كان يُحيي الموتى و يُرى الناس تلك العجائب. وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى الخطّ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعنى العلم والفهم . ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كان يقرؤهما من حفظه . وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ . قوله : ﴿ تَخْلُقُ ﴾ أى تجعل وتصوِّر وتقدِّر ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ أى كصورة الطير . فكان عيسى يصوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفُخ فيه فيصير طيرا بإذن الله تعالى. قالوا : ولم يخلُق غير الخُفَّاش . وانما خُص بالخُفَّاش لأنها أكمل الطير خَلْقا ، فتكون أبلغ فى القُدرة ، لأن لها ثديا وأسنانا ، وهى تَلِد وتَحيض وتطهر . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون اليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميّز فعل الخلق من فعل الله تعالى ، وليعلم أنّ الكمال لله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ . الأكمه : الذى وُلد أعمى ولم ير الضوء قط . قالوا : ولم يكن فى الإسلام أكمه غير قَتَادة . والأبرص : الذى به وَضَح ، وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ ، فأراهم الله تعالى المعجزة من جنس ذلك .

---

(١) سورة التحريم آية ١٢

قال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله : يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ بدير فيه عُمْيان، فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء قوم طُلِبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم . فقال لهم : ما دعاكم الى هذا ؟ فقالوا : خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى . فقال : أنتم العلماء والحكماء والأحبار والأفاضل، امسحوا بأيديكم أعينكم وقولوا : باسم الله . ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا يبصرون .

ذكر خبر سام بن نوح وغيره الذين أحياهم عيسى بإذن الله عز وجل

قال الكسائيّ قال وهب : سألتْ طائفة من بنى اسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام أن يُحيي لهم سام بن نوح وقالوا : أَحْيِ(1) لنا سام بن نوح ليكلّمنا وإلّا قتلناك، وإن فعلتَ آمنّا بك واتّبعناك . فأوحى الله تعالى اليه : نادِه ثلاث مرّات فإنه سيُجيبك. فقام عيسى على قبره وناداه ثلاث مرات : يا سام بن نوح قم بإذن الله، فقام فى الثالثة وهو أشمط(2) الرأس واللحية . فقال له عيسى : أهكذا متّ أبيض الرأس واللحية ؟ قال : لا ، ولكنّى سمعت نداءك فخفت أن تكون القيامة فشَمِطتُ، وأخبر القومَ بما أرادوه وكلمهم، ثم ردّه عيسى الى قبره، وما آمن بعيسى منهم إلّا قليل .

---

(١) وعبارة الكسائى : « فقالوا : أحى لنا سام بن نوح وسام يومئذ فى تابوت من حجر . قال : فوثب عيسى وتوضأ وصلى ركعتين ... الخ » وعبارة الثعلبيّ : «قال له الحواريون وهو يصف لهم سفينة نوح عليه السلام : لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك ... الخ » . و وردت العبارة فى الأصول مضطربة .

(٢) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد .

***

قالوا : وممن أحياه عيسى بن مريم العازر ، وكان صديقا له ، فأرسل أخته الى عيسى إنّ أخاك العازر يموت فأتِه ، وكان بينه وبين أن يصل إليه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام ، فقال لأخته : انطلق بنا الى قبره ، فانطلقت معهم الى قبره وهو فى صخرة مُطْبِقَة . فقال عيسى : اللهمّ ربّ السموات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتَنى الى بنى اسرائيل أدعوهم الى دينك وأخبرتُهم أنى أَحيِي الموتى بإذنك فأَحْيِ العازر . فقام العازر وأوداجه تقطُر . فخرج من قبره وبقى ووُلِد له .

قالوا : ومرّ عيسى عليه السلام برجل جالس على قبر وكان يكثر المرور به فيجدُه جالسا عنده ، فقال له : يا عبد الله ، أراك تكثر القعود على هذا القبر . فقال : يارُوح الله ، امرأة كانت لى وكان من جمالها وموافقتها كيت وكيت ولى عندها وديعة . فقال عيسى : أتحبّ أن أدعو الله تعالى فيحييها ؟ قال نعم . فتوضأ عيسى وصلّى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جِذْع محترق . فقال له : ما أنت ؟ قال : يا رسول الله أنا فى عذاب منذ أربعمائة سنة ، فلما كانت هذه الساعة قيل لى أَجِبْ فأجبتُ . ثم قال : يا رسول الله ، قد مرّ علىّ من أليم العذاب ما إن ردّنى الله الى الدنيا أعطيته عهدا ألّا أعصيه ، فادعُ الله لى . فرقّ له عيسى ودعا الله عز وجل ثم قال له : امضِ ، فمضى . فقال صاحب القبر : يارسول الله ، لقد غلطت بالقبر ، إنما قبرها هذا . فدعا عيسى عليه السلام ، فخرج من ذلك القبر امرأة شابّة جميلة . فقال له عيسى : أتعرفها؟ قال : نعم هذه امرأتى . فدعا عيسى حتى ردّها الله عليه . فأخذ الرجل بيدها حتى انتهيا الى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه فى حجر المرأة . فمرّ بهما ابن ملك فنظر اليها ونظرت اليه وأُعجب كل

واحد منهما بصاحبــه ، فأشار اليهــا فوضعت رأس زوجها على الشجرة وآتّبعت آبن الملك . فاستيقظ زوجها ففقدها وطلبها فدُلّ عليها ، فأدركها وتعلّق بها وقال : آمرأتى ، وقال الفتى : جاريتى . فبينما هم كذلك إذ طلع عيسى فقــال الرجل : هذا عيسى وقصّ عليه القصّة . فقال لهــا عيسى : ما تقولين ؟ قالت : أنا جارية هذا ولا أعرف هذا . فقال لها عيسى : ردّى علينا ما أعطيناك . قالت : قد فعلت . فسقطتْ مكانها ميّتة . فقال عيسى : هل رأيتم رجلا أماته الله كافرا ثم بعثه فآمن ! . وهل رأيتم آمرأة أماتها الله مؤمنة ثم أحياها فكفرت ! .

قالوا : ومرّوا بميّت على سرير ، فدعا عيسى الله تعالى ، فجلس الميّت على السرير ونزل عن أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع الى أهله و بقى ووُلِد له .

وممن أحياه عيسى بإذن الله تعالى آبنة العازر ، قيل له : أتحييها وقد ماتت بالأمس ! فدعا الله عز وجل ، فعاشت وبقيت ووُلدت .

قال الكسائىّ : وسأل بنو إسرائيــل عيسى عليه السلام أن يُحيى لهم عُزَيرا ، فقال : التمسوا قبره فآلتمسوه ، فوجدوه فى صندوق من حجر ، فعالجوه ليفتحوا بابه فلم يستطيعوا ذلك . فرجعوا الى عيسى وأخبروه أنهم عجزوا أن يُخرجوه من قبره ، فأعطاهم ماء فى إناء وقال : انضَحوه بهــذا المــاء فإنه ينفتح . فآنطلقوا ونضحوه بالمــاء فآنفتح طابقه . فأقامه عيسى فى أكفانه فنزعها عنه ، ثم جعل ينضح جسده بالمــاء ولحمه ينبت وشعره وهم ينظرون . ثم قال عيسى : يا عُزَير احْىَ بإذن الله ، فإذا هو جالس . فقالوا : ما شهادتك على هــذا الرجل ؟ فقال عزير : أشهد أنه روح الله وكلمته ألقاها الى مريم وأنه عبد الله ونبيّه وآبن أمَته . قالوا : ياعيسى ، ادعُ ربك يحييه لنــا فيكون بين أظهُرنا . فقال عيسى : ردّوه الى قبره فإنه انقطع رزقه وآنقضى أجله ، فردّوه الى قبره .

ومن معجزاته عليه السلام إخباره عن الغيوب

قال الله عز وجل إخبارا عنه: ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . قالوا : لما أبرأ عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله قالوا له : إنك تزعم أنك تخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندّخر . قال نعم . قالوا : فإنّا نجمع خيارنا وأحبارنا ورهباننا فنأمرهم أن يأكلوا ويدخروا فى بيوتهم ثم نأتيك فتخبرنا . قال نعم . فانطلقوا الى بيوتهم وأكلوا وآدخروا وأقبلوا اليه من الغد ، وسأله كل رجل منهم وهو يخبره بما أكل وآدخر .

ومما أخبر به عيسى عليه السلام من المغيّبات قصّة آبن العجوز . وكان من خبره ما حكاه أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله أن عيسى عليه السلام مرّ فى سياحته ٦٢/١٢ بمدينة ومعه الحواريّون ، فقال : إنّ فى هذه المدينة كنزا ، فمن يذهب فيستخرجه ؟ . قالوا : يا روح الله ، لا يدخل هذه القرية غريب إلّا قتلوه . فقال لهم : مكانكم حتى أعود اليكم ، ومضى حتى دخل المدينة فوقف بباب فقال : السلام عليكم يأهل الدار ، غريب أطعموه . فقالت له آمرأة عجوز : أمّا ترضى أن أدعك لا أذهب بك الى الوالى حتى تقول أطعمونى شيئا ! . فبينا عيسى بالباب إذ أقبل آبن العجوز فقال له عيسى : يا عبد الله ، أضفنى ليلتك هذه . فقال له الفتى مثل مقالة العجوز . فقال له عيسى : أمّا إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك . فقال له الفتى : إمّا أن تكون مجنونا ، وإمّا أن تكون عيسى بن مريم . قال : أنا عيسى . فأضافه وبات عنده . فلمّا أصبح قال له : اغدُ وآدخل على الملك وقل له : جئت أخطب آبنتك فإنه سيأمر بضربك وإخراجك . فمضى الفتى حتى دخل على الملك وقال له :

(١) سورة آل عمران آية ٤٩

جئت أخطب إليك آبنتك، فأمر به فضُرب وأخرج . ورجع الفتى إلى عيسى فأخبره، فقال له : إذا كان الغد فآذهب إليه وآخطُب إليه فإنه ينالك بدون ذلك . ففعل ما أمره عيسى ، فضربه الملك دون ذلك . فرجع الى عيسى فأخبره، فقال : إرجع اليه وآخطبها فإنه سوف يقول لك : إنى أزوجك إياها على حُكمى ، وحُكمى قصر من ذهب وفضة ، وما فيه من فضة و زَبَرْجَد، فقُلْ له : أفعَلُ ذلك . فاذا بعث معك فآخرج فإنك سوف تجده فلا تُحدِث فيه شيئا . فدخل عليه فخطب اليه، فقال : تُصدِقها حُكمى ؟ فقال : وما حكمك ؟ فحَكَم الذى سمّى [له][1] عيسى . فقال له : نعم ، ابْعَثْ مَن يقبض ذلك . فبعث معه [قوماً][1] ، فدفع اليهم ما سأله الملك . فعجِب الملك من ذلك وسلّم اليه آبنته . فتعجّب الفتى وقال لعيسى : ياروح الله ، تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحال ! . قال عيسى : لأنى آثرت ما يبقى على هذا الفانى . فقال الفتى : وأنا أدعه وأصحبك . فتخلّى من الدنيا وآتّبع عيسى . فأخذ بيده وأتى أصحابه وقال : هذا هو الكنز الذى قلت لكم . فكان آبن العجوز مع عيسى حتى مات . والله أعلم .

ذكر خبر يجمع عدّة معجزات من معجزات عيسى عليه السلام

حكى أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله قال وَهْب : خرج عيسى عليه السلام يسيح فى الأرض، فصحبه يهودىّ، وكان مع اليهودىّ رغيفان، ومع عيسى رغيف . فقال له عيسى : تشاركنى فى طعامك ؟ قال اليهودىّ نعم . فلمّا رأى اليهودىّ أنّ عيسى ليس معه إلا رغيف واحدٌ ندِم . فقام عيسى الى الصلاة فأكل اليهودىّ رغيفا . فلما قضى عيسى صلاته قدّما طعامهما ، فقال عيسى لليهودىّ : أين الرغيف الآخر؟

(١) الزيادة عن الثعلبىّ .

فقال : ما كان إلّا رغيف واحد ، فأكل عيسى رغيفا وصاحبُه رغيفا ، ثم آنطلقا فجاءا الى شجرة ، فقال عيسى لصاحبه : لو أننا بتنا تحت هذه الشجرة ! . فناما ثم أصبحا . فآنطلقا فلقيا أعمى ، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك حتى ردّ الله عليك بصرك هل تشكره؟ قال نعم . فمسّ عيسى عليه السلام بصره ودعا الله تعالى فإذا هو صحيح . فقال عيسى لليهوديّ : بالذى أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف؟ فقال : والله ما كان إلّا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه . ومرّا فإذا هما بمُقعد ، فقال له عيسى : أرأيتَ إن عالجتك فعافاك الله تعالى هل تشكره ؟ قال بلى . فدعا الله عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه . فقال صاحب عيسى : ما رأيتُ مثل هذا قط ! . فقال عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمُقْعَد صحيحا ، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فحلف له اليهوديّ ما كان معه إلّا رغيف واحد ، فسكت عيسى . وآنطلقا حتى آنتهيا الى نهر عَجّاج جرّار ، فقال عيسى : لا أرى جسرا ولا سفينة ، فخذ بحُجْزتى[(1)] من ورائى وضع قدمك موضع قدمى ، ففعل ومشيا على الماء . فقال له عيسى : بالذى أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا وسخّر لك هذا البحر حتى مشيت عليه ، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : لا والله ما كان إلّا رغيف واحد ، فسكت عيسى . وآنطلقا فإذا هما بظباء يرعَيْن ، فدعا عيسى بظبى فأتاه فذبحه وشوى منه بعضا وأكلاه ، ثم ٦٣/١٢ ضرب عيسى بقية الظبى بعصاه وقال : قُم بإذن الله عز وجل فإذا الظبى يعدو . فقال الرجل : سبحان الله ! . فقال عيسى : بالذى أراك هذه الآية ، مَن صاحب الرغيف الآخر؟ فقال : ما كان إلّا رغيف واحد . فآنطلقا فمرّا بصاحب بقر ، فنادى عيسى : ياصاحب البقر ، اجزُر لنا من بقرك هذه عجلا . قال : ابعَثْ صاحبك يأخذه . فآنطلق اليهوديّ فجاء به ، فذبحه وشواه وصاحب البقر ينظر اليه . فقال له عيسى :

(1) الحجزة : معقد الإزار .

كُلْ ولا تكسِر له عظما، ففعل . فلمّا فرغ قذف بعظامه فى جلده وضربه بعصاه وقال : قُم بإذن الله تعالى ، فقام العجل وله خُوَار . فقال : ياصاحب البقر خذ عجلك . قال : ويحك! من أنت؟ قال : أنا عيسى بن مريم . قال : عيسىٰ السحّار ! ثم فرّ منه . فقال عيسى لصاحبه : بالذى أحيا لك العجل، كم كان معك من رغيف؟ قال : ما كان معى إلا رغيف واحد، فسكت عيسى . ومضيا حتى دخلا قرية ، فنزل عيسى فى أسفلها واليهودىّ فى أعلاها، فأخذ اليهودىّ عصا عيسى وقال : أنا الآن أُبرئ المرضى وأحيي الموتى . قال : وكان ملك تلك المدينة مريضا مُدنفا . فآنطلق اليهودىّ ينادى : مَن يبتغى طبيبا ، حتى أتى قصر الملك ، فأُخبر بوجعه ، فقال : أدخلونى عليه فأنا أبرئه ، و إن لقيتموه قد مات فأنا أحييه . فقيل له : إنّ وجع الملك قد أعيا الأطبّاء قبلك ، فليس من طبيب يداويه ولا يَشفيه إلّا صلبه . فقال : أدخلونى عليه ، فأدخلوه فضرب الملك بعصاه فمات . فجعل يضربه بالعصا وهو ميّت ويقول : قُم بإذن الله . فأُخِذ ليُصلَب . فبلغ ذلك عيسى ، فأقبل اليه وقد رُفع على الخشبة ، فقال لهم : أرأيتم إن أحييت لكم الملك أتتركون لى صاحبي؟ قالوا نعم . فدعا الله تعالى عليه السلام فأحياه وقام وأُنزل اليهودىّ من الخشبة ، فقال : ياعيسى ، أنت أعظم الناس علىّ منّة ، والله لا أفارقكَ أبدا . فقال له عيسى : أنشُدُك الله الذى أحيا الظبى والعجل بعد ما أكلناهما ، وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من الجذع بعد ما صُلبت ، كم كان معك من رغيف؟ قال : والله ما كان معى إلّا رغيف واحد، قال : لا بأس . ثم آنطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خرِبة فيها كنز وفيها ثلاث لَبِنات من ذهب . فقال الرجل لعيسى : هذا المال لك؟ فقال : أجَلْ ! واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث . فقال اليهودىّ : أنا والله أكلته وأنت تصلى . فقال عيسى : هى لك كلها . فآنطلق عيسى وتركه قائما ينظر وهو لا يستطيع أن

يحمل واحدة منهنّ ، وكلما أراد أن يحمل واحدة ثقُلت عليه . فقال له عيسى : دعه فإنّ له أهلا يهلكون عليه . فجعلت نفس اليهوديّ تَطَلَّع إلى المال و يكره أن يعصى عيسى و يعجز عن حمله . فآنطلق مع عيسى ، فبينما هما كذلك إذ مرّ بالمال ثلاثة نفر فأقاموا عليه . فقال آثنان منهما لصاحبهما : انطلق إلى أهل هذه القرية[(١)] فأتنا بطعام وشراب ودوابّ نحمل هذا المال عليها . فلمّا ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر : هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال فيما بيننا ؟ قال نعم . وقال الذى ذهب فى نفسه : هو ذا أجعل فى الطعام سمّا فإذا أكلاه ماتا و يصير المال كله إلىّ ، ففعل ذلك . فلمّا رجع إليهما قتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا . ومرّ عيسى عليه السلام بهم وهم موتى حوله ، فقال : هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، فأحياهم بإذن الله عزّ وجل ، فآعتبروا ومرّوا ولم يأخذوا من المال شيئا . فتطلّعت نفس اليهوديّ صاحب عيسى إلى المال فقال : أعطنى المال . فقال له عيسى : خذه فهو حظّك من الدنيا والآخرة . فلمّا ذهب اليهوديّ ليحمله خسف الله تعالى به الأرض ، وآنطلق عيسى عليه السلام .

ذكر خبر المائدة التى أنزلها الله عزّ وجل من السماء

قال وهب : وسأل بنو إسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة من السماء ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ[(٢)] ﴾ . وقرأ
علىّ وعائشة وسعيد بن جُبَير ومجاهد رضى الله عنهم « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ » (بالتاء ٦٤/١٢
المثناة من أعلاها ونصب الباء الموحدة فى ربك) وآختاره الكسائىّ وأبو عُبَيد

(١) فى الثعلبى « إلى بعض هذه القرى » . (٢) سورة المائدة آيتى ١١٢ ، ١١٣

على معنى هل تستطيع أن تدعو ربك وتسأل ربك . قالوا : لأنّ الحواريّين لم يكونوا شاكّين فى قدرة الله تعالى . وقرأ الباقون « يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » (بالياء المثناة من تحتها ورفع الباء) وقالوا : إنهم لم يشكّوا فى قدرة الله تعالى وإنما معناها هل يُنزل أم لا ، كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تنهض معى وهو يعلم أنه يستطيع ، وإنما يريد هل يفعل أم لا ، وأجراه بعضهم على الظاهر فقالوا : غلِط القوم وكانوا بشرا ، فقال لهم عيسى عليه السلام استعظاما لقولهم : « اتَّقُوا اللّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » معناه أن تشكّوا فى قدرة الله أو تنسبوه إلى عَجْز أو نقصان . وقيل : قال لهم : اتقوا الله أن تسألوه شيئا لم تسأله الأمم قبلكم . قالوا : إنما سألنا لأنّا نريد أن نأكل منها فنستيقن قدرته وتطمئنّ وتسكُن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا بأنك رسول الله ، ونكون عليها من الشاهدين ، فنقرّ لله بالوحدانية والقدرة ، ولك بالرسالة والنبوّة . وقيل : ونكون عليها من الشاهدين لك عند بنى إسرائيل إذا رجعنا إليهم . قال الكسائىّ : فأمرهم عيسى بصيام ثلاثين يوما وأنّ الله بعد ذلك يُطعمهم ويُنزلها عليهم . فصاموا حتى تمّ الأجل ، فقام عيسى وصلّى وسأل الله تعالى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (1) . قال قوله : ﴿ عِيدًا ﴾ أى عائدة من الله علينا وحجة وبرهانا . والعيد اسم لما أعدته وعاد إليك من كل شىء ؛ ومنه قيل ليوم الفطر ويوم الأضحى عيد ، لأنهما يعودان كل سنة . وقوله : ﴿ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ . قال الثعلبىّ : يعنى لأهل زماننا ولمن يجىء من بعدنا . وقرأ زيد بن ثابت : « لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا » (2) .

(1) سورة المائدة آية ١١٤

(2) فى الأصول : «لأولينا وآخرينا» . والتصويب من البحر المحيط لأبى حيان (ج ٤ ص ٥٦) وغيره من كتب التفسير ؛ قال صاحب البحر : وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدرى « لأولانا وأخرانا » أنثوا على معنى الأمة والجماعة .

وقال آبن عباس رضى الله عنهما : يعنى يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم . ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ دلالة وحجة . قال الله عز وجل مجيبا لعيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ . وقرأ أهل الشام وقَتادة وعاصم « مُنَزِّلُهَا » بالتشديد لأنها نزلت مرّات ، والتفعيل يدل على التكثير مرّة بعد مرّة . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أى يكفر بعد نزول المائدة ﴿فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] أى عالَمِى زمانهم . قال : فجحد القوم وكفروا بعد نزول المائدة فمُسخوا قِردَةً وخنازير .

قال الثعلبىّ : وآختلف العلماء فى المائدة ، هل نزلت أم لا ؟ فقال مجاهد : ما نزلت مائدة ، وهذا مثل ضُرِب . وقال الحسن : والله ما نزلت المائدة ، إنّ القوم لمّا سمعوا الشرط وقيل لهم : ﴿ فمن يكفر بعدُ مِنكم فإنى أعذّبه عذابا لا أعذّبه أحدا مِن العالمِين ﴾ . استعفَوْا وقالوا : لا نريدها ولا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل . قال أبو إسحاق الثعلبىّ : والصواب أنها نزلت ، لقوله عز وجل : ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ولا يقع فى خبره الخُلْف ولتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم وغيرهم من علماء الدين فى نزولها . قال كعب : أُنزلت يوم الأحد ، فلذلك اتخذه النصارى عيدا .

واختلفوا فى صفتها وكيفية نزولها ، فحكى الكسائىّ عن وهب قال : أنزل الله تعالى على عيسى مِكْتَلًا[2] فيه ثلاث سَمَكات مشويّات ليس لها شوك ولا قشر وثلاثة أرغفة ، والملائكة تحملها حتى وضعوها بين يدَىْ عيسى . قال : وقد قيل : إنّ المائدة كانت سُفْرة[3] من الأَدَم الأحمر ، وكان فيها سمكة واحدة مشويّة وحولها الخُضَر

(١) سورة المائدة آية ١١٥

(٢) المكتل : زبيل يعمل من الخوص يحمل فيه التمر وغيره يسع خمسة عشر صاعا .

(٣) السفرة : هى التى تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضمّ وتنفرج ، فبالانفراج سميت سفرة ؛ لأنها اذا حلت معاليقها آنفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السفرة .

والبقول ، وعند رأسها خلّ ، وعند ذنبها مِلح وخمسة أرغفة على كل منها زيتون ، وخمس رمّانات وتمرات . وقال الثعلبيّ فى تفسيره : روى قَتادة عن خِلَاس بن عمرو عن عمّار بن ياسر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " نزلت المائدةُ خبزا ولحما "(١). وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه لا ينفَد، فقيل لهم : إنها مقيمة لكم مالم تخونوا أو تخبئوا أو ترفعوا، فإن فعلتم ذلك عُذِّبتم . قال : فما مضى يومهم حتى خبئوا و رفعوا وخانوا. وقال إسحاق بن عبد الله : إنّ بعضهم سرق منها وقال : لعلها لا تنزل أبدا ، فرُفعت ومُسِخوا قِردة وخنازير . وقال آبن عبّاس رضى الله عنهما : إنّ عيسى بن مريم عليه السلام قال لبنى إسرائيل : «صوموا ثلاثين يوما ثم سَلُوا الله تعالى ما شئتم يُعطِكم » . فصاموا ثلاثين يوما، فلمّا فرغوا قالوا : ياعيسى، إنا لو عمِلنا لأحد فقضينا عمله لأطعمنا طعاما ، و إنّا قد صُمنا وجُعنا ، فآدعُ الله أن يُنزل علينا مائدة من السماء ففعل . فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها ، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات(٢) حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وروى عطاء بن السائب عن راذان وميسرة قالا : كانت المائدة اذا وُضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلّا اللحم . وقال سَعيد بن جُبَير عن آبن عباس رضى الله عنهم : أُنزِل على المائدة كل شىء إلّا الخبز واللحم . قال عطاء : أُنزل عليها كل شىء إلا السمك واللحم . وقال عطيّة العَوْفى : نزل من السماء سمكة فيها طعم كل شىء . وقال عمّار وقتادة : كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من ثمار الجنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أنزل الله تعالى

٦٥/١٢

---

(١) نص الحديث كما ورد فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٢) : " أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأمروا ألا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير " .

(٢) أحوات (جمع حوت) : وهو نوع من السمك معروف .

أقرِصةً من شعير وحيتانا . فقيل لوهب : ماكان ذلك يُغنى عنهم ؟ قال : لا شيء ، ولكنّ الله أضعف لهم البركة ، فكان قومٌ يأكلون ويخرجون ويجيء الآخرون فيأكلون ويخرجون ، حتى أكلوا بأجمعهم وفضَل . وقال الكلبيّ ومُقاتل : استجاب الله تعالى لعيسى عليه السلام فقال : إنى مُنَزِّلها عليكم كما سألتم ، فمَن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة لمن بعدهم ، قالوا : قد رَضينا . فدعا شِمْعون الصّفا وكان أفضل الحواريّين فقال : هل معك طعام ؟ قال : نعم معى سمكتان وسبعة أرغفة . قال : قدّمها . فقطعهنّ عيسى عليه السلام قطعا صغارا ثم قال : اقعُدوا فى روضة وترفّقوا رفاقا ، كل رفقة عَشَرة . ثم قام عيسى عليه السلام ودعا الله تعالى فآستجاب الله له ونزّل فيها البركة ، فصار خبزا صِحَاحا وسمكا صحاحا . ثم قام عيسى فجعل يُلقِى فى كل رفقة ما حملت أصابعه ، ثم قال : كلوا بآسم الله ، فجعل الطعام يكثر حتى بلغ رُكَبهم ، فأكلوا ما شاء الله وفَضَل منه ، والناس خمسة آلاف ونيف . فقال الناس جميعا : نشهد أنك عبد الله ورسوله . ثم سألوه مرّة أخرى ، فدعا الله تعالى ، فأنزل الله خبزا وسمكا ، خمسة أرغفة وسمكتين ، فصنع بها ما صنع فى المرّة الأولى . فلمّا رجعوا إلى قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم مَن لم يَشهدها ، وقالوا لهم : ويحكم ! إنما سحر أعينكم ، فمَن أراد الله تعالى به الخير ثبّته على بصيرته ، ومَن أراد فتنته رجع إلى كفره . فمُسِخوا خنازير وليس فيهم صبيّ ولا آمرأة . فمكثوا بذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ، ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا . وقال كعب : نزلت مائدة منكوسة من السماء تَطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلّا اللحم . وقال قَتادة : كانت تنزِل عليهم بكرة وعشيّة حيث كانوا كالمنّ والسَّلْوى لبنى إسرائيل . وقال يَمَان بن رِئاب : كانوا يأكلون منها ما شاءوا . وروى عطاء بن أبى رباح عن سَلْمان الفارسيّ قال : لمّا سأل الحواريّون عيسى

ٱبن مريم أن يُنزل عليهم المائدة لبس صوفا وبكى وقال : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية ، وٱرزقنا عليها طعاما نأكله ، وٱرزقنا وأنت خير الرازقين . فنزلت سُفْرة حمراء بين غمامتين ، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها ، وهم ينظرون إليها وهى تَهوِى منقضّة حتى سقطت بين أيديهم . فبكى عيسى وقال : « اللهمّ ٱجعلنى من الشاكرين ، اللهم ٱجعلها رحمةً ولا تجعلها عُقوبةً ومُثْلَة[1] » والشهود ينظرون إليها ، ينظرون الى شىء لم يَرَوا مثله قطّ ، ولم يجدوا ريحا أطيبَ من ريحه . فقال عيسى عليه السلام : ليقُمْ أحسنُكم عملا فيكشف عنها ويذكر ٱسم الله ويأكل منها . فقال شِمْعون الصَّفَا رأس الحواريّين : أنت أولى بذلك منّا . فقام عيسى عليه السلام فتوضّأ وصلّى صلاة طويلة وبكى بكاء كثيرا وكشف المنديل عنها وقال : بٱسم الله خير الرازقين ، فاذا هو بسمكة مشويّة ليس عليها فلوس ولا شَوك تسيل سيلا من الدسم[2] ، وعند رأسها مِلْح ، وعند ذنبها خلّ ، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكرّاث ، واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث بيض ، وعلى الرابع جُبن ، وعلى الخامس قَدِيد . قالوا : فلمّا استقرّت بين يدَىْ عيسى قال شِمْعُون رأس الحواريّين : أنت أولى يا روح الله ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام : ليس شىء مما ترون ، ولكنّه شىء ٱفتعله الله تعالى بالقدرة الغالبة ، كلوا مما سألتم يُمْدِدكم ويَزِدْكم من فضله . قال الحواريّون : يا روح الله ، لو أريتنا من هذه الآية اليوم آية أخرى ! فقال ٦٦/١٢ عيسى : يا سمكة ٱحْىَ بإذن الله . فاضطربت السمكة وعادت عليها فلوسها وشَوْكها ففزعوا منها . فقال عيسى : ما لكم تسألون أشياء اذا أُعطيتموها كرهتموها ،

(١) المثلة (بالضم) : التنكيل .

(٢) فى الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج ٦ ص ٣٧٠) : « تسيل سيلان الدسم » .

ما أخوفني عليكم أن تعذَّبوا ! يا سمكة عودى كما كنتِ بإذن الله تعالى. فعادت السمكة مشويّة كما كانت . فقالوا : يا روح الله ، كن أوّل من يأكل منهـا ثم نأكل نحن . فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها . فدعا عيسى عليه السلام أهلَ الزَّمانة والمرض وأهلَ البَرَص والجُذَام والمُقْعدين والمُبْتَلين فقال : كلوا من رزق الله ولكم المَهْنأ ولغيركم البلاء . وفى رواية : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيّكم وآذكروا آسم الله . فأكلوا وصــدروا عنها وهم ألف وثلاثمائة رجل وآمرأة من فقير وزَمِن ومريض ومبتلًى كلهم شبعان يتجشّأ(١)، ثم نظر عيسى عليه الســلام الى السمكة فاذا هى كهيئتها حين نزلت من السماء . ثم طارت المـائدة صُـعُدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم . فلم يأكل منها يومئــذ زَمِنٌ إلّا صحّ، ولا مريض إلا برأ ، ولا مبتــلًى إلّا عُوفِىَ، ولا فقــير إلا استغنى ولم يزل غنيّا حتى مات ؛ وندم الحواريّون ومن لم يأكل منهـا إذ لم يأكلوا منها . وكانت اذا نزلت آجتمع الفقراء والأغنياء والصغار والكبار والرجال والنساء فيزدحمون عليها . فلمّا رأى عيسى ذلك جعلها نوبة بينهم ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضُحًى ولا تزال منصوبة يؤكل منها حتى اذا فاء الفىء طارت صُـعُدا وهم ينظرون الى ظلها حتى تتوارى عنهم . وكانت تنزل غبّا ، تنزل يوما ولا تنزل يوما كناقة صالح . وأوحى الله عزّ وجل الى عيسى أن آجعــل مائدتى ورزقى للفقراء دون الأغنياء ، فعظُم ذلك على الأغنياء حتى شكّوا وشكّكوا الناس فيها وقالوا : أترون المـائدة حقّا نزلت من السماء ! فقال عيسى : هلكتم تجهّزوا لعذاب الله . فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام : إنى شرطت على المكذّبين شرطا أنّ مَن كفر بعد نزولها عذّبته عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين . فقال عيسى : « إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم

(١) جشأ وتجشأ : أخرج صوتا من فمه عند الشبع .

فإنك أنت العزيز الحكيم » . فسخ منهم ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون رجلا . وقال الكسائيّ عن وهب : مُسخ منهم خمسة آلاف وخمسمائة، فباتوا على فرشهم مع نسائهم فى ديارهم، فأصبحوا خنازير يسعَوْن فى الطُّرقات والكُنَاسات و يأكلون العَذِرة . فلما رأى الناس ذلك فزِعوا الى عيسى عليه السلام، وبكى على الممسوخين أهلوهم . ولما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا واحدا فيبكون و يُشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وهؤلاء الذين لُعنوا على لسان عيسى كما قال تعالى : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[1] الآية .

ذكر ما قالته الشياطين الثلاثة فى عيسى بن مريم واتبعهم الناس بعدهم

قال الكسائيّ قال وهب : جاء إبليس الى عيسى عليه السلام هو وأصحاب له على صُوَر رجال ذوى هيئة وشيبة وعيسى يقول لبنى إسرائيل : ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2] الآية . فقال إبليس : أتخلُق وتَشفِي المرضَى وتُحيِي الموتى وتنبئنا بالغيب ؟ قال عيسى نعم . قال إبليس : هذا الله عز وجل! يأيها الناس فانظروا اليه، فإنه نزل اليكم ليُرِيكم قُدرته . فقال أحد أصحاب إبليس : بئسما قلتَ يا شيخ ! أخطأت وجُرتَ وقلت قولا عظيما، أتزعم أن الله يتجلّى لخلْقه لينظروا الى قدرته ! وهل ينبغى لخلقه أن ينظروا اليه أو يسمعوا كلامه أو يقوموا لرؤيته ! لا، ولكنّه ابن الله وليس هو الله . فقال الثالث : كلّا كما قال شططا وأخطأ وجار وقال قولا عظيما، وهل ينبغى لله أن يتخذ صاحبة يكون له منها ولد ! وهل ينبغى لولد هو من الله

(١) سورة المائدة آية ٧٨ (٢) سورة آل عمران آية ٤٩

٦٧/١٢ أن تستقلّ به قوة امرأة ويسعه رَحِمها ! ولكنّه إله مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما . قال : فتفرقوا على ذلك ونطق الناس بقولهم، فصار ذلك كلام النصارى . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٣) .

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام
وما خاطبه به وجوابه

قال وهب : ثم جاء إبليس الى عيسى بن مريم فعارضه فى عَقَبة(٤) من عقاب الأرض المقدسة يقال لها عَقَبة فَيْق : فقال له : أنت المسيح بن مريم؟ قال عيسى : أنا المسيحُ عيسى بنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وابن أمته . فقال له إبليس : فأنت إله الأرض . قال : بل إله الأرض ربّى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أن تكلّمت فى المهد صبياً . قال : بل العَظَمة للذى أنطقنى فى صغرى . قال : بل فأنت الذى بلغ من عِظَم ربوبيتك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرا . قال عيسى : بل العَظَمة للذى خلقنى وخلق ما سخّر لى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيّتك أنك تَشفِى المرضَى . قال عيسى : بل العظمة للذى بإذنه شَفَيتهم وإن شاء أمرضنى . قال إبليس : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك تُحيي الموتَى . قال عيسى : بل العَظَمة للذى بإذنه أحييهم، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ ويُميتنى . قال : فأنت الذى بلغ من

(١) سورة المائدة آية ٧٢ (٢) سورة البقرة آية ١١٦

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ (٤) العقبة : مرقى صعب من الجبال، أو الطريق فى أعلاها .

عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسَخ فيه . قال : بل العَظَمة للذى ذلّله . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب . قال : بل العظمة لعالم الغيب والشهادة ، لستُ أعلم إلا ما علّمنى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوّنت من غير أب . قال : بل العظمة للذى كوّننى وكوّن آدم وحوّاء من قبلى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتى عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها ، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك ، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق . قال : فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعا وسبّح إعظاما لِما قال إبليس . قال : فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئا حتى وقع بالخافق الأقصى ، ثم نهض بالذى أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلْمة وطريق ، ثم قال لعيسى : لقد غضبتَ غضب إله عظيم ، وقد أخبرتك بأنك إله وما أنت من البشر ، ولو كنت من البشر ما قمتَ(١) ، منذ فارقتك ، أربعين ليلة لم تَطعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرَع(٢) لذلك جسمُك ، وهذا مالا ينبغى لبشر . قال عيسى : إنّ جسدى ليألَم مما يألم منه البشر ، وإنى لأَطعَم وأَشرب وأَنام وأَغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلَع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أنى إله وأنت تعلم أنى هكذا ! . ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته . فضاق عيسى ذَرْعا وسبّح لله تعالى فقال : « سبحان الله عما يقول وبحمده ، ملء سمائه وأرضه ، وعدد خلقه ، ورضا نفسه ، ومبلغ علمه ، ومنتهى كلماته ، وزنة عرشه » . فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها ، فخر

(١) فى الأصل : « ما قمت لى » بزيادة « لى » . وظاهر أنها من زيادات النساخ .
(٢) يضرع : يضعف .

٦٧/١٢ أن تستقلّ به قوة امرأة و يسعه رَحِمها ! ولكنّه إله مع الله وليس بولد لله وليس بالله كما قلتما . قال : فتفرّقوا على ذلك ونطق النـاس بقولهم، فصـار ذلك كلام النصارى . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٣) .

ذكر خبر إبليس حين عارض عيسى عليه السلام وما خاطبـه به وجـوابه

قال وهب : ثم جاء إبليس الى عيسى بن مريم فعارضـه فى عَقَبة(٤) من عقاب الأرض المقـدّسة يقال لهـا عَقَبة فِيْـق : فقال له : أنت المسيح بن مريم؟ قال عيسى : أنا المسيحُ عيسى بنُ مريم رُوح الله وكلمتُه وعبدُ الله وابن أمته . فقال له إبليس : فأنت إله الأرض . قال : بل إله الأرض ربّى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتـك أن تكلّمت فى المهـد صبيّاً . قال : بل العَظَمة للذى أنطقنى فى صغرى . قال : بل فأنت الذى بلغ من عِظَم ربوبيتـك أنك تخلُق من الطين كهيئة الطير فتنفُخ فيه فيكون طيرا . قال عيسى : بل العَظَمة للذى خلقنى وخلق ما سخّر لى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيّتـك أنك تَشفِى المرضَى . قال عيسى : بل العظمة للذى بإذنه شَفَيتهم و إن شاء أمرضنى . قال إبليس : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتـك أنك تُحيي الموتَى . قال عيسى : بل العَظَمة للذى بإذنه أحييهم، ولا بدّ أنه سيُميت من أحييتُ ويُميتنى . قال : فأنت الذى بلغ من

---

(١) سورة المائدة آية ٧٢ (٢) سورة البقرة آية ١١٦

(٣) سورة المائدة آية ٧٣ (٤) العقبة : مرقى صعب من الجبال، أو الطريق فى أعلاها .

عظم رُبوبيّتك أنك تعبرُ البحر فلا تبتلّ قدماك ولا ترسخ فيه . قال : بل العَظَمة للذى ذلّله . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيّتك أنك تعلم الغيب . قال : بل العظمة لعالم الغيب والشهادة ، لستُ أعلم إلا ما علّمنى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم ربوبيتك أنك كُوِّنت من غير أب . قال : بل العظمة للذى كوّننى وكوّن آدم وحوّاء من قبلى . قال : فأنت الذى بلغ من عظم رُبوبيتك أنك سيأتى عليك يوم تعلو فيه الخلائق كلها ، فتكون السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ دونك ، وأنت فوق ذلك كلّه تدبّر الأمر وتَقسِم الأرزاق . قال : فأعظم عيسى قولَه وضاق به ذرعا وسبّح إعظاما لِما قال إبليس . قال : فأتاه جبريل فنفخ إبليسَ نفخة ذهب يلطِم منها على وجهه فلا يملك من نفسه شيئا حتى وقع بالخافق الأقصى ، ثم نهض بالذى أعطاه الله من القوّة فسبق عيسى إلى أسفل العقبة فسدّها وملأ كل ثُلْمة وطريق ، ثم قال لعيسى : لقد غضِبتَ غضب إله عظيم ، وقد أخبرتك بأنك إله وما أنت من البشر ، ولو كنت من البشر ما قمتَ[1] ، منذ فارقتك ، أربعين ليلة لم تَطْعَم ولم تشرب ولم تَنَم ولم يضرَع[2] لذلك جسمُك ، وهذا مالا ينبغى لبشر . قال عيسى : إنّ جسدى ليألَم مما يألم منه البشر ، وإنى لأَطعَم وأَشرب وأَنام وأَغفُل وأفرَح وأحزَن وأجزَع وأهلَع وأحتاج إلى أن أتنظّف بالماء وكيف تزعم أنى إله وأنت تعلم أنى هكذا ! . ولم يزل إبليس لعنه الله يحاوره حتى عرَض عليه أن يأمر الشياطين بعبادته والاعتراف بربوبيته . فضاق عيسى ذَرْعا وسبّح لله تعالى فقال : « سبحان الله عما يقول وبحمده ، ملء سمائه وأرضه ، وعدد خلقه ، ورضا نفسه ، ومبلغ علمه ، ومنتهى كلماته ، وزنة عرشه » . فهبط جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فنفخه ميكائيل نفخة ذهب منها نحو مطلع الشمس حتى صدم عين الشمس عند طلوعها ، فخرّ

(١) فى الأصل : « ما قمت لى » بزيادة « لى » . والظاهر أنها من زيادات النساخ .
(٢) يضرع : يضعف .

حصيدا محترقا ، فأتبعه إسرافيل فنفخه نحو مغرب الشمس فانطلق لا يملك من نفسه شيئا حتى حاذى عيسى فقال : يآبن مريم، لقد لَقِيت منك تعبا . ومرّت به النفخة حتى وقع فى العين الحامية التى تغرب الشمس فيها، فلبث سبعة أيام وسبعَ ليال، متى أراد الخروج منها غطّته الملائكة بأجنحتها ، فما رام عيسى بعد ذلك . والله أعلم .

ذكر خبر عيسى مع اليهود

حين ظفروا به وأرادوا صلبه وقتله ٦٨/١٢

قال وهب : لمّا أوحى الله عز وجل إلى عيسى : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾(١) جَزِع من الموت جَزَعا شديدا وقال للحواريّين : هذا الزمان الذى يَقبِض الله فيه الراعى ثم تُفرِّق الرعيّة من بعده، فعرَفوا أنه يعنى نفسه، فبكَوْا وجزِعوا، فقال : لا تبكوا من حزن الفراق ، فستَرَوْن ما هو أشدّ منه ، ولستُ مفارقكم حتى يظفر بى عدوّى ثم يأسرونى ، فلا تدفعوا عنّى ولا تمنعوا . قال : وطلبه اليهود ليقتلوه فآستخفى منهم، فدلّهم عليه يُوذَا وهو الذى آرتدّ عنه ، فأخذوه من غار جبل بيتَ لَحْمَ وجعلوا على رأسه إكليلا من الشَّوك ليمثّلوا به ، وجعلوا يلطِمونه ويضربونه من خلفه ويقولون له : إن كنت نبيّاً كما تزعم فامنع عن نفسك وآدعُ ربك فليحُلْ بيننا وبينك، وهو لا يكلّمهم حتى طلع الفجر، ونصبوا له خشبة ليصلبوه . فلمّا أرادوا أن يرفعوه عليها أظلم الجوّ ظلمة عظيمة لم تلبس الأرض مثلها ، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبينه وصلبوا مكانه يُوذَا الذى دلّ عليه، وأشرقت الشمس وقلب الله قلوب الناس وأبصارهم فجعلوا ينظرون إلى يُوذَا فى صورة عيسى . قال الله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾(٢). قال : ولمّا رفعوا يُوذَا على الخشبة قال:

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٥ (٢) سورة النساء آية ١٥٧

يا هؤلاء ، إنّى أذكّركم الله فى دمى ، إنّى صاحبكم يُوذَا الذى دللتكم على عيسى . ثم أخبرهم خبر الظلمة وأنّ الملائكة حالوا بينهم و بين عيسى وجعلوه مكانه ، وأخبرهم بعلامات يعرفونها . فلمّا سمعوا ذلك منه زادهم عليه غيظا وحنقا وقالوا : ما أعظَم سحره ! كيف اطّلع بسحره على سرّنا وما كنّا نطويه دُونه ! وقتلوه وهو صاحبهم .

ذكر خبر رفع عيسى عليه السلام أوّل مرة وهبوطه إلى الأرض ووصيّته إلى الحواريّين ورفعه ثانيا

قال : رفع الله تعالى عيسى لثلاث ساعات مضت من النهار، فلبث فى السماء أيّاما ، قيل سبعة أيام ، وقيل أربعين يوما . والله أعلم . ثم قال الله له : إنّ أعداءك اليهود أعجلوك عن الوصيّة والعهد إلى أصحابك ، فانزِل اليهم وآعهَد لهم وأوصهم ، وانزِل على مريم المَجْدَلانيّة[1] فإنها فى غار فى جبل الجليل . وكانت مريم المَجْدَلانيّة من قرية من قرى أنطاكِيَةَ يقال لها مِجْدَل . وكانت من أوسط نساء بنى اسرائيل حَسَبا ، وكانت أجمل نسائهم وأكثرهم مالا ، وكانت تُستحاض فلا تطهُر أبدا وخطبها أشراف بنى إسرائيل وملوكهم وآمتنعت من إجابتهم ، فظنّوا أنّ ذلك ترفّعا منها ، و إنما كان بسبب ما يعرض لها . فلمّا ظهر عيسى عليه السلام وشاع ذكره أتته فى جملة المرضى ليشفيَها ، فخجلت أن تسأله لكثرة الناس حوله ، فجاءت من ورائه فمسّته بيدها فزال عنها ما كانت تشكوه وطهُرت وآمنت بعيسى ، وأنفقت مالها فيما أمرها به من وجوه البرّ ، وصارت فقيرة وتبتّلت وتخلّت للعبادة ، وكانت تُعدّ من أصحاب عيسى .

قال : وأمر الله تعالى عيسى أن يأمرها أن تجمع له الحواريّين ، وأن يستخلف عليهم شِمْعُون ، وأن يُفرّقهم دعاةً إلى الله عز وجل فى البلاد ، وأن يخبرهم بالعلامة التى تأتيهم من الله . ثم أهبطه الله تعالى على مريم فآشتعل الجبل نورا ، وأتته بالحواريّين ، فبلّغهم

(١) كذا فى الأصول والثعلبى . ولعلها نسبة شاذة إلى مجدل . وفى الكتاب المقدّس : "المجدلية" .

رسالة ربهم، وقال : إن آية ذلك أن تأتيكم الملائكة فى ليلتكم هذه بمغارف فيها نور من نور الله، فكلّ مَن تناول مِغْرفةً منها فليلحَسِ النور الذى فيها فإنه يصبح وقد تكلّم بلغة القوم الذين بُعث إليهم ويُصبح وهو على باب مدينتهم . قال : والليلة التى هبط عيسى فيها هى الليلة التى تدخّن فيها النصارى باللُّبّان . قال : فلمّا فرغ عيسى من وصيّته الى الحواريّين رُفع بعد سبعة أيام، وتوفّاه الله تعالى لثلاث ساعات من النهار ، ثم كساه الله الريش وألبسه النور، وقطع عنه المطعم والمشرب وصار مَلَكيًّا إنسيًّا . قال وهب : برز عيسى عليه السلام للناس يوم برز وهو ابن ٦٩/١٢
ثلاثين سنة، ولبث فيهم فى نبوّته وفيما كان الناس يرونه منه من العجائب والآيات ثلاث سنين، ورفعه الله وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . وحكى أبو إسحاق الثعلبىّ عن أهل التاريخ أن الله تعالى أوحى الى عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ورفعه من بيت المقدس ليلة القَدْر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وتسعين سنة . وقد ورد فى الحديث ما يدلّ على أنه رُفع وله مائة وخمس وعشرون سنة . وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى آخر السيرة النبوية على ما تقف إن شاء الله عليه هنالك .

ذكر وفاة مريم بنة عمران عليها السلام

قال الكسائىّ قال كعب : ماتت مريم بنة عمران أمّ عيسى عليهما السلام قبل رفعه ، فدفنها فى مشاريق بيت المقدس . وحكى الثعلبىّ رحمه الله أنها ماتت بعد رفع عيسى عليهما السلام . وقال فى خبره : إنه لمّا صُلب المشبَّه بعيسى جاءت مريم ابنة عمران وآمرأةٌ كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون يبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما : على ما ذا تبكيان ؟ فقالتا عليك . فقال : إن الله تعالى رفعنى فلم يُصبنى إلا خير، وإنّ هذا شىء شُبِّه لهم . ثم قال أيضا فى قصة

وفاة مريم عن وهب : لمّـا أراد الله تعـالى أن يرفع عيسى عليــه السلام آخى بين الحواريّين وأمر رجلين منهما وهما شِمْعُون ويوحنّا أن يلزما أُمّه ولا يفارقانها، فانطلقا ومعهما مريم الى نيرون (١) ملك الروم يدعوانه الى الله عزّ وجل، وقد بعث الله اليه قبل ذلك بُولُس (٢) . فلمّا أتوه أمر بشِمْعُون وبُولُس فقُتِلا وصُلِبا منكَّسَيْن، وهربت مريم ويوحنّا ، حتى اذا كانا فى بعض الطريق لحقهما الطلب، فخافا فانشقت لهما الأرض فغابا فيها ، فأقبل نيرون ملك الروم وأصحابه فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا فردّوا التراب على حاله ، وعلموا أنه أمرٌ من الله عزّ وجل . فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأُخبر به فأسلم . وقد قيل فى إسلامه غير هذا ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل) . وفى الأصول : « بارون » .

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى (ص ٧٣١ من القسم الأوّل) وكما سيذكره المؤلف فى الصفحة التالية . وفى الأصول : « بودس » .

البـاب السادس من القسم الثالث

من الفنّ الخامس فى أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام وما كان من أمرهم مع من أرسلوا اليه وخبر جرجيس

ذكر خبر أخبـار الحواريّين

قال الكسائىّ قال وهب : وأصبح الحواريّون على أبواب المـدائن التى بُعِثوا اليها ، يتكلّم كل رجل منهم بلغة الأمة التى بُعِث اليها . فبَعَث الى أهل رُومِيَـةَ رجلين من الحواريّين ، وبعث إندراوس ولوقا الى أرض الحبشة ، و بعث رجلا الى بابل ، و بعث رجلا الى إفريقيّة ، ورجلا الى أصحاب قرية الكهف ، ورجلا الى بَرْبَرَ ، ورجلين الى أنطاكِيَةَ ، ورجلا الى السِّنْد والهند ، وأقام شمعون مكانه وهو راسهم ، وأمروا أن يستظهروا به فيما يهمّهم .

ذكر خبر يوحنّا وبولس اللذين توجّها إلى إنطاكية

قال الكسائىّ : لمّـا أصبح يُوحنّا و بولُس على باب إنطاكِيَة دخلاها عند فتوح بابها ، ومَلِكُها يومئذ مَخْلنطيس بن مَخْلنطيس[1] ، وكان ظالمـا جبّارا متكبّرا ، فلم يقدِرا ٧٠/١٦
على الوصول اليه ، وما أمكنهما أن يذكرا ما جاءا فيه مخافة أن يُقتَلا قبل أن يبلّغاه رسالة الله تعالى . فكانا كذلك مدّة ، حتى شَخَص الملك من منزله الى مُسْتَنْزَه له فنادياه من بعيد بالإنذار . فلمـا سمع أصواتهما أرسل مَن يسمع مقالتهما فبلّغاه رسالة الله عز وجل ؛ فأمر الملك بجـلد كل منهما مائة جلدة وحَلْقِ رءوسهما حَلْقَ الشمامسة

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٠ من القسم الأوّل) : « انطيخس بن انطيخس » .

ليمثّـل بهما، ثم أمر بهما الى السجن ليخلدا فيــه . فأوحى الله تعـالى الى شِمْعُون بخبرهما وأمره بالانتصار لهما . فخرج حتى بلغ أنطاكِيَة فدخلها، وتلطّف حتى صحِب خواصّ الملك و بطانته وأنِسوا به وذكروه للملك . ثم طرق السجن ليلا، وكان له باب من حديد طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ، وكان اذا فُتِح صرصر حتى يَسْمَع صريره أقصاهم وأدناهم . فأرسل الله تعالى مَلَكا فاقتلع الباب من موضعه فلم يُسمَع له صوت، وألقى الله عز وجل السُّبات على أهل السجن وحرّاسه . فدخله شِمْعُون، واجتمع بيُوحنّا و بولس و بشّرهما عن الله بالثواب والخير وانصرف عنهما ، وردّ الملك باب السجن الى موضـعه . وكان شمعون يدخل مع الملك وأصحابه الى بيوت أصنامهم و يسجد لله و يبكى و يُكثر العبادة وهم لايشكّون أنه يعبد أصنامهم، فأحبّه الملك وقرّبه وسأله عن نسبه ، فأخبره أنه من بنى إسرائيل وأنه بقيّـة قوم انقرضوا، ولم يكن له مَن يأنَس به فاعتمدتكم رغبة فى قُربكم، وحرصا على إخائكم . فقال الملك : قـد قبلنا قولك وسوّدناك علينا ، فأنت أفضلنا وسيّدنا . فلبث فيهم زمنًا يصدرون عن رأيه . فلما تمكّن أمره من الملك قال له : أيها الملك، بلغنى أنك سجنت رجلين كانا قد جاءاك يدعوانك الى غير دينك والى عبـادة إله غير إلٰهك ، و يزعمان أنّ الله أرسلهما إليك ، وعجبتُ كيف اجترأا عليك . فماذا قلتَ لهما وما قالا لك ؟ وهل أجبتهما بمـا كان ينبغى لك من الجواب؟ وهل سألتهما حين عظّما لك ربهما أن يذكرا لك سائرعظمته، أو أحييا لك ميّتا، أو غير ذلك مما تعرف به مصداق قولهما؟ قال الملك : لقد حال الغضب دون ما تقول . قال : فهل لك أن تدعوهما؟ قال نعم . فأحضرهما بين يديه ، فقال لهما شِمْعُون : أخبرانى مَن أرسلكما الى هـذا الملك وقومه؟ قالا : أرسلنا الله الذى هو على كل شيء قدير . فقال شمعون : صِفا لى عظمته . قالا : هى أعظم من أن تُحْصَى . قال : فأخبرانى ماذا يبلُغ من قدرته ؟

قالا : إن شئتَ وصفنا لك ما نُطيق وصفَه، وصِفَتُه أعظم من طاقتنا، وإن شئتَ وصفنا لك ذلك فى كلمتين تكفيان من كلام كثير . قال : نعم، صِفا وأوجزا . قالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . فوضع شمعون يده على رأسه كالمنكر لما قالا، ثم أقبل عليهما وقال : إنى أسألكما أمرا فإن قدَر إلٰهكما عليه آمنّا بكما . قالا : سل . قال : هل يقدر أن يخلق خلقا ونحن ننظر اليه ؟ قالا نعم . قال : اعلما ما تقولان ! قالا : قد علمنا، فمتى شئتَ أريناك . فعندها خلا شمعون بالملك وقال: أيها الملك، إنّ هذين الرجلين ليسا ببعيدين من أن يكون ربهما كما قالا، ولا أظنهما عرّضا أنفسهما للملك لمثل هذا الموقف إلا وعندهما ثقةٌ من إلٰههما . وإنى أخشى أن يدعُوَا ربهما فيخلق خلقا ينظر اليه الناس فيُمْرِض ذلك قلوبهم ويزهدون فى إلٰهك الذى تعبده ويذهبان بالصوب(١) والشرف . فهل لك أن تدعو إلٰهك فيخلق هذا الخلق الذى نريد أن نتمناه عليهما فيكون لك ولإلٰهك شرف هذا اليوم وصَوْبُه ؟ . قال له الملك : ليس دونك سرّ، إنّ هذا الإلٰه الذى نعبُد لا يسمع ولا يُبصِر ولا يضرّ ولا ينفع ولا يُحيِي ولا يُميت . فقال لهما شمعون : اعْرِضا علىّ بعض قدرة إلٰهكما فإن أجابكما وخلَق الشىء على أعيننا ونحن ننظر اليه فقد صَدَقتما والقول قولكما . وٱجتمع الناس لينظروا . فأوحى الله اليهما أن سَلَاه ماذا يريد، فإنى مسخّر لكما ما سألكما . قالا : قد أُوحَى الينا أنه فاعلٌ ما تسألنا، فسلنا . وكان شمعون قد عهد فى المدينة غلاما مطموس الوجه لم يُخْلَق له عينان، فأُتِىَ به فقال : ادعُوَا ربكما أن يخلُق له عينين ونحن ننظر . قالا نعم . فأوقفاه بين أيديهما ودعَوَا الله وأعانهما شمعون سرّا، فأجابهم الله تعالى، فأخذ كل واحد منهما حَثْوَةً من تراب 71/12 وعجنه وجعله كالبندقة، ووضعا البندقتين فى موضع العينين من وجه الغلام فٱنشقّ

(١) الصوب : ضدّ الخطأ، مثل الصواب .

لهما البصر، ثم صارت البندقتان عينين . نخاف الملك، فقال له شمعون : لا تخف إنّ عندى حيلة . قال له الملك : لعلّهما ساحران، أرِنا مالا يكون وما ليس بكائن . قال شِمْعون : ليس هــذا من السحر، ولكنى أخاف أن يأتىَ من إلهما ما يُعجِز حيلتنا . فدعا شِمْعون بغلام مطموس وعمل كما عملا فآنشقّ بصره، كما آنشقّ بصر الأوّل ، ففــرح الملك وأصحابه بذلك . فقال شمعون : إنّمـا صنع ما ترون إله اخترته لنفسى وهو الذى أظهر فُلْجكم[1]، فآسجدوا لهذا الإله الذى أظفركم بعدوّكم لعلّه يُعينكم على ما يكون بعد هــذا . فقال الملك : كيف نسجُد لغير إلهنا ! . قال شمعون : ألم تُخبرنى أنه لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع، فما قُدرته عليك إن سجدتَ لغيره ! قال : صدقتَ . وسجد الملك وسجد قومه لسجوده . ثم قال شمعون ليوحنّا وبولُس : إنّى أسألكما عن أمر، فإن قَدَر عليه إلهكما فالحجّة إذًا لكما والقولُ قولكما . قالا : سَلْ عمّا بدالك . قال : تسألان ربكما أن يُحييَ لنا ميّتا حتى يكلّمنا ويخبرنا ما خبره، ويُعلمنا ما كان فيه وما لقِيَ بعدنا . قالا : نعم، إنّ الذى سألتَ يسيرٌ على الله وهيّن عليه . فوضــع شِمعون يده على رأسه كالمُعْظِم والمنكر لمـا قالا . ثم خلا بالملك وقال : إنك قد رُميتَ بأمر عظيم، وإنى أخاف إن أحيا إلههما الموتى أن يميل الناس اليهما . قال الملك : إنّا نرجو ألّا يأتيا بشىء إلا أتيتَ أنت بمثله . قال شِمْعُون : إنّى لا أغُرّكم، إنّ إلهى لا يُحيي الموتى، ولا أعلم فى الأرض مَن يقدِر على ذلك . قال الملك : فهل تَدعهما يَدعاننا وندعهما، فإن أبيَا قاتلناهما؟ . قال شِمُعون : كيف نقاتل مَن لهما إله يُحيي الموتى ! ولكن أرجو أن أدعو الإله الذى صــنع ما رأيتم فيُعيننا على ما نريد . قال شِمْعُــون : هل يقــدر إلهكما على أن يُحيِيَ الموتى ؟ قالا نعم . قال الملك : إنّ عندنا ميّتـا قد مات منذ سـبعة أيام وهو آبن

(١) الفلج (بالضم) : بمعنى الفوز والظفر .

دِهْقان مدينتنا، فدعا به الملك فأحضر فى نَعْش، وقد تغيّر لونه وأَرْوَح[1]، فقال: دونكما ادعُوَا أن يُحْيِيَه إلٰهكما. فدعوَا الله، فما لبث أن تفتّقت عنه أكفانه وردّ الله إليه رُوحه. فسألوه متى مات وما ذا لقِى. فقال: مُتّ منذ سبعة أيام، ثم عُرِضْتُ على عملى فقُذِفتُ فى سبعة أودية من نار، وذكر ما فى الأودية من العذاب والحيّات وغير ذلك. قال: فلمّا صرت الى الوادى السابع خُفِّف عنّى العذاب. قالوا: فمن أين خُفِّف عنك العذاب؟ قال: أحيانى الله وردّ علىّ رُوحى، فجاءنى شىء مثل الريح فدخل فى رأسى، فلمّا صار فى جسدى حَيِيتُ، ثم قيل لى: انظر فوقك، فشخَصتُ[2] ببصرى وفُتحت أبواب السماء، فنظرتُ فإذا برجل شابّ حَسَنِ الوجه نحيفِ الجسم أبيض يخالطه حمرة متعلّق بالعرش يشفع لهؤلاء الرهط الثلاثة، يعنى عيسى بن مريم. فقال له الملك: أىّ رهط تعنى؟. قال: هذا الشيخ الأجلح[3]، وهذا الكهل الأنزع[4]، وهذا الفتى الرَّجْل[5]. فما زالوا مجتهدين فى الدعاء حتى شُفِّعوا، والشافع لهم مُصغٍ إليهم بأذنه كأنه يسمع ما يقولون ثم يرفعه الى الله فيدعو به. فلما فرغ من كلامه قال: إنّى أحذّركم أيها القوم مثلَ ما كنتُ فيه، فإنه لا إلٰه إلّا إلٰه عيسى بن مريم وشِمْعُونَ وبُولُس ويُوحنّا. قال شِمْعُون: اعتصَمنا بالله وتوكّلنا عليه، ثم أخبر الملك بخبره وخبر أصحابه ودعاهم الى الله، فمنهم من آمن، ومنهم من تولّى. وكان الملك ممن آمن به فى عُصبةٍ يسيرةٍ. وأرسل الله على مَن تولّى منهم صيحة من السماء فإذا هم خامدون.

قال: وكان قد نُعِى الى الدِّهقان ٱبنُه، وكان اسم الدِّهقان حبيبا النجّار، ثم لم يلبث أن جاءته البشارة بحياة ٱبنه، ولم يكن له ولدٌ غيرُه، وأُخبر خبر الحَواريّين،

(١) أروح: أنتن. (٢) شخص بصره و ببصره: رفعه. (٣) الأجلح: الذى انحسر شعره عن جانبى رأسه. (٤) الأنزع: الذى انحسر شعره عن جانبى جبهته. (٥) الرجل (بسكون الجيم): الذى شعر رأسه بين السبوطة والجعودة.

فآمن بهم قبل أن يراهم ، فأقبل مسرعا . فلمّا قصّ عليه ابنه قصّته ازداد إيمانا ويقينا . قال وهب : فيقال — والله أعلم — إنّ هذا هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] الآية . فأوجب الله له بكلامه الجنة ، وخُيّر أن يُعمَّر هو وٱبنه مائة عام أو يعجّل بهما الى الجنة ، فٱختارا الجنة ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾[2] الآية . قال : ولم يزل يجاهد قومه قبل أن تأخذهم الصيحة ٧٢/٢ ويدعوهم الى الله حتى قتلوه ، فقيل له : ادخل الجنة ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[3] .

ذكر خبر تُومَا الحوارىّ مع ملك الهند وإيمانه به

قال الكسائىّ قال وهب : وجاء توما الى أرض الهند والسِّنْد . فبينما هو يتردّد على ساحلهم إذا هو بغلام لملك الهند يقال له حَيّان ، وكان تاجرا . فأتاه تُومَا فقال له : هل لك أن تبتاعنى للملك؟ فقال له حَيّان : مَن أنت أيها الرجل الكريم؟ . قال له تُومَا : إنّى كنتُ عَبْدا مملوكا فأعتقنى سيّدى وأمرنى بالطلب لنفسى ، فلم أصادف من الحرّيّة ما كنتُ أظنّ ، وكان حالى يوم كنتُ عبدا خيرا منه اليوم وأحسن . فقال له حيّان : ما أرى عليك مِيسَمَ العُبوديّة ، وإنى لأرى عليك أثر الخير ، ثم قال له : ما الذى تُحسِن من الأعمال؟ قال : أعمل سائر الأعمال . فٱشتراه بثلاثمائة مثقال من الذهب وٱنطلق به الى الملك . فلمّا رآه أجلّه وعظّمه ، وسأل التاجر عنه فأخبره أنه اشتراه على أن يعمل سائر الأعمال . فقال له الملك : أريد أن تبنى لى

---

(١) سورة يس آية ٢٠ (٢) سورة يس آية ٢٣

(٣) سورة يس آية ٢٧

قصرا لم يُعمَل مثلُه لأحد قطُّ . قال تُومَا : لك ذلك علىّ، ولكن أرضَك حارّة، و إذا بُنِيَ فى زمن الحرّ كان حارّا لا يُسكَن من حرّه ، وكذلك فى زمن البرد يكون باردا ، و إنى لأرى أن يُعمَل فى زمن الاعتدال، فوافقه الملك على رأيه. وعرض للملك غَزَاةٌ فخرج اليها وآستَخلف أخاه على المُلْك، وأمره أن يدفع لتُومَا ما يحتاج اليه من الأموال للنفقة على القصر، فصرف له أموالا كثيرة، ففرّقها توما فى الفقراء والمساكين حتى أغناهم ، ثم مرِض أخو الملك مرضا شديدا وغاب عن حسّه وحركته سبعة أيام . فقدم الملك وهو على تلك الحال ، فلما ردّ الله عليه رُوحه قال الملك لتوما : ما فعلتَ فى القصر ؟ قال : قد فرغتُ منه . فقال الملك لأخيه : ما الذى أعطيتَه من مالى ؟ قال : جميع ما فى بيت مالك . قال : فهل رأيتَ القصر ؟ قال : إنه قبض منى المال ثم اشتكيت فقلت لتوما : أين بنيتَ هذا القصر؟ قال : بنيتُه لك فى السماء . قال : وكيف لى بسُلَّم أنال به السماء؟ قال : تنال السماء بالسُّلَّم الذى نالها به أخوك . فقال له أخوه : اسمع منّى أيها الملك أُخبِرْكَ بالعجَب ؛ فإنك لو تعلم ما أدخل عليك هذا الرجل من الخير وصرف عنك من الشرّ لقبّلتَ قدميه وجعلته فوق رأسك . قال : أخْبِرْنى خبره . قال : أُخبرك أنّ الله عزّ وجل عرّج برُوحى، فعرَضنى على النار فرأيتُ أمرا عظيما مَهُولا ووصفه لأخيه، و وصف له صفة ما يُعَذَّب به أهل الشِّرك بالله وعَبَدة الأوثان . قال : ثم قيل لى : إنّ الله عرضك على النار فأراك ما رأيتَ لتكون لمن خَلْفك نذيرا ، وسيُريك الجنة، لتبشِّر بها قومك ، ولتُخبِر مَن خلفك بما رأيت . قال : فأُدخلتُ الجنة فرأيت كذا وكذا، ووصف الجنة ونعيمها وما فيها . قال : وآنتهيتُ الى قصرعظيم من أعظم قصورها وأبوابُه مُغلقة، فقلت لخزنة الجنة : إنّى أحبّ أن أشاهد باطن هذا القصر فإنّى لم أر مثله . قالوا : إنّ صاحبه الآن فى الدنيا

ومفاتيحه عند ملَك من الملائكة . قلت : فلمن آدُّخِر هذا القصر ؟ قالوا : هــذا لأخيك فلان وهو الآن فى الدنيا ، وعنده رسول من عند الله يقال له تُوما الحَوارىّ من حوارِيّي عيسى بن مريم . فإذا رجعتَ إليه فبشِّره وأخبره أنه القصر الذى بناه له تُوما فى السماء ، وأنفق فيــه بيت ماله . ثم ردّ الله بعد ذلك علىّ رُوحى ، وأنت تعلم يا أخى أنّ لى شَطْر مالك ومُلْكك وخزائنك ، وتعلم ما لى بعد ذلك من الأموال والخزائن ، وأنا أعطيك جميع ذلك على أن تُعطينى قصرك الذى رأيته لك فى الجنة . قال : يا أخى ، ما كنتُ لأُعطيك الباقى بالفانى . ثم أقبل على تُوما وآمن به هو وأهل مملكته ، ولم تزل تلك الأمة على دين عيسى حتى أبادها الموت .

ذكر خبر لُوقَا الحوارىّ مع ملك فارس

٧٣/٢

قال : وأصــبح لُوقا على باب مدينــة من مدائن فارس ، وهى التى يسكنهــا الملك ، فإذا غلمانٌ من أبناء الملوك وأبناءِ الوزراء جلوسٌ على قارعة الطريق يلعبون . فجلس الحوارىّ الى جانب غلام منهــم وسأله كيف يلعب ، فغلب جميــع أولئك . فلمّا تفرّقوا دعاه الغلام الى منزله ، فقال له : اذهَبْ الى أبيك وآستأذِنْه فى ذلك . فآنطلق الغلام الى أبيــه وأخبره بخبر الشيخ ، فأذِن له أن يأتيه به ، فرجع اليه وقال له : إنّ أبى يدعوك ، فأقبل معه . فلمّا ولَجَ باب الدار قال : بآسم الله ، فخرج كل شيطان فى الدار ، وصاحبُ الدار ينظــر الى ذلك ، وكانت الشياطين تَظهر لهم وتُشاركهم فى طعامهم وشرابهم ، فعجِب صاحب الدار من ذلك . وقُدِّم الطعام فأقبلت الشياطين لتأكل على عادتها ، فقال لُوقا : بآسم الله ، فنفَرت الشياطين وفرّت من الدار . فقال الشيخ : قد رأيتُ منك اليوم ما لم أره من أحد ، وإنّ لك لشأنا ، وخلا به وقال : لابدّ أن تُخبرنى خبرك ولا تكتُمنى أمرك . قال : على أن تكتُمه ولا تذكره إلّا أن

آذَنَ لك، قال نعم . فآستوثق منه وأخبره بخبره . ثم قال له لُوقا : أخبرنى أىّ مال الملك أحبّ اليه وأعجب عنده ؟ قال : ما شىء من ماله أحبّ اليه وأعجب عنده من بِرْذَوْن حتى إنه يركبه من سريره . ثم أقام مدّة ، فقُدِّم البِرْذَوْن إلى الملك ليركبه على عادته ، فلما صار الى جانب السرير خرّ ميّتا ، فشقّ ذلك على الملك وآلمه وقال : وَدِدتُ لو فديتُه بمال عظيم ، وحزِن جلساءُ الملك وخواصُّه لحزنه . قال : وجاء الرجل الى لُوقَا وقد حَزِن لحُزْن الملك ، فسأله عن سبب حُزْنه فذكر له قصّة البِرْذَوْن ، فقال له : ارجِعْ الى الملك وقل له : إنى أُحيِيه له إن أطاعنى فيما أقول . فرجع الى الملك وأخبره بذلك ، وقال : إنّ هذا الرجل لمّا عَبَر الى منزلى نفرتْ منه الشياطين ولم تطعَم من طعامنا ، وكانت تأكل معنا قبل ذلك وتشرب كما علمتَ ، وقد قال : إن أطاعنى الملك أحييتُ له بِرْذَوْنه . فقال الملك : إنّ نفسى لتَطيب بكل شىء أُحيِي به هذا البِرْذَوْن ، فعلَىّ بالرجل ، فأحضره إلى الملك . فلمّا دخل الدار لم يبق بها شيطان إلا خرج . ثم جلس لوقا إلى جانب الملك ، فقال له : بلغنى أنك تُحيِي الموتى ، فأَحْيِ لى بِرْذَوْنى هذا . فقال له : إن أطعتنى فيما أقول لك أُحْيِ بِرْذَوْنَك . قال الملك : مُرنى بما شئتَ . قال : أُدْعُ آبنك وآمرأتك ، وكان ابنُه ولىّ عهده وآمرأته منه بمكان ، فدعاهما ، فأخذ لُوقا بقائمة من قوائم البِرْذَوْن ، وكلّ من الملك وآبنه وآمرأته بقائمة ، ثم قال الحوارىّ بالفارسية : «اللهمّ ربَّ السموات والأرض ، خالق السموات والأرض وما فيهما لا إله إلّا أنتَ وحدك لا شريك لك ، أَحيِ هذا العضو الذى فى يدى » فتحرّك ذلك العضو . ثم قال للملك : قل كما قلتُ ، فقال الملك مثل قوله . فتحرّك العضو الذى فى يده . ثم قال لآبنه : قل كما أقول ، فقال فتحرّك العضو الثالث ، ثم قال لآمرأته : قولى كما قلتُ ، فدعت بدعائه ، فتحرّك العضو الذى فى يدها . ثم قال لهم : قولوا جميعا كما أقول ، فقالوا كلهم : « اللهم

ربّ السموات والأرض خالق السموات والأرض وما فيهما لا إلٰه إلّا أنت وحدك لا شريك لك أحْيِ هذا البِرذون» . فقام البِرْذَوْن حيّا ينفُض ناصيته . فعجب الملك والناس من ذلك . وسأله الملك عن خبره فأخبره أنه رسول عيسى بن مريم إليه والى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، فآمنوا به . وقد قيل : إن الذى أُرسل إلى أرض فارس متّى الحوارىّ ، وإنه لمّا دخل على الملك كان الملك سكرانا ، فلمّا أحيا الفرس أمر الملك أصحابه بقتل متّى فقتلوه . فلمّا أفاق الملك من سكره سأل عنه فقيل له : إنك أمرتَ بقتله فقتلناه ، فقال : ما علمتُ بذلك . فقاموا إليه وغسلوه وكفّنوه ودفنوه . ويقال : إنّ الله تعالى بعد دفنه خسف بالملك وأولاده وأهله . والله أعلم . ولنصل أخبار الحواريّين بخبر جرجيس وإن لم يكن منهم، فقد كانت له قصّة عجيبة تلتحق بهم .

٧٤/٢ ذكر خبر جِرْجِيس رحمة الله عليه

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بـ«يواقيت البيان فى قصص القرءان» بإسناده عن وهب بن مُنَبِّه قال : كان بالموصل ملك يقال له داديه[1]، وكان قد ملك الشام كله ودان له أهله ، وكان جبّارا عاتيا، وكان يعبد صنما يقال له أفلون؛ وكان جِرْجِيس عبدا صالحا من أهل فِلَسْطِينَ قد أدرك بقايا من حَوَارِيّى عيسى عليه السلام، وكان تاجرا عظيما كثير المال عظيم الصدقة، وكان لا يأمن ولاية المشركين

---

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٦ من القسم الأول) : « داذانه » وقد أشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « دادايه » و « دازانه » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) « دازانه » وأشار مصححه فى الهامش الى أنه ورد فى بعض النسخ « رازانه » .

عليه مخافة أن يفتنوه عن دينه . فخرج يريد المَوْصِل[1] ومعه مال يريد أن يُهديه إليه حتى لا يجعل لأحد من الملوك عليه سلطانا دُونه . فجاءه حين جاءه وقد بَرَز فى مجلس له وأمر بصنمه أفلون فنُصِب وأوقدَ نارا، فمن لم يسجُد لصنمه أُلْقِيَ فى النار . فلمّا رأى جِرْجِيس ذلك قُطِع به وهاله وأعظمه وحدّث نفسه بجهاده، وألقى الله تعالى فى نفسه بغضه ومجاهدته . فعمَد إلى المال الذى أراد أن يُهديه له فقسمه فى أهل ملّته حتى لم يبقَ منه شيءٌ وكرِه أن يجاهده بالمال . ثم أقبل عليه وقال له : إنك عبد مملوكٌ لا تملك لنفسك شيئا ولا لغيرك، وإنّ فوقك ربًّا هو الذى ملّكك وغيرك، وهو الذى خلقك ورزقك ويُحييك ويُميتك ويضرّك وينفعك، وإنك عمَدتَ الى خَلقٍ من خَلْقه قال له : كن، فكان أصمّ أبكم لا يَنطق ولا يَسمع ولا يُغنى عنك من الله شيئا، فزيّنته بالذهب والفضة فتنةً للناس، ثم عبدته من دون الله. فكان من جواب الملك إيّاه أن سأله عن حاله وأمره ومَن هو ومن أين هو . فأجابه جرجيس : أنا عبد الله وآبنُ عبده وآبنُ أمته أذلّ عباده وأفقرهم إليه، من التراب خُلقت واليه أصير . فقال له الملك : لو كان ربّك الذى تزعُم كما تقول لرُئِى عليك أثرُه كما رُئِى أثرى على مَن حَوْلى وفى طاعتى . فأجابه جِرْجِيس بتحميد الله وتعظيم أمره وقال : أتعدِل أفلون الأصمّ الأبكم الذى لا يُغنى عنك شيئا بربّ العالمين الذى قامت السموات والأرض بأمره ! . أو تَعدِل طَرْقَلينا[2] وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس

(١) الموصل : مدينة بأرض الجزيرة على نهر دجلة على جانبه الغربى، قديمة العهد لا يعلم من بناها . وفى قبالتها على البر الشرقى منها أطلال مدينة نينوى قاعدة ملك آشور، وهى التى أرسل اليها النبى يونس عليه السلام . وكانت قاعدة ملك بنى حمدان، ثم انتقلوا منها الى حلب، ثم كانت قاعدة الدولة الزنكية . (راجع معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلامية للرحوم أمين واصف بك) .

(٢) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأوّل) : «طرقبلينا» . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : «طرقبلينا» . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٤ طبع أوربا) : «طرقلينا» .

بولاية الله تعالى ؛ فإنّ إلياس كان فى بدء أمره آدميّا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق فلم تزل به كرامة الله تعالى حتى أنبت له الريش وألبسه النور فعاد إنسيّا ملكيّا سماويّا أرضيّا يطير مع الملائكة! أم تعدل مَخْلَنْطِيس[1] وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك، بالمسيح بن مريم وما نال بولاية الله تعالى فإنّ الله فضّله على رجال العالمين وجعله [وأمه][2] آية للمعتبرين ! أم تعدل أمر هذه الروح الطيّبة التى اختارها الله لكلمته وسوّدها على إمائه وما نالت بولاية الله تعالى، بأزبيل[3] وما نالت بولايتك فإنها كانت من شِيعتك وعلى ملتّك، فأسلمها الله مع عظم مُلْكها حتى اقتحمت عليها الكلاب فى بيتها فانتهشت لحمها وولغت فى دمها ، وقطّعتِ الضباع أوصالها! .

فقال الملك : إنك لتحدّثنا عن أشياء ليس لنا بها علمٌ، فأتنى بالرجلين اللذين ذكرتَ أمرهما حتى أنظر إليهما، فإنى أنكر أن يكون هذا من البشر . قال له جِرْجِيس : إنما جاءك الإنكار من قِبَل الغِرّة بالله تعالى . وأمّا الرجلان فلن تراهما ولا يريانك إلّا أن تعمل بعملهما فتنزل منازلهما . فقال له الملك : أمّا نحن فقد أعذرنا اليك وتبيّن لنا كذبك لأنك فخرتَ بأمور عجزتَ عنها . ثم خيّره الملك بين العذاب و بين السجود لأفلون .

فقال جِرْجِيس : إن كان أفلون هو الذى رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبتَ، و إلّا فاخسأ أيها النّجِسُ الملعون . فلمّا سمعه الملك غضب وسبّه وسبّ إلٰهه وأمر بخشبة فنُصِبتْ له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدّش بها جسدَه حتى تقطّع لحمه وجلده وعروقه، ونضح خلال ذلك الخلّ والخردل، فحفظه الله تعالى من ذلك الألم والهلاك .

فلما رأى ذلك لم يقتله أمر بستّة مسامير من حديد فأُحميتْ، حتى إذا جُعِلت ناراً سمّر

(١) فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) : « مجليطيس » . وأشار مصححه فى الهامش إلى أنه ورد فى بعض النسخ : « محليطيس » و « محلنطيس » و « محليطبس » . وفى تاريخ ابن الأثير (ج ١ ص ٢٦٥) : « مخليطيس » .

(٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) كذا فى الطبرى (ص ٧٩٨ من القسم الأول) والثعلبى . وفى الأصول : « بأرنبيل » .

بها رأسه حتى سال دماغه، فحفظه الله من الألم والهلاك . فلمّا رأى ذلك لم يقتله أمر بحَوْض من نحاس وأوقـد عليه حتى إذا جعله نارًا أمر به فأُدخل فى جـوفه
٧٥/٢ وأُطبق عليه فلم يزل فيه حتى برد [حرّه][1]. فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله دعا به فقال : يا جرجيس ، أمَا تجد ألَم هـذا العذاب الذى تُعذَّب به ؟ فقـال : إنّ ربّى الذى أخبرتك به حمل عنّى [ألم العذاب][1] وصبّرنى لأحتجّ عليك . فلمّا قال له ذلك أيقن الملك بالشرّ وخافه على نفسه ومُلْكه ، وآجتمع رأيه أن يخلّده فى السجن . فقال له الملأ من قومه : إنك إن تركتَه طليقا فى السجن [يكلّم الناس][1] يوشك أن يميل بهم عليك ، ولكن مُرْ له بعذاب فى السجن يشغله عن كلام الناس . فأمر به فبُطح [فى السجن][1] على وجهه ثم أُوتد [له][1] فى يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد [فى كل ركن منها وتدٌ][1]، ثم أمر بأسطوان من رخام فوُضع على ظهره، وحمل ذلك الأسطوان ثمانية عشر رجلا ، فظلّ يومه [ذلك][1] مُوتَدًا تحت الحجر . فلمّا أدركه الليل أرسل الله تعالى [إليه][1] ملَكا فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد وأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّـا أصبح أخرجه من السجن وقال له : اِلحَـقْ بعدوّك فجاهده فى الله حقّ جهاده ، فإنّ الله يقول لك : أبشر واصـبر فإنّى قد ابتليتك بعدوّك هذا سبع سـنين يعذّبك و يقتلك فيهنّ أربع مرّات ، فى كل ذلك أردّ إليـك رُوحك ، فإذا كانت الرابعـة تقبّلت رُوحك وأَوفيتك أجرك . قال : فلم يشـعُر الملك وأصحـابه إلّا وجِرْجِيس قـد وقف على رءوسهم وهـو يدعوهم إلى الله تعالى . فقال له الملك : يا جِرْجِيس مَن أخرجك من السـجن ؟ قال : أخرجنى الذى سـلطانه فوق سلطانك . فلمّـا قال له ذلك مُلِيء غيظا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخلّف منها شيئا . فلمّا رآها جِرْجِيس أوجس فى نفسه خِيفةً وفزعا منها ، ثم أقبـل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون .

(١) زيادة عن الثعلبى .

فلمّا فرغ من عتابه نفسَه مدّوه بين خشبتين ثم وضعوا سيفا على مَفْرِق رأسه فنشروه حتى سقط من بين رجليه وصار قطعتين ، فعَمدوا إلى أجزائه فقطّعوها قطعا ، وللملك سبعةُ أسود ضارية ، وكانوا صنفا من أصناف عذابه ، فرمَوْا بجسده إليها . فأمرها الله تعالى فخضعت له برءوسها وأعناقها وقامت على براثنها ، فظلّ يوْمه ذلك ميّتا وهى أوّل موتة ماتها . فلمّا أدركه الليل جمع الله جسدَه الذى قطّعوه بعضَه إلى بعض حتى سوّاه ، ثم ردّ الله تعالى اليه رُوحه وأرسل مَلَكا فأخرجه من قَعْر الجُبّ فأطعمه وسقاه و بشّره وعزّاه . فلمّا أصبحوا قال له المَلَك : يا جِرْجِيس ، قال : لبّيك ! قال : اعلم أنّ القدرة التى خلق الله تعالى بها آدم من التراب هى التى أخرجتك من قعر الجُبّ ، الحَقْ بعدوّك وجاهِدْه فى الله حقّ جهاده ومُتْ موتَ الصابرين . فلم يشعُرِ الملك وأصحابُه إلّا وقد أقبل جِرْجِيس وهم فى عيد لهم عُكُوفٌ عليه صنعوه فرحا بموت جِرْجِيس . فلمّا نظروا إليه وقد أقبل قال الملِك : ما أشبهَ هذا بجرجيس ! قالوا : كأنه هو . قال الملك : ما بجِرْجِيس من خفاء إنه لهو ، ألَا ترون الى سكون ريحه وقلّة هيبته . قال جرجيس : أنا هو ، بئس القوم أنتم ! قتلتم ومثّلتم فأحيانى الله بقدرته ، فهلمّوا الى هذا الرب العظيم الذى أراكم ما أراكم . فلما قال لهم ذلك أقبل بعضُهم على بعض وقالوا : ساحرٌ سَحر أعينكم . وجمعوا مَن كان ببلادهم من السَحرة . فلمّا جاءوا قال الملِك لكبيرهم : اِعرض علىّ من كبير سحرك ما يُقِرّ عَيْنى . قال : ادعُ لى بثور من البقر . فلمّا أُتِى به نفَث فى إحدى أذنيه فآنشقّت بآثنتين ، ثم نفَث فى الأخرى فإذا هو ثَوْران ، ثم دعا ببذر فحُرِث وبُذِر ، فشبّ الزرع وآستحصد ، ثم دُرِس وذُرِىَ وطُحِن وعُجِن وخُبِز ، كلّ ذلك فى ساعة واحدة . فقال الملك : هل تقدِر أن تمسَخه لى دابّة؟ قال الساحر : أىّ دابّة أمسخه لك؟ قال : كلبا . قال : ادعُ لى بقَدَح من ماء ،

فلمّا أُتِي بالقدح نفث فيه الساحر ثم قال : اعْزِمْ عليه أن يشربه ، فشربه جِرْجِيس حتى أتى على آخره . فلمّا فرغ منه قال له الساحر : ماذا تجد ؟ قال : ما أجد إلّا خيرا ، قد كنتُ عطِشتُ فلطَف الله بى بهذا الشراب فقوّانى به عليكم . فأقبل الساحر على الملك فقال له : اِعلم أيها الملك إنك لو كنتَ تقاسى رجلا مثلك اذًا لقد كنتَ غلبته ، ولكنك تُقاسى جبّار السموات والأرض . وهو الملك الذى لا يرام .

قال : وكانت امرأةٌ مسكينةٌ من أهل الشام سمعت بجِرْجِيس وما يصنع من الأعاجيب ، فأتته وهو فى أشدّ ما هو فيه من البلاء ، فقالت له : يا جِرْجِيس ، إنّى امرأةٌ مسكينةٌ ولم يكن لى مالٌ إلا ثورا أحْرُث عليه فمات ، فجئتك لترحمنى وتدعو الله تعالى أن يُحيىَ لى ثورى . فذرفت عيناه ، ثم دعا الله تعالى أن يُحيىَ لها ثورها ، ٧٦/٢ وأعطاها عصًا وقال لها : اذهبى الى ثورك فاقرعيه بهذه العصا وقُولِى له : اِحْىَ بإذن الله . فقالت : يا جِرْجِيس ، مات ثورى منذ أيام ومزّقته السباع ، و بينى و بينه أيام . فقال : لو لم تجدى منه إلّا سنّا واحدة ثم قَرَعْتِها بالعصا لقام بإذن الله تعالى . فانطلقت حتى أتت مَصْرَعَ ثورها ، وكان أوّلُ شىء بدا لها أحدَ رَوْقَيه وشعر أذنيه ، فجمعت أحدهما الى الآخر ثم قرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها ، فقام الثور بإذن الله تعالى وعمِلت عليه . قال : فلما قال الساحر للملك ما قال ، قال رجل من أصحاب الملك ، وكان أعظمهم من بعد الملك ، إنكم قد وضعتم أمرَ هذا الرجلِ على السحر ، و إنكم عذّبتموه فلم يصل اليه عذابكم ، وقتلتموه فلم يَمُتْ ، فهل رأيتم ساحراً يدرأ عن نفسه الموت وأحيا ميّتا قط ؟ فقالوا له : إنّ كلامك لكلام رجلٍ قد صغا إليه فلعلّه استهواك . فقال : بل آمنتُ بالله ، واشهدوا أنّى برىء مما تعبدون . فقام اليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه . فلمّا رأى القوم ذلك اتبع جِرْجِيس أربعة آلاف رجل . فعمد اليهم الملك فأوثقهم ، ثم لم يزل يعذّبهم بأنواع العذاب حتى أفناهم . فلمّا

فرغ منهم قال لجرجيس : هلّا دعوتَ ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قُتلوا بجريرتك ! . فقال له جرجيس : ما خُلِّي بينك و بينهم حتى حان لهم . فقال رجل من عظماء أصحابه يقال له مَخْلَنْطِيس : إنك زعمتَ يا جِرْجِيس أن إلٰهك هو الذى يبدأ الخَلْق ثم يُعيده، و إنى سائلك أمرًا إن فعله إلٰهك آمنتُ بك وصدّقتك وكفيتك، إنّ حولنا أربعةَ عشر كرسيّا ومائدة، و بيننا أقداحٌ وصِحَافٌ وهى من أشجار شتّى، فادعُ إلٰهك ينشئ هذه الكراسىّ والأوانى كما بدأها أوّل مرّة حتى تعود خضراء يُعرَف كلّ عود منها بلونه وورقه وزهره . فقال له جِرْجِيس : قد سألتَ أمرا عزيزا علىّ وعليك، و إنه على الله لهيّن، ودعا الله عزّ وجل، فما برِحوا من مكانهم حتى آخضرّت تلك الكراسىّ والأوانى كلها وساخت عروقها وأُلبست اللحاء وتشعّبت فأورقت وأزهرت وأثمرت . فلمّا نظروا الى ذلك انتدب له مَخْلَنْطِيس الذى تمنّى عليه ما تمنّى فقال : أنا أعذّب لكم هذا الساحر عذابا يضِلّ عنه كيدُه . فعمَد الى نحاس فصنع منه صورة ثور أجوف واسعٍ، ثم حشاه نِفطا ورَصاصا وكِبْريتا وزِرْنيخا، ثم أدخل جِرْجِيس مع الحشو فى جوفه، ثم أوقد تحت الصورة حتى آلتهبت وذاب كل شىء فيها وآختلط، ومات جرجيس فى جوفها . فلمّا مات أرسل الله عزّ وجل ريحا عاصفا فملأتِ السماء سحابا أسودَ مظلما، فيه رعد و برق وصواعق، وأرسل الله تبارك وتعالى إعصارا ملأت بلادهم عَجاجا وقتاما حتى آسودّ ما بين السماء والأرض، ومكثوا أياما متحيّرين فى تلك الظُّلمة لا يفصلون بين الليل والنهار، وأرسل الله تعالى ميكائيل فآحتمل الصورة التى فيها جرجيس، حتى اذا أقلّها ضرب بها الأرض ففزِع من روعها أهل الشام أجمعون فخرّوا على وجوههم صَعِقين، وآنكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيّا. فلمّا وقف يكلّمهم انكشفتِ الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت اليهم أنفسهم . فقال له رجل يقال له طَرْقَلينا : لا ندرى

يا جرجيس أأنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربّك! فإن كان ربك هو الذى يصنع هذا فآدعُه يُحْيِ موتانا ؛ فإنّ فى هذه القبور أمواتا منهم مَن يعرف ومنهم مَن لا يعرف . فقال له جِرْجِيس: لقد علمتُ ما يصفح الله عنكم هذا الصفح و يُريكم هذه الأعاجيب إلّا كانت عليكم حجّة، فتستوجبوا غضبه، ثم أمر بالقبور فنُبشتْ وهى عظامٌ رُفَاتٌ وأقبل على الدعاء، فما برحوا من مكانهم حتى نظروا الى سبعة عشر إنسانا : تسعة رهط وخمس نسوة وثلاثة صبية، واذا فيهم شيخ كبير. فقال له جرجيس: يا شيخ، ما آسمك ؟ فقال : يا جرجيس اسمى نُوبِيــل . قال : متى مُتَّ ؟ قال : فى زمان كذا وكذا . فحسبُوا فإذا هو مات منــذ أربعمائة سنة . فلمّــا نظر الملك وأصحابه الى ذلك قالوا : ما بقِى من أصناف العذاب شىءٌ إلّا وقد عذّبتموه به إلّا الجــوع والعطش، فعذِّبوه بهما . فعمَدوا الى بيت عجوز كبيرة ، وكان لهــا آبن أعمى أصمّ أبكم مُقعَــد ، فحصروه فى بيتها ولا يصل اليه من عنــد أحد طعامٌ ولا شرابٌ . فلمّــا بلغ به الجوع قال للعجوز : هل بقِى عنــدك من طعام أو شراب ؟ قالت : لا والذى يُحلَف به ما عهِــدنا الطعام منــذ كذا وكذا ، وسأخرج ألتمس لك شيئا. فقال لها جرجيس : هل تعرفين الله تعالى؟ قالت نعم. قال: فإيّاه تعبُدين؟ قالت لا، فدعاها الى الله عز وجلّ فصدّقته، وانطلقت تطلب له شيئا ، وفى بيتها دِعامة من ٧٧/٢ خشــبة يابسة تحمــل خشب البيت ، فأقبــل على الدعاء ، فاخضرّت تلك الدِّعامة وأنبتت له كل فاكهة تُؤكَل أو تُعرَف، حتى كان فيهــا اللُّوبيا واللُّبان(١) مثل البَرْدِىّ يكون بالشام، وظهر للدِّعامة فروعٌ من فوق البيت أظلّته وما حوله. فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رَغَدا . فلمّا رأتِ الذى حدث فى بيتها من بعدها قالت : آمنتُ بالذى أطعمك، فادعُ هذا الربّ العظيم ليشفى آبنى . قال: أُدنِيه منّى، فأدنته، فبصق

(١) كذا فى الثعلبىّ . وفى الأصول : « وآليا وهو شىء يكون بالشام الخ » .

فى عينيه فأبصر، ونفث فى أذنيه فسمع . قالت له : أطلق لسانه ورجليه رحمك الله . قال : خذيه فإن له يوما عظيما . وخرج الملك يوما ليسير فى مدينته، إذ وقع بصره على الشجرة، فقال : إنى أرى شجرة بمكانٍ ما كنتُ أعرفها به . قالوا : تلك شجرة نبتت لذلك الساحر الذى أردتَ أن تعذبه بالجوع، فهو فيما شاء وقد شبع منها وأشبع العجوز الفقيرة وشفى لها آبنها . فأمر الملك بالبيت فهُدِم و بالشجرة لتُقطَع . فلمّا همّوا بقطعها أيبسها الله تعالى و ردّها كما كانت أوّل مرّة، فتركوها . وأمر بجرجيس فبُطِح على وجهه وأُوتِدَ له أربعةُ أوتاد، وأمر بعجلة وأوقرها أسطوانا وجعل فى أسفل العجلة خناجر وشِفارا، ثم دعا بأربعين ثَوْرا فنهضت بالعجلة نهضةً واحدة وجرجيس تحتها، فآنقطع ثلاثَ قِطَع، فأمر بِقطَعه فأُحرقت بالنار، حتى اذا عادت رَمادا بعث بذلك الرّماد و بعث معه رجالا فذرّوه فى البحر، فلم يبرحوا من مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يا بحر، إنّ الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيّب، فإنّى أريد أن أعيده كما كان . ثم أرسل الله تعالى الريح فأخرجته ثم جمعته حتى صار الرّماد صُبْرةً كهيئته قبل أن يذرّوه، فخرج منه جِرْجيس مغبرّاً ينفُض رأسه، فرجعوا و رجع جِرْجيس، فأخبروا الملك خبر الصوت [الذى سمعوا](1) والريح التى جمعته، فقال : هل لك ياجرجيس فيما هو خيرٌ لى ولك مما نحن فيه؟ ولولا أن يقول الناس إنك قهرتنى وغلبتنى لآتّبعتك وآمنتُ بك، ولكن اسجد لأفلون سجدة واحدة وآذبحْ له شاة واحدة، ثم إنى أفعل مايسرّك . فقال له : نعم، مهما شئت فعلت، فأدخلْنى على صنمك . ففرح الملك بقوله فقام وقبّل يديه ورجليه ورأسه وقال : إنّى أعزِم عليك ألّا تظل هذا اليومَ إلّا عندى، ولا تبيت هذه الليلة إلّا فى بيتى وعلى فراشى، حتى تستريح و يذهب عنك وَصَب العذاب، و يرى الناس كرامتك علىّ،

(1) زيادة عن الثعلبى .

فأُخلى له بيت فظلّ فيــه جرجيس، حتى اذا أدركه الليل قام يصلّى و يقرأ الزّبور، وكان أحسن الناس صوتا . فلمّا سمعت آمرأة الملك آستجابت له، فلم يشعُر إلّا وهى خلفه تبكى معه، فدعاها جِرجيس الى الإيمان فآمنت به، وأمرها فكتمت إيمانها. فلمّا أصبح غدا به الملك الى بيت الأصنام ليسجُد لها. [وقيل للعجوز التى كان سجن فى بيتها : هل علمت أن جرجيس قد فتن بعدك فأصغى الى الدنيا وقد خرج به الملك الى بيت أصنامه ليسجُد لها] (١) فخرجت العجوز تحمل آبنها على عاتقها وتوبّخ جِرْجيس والناس مشغولون عنها . فلمّا دخل جِرْجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظر فإذا العجوز وآبنهــا على عاتقها أقرب الناس اليــه مقاما ؛ فدعا آبن العجوز بآسمه فنطق وأجابه ولم [يكن] (١) يتكلّم قبــل ذلك، ثم آقتحم عن عاتق أمــه يمشى على رجليــه وهما مستويتان وما وطئ على الأرض قبــل ذلك قط . فلمّــا وقف بين يدى جرجيس قال : اذهَبْ فآدعُ لى هــذه الأصنام وهى حينئذ ســبعون صنما على منــابر من ذهب، وهم يعبدون الشمس والقمر معها . فقال له الغــلام : كيف أدعو الأصنام؟ قال : قل لها إن جرجيس يسألك و يعزِم عليك بالذى خلقك إلّا أجبتيه . قال : فلمّــا قال لها الغــلام ذلك أقبلت تَدَحرج الى جِرْجيس، فلمّا آنتهت اليــه ركض الأرض برجله فخَسُف بها و بمنابرها، وخرج إبليس من جوف صنم منها هاربا فَرِقا من الخَسْف، فلمّا مرّ بجرجيس أخذ بناصيته، فخضع له وكلّمه جرجيس فقال له : أخبرنى أيها الرُّوح النّجِسة والخلْق الملعون، ما الذى يحملك على أن تُهلِك نفسَك وتُهلِك الناسَ وأنت تعــلم أنك وجُندك تصيرون الى جهنّم ؟ فقال له إبليس : لو خُيِّرتُ بين ما أشرقت عليه الشمس وأظلم عليه الليل و بين هلكة واحد من بنى آدم وضلالته طَرْفةَ عين لآخترته على ذلك كله، و إنه ليقَــعُ لى من الشهوة واللذّة فى ذلك مثل جميع ما يتلذّذ به جميع الخلائق . ألم تعلم يا جرجيس أنّ الله تعالى

(١) زيادة عن الثعلبى .

أسجُـدَ لأبيك آدم جميـع الملائكة فسجدوا كلّهم وآمتنعتُ أنا من السـجود وقلتُ أنا خير منه ! . فلما قال هذا أخلاه جرجيس . فما دخل إبليس منذ ذلك اليوم ٧٨/٢ جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . [فقال الملك : ياجرجيس خدعتنى وغـدرتنى وأهلكت آلهتى.](١) فقال جرجيس للملك : إنمـا فعلت ذلك لتعتبر ولتعلم أنها لو كانت آلهة لآمتنعت منّى فكيف ثقتك — ويلك — بآلهة لم تمنع أنفسها منّى ! وإنما أنا مخلوق ضعيف لا أملك إلّا ما ملّكنى ربّى . فلمّا قال جرجيس هذا كلّمتهم آمرأة الملك وكشفت لهم إيمانها ، وعدّدت عليهم[أفعالهم](١) أفعال جرجيس والعِبَر التى أراهم الله تعـالى ، وقالت لهم : ما تنتظرون من هذا الرجل إلّا دعوةً فيخسِف الله بكم الأرض كما خسَف بأصنامكم . اللهَ اللهَ أيها القوم فى أنفسكم ! . فقال لها الملك : وَيْحَكِ يا سَكَنْدرة ! ما أسرعَ ما أضلّك هـذا السـاحر فى ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفَر منّى بشىء قطّ ! فقالت : أمَا رأيتَ الله كيف يُظفره بك ويسلّطه عليك فيكون له الفَلْج والحجّة عليك فى كل موطن ! . فأمر بها الملك عند ذلك فحُمِلتْ على خشبة جرجيس التى كان عليها عُلِّق ، وحُملت عليها الأمشاط التى جُعلت على جرجيس . فلمّـا تألّمت قالت : ادعُ ربك يا جرجيس فيخفّف عنّى فإنى قـد آلمنى العذاب . فقال لها : انظرى فوقك . فلمّا نظرتْ ضحِكت . فقال لها : ما الذى يُضحِكك؟ قالت : أرى مَلَكين فوقى معهما تاجٌ من حلىّ الجنة ينتظران به روحى أن تخرج . فلمّا خرجتْ أتيـا بذلك التاج ثم صعِدا بهـا الى الجنـة . قال : فلمّا قبض الله تعالى رُوحها أقبل جِرْجِيس على الدعاء فقال : اللّهمّ أنت أكرمتَنى بهذا البلاء لتُعطِيَنى فضائل الشهداء ، فهذا آخر أيامى التى وعدتَنى فيه الراحة من بلائك ، فإنّى أسألك ألّا تقبضَ رُوحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تُنزِل بهؤلاء القوم من

(١) زيادة عن الثعلبى .

سطوتك ونِقمتك مالا قِبَل لهم به حتى تشفى به صدرى وتُقرّ به عينى؛ فإنهم ظلمونى وعذّبونى . اللّهمّ وأسالك ألّا يدعوَ بعدى داعٍ فى بلاء وكرب فيذكرنى ويُشير بآسمى إلا فرّجتَ عنه ورحِمتَه وأجبتَه وشفّعتنى فيه . فلمّا فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا من السماء . فلمّا رأَوْا ذلك عمدوا اليه وضربوه بالسيوف غيظا عليه من شدّة الحريق ليُعطِيَه الله تعالى بالقتلة الرابعة ما وعده . ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رَمادا ، فحمَلها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها ، فمكثت زمانا يخرج من تحتها دُخَانٌ مُنتنٌ لا يشمّه أحدٌ إلّا سقِم سقما شديدا . وكان مَن آمن بجرجيس وقُتِل معه أربعة وثلاثون ألفا وآمرأة الملك . قالوا : وكان جِرْجِيس فى أيام ملوك الطوائف .

وحيث آنتهى بنا القول فى سرد ما شرحناه من قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وما آتصل بذلك من الأخبار ، فلنذكر الآن التذييل الذى شرحناه فى ترجمة هذا القسم للسبب الذى قدّمناه . وبالله المستعان .

التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

يشتمل على ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم الى الأرض ، وما يكون من الفِتَن والحروب ، وخروج من يخرج ويتغلّب على البلاد ، وخروج المهدىّ والدجّال ونزول عيسى بن مريم وقَتْله الدجّال ، وخروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم ، ووفاة عيسى بن مريم ، وما يكون بعده من أشراط الساعة ويوم القيامة والنفخ فى الصُّور والحَشْر والمعاد . مما أورد إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبوىّ ، ومن كتاب المبتدا للكسائىّ ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبى محمد عبد الحقّ بن عبد الحقّ بن عبدالله الأَزْدىّ الإشبيلىّ على سبيل الآختصار .

البـاب الأوّل

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى بن مريم

ولنبدأ بذكر الملاحم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستُصالحكم الرُّوم ٧٩/٢ صُلحا آمِنًا، ثم تغزُون أنتم وهم عدوّا (١) فتنتصِرُون وتَغنَمُون وتَسلَمون ثم تنصرفون حتى تنزِلوا بمَرْج ذى تلول، فيرفع الرجلُ من أهل الصليبِ الصليبَ فيقول غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيقوم اليه فيدُقُّه، فعند ذلك تغدر الروم ويجتمعون للملحمة فيأتون حينئذ تحت ثمانين غاية (٢) تحت كل غاية اثنا عشر ألفا " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " اذا وقعتِ الملاحمُ بعث الله بَعْثًا من الموالى هم أكرمُ العرب فَرَسًا وأجودُه سلاحًا يؤيّد الله بهم الدِّين " . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الملحمة الكبرى وفتح القُسْطَنْطِينيّة وخروج الدجّال فى سبعة أشهر (٣) " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغارَ الأعيُن ذُلْفَ (٤) الأنوف كأنّ وجوههم المَجَانّ المُطْرَقة (٥) ولا تقوم الساعة حتى تُقاتِلوا قوما نِعالُهم الشَّعر (٦) " . وفى الحديث

(١) أى عدوّا آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذى بينكم وبينهم أو أنتم تغزون عدوّكم وهم يغزون عدوّهم بالانفراد . (٢) الغاية هنا : الراية . (٣) وروى ابن ماجه أيضا فى سننه (ج ٢ ص ٢٧٥) : « بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج الدجال فى السابعة » .

(٤) الذلف (بالتحريك) : قصر الأنف وانبطاحه . وقيل : ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته .

(٥) المجانّ : جمع المجن وهو الترس . والمطرقة : هى التى ألبست طراقا ، أى جلدا يغشاها . شبه وجوههم بالترس لبسطها وتدورها ، وبالمطرقة لغلظها وكثرة لحمها (راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٤) .

(٦) نعالهم الشعر ، أى يتخذون النعال من الشعر . ويحتمل أن يراد أن ذوائبهم لطولها ولوصولها الى أرجلهم كالنعال .

الآخر : " إنّ من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عِراضَ الوجوه كأنّ وجوههم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ. وإنّ من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون الشَّعَر " . وعنه صلى الله عليه وسلم : " لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صِغارَ الأعيُنِ عراض الوجوه كأنّ أعينهم حَدَق الجراد كأنّ وجوهم المَجَانّ المُطْرَقَة ينتعلون الشَّعَر ويتّخذون الدَّرَق يربطُون خيولهم بالنخل[1] " . خرّج هذه الأحاديث ابن ماجه[2] .

ذكر خبر المتغلِّبين على البلاد

وذلك مما يظهر من الفتن قبل نزول عيسى عليه السلام

قال أبو الحسن الكسائيّ عن كعب الأحبار : ولا بدّ أن يحدُث بين يدَىْ نزول عيسى علامات وحروب وفتن ، فأوّل مَن يخرُج ويغلب على البلاد رجلٌ آسمه الأَصْهَبُ من بلاد الجزيرة ، ويخرج الجُرْهُميّ من بلاد الشام ، ويخرج القَحْطانيّ بأرض اليمن ، وهو أمثل هؤلاء الثلاثة شَوْكةً . فبينا هؤلاء الثلاثة في مواضعهم وقد تغلّبوا على أمكنتهم بالظلم والجَوْرَ إذا هم بالرجل السُّفيانيّ قد خرج من غُوطَة دِمَشْق ، وقيل : إنه يخرُج من الشام ، وقيل : إنه يخرُج من الوادى اليابس . وأخواله من كَلْب ، وآسمه مُعاوية بن عَنْبسة ، وهو رَبْعةٌ من الرجال ، دقيق الوجه ، طويل الأنف ، مُخَدَّوِدب ، جَهْوَرِيّ الصوت ، يَكسِر عينه اليمنى ؛ يحسَبُه الذى يراه كأنه أَعْوَر وليس بأَعْور ، يظهر فى أوّل أمره بالزهد ويبذُل الأموال ، ويُخْطَب له على منابر الشام ، ويكون جريئا على سَفْك الدماء لمن خالفه ، ويعطِّل الجمعة والجماعة . وعلامة بدء أمره أنه يخرُج فى كل مدينة دجّال يدعو إلى نفسه ، ويُظهِر الفسق حتى إنهم يفجُرون فى المساجد ، فيخرُج عليهم السُّفيانيّ

(١) النخل : موضع غربى مسجد الأحزاب . وقيل : هو على ثلاثة أميال من المدينة .
(٢) راجع كتاب سنن ابن ماجه (ج ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧١ طبع مصر سنة ١٣١٣ هـ) .

حتى ينزل أرض دمشق ، فيجتمع اليه القوم ويبايعونه ، و يفرّق الأموال الكثيرة بينهم حتى يقولوا هذا خير أهل الأرض . ثم يسير فى الشام وعلى مقدّمته رجلٌ من جُهَينة يقال له ناجية حتى ينزل العراق ، فيُخرِج اليه القَحْطانىّ جيشا كثيرا فيهزمهم ناجية هزيمة قبيحة ، فعند ذلك يُوَجِّه السُّفْيَانىّ ثلاث جيوش : جيش الى الكوفة فيقتُلون قتلا ذريعا ، وجيش الى خراسان فيقتُلون و يحرِّقون ، وجيش الى الروم حتى يكثر القتل منهم فى الدنيا وفى كل طريق . فعند ذلك يجتمع الصالحون على السُّفيانىّ و يخوِّفونه عقوبة الله فى سَفْك الدماء ، فيأمر بقتلهم وقتل العلماء والزُّهّاد فى جميع الآفاق . فعند ذلك يجتمع المسلمون على رجل من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له محمد بن علىّ فيبايعونه و يسمّونه المهدىّ . والله أعلم .

ذكر خبر خروج المهدىّ

قال آبن عبّاس رضى الله عنهما : يُبَايَعُ بين مكة والرُّكن ، و يكون أوّل أمره على عدد ٨٠/١٢
أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا . وقيل : إنه يخرج [قبل هذا ولىّ][(١)] من قرية من قرى حرس[(٢)] فى ثلاثين رجلا ، ثم يجتمع اليه المؤمنون من كل ناحية ، ثم ينكسف القمر ثلاثَ ليالٍ متواليات ، ثم يظهر المهدىّ بمكة ويَشِيع أمره ، فيبلغ ذلك [الزهرانىّ صاحب][(١)] السُّفيانىّ ، فيبعث الى المهدىّ جيشا ثلاثين ألفا فينزلون فى البرّيّة . ثم يخرج السُّفيانىّ الى البيداء ، فإذا آستقرّ بالموضع خسف الله تعالى بهم الأرض ، فيأخذهم الى أعناقهم حتى لا يُفلت منهم إلّا رجلان يخرجان بفرسيهما ، فإذا وصلوا الى القوم رأَوْهم وقد خَسَف الله بهم ، فيخسف الأرض بواحد منهما ، و يحوِّل الله وجه الآخر الى قفاه ، فيبقى كذلك مدّة حياته . ثم يخرُج المهدىّ

(١) التكملة عن الكسائى . (٢) كذا فى الأصول . وفى الكسائى : « مرجوش » .

بمن معه الى بلاد الروم فيسير حتى يسمع بهلاك السُّفيانيّ وأصحابه . قال : وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[1] . فيحمد المهديّ الله تعالى على ذلك ، ويخرج الى بلاد الروم فى نحو مائة ألف فيصل الى القُسْطَنْطِينِيّة ، فيدعو ملكَ الروم الى الإسلام فيأبَى فيقاتله ، ويدوم القتال بينهم شهرين ، ثم ينهزم ملك الروم . ويدخل [المسلمون][2] الى القسطنطينية ، فينزل المهديّ على بابها ، ولها سبعة أسوار ، فيكبِّر سبع تكبيرات فينهدم كلّ سور منها بتكبيرة . ويدخلها المهديّ ويقتُل خلقا كثيرا ويقتُل ملك الروم ، ثم يرفع [عنهم][2] السيفَ ، ويأخذ المسلمون من الغنائم ما لا يُحصَى ، حتى إنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله . فبينما هم كذلك إذ يأتيهم الخبرُ من خليفة المهديّ بخروج الدجّال واجتماع الناس عليه ، فيتركون تلك الغنائم وينصرفون الى بلادهم مسرعين لمحاربة الدجّال . فيقال : إن المهديّ يسير نحو الدجّال وعلى رأسه عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلتقون ويقتتلون قتالا شديدا ، فيُقتَل من أصحاب الدجّال أكثر من ثلاثين ألفا ، ثم ينهزم الدجّال فيمرّ نحو بيت المقدس ، فيأمر الله الأرض بإمساك قوائم خيله ، ويرسل عليهم ريحا حمراءَ فتقتُل منهم أربعين ألفا . قال : ثم يُقبِل المهديّ بجيشه زُهاءَ[3] مائة ألف ، فى أيديهم الراياتُ البيض . فيقول المهديّ [لعسكر الدجّال][2] : ويلكم ! أتشكّون فى هذا الأعور الكذّاب[4] أنه الدجّال ؟ فيقولون : لا ، ولكنّا نعيش فى طعامه . فيُمسَخُون فى الحال قِرَدَةً وخنازير . ثم ينزل عيسى بعد ذلك الى الأرض ويصلِّى خلف المهديّ ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة سبإ آية ١٥ (٢) زيادة عن الكسائىّ .

(٣) فى الأصول : « بجيشه زهاء على مائة ألف ... الخ » بزيادة « على » .

(٤) عبارة الكسائى : « أتشكون فى هذا الأعور الدجال أنه كذاب » .

ذكر خبر خروج الدجّال وصفته

وما يكون من أمره الى أن ينزل عيسى عليه السلام

قال كعب : إنّ الدجّال رجلٌ طويلٌ ، عريضُ الصدر ، مطموسُ العين اليمنى ، واليسرى كأنها كوكبٌ دُرّىّ ، مكتوبٌ بين عينيه : "كافر" ، يقرؤه كل كاتب أو غير كاتب . و يدّعى أنه الربّ ، ومعه يومئذ جبل من خبز ، وجبل من لحم ، وأجناس الفواكه والخمور ، ومعه أصحاب الملاهى يمشون بين يديه بالطبول والطنابير والمعازِف والعيدان والنايات والصُّنوج وغير ذلك ، فلا يسمعه أحد إلا وتبعه وفتنه إلّا مَن عصمه الله . و يكون معه نارٌ وجنّة ، وهو يقول : مَن أطاعنى أدخلته الجنّة ، ومَن عصانى ولم يسجُد لى ألقيته فى النار . قال : وعلامة خروجه أن تهبّ ريحٌ مثل ريح قومِ عاد ، وتُسمَع صيحةٌ عظيمةٌ مثل صيحةِ قومِ صالح ، ويكونَ مَسْخا كَمَسْخ أصحاب الرسّ ، وذلك عند ترك الناسِ الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر . فإذا أخذوا فى سَفْك الدماء وآستحلّوا الرِّبا وشيّدوا البنيان وشربوا الخمور ، وآكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فعند ذلك يخرج الدجال من جهة المشرق من قرية يقال لها سيراباد (١) بين الأهواز وأصفهان ، و يخرج على حمار له . قال : وهو أحمرُ الحاجبين ، أشعرُ الأنف ، تخرُج من خلل أسنانه رائحةٌ لا يَشَمّها أحدٌ إلّا صار اليه نَتْنه ، فى جبهته قرنٌ مكسور تخرج منه الحيّات والعقارب ، مُحْدَوْدِب الظهر ، قد صُوِّرت آلات السلاح (٨١/١٢) فى جسده حتى الرمح والفأس والسهم والدَّرَق . وهو يتناول السحاب بيده ، و يخوض البحار الى كعبيه ، ويستظلّ فى ظلّ أذُنِ حماره خلقٌ كثير من أولاد الزِّنا ، عليهم خِفافٌ مخروطةٌ ، لِخفافهم مناقير كمناقير العِقْبان ، لأصابعهم أظافير كالمناجل ، ومعه قوم

---

(١) فى الكسانىّ : « درسا بار » .

من السَّحَرة يقلِبون الجبال خبزا والأنهارَ شرابا ، ولا يُطعِم ولا يَسقِي إلّا من آمن به . ومعه صاحب لوائه من قريته ينادى بأعلى صوته : هذا ربكم فاعرِفوه . فإذا سار الدجّال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه ، وإذا وقف وقفت . يطوف الأرض شرقَها وغربَها حتى يدخل أرض بابِل فيلقاه الخَضِر ، فيقول له الدجّال : أنا ربّ العالمين . فيقول له الخَضِر : كذبتَ يا دجّال ! إنّ ربّ العالمين ربُّ السموات والأرَضِين . فيقتله الدجّال ويقول : لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه . فيُحيِي الله الخضِر من ساعته فيقوم ويقول : ها أنا يا دجّال ، قد أحيانى الله ربّى . ثم يُقبِل الخَضِر على أصحابه ويقول : ويلكم ! لا يَفْتِننّكم هذا الكافر . ويقال : إنه يقتل الخَضِر ثلاث مرّات ويُحييه الله تعالى . ثم يخرج الدجّال نحو مكة ، فإذا دنا منها رأى الملائكة مُحدِقين[1] بالبيت الحرام قد نشروا أجنحتَهم على الكعبة ، يخرُج من خَلَل أجنحتهم مثلُ شَرَر النِّيران ، فلا يقدر على دخولها . ثم يسير الى المدينة فيجدها كذلك . ثم يمضى الى بيت المَقْدِس فلا يقدر على دخوله لكثرة مَن حوله من الملائكة . واختُلف فى مدّة إقامته فى الأرض ، فقيل أربعين سنة ، وقيل أربعين يوما ، على ما نورد ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ الذى يشمَل ذكر هذه الفتن كلها . قال : وأمّا المسلمون فإنهم يصومون ويصلّون كما كانوا غير أنهم فى غمّ ، قد تركوا المساجد ولزموا البيوت ، وتطلُع الشمس متلوّنة : مرّة بيضاء ، ومرّة صفراء ، ومرّة حمراء ، ومرّة سوداء ، وتكون الأرض فى الزلزلة والرجفة ، ثم يكون بينه وبين المهدىّ ما قدّمنا ، ثم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام .

---

(١) كذا فى الكسائىّ . وفى الأصلين : « ينظر الى الملائكة » .

الباب الثانى من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى خبر نزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجّال

وخروج يأجوج ومأجوج وفسادهم وهلاكهم، ووفاة عيسى عليه السلام

لمّا رأيت أهل السِّيَر قد أكثروا من القول فى نزول عيسى عليه السلام وزادوا فى القول ونقصوا منه، عدلت عن أقوالهم، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث الصحيح النبوىّ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم. وختمتُ هذا الباب بالحديث الشامل فى خروج الدجّال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك. وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السُّنَن للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجه القَزْوِينى، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

ذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر فتنة الدجّال وما يلاقيه الناس منه، قال: "فبينما هم كذلك إذ بعث الله عيسى بنَ مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مَهْرُودَتَيْن[1] واضعُ[2] كفّيه على أجنحة مَلَكَيْن، اذا طأطأ رأسه قَطَر[3]، وإذا رفع رأسه يتحدر منه جُمان كاللؤلؤ، ولا يحلّ لكافر أن يجد ريح نَفَسه إلّا مات. ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفُه، فينطلق حتى يدرك الدجّال فيقتله عند باب لُدّ[4]". قال: "ثم يأتى نبىّ الله عيسى عليه السلام قوما قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم فى الجنة". والله أعلم.

(١) أى بين حلتين شبيهتين بالمصبوغ بالهرد. والهرد (بالضم): عروق يصبغ بها.

(٢) كذا فى سنن ابن ماجه. وفى الترمذى «واضعا» بالنصب وهو الظاهر. على أنه يجوز أن يقرأ هنا بالنصب لأن أهل الحديث كثيرا ما يكتبون المنصوب بصورة المرفوع. أما الرفع فعلى تقدير مبتدأ محذوف.

(٣) قطر: ذهب وأسرع. (٤) لد (بالضم والتشديد): قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين.

٨٢/١٢

ذكر خبر يأجوج ومأجوج

صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ يأجوج ومأجوج ليَحْفِرون السدّ كلّ يوم حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال الذى عليهم ارجِعوا فستحفِرونه غدا فيعيده الله عزّ وجل أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم إلى الناس حفَروا حتى إذا كادوا يَرَوْن شُعاع الشمس قال ارجِعوا فستحفِرونه غدا إن شاء الله واَستثنَوْا فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفِرونه ويخرجون على الأرض فيَنْشَفُون المياه ويتحصّن الناس منهم فى حصونهم فيرمُون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليهم الدم الذى أَجْفط[1] فيقولون قهَرْنا أهلَ الأرض وعلَوْنا أهلَ السماء فيبعث الله عليهم نَغَفا[2] فى أقفائهم فيقتلهم بها" . قال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إنّ دوابّ الأرض لتسمَن وتشكر[3] شكرا من لحومهم ودمائهم" . وفى الحديث الآخر : " إنّ الله تعالى يُوحِى إلى عيسى أنّى قد أخرجتُ عبادًا لى لا يَدَانِ لأحدٍ بقتالهم فاحْرُزْ عبادى إلى الطور . ويبعث الله يأْجُوج ومأْجُوج وهم كما قال الله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيمرّ أوائلهم على بُحَيرة طَبَرِيّة فيشربون ما فيها ثم يمرّ آخرهم فيقولون لقد كان فى هذا ماء مرّةً ولَيُحْصَرُ نبىّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغَب نبىّ الله عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجل فيرسِل الله عليهم النغَف فى رقابهم فيصبِحون فَرْسَى[4] كموت نفس واحدةٍ ويهبط نبىّ الله عيسى وأصحابُه فلا يجدون موضع شِبْرٍ إلّا قد ملأه زَهَمُهم[5] ونَتَنهم ودماؤهم فيرغبون إلى الله عزّ وجل فيرسِل عليهم طيرا كأعناق البُخْت فتحملهم

---

(١) أجفط (بالجيم) : أنتن . (٢) النغف : الدود . (٣) شكرت الدابة شكرا (وزان فرح) : سمنت . (٤) فرسى كقتلى لفظا ومعنى ؛ يقال : فرس الذئب الشاة إذا قتلها . (٥) الزهم (بالضم) : الريح المنتنة .

فتطرحُهم حيث شاء الله عزّ وجل . ثم يُرسِل الله [عليهم][1] مطرا لايَكُنّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وبرٍ فيغسِله حتى يتركه كالزَّلَفَة[2]، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردِّى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمّانة فتُشبعهم و يستظلّون بِقِحْفها[3]، و يبارك الله فى الرِّسْل[4] حتى إن اللّقحة[5] من الإبل تكفِى الفِئَام[6] من الناس، واللّقحة من البقر تكفِى القبيلة، واللقحة من الغَنَم تكفِى الفَخِذ[7] . فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ريحا طيّبة فتأخذ تحت آباطهم فتقبِض رُوحَ كلّ مسلم و يبقَى سائر الناس يتهارَجُون[8] كما يتهارج الحمُر، فعليهم تقوم الساعة " . وفى الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : " لمّا كان ليلةُ أُسْرِىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم لقِىَ إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علمٌ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علمٌ، فردّ الحديث إلى عيسى بن مريم فقال قد عُهِد إلىّ فيما دونَ وَجْبتها[9]، فأمّا وَجْبتها فلا يعلمها إلّا الله، فذكر خروجَ الدجّال قال فأَنْزِلُ فأقتُله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كلّ حَدَب ينسِلون، فلا يمرّون بماء إلّا شرِبوه ولا بشئ إلّا أفسدوه، فيَجْئَرُون إلى الله تعالى فأدعو الله أن يميتهم فتنتِن الأرض من رِيحِهم ، فيجئرون إلى الله فأدعو الله فيُرسِل السماءَ بالماء فيحملهم

(١) زيادة عن سنن ابن ماجه .

(٢) الزلفة (بفتحتين) : الصخرة الملساء ، والصدفة ، والمرآة ، ومصانع الماء .

(٣) بقحفها (بالكسر) : بقشرها تشبيها بقحف الرأس .

(٤) الرسل (بكسر الراء وسكون السين المهملة) : اللبن .

(٥) اللقحة (بالفتح والكسر) : الناقة القريبة العهد بالنتاج .

(٦) الفئام (ككتاب) : الجماعة الكثيرة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

(٧) الفخذ : هو دون القبيلة وفوق البطن .

(٨) يتهارجون : يتسافدون .

(٩) وجبتها : قيامها .

فيُلقيهم فى البحر ثم تُنسَف الجبال وتُمَدّ الأرض مدّ الأديم فعُهِد إلىّ متى كان ذلك كانت الساعة من النـاس كالحامل لا يدرِى أهلُهـا متى تَفْجَأهم بولادتهـا ". قال العـوّام بن حَوْشَب وهو من رواة هـذا الحديث : ووُجِد تصـديق ذلك فى كتاب الله تعـالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ (١) . وفى الحديث الآخر عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " يُفْتَح يأجوجُ ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فيعمُّون الأرض و ينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقيّة المسلمين فى مدائنهم وحصونهم و يضمُّون إليهم مواشِيَهم، حتى إنهم ليمرّون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئا، فيمرّ آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم لقد كان بهذا المكان مرّةً ماء . و يَظْهَرون على الأرض، فيقول قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولَنُنازِلَنّ أهلَ السماءِ، حتى إنّ أحدهم لَيهزّ حَرْبته إلى السماء فترجع مخضَّبةً بالدم، فيقولون قد قتلنا أهل السماء . فبينما هم كذلك إذ بعث الله دوابّ كنغَف الجراد فتأخذ ٨٣/١٢
بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حِسّا، فيقولون مَن رجُلٌ يَشْرِى نفسه و ينظر ما فعلوا، فينزِل منهم رجُلٌ قد وطّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتَى، فيناديهم ألَا أَبْشِروا فقد هلك عدوّكم، فيخرج الناس ويُخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رِعْىٌ إلّا لحومهم فتَشـكَر عليها كأحسن ماشَكِرتْ من نبـاتٍ أصابته قطّ " . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيُوقِد المسلمون من قِسِىّ يأجوج ومأجوج ونُشّابهم وأَتْرِستهم سبعَ سنين " . والله المعيـن .

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٦ وما بعدها .

الحديث الجامع لأخبار عيسى بن مريم عليه السلام والدجّال

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القَزْوِينى فى سُنَنه :
حدّثنا علىّ بن محمد قال حدّثنا عبد الرحمن المُحارِبىّ عن إسماعيل بن رافع أبى رافع عن أبى زُرْعة السَّيبانىّ(١) يحيى بن أبى عمرو عن أبى أُمامة الباهلىّ قال : خَطَبنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثا حدَّثَناه عن الدجّال وحذَّرَناه، فكان من قوله أن قال: "إنه لم تكن فتنةٌ فى الأرض مُنذ ذرأ(٢) الله ذرّية آدم صلى الله عليه وسلم أعظم من فتنة الدجّال، و إنّ الله عزّوجل لم يبعث نبيّا إلّا حذّر أمّته الدجّال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم، وهو خارجٌ فيكم لا محالةَ. فإن يخرُج وأنا بين ظَهْرانَيْكم فأنا حَجِيجٌ لكلّ مسلم، وإن يخرُج من بعدى فكلّ امرئ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم. وإنه يخرُج من خلّة بين الشام والعراق فيَعيث(٣) يمينا و يَعيث شمالا ياعباد الله فأثبتوا فإنّى سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبىّ قبلى: إنه يبدأ فيقول أنا نبىّ، ولا نبىّ بعدى، ثم يثنّى فيقول أنا ربكم، ولا ترَوْن ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور وإنّ ربكم عز وجل ليس بأعور، وإنه مكتوبٌ بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب أوغير كاتب. وإنّ من فتنته أنّ معه جنةً ونارا، فناره جنةٌ، وجنته نارٌ. فمن ابتُلِى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بَرْدا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم. وإنّ من فتنته أن يقول لأعرابىّ أرأيتَ إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنّى ربّك فيقول نعم، فيتمثّل له شيطانان فى صورة أبيه وأمّه فيقولان يابنىّ اتبعه فإنه ربك. وإنّ من فتنته أن يسلَّط على نفس واحدةٍ فيقتلها وينشُرها بالمنشار حتى تُلقَى شِقّين، ثم يقول

---

(١) السيبانى (بفتح السين المهملة) : نسبة الى سيبان، بطن من حمير. وفى الأصول : «الشيبانى» بالشين المعجمة وهو تحريف. (٢) ذرأ : خلق.
(٣) يعيث : يفسد.

انظروا الى عبدى هذا فإنّى أبعثه الآن، ثم يزعم أنّ له ربّاً غيرى، فيبعثه الله و يقول له الخبيثُ مَن ربك؟ فيقول ربى الله وأنتَ عدوّ الله أنتَ الدجّال، والله ما كنتُ بعدُ أشدّ بصيرةً بك منّى اليوم ". قال أبو الحسن الطَّنافِسِيّ فحدثنا المُحَارِبِيّ حدّثنا عُبَيدالله ابن الوليد الوَصّافِيّ عن عطيّة عن أبى سَعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك الرجلُ أرفعُ أمّتى درجةً فى الجنة ". قال قال أبو سَعيد : والله ما كنّا نرى ذلك الرجل إلّا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله. قال المُحارِبِيّ ثم رجعنا الى حديث أبى رافع قال : " وإنّ من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر، و يأمرَ الأرض أن تُنبِت فتُنبِت. وإنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيكذّبونه فلا تَبقَى لهم سائمةٌ إلّا هلكت. و إنّ من فتنته أن يمرّ بالحىّ فيصدّقونه فيأمر السماء أن تُمطِر فتُمطِر و يأمر الأرض أن تُنبِت فتُنبِت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمَن ما كانت وأعظَمَه وأمدّه خواصرَ وأَدَرّه ضروعا. وإنه لا يَبقَى شىءٌ من الأرض إلّا وطِئه وظهر عليه إلّا مكّة والمدينة لا يأتيهما من نَقْبٍ[1] من نقابهما إلّا لَقِيَتْه الملائكة بالسيوف صَلْتةً[2] حتى ينزِل عند الظَّرِيب[3] الأحمر عند مُنْقَطَع السَّبَخة فترجُف المدينة بأهلها ثلاثَ رَجَفات فلا يبقَى منافق ولا مُنافقة إلّا خرج اليه، فتنفى الخَبَث منها كما ينفِى الكِيرُ خَبَثَ الحديد، ويُدعَى ذلك اليوم يومَ الخلاص. فقالت أمّ شَرِيك بنت أبى العَكَر[4] يارسول الله فأين العرب يومئذ؟ ٨٤/١٢ قال هم يومئذ قليلٌ وجلّهم ببيت المقدس و إمامهم رجلٌ صالح. فبينما إمامهم قد تقدّم يصلّى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام الصبحَ، فرجع ذلك

---

(١) النقب (بفتح فسكون) : الطريق بين الجبلين. (٢) صلتة، أى مجردة؛ يقال : أصلت السيف إذا جرّده من غمده. (٣) الظريب لعل المراد به الجبل. (٤) كذا فى الأصول وكتاب سنن ابن ماجه الذى ينقل عنه المؤلف، وهو خطأ. والصواب أن أم شريك هذه هى بنت دودان ابن عمرو بن عامر ابن رواحة الدوسية. وكانت تحت أبى العكر الدوسىّ واسمها غزية، و يقال غزيلة. من المهاجرات. (راجع أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٥٩٤ وتهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٧٢).

الإمام ينكص (يمشى القهقرى) ليتقدّم عيسى عليه السلام يصلّى بالناس، فيضع عليه السلام يديه بين كتفيه ثم يقول له تقدّم فصلِّ فإنها لك أُقيمت فيصلِّى بهم إمامهم، فإذا آنصرف قال عيسى عليه السلام افتحوا الباب[١] فيُفتَح و وراءه الدجّال ومعه سبعون ألف يهودىّ كلهم ذو سيف محلًّى وساج[٢]، فإذا نظر اليه الدجّال ذاب كما يذوب المِلح فى الماء فينطلق هاربا، و يقول عيسى عليه السلام إنّ لى فيك ضربةً لن تسبقنى بها فيدركُه عند باب اللُّدّ الشرقىّ فيقتله فيهزِم الله اليهود فلا يبقَ شىء مما خلق الله عزّ وجل يتوارى به يهودىّ إلا أنطق الله ذلك الشىء لا حجرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابّةٌ إلّا الغَرْقدة[٣] فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال ياعبد الله المسلم هذا يهودىّ فتعالَ اقتُله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم و إنّ أيامه أربعون سنةً، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشَرَرَة يُصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلُغ بابَها الآخر حتى يُمسِى . فقيل له يارسول الله كيف نُصَلِّى فى تلك الأيام القِصَار؟ قال تقدّرون فيها الصلاة كما تقدّرونها فى هذه الأيام الطِّوال ثم صلّوا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون عيسى بن مريم فى أمّتى حَكَمًا[٤] عَدْلا و إماما مُقْسِطا[٥]، يدُقّ الصليب[٦]، و يذبح الخنزير[٧]، و يضع الجزْية[٨]، و يترك الصدقة[٩] فلا يُسعَى على

(١) الباب، أى باب المسجد . (٢) الساج : الطيلسان الأخضر .

(٣) الغرقدة : ضرب من شجر العضاه . (٤) حكما، أى حاكما بين الناس بشريعة النبىّ صلى الله عليه وسلم لا نبيا مرسلا بشريعة أخرى . (٥) مقسطا، أى عادلا فى الحكم .

(٦) يدق الصليب، أى يكسره بحيث لا يبق من جنس الصليب شىء حتى لا يعبد إلا الله تعالى .

(٧) و يذبح الخنزير، أى يحرم أكله أو يقتله بحيث لا يوجد فى الأرض ليأكله أحد .

(٨) و يضع الجزية، أى لا يقبلها من أحد من الكفرة بل يدعوهم الى الاسلام مرّة وهذا بيان منه صلى الله عليه وسلم بأن الجزية فى دينه الى زمان عيسى لا أن عيسى يأتى بنسخها .

(٩) و يترك الصدقة، أى الزكاة لكثرة الأموال .

شاة ولا بعير، وتُرفَع الشحناء والتباغُض، وتُنزَع حُمَة[1] كلّ ذاتِ حُمَة حتّى يُدخِل الوليد يده فى الحيّة فلا تضرّه، وتفُرّ[2] الوليدةُ الأسدَ فلا يضرّها، و يكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها، وتُملأ الأرضُ من السِّلْمِ كما يُملأ الإناء من المـاء، وتكون الكلمة واحدة فلا يُعبَد إلا الله، وتَضَع الحرب أوزارها، وتُسلَب قريشٌ مُلْكَها، وتكون الأرض كاثور[3] الفضّة — وقيل كفاثور الفضة — تُنْبِت نباتَها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطْف من العِنب فيُشبِعُهم، ويجتمع النفر على الرمّانة فتُشبِعُهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المـال، و يكون الفرس بالدُّرَيهمات. قالوا يا رسول الله: وما يُرخِّص الفرس؟ قال: لا يُركَب لحرب أبدا. قيل له: فما يُغلي الثور؟ قال تُحْرَثُ الأرض كلُّها. وإنّ قبلَ خروج الدّجال ثلاثَ سنوات شِدَاد يصيب الناس فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تَحبِس ثُلث مطرها و يأمر الأرض فتَحبِس ثُلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتَحبِس ثُلثَيْ مطرها و يأمر الأرض فتحبِس ثُلُثَيْ نباتها، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثالثة فتَحبِس مطرها كلّه فلا تقطُر قطرة و يأمر الأرض فتَحبِس نباتها كلّه فلا تُنبت خَضِرًا، ولا تبقَى ذاتُ ظِلْف إلّا هلكت إلّا ما شاء الله عزّ وجل. قيل: فما يُعيشُ الناسَ فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد و يجرى ذلك عليهم مَجرى الطعام". قال المُحارِبىّ: ينبغى أن يُدْفَع هــذا الحديث إلى المؤدّب حتى يعلّمه الصبيان فى المكاتب.

---

(١) الحمة: السم أو الابرة التى يضرب بها الزنبور والحية ونحو ذلك أو يلدغ بها.

(٢) تفر أى تفتح فاه.

(٣) لم نجد كلمة «فاثور» فى كتب اللغة، على أن هذه الكلمة ليست فى سنن ابن ماجه. والفاثور: الخوان من رخام، أو طست أو جام من ذهب أو فضة.

الباب الثالث من التذييل

على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم عليه السلام الى أن ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الأولى

ذكر خروج الدابّة وطلوع الشمس من مغربها

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” تخرُج الدابّة ومعها خاتَمُ سليمان بن داود وعصا موسى بن عِمْران، فتجلو[1] وجه المؤمن بالعصا، وتَخْطِم[2] أنفَ الكافر بالخاتَم، حتى إنّ أهل الِحواء[3] ليجتمعون فيقول هـذا يا مؤمن و يقول هذا يا كافر “ . وعن عبـد الله بن بُرَيدةَ عن أبيـه رضى الله عنهما قال : ٨٥/١٢ ذهب بى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرضٌ يابسةٌ حولهـا رملٌ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : ” تخرج الدابّة من هذا الموضع “ فإذا فتْرٌ فى شِبرٍ . قال ابن بُرَيدة : فحججتُ بعد ذلك بسنين فأرانا عَصًا له، فاذا هى بعصاى هـذه كذا وكذا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” لا تقوم الساعةُ حتى تطلُع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن مَن عليها؛ فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل “ . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أوّلُ الايات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابّة على الناس ضُحًى “ . قال عبد الله : فأيّتهما ما خرجت قبل الأخرى فالأخرى

---

(١) تجلو وجه المؤمن أى تنوره . (٢) تخطم أى تسمه بها، من خطمت البعير اذا كويته خطا من الأنف الى أحد خديه . (٣) الحواء (بكسر الحاء المهملة والمد) : بيوت مجتمعة من الناس على ماء .

منها قريبٌ . قال عبد الله : ولا أظنها إلّا طلوع الشمس من مغربها . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابا مفتوحا عَرْضُه سبعون سنة ، فلا يزال ذلك الباب مفتوحا للتوبة حتى تطلُعَ الشمس من نحوه ، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا " . والله الهادى للصواب .

ذكر خبر قيام الساعة والنفخة الأولى

عن أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما زال صاحبُ الصُّور مذ وُكِّل به مُستعدّا ينظر نحو العَرْش الى أن يُؤمَرَ فينفُخ قبل أن يرتدّ اليه طَرْفه كأنّ عينَيْه كوكبان دُرِّيّان " . وسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الصُّور؟ فقال: "قَرْنٌ يُنفَخ فيه". وعنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾ قال: "الصور كهيئة القَرْن". وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لاتقوم الساعةُ حتى تقتتلَ فئتانِ عظيمتانِ تكون بينهما مَقْتَلةٌ عظيمةٌ دَعْوتُهما واحدةٌ، وحتّى يُبعَثَ دجّالون كذّابون قريبٌ مِن ثلاثين كلّهم يزعُم أنه رسول الله، وحتّى يُقبَضَ العلمُ وتكثُرَ الزلازلُ ويتقارَبَ الزمانُ وتَظهرَ الفِتَنُ ويكثُرَ الهَرْجُ، وهو القتل، وحتّى يكثُرَ فيكم المالُ فيَفِيضَ حتّى يُهِمَّ ربَّ المال مَن يَقبلُ صدقتَه ، وحتّى يَعرِضَه فيقولَ الذى يَعرِضُه عليه لا أَرَبَ لى به ، وحتّى يتطاوَلَ الناسُ فى البُنيان ، وحتى يمُرّ الرجُلُ بقبر الرجُلِ فيقول يا ليتنى مكانَه ، وحتّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنَتْ من قبلُ أو كسَبَتْ فى إيمانها خيرا . ولَتقُومَنّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجُلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يَطْوِيانه . ولَتقُومَنّ

الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلَبَن لِقْحَتِــه فلا يَطْعَمُه، وَلَتَقُومَنّ السّاعةُ وهــو يَلِيطُ(١) حَوْضَه فلا يَسْقِي فِيه. وَلَتَقُومَنّ الساعةُ وقد رَفَع أُكْلَتَه الى فِيــه فلا يَطعَمُها ". هذا من صحيح البخارى.(٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكر خبر الدجّال وقتله قال: "...... ثم يمكُث الناسُ سَبْعَ سِنِينَ ليس بين اثنين عداوةٌ.(٣) ثم يرسل الله عز وجل ريحـا باردةً من قِبَل الشأم فلا يَبقَى على وجه الأرضِ أحدٌ فى قلبــه مثقالُ ذرّة من خير أو إيمــان إلا قَبَضَتْه، حتّى لو أنّ أحدَكم دخل فى كَبِد جَبَلٍ لَدَخلتْه عليه حتى تَقبِضَه. قال فيبقَى شرارُ الناسِ فى خِفّــةِ الطيرِ وأحلامِ السِّــباعِ(٤) لا يعرفون معروفا ولا يُنكرون مُنكَرًا، فيتمثّلُ لهم الشيطانُ فيقولُ أَلَا تستجيبون! فيقولون فما تأمُرُنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دارٌّ(٥) رزقُهُم حَسَنٌ عيشُهُم، ثم يُنفَخُ فى الصُّور فلا يَسمُعه أحدٌ إلّا أصغَى لِيتًا ورَفَعَ لِيتًا(٦). قال وأوّلُ مَن يسمعُه رجلٌ يَلُوطُ حَوْض إبِلِه، قال فيَصعَقُ ويَصعَقُ الناسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ — أو قال يُنزِلُ اللهُ — مطرًا كأنه الطَّلّ أو الظِّلّ — الشكّ من الراوى — فتَنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثم يُنفَخُ فيــه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، ثم يقال يأيُّها الناسُ هَلُمُّوا الى ربّكم". ويروى أن هذا المطر الذى تنبت منه الأجساد كمَنِيّ الرجال.

---

(١) يليط حوضه: يطينه ويصلحه. يقال: لاط حوضه يلوطه ويليطه.

(٢) راجع (ج ٨ ص ٩٥ طبع بلاق سنة ١٢٩٦ هـ).

(٣) راجع صحيح مسلم (ج ٨ ص ٢٠١ طبع الاستانة).

(٤) خفة الطير وأحلام السباع، أى يكونون فى سرعتهم الى الشر وقضاء الشهوات والفساد.

(٥) دارّ رزقهم، أى كثير.

(٦) الليت (بكسر اللام): صفحة العنق وهى جانبه.

٨٦/١٢

الباب الرابع

من التذييل على القسم الثالث من الفنّ الخامس

فى أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية فى الصور

ذكر يوم القيامة وأسمائه

هو اليوم الذى وصفه الله عزّ وجلّ بالعظمة فقال : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(١) . ووصفه الله بالطُّول فقال : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾(٢) .

وليوم القيامة أسماءٌ جاء بها القرآن ، وقد ذكرها عبد الحقّ فى كتاب العاقبة فقال : "يوم القيامة وماأدراك ما يوم القيامة ! يوم الحَسْرة والندامة ، يوم يجد كلّ عامل عمله أمامه ، يوم الدمدمة ، يوم الزلزلة ، يوم الصاعقة ، يوم الواقعة ، يوم الراجفة ، يوم الرادفة ، يوم الغاشية ، يوم الداهية ، يوم الآزفة ، يوم الحاقّة ، يوم الطامّة ، يوم الصاخّة ، يوم التَّلاقِ ، يوم الفراق ، يوم الميثاق ، يوم الآنشقاق ، يوم القِصاص ، يوم لات حين مناص ، يوم التَّنادِ ، يوم الأشهاد ، يوم الميعاد ، يوم المآب ، يوم العذاب ، يوم الفِرار ، يوم القَرار ، يوم المِرْصاد ، يوم السائلة ، يوم المناقشة ، يوم الحساب ، يوم القضاء ، يوم الجزاء ، يوم البكاء ، يوم البلاء ، يوم تَمُور السماء مَوْرًا وتسير الجبال سيرا ، يوم الحشر ، يوم النشر ، يوم الجمع ، يوم البَعْث ، يوم العَرْض ،

---

(١) سورة الحج آيتى ١ ، ٢ (٢) سورة المعارج آيتى ٤ ، ٥

يوم الوَزْن ، يوم الحق ، يوم الحُكْم ، يوم الفصل، يوم الخزى ، يومٌ عقيمٌ ، يومٌ عظيمٌ ، يومٌ عَسِير، يومٌ عَبُوس ، يومٌ قمطرير، يوم النشور، يوم المصير، يوم الدِّين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم الصَّيْحة، يوم الرَّجْفة، يوم الرجّة، يوم الزجرة، يوم الشدّة، يوم الفَزَع، يوم الجَزَع، يوم القَلَق، يوم العَرَق، يوم الميقات، يوم تخرج الأموات وتظهر المخبآت، يوم الإشفاق ، يوم الانشقاق، يوم الانكدار ، يوم الانتشار ، يوم الانفطار ، يوم الافتقار ، يوم الوقوف ، يوم الانصداع ، يوم الانقطاع ، يومٌ معلوم، يومٌ موعود، يومٌ مشهود ، يوم تُبلَى السرائر، يوم تُخْرَج الضمائر ، يوم لا تَجْزِى نفسٌ عن نفس شيئا، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئا ، يوم يُدْعَى فيه إلى النار ، يوم تُسْجَر فيه النار[(١)] ، يوم تُقَلَّبُ فيه الوجوه فى النار ، يوم البروز فيه إلى الله، يوم الصُّدور إلى الله، يوم لا تنفع المعذرة ، يوم لا يرضى إلّا المغفرة . قال : وأهول أسمائه وأشنع ألقابه : يوم الخلود، يومٌ لا انقطاعَ لعذابه، ولا آخرَ لعقابه، ولا يكشف عن كافر ما به . نعوذ بالله من غضبه و بلائه، برحمته وآلائه . والله معين العاجزين .

ذكر الحشر والمعاد والنفخة الثانية

جاء فى بعض التفاسير فى قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ[(٢)]﴾ قيل : جبريل وميكائيل و إسرافيل وملك الموت . قال : ثم يأمر الله ملك الموت أن يقبض رُوح جبريل وميكائيل و إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت أن يموت فيموت ولا يبقى إلا الله ، فينادى جلّ جلاله : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ[(٣)]﴾ فلا يجيبه أحد، فيقول : ﴿لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

(١) تسجر : توقد . (٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة غافر آية ١٦

٨٧/١٢ ثم يمكث الناس فى البَرْزَخ(١) أربعين عاما، ثم يحيى الله عز وجل إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية؛ قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(٤). رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يأكل الترابُ كلّ شيء من الإنسان إلّا عَجْبَ الذَّنَب"(٥). قيل: يا رسول الله، وما هو؟ قيل: "مثل حبّة خَرْدَل ومنه ينشأ". وفى الحديث الآخر: "ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبُتون كما ينبُت البقل". وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله وعزتى وجلالى لَيرجعنّ كُلُّ رُوح إلى جسده، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجسام، فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى مَشْىَ السمّ فى اللّدِيغ". قال: "وتجتمع الأرواح كلها فى الصُّور، ثم ينفخ إسرافيل فيه فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأتْ ما بين السماء والأرض، ثم تدخل فى الأجساد" كما تقدّم. وفى الحديث الصحيح أنّ عائشة رضى الله عنها قالت: يا رسول الله، كيف يُحشر الناس يوم القيامة؟ قال: "حُفَاةً عُرَاةً". قالت: يا رسول الله، والنساء؟ قال: "والنساء". قالت: يا رسول الله، فما نستحيى؟ قال: "يا عائشة الأمر أهمّ من أن ينظُر بعضُهم الى بعض". وعن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُعْرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتان فجِدالٌ ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى، فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله". وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله

(١) البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت الى القيامة.

(٢) سورة الزمر آية ٦٨ (٣) سورة طه آية ٥٥ (٤) سورة الروم آية ٢٧

(٥) العجب (بفتح العين وإسكان الجيم): العظم الذى فى أسفل الصلب وهو رأس العصعص.

صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[١] قال : "يقوم أحدهم فى رَشَحه[٢] الى أنصاف أُذُنيه وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[٣]". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله الأوّلين والآخِرين فى صعيدٍ واحد فيُسْمِعُهم الداعى ويَنْفُذهم البصر" يريد أرضا مستويةً لاجبلَ فيها ولا أَكَمَة ولا رَبْوة ولا وَهْدَة ، أرضٌ بيضاء لم يُسْفَك عليها دمٌ قطّ ، ولا عُمِل عليها خطيئةٌ ولا ٱرتُكِب فيها محرَّمٌ . قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[٤] . وفى حديث ثَوْبان : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سُئل أين يكون الناس يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسّمٰوات ؟ فقال : " هم فى الظُّلمة دون الجِسر " والجسر هو الصراط . وفى حديث عائشة " إنهم على الصراط " . قال الله عزّ وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾[٥] . وقال تعالى : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[٦] أى يقول بعضهم لبعض سرّا ، فيقول أعدلهم قولا وأرجحهم عقلا : إن لبثتم إلا يوما . قال الله عزّ وجل : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾[٧] . ورُوى عن مجاهد أنه قال : للكفّار هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا بُعِثوا قالوا : ياويلَنا مَنْ بَعَثنا من مَرْقَدِنا ! فتخرج الخلائق مذعورين خائفين وَجِلين ، و إذا المنادى ينادى : ﴿ يَا عِبَادِى لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[٨] ، فيطمع فى ذلك النداء المؤمنون والكافرون ، فينادى المنادى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سورة المطففين آية ٦ — (٢) الرشح (بفتحتين) : العرق

(٣) سورة القيامة آيتى ١١ ، ١٢ — (٤) سورة إبراهيم آية ٥٨

(٥) سورة يونس آية ٤٥ — (٦) سورة طه آية ١٠٣

(٧) سورة طه آية ١٠٤ — (٨) سورة الزخرف آية ٦٨

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ[١] ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُحشَر الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصناف رُكبانا ومُشاةً وعلى وجوههم " . قيل : يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : " إنّ الذى أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمْشِيَهم على وجوههم أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كلّ حَدَب[٢] وشَوْك " . وفى حديث مسلم بن الحجّاج عن أنس أنّ رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يُحْشَر الكافرُ على وجهه يوم القيامة ؟ قال : " أليس الذى أمشاه على رِجْليه فى الدنيا قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يومَ القيامة " . والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب كثيرة جدّا لو آستقصيناها لطال الكلام وآنبسط القول ، وخرج التأليف عن شرطه الذى قدّمناه ، فلنختم هذا الباب بحديث لَقِيط بن عامر العُقَيلىّ فإنه حديث جامع لأكثر ما فى هذا الباب .

حديث لَقِيط بن عامر

قال أبو بكر بن أبى خَيْثمة بإسناده الى لَقِيط بن عامر العُقَيلىّ قال : خرجتُ أنا وصاحبٌ[٣] لى حتى قَدِمْنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ لآنسلاخ[٤] ٨٨/١٢
رجب ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [فوافيناه][٥] حين انصرف من صلاة[٦] الغداة

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٩ (٢) الحدب : ما ارتفع من الأرض وغلظ . وقد ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ١١ ص ٣٠٠ طبع مصر) .

(٣) هو نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق ، كما فى مسند الإمام أحمد (ج ٤ ص ١٣) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٥ ص ٨٠ طبع مصر) .

(٤) فى البداية والنهاية : «انسلاخ رجب» بدون اللام .

(٥) التكلة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية .

(٦) كذا فى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد ج ١ ص ١٣٥ طبع بلاق وفى الأصل : « مصلاه » .

فقام [في الناس](١) خطيبا فقال : " أيها الناس ! ألاَ إنى قد خبأتُ لكم صوتى منذ أربعةَ أيام لأُسمعكم اليومَ . ألاَ فهل من آمرئ بعثه قومه [فقالوا اعلَمْ لنا ما يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . ألاَ ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه الضّلال](١) . ألاَ إنى مسئولٌ هل بلّغتُ . ألاَ آسمعوا تعيشوا(٢) ألاَ آجلِسوا(٣) " فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت : يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب ؟ [فضحِك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه وعلِم أنّي أبتغى لسقطه](٤) فقال : " ضنّ(٥) ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله(٦) " . فقلت : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : " علِم المنية [قد علم متى منيّة أحدكم ولا تعلمونه](٧) . وعَلِم المنيّ حين(٨) يكون في الرّحِم [قد علمه ولا تعلمونه](٩) وعَلِم ما في غد وما أنت طاعمٌ غدًا ولا تعلمه . وعلم يوم الغيث يشرف عليكم آزلِين(١٠) مسنتين(١١) فيظَل يضحك قد علم أنّ غَوْثكم قريبٌ " . قال لقيط : لم لن نعدَم من ربٍّ يضحك خيرا . " وعلم يوم الساعة " . قلت : يا رسول الله، إنى سائلك عن حاجتى . قال : " سل عمّا شئتَ(١٢) " . قلتُ : يا رسول الله،

---

(١) زيادة من مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٢) في المواهب اللدنية : « ألا اسمعوا تعيشوا » أى تحيوا حياة أبدية سعيدة فانها الحياة المطلوبة . (٣) في مسند أحمد والبداية والنهاية : «ألا اجلسوا ألا اجلسوا» . (٤) التكلة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفي العقد الفريد : « ابتغى سقطه » بدون اللام . (٥) في الأصل : « ضن ربك بخمس » . (٦) زاد في مسند أحمد والبداية والنهاية هنا : « وأشار بيده » . (٧) زيادة من مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . (٨) في الأصل « متى » . (٩) في الأصل : « وعلم ما في غد قد علم ما أنت طاعم غدا » . (١٠) أزل الرجل : صار في شدة وضيق . (١١) كذا في البداية والنهاية . ومسنتون : أصابتهم سنة ، أى قحط وجدب . وفي سائر المصادر : « مشمقين » . (١٢) زاد في العقد الفريد هنا : « فلا تعجلني » .

علّمنا مما لا يعلم الناس(1) ومما تُعلم فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحدا من مذحج التي تدنو إلينا، وخثعم التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها(2)] . قال : "تلبثون ما لبثتم ثم يُتوفّى نبيّكم ثم تلبثون ما لبثتم ثم تُبعثُ الصيحةُ، فلعَمْرُ إلهك ما تَدَع على ظهرها من شيء إلّا مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح(3) ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد(4)، فأرسل ربك السماء [بهَضْبٍ](5) من عند العرش، فلعمر إلهك ما تَدَع على ظَهرها من مَصْرَع قتيلٍ ولا مَدْفَن ميّت إلا شقّت القبرَ عنه حتى تخلُقه من قِبَل رأسه فيستوى جالسا، فيقول ربك مَهْيَم(6) لما كان فيه، فيقول : يارب أمتّى(7) أمس اليوم، لعهده بالحياة يحسبه حديثا بأهله" . فقلت : يا رسول الله، كيف يجمعنا

---

(١) كذا في البداية والنهاية . وفي الأصل : « ما تعلّم الناس وما تعلم » . وفي مسند أحمد : « علمنا مما تعلم الناس وما تعلم » .

(٢) زيادة عن مسند أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد .

(٣) في العقد الفريد : « فيصبح » .

(٤) في كتاب التذكرة للقرطبي (نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ١ م تصوف) : «قال علماؤنا : قوله فأصبح ربك يطوف في البلاد وقد خلت عليه البلاد، إنما هو تفهيم وتقريب الى أن جميع من في الأرض يموت وأن الأرض تبقى خالية وليس يبقى إلا الله، كما قال عز وجل : ﴿كل من عليها فان﴾ الآية .

(٥) التكملة من مسند أحمد والبداية والنهاية، وفيهما : « تهضب » وهو تصحيف . وفي كتاب التذكرة : « فأرسل ربك من السماء بهضبة » . وفي العقد الفريد : « فيرسل ربك بهضب » . والهضب : المطر .

(٦) مهيم : كلمة استفهام عن الحال والشأن . وفي لسان العرب (في مادة مهيم) : « فيستوى جالسا فيقول رب مهيم» .

(٧) كلمة « أمتنى » ليست في المصادر التي بين أيدينا . والعبارة في مسند أحمد والبداية والنهاية . « يقول أمس اليوم فلعهده ... » .

بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ قال : "أنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله[1] الأرض أشرفتَ عليها وهى مَدِرة بالية فقلتَ لا تحيا أبدًا ثم أرسل ربك عليها السماء[2]، فلم تلبث عليها إلا أياما حتى أشرفتَ عليها فإذا هى شَرِيَّةٌ[3] واحدة، فلَعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يجمعهم من المـاء على أن يجمع نبات الأرض فتخرجون من الأصواء[4] ومن مصارعكم فتنظرون إليه ساعةً وينظر اليكم". قلت : يا رسول الله، [وكيف][5] ونحن ملء الأرض وهـو شخصٌ واحدٌ ينظر إلينا وننظر اليـه ؟ قال : "أُنبئكم بمثـل ذلك فى إلّ الله الشمس والقمر آية [منه][5] صغيرةٌ تَرَوْنهما ساعة واحدةً ويريانكم[6] لا تُضَارُّون[7] فى رؤيتهما ولَعَمْرُ إلٰهك لهو أقدرُ على أن يراكم وتَرَوْه[8] منهما أن تروهمـا ويرياكم لا تضارُّون فى رؤيتهما". قلت : يا رسول الله، فماذا يفعل بنا ربّنا إذا لَقيناه ؟ قال : تُعْرَضون عليه باديةً [له][5] صَفَحاتُكم لا يخفى عليه [منكم][5] خافيةٌ، فيأخذ ربك [بيده][5] غَرْفةً من المـاء فينضح [بها][5] قِبَلكم، فلعمر إلٰهك ما تخطئ وجهَ واحدٍ منكم منها قَطْرةٌ، فأمّا المسلم

(١) إلّ الله : ربوبيته وإلٰهيته وقدرته، ويجـوز أن يكون فى إل الله أى فى عهـده (راجع النهاية لابن الأثير.

(٢) فى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية « عليك ».

(٣) الشرية : الحنظلة. أى إن الأرض تخضرّ بالنبات فتصير فى اخضرار الحنظلة ونضارتها. ويروى « شربة » بالموحدة. أى يكثر المـاء فمن حيث أردت أن تشرب شربت. قال الزمخشرى : « واو روى شربة — بالتحريك — فهى حوض فى أصل النخلة.

(٤) الأصواء هنا : القبور.

(٥) التكملة عن مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد.

(٦) فى الأصل : «... ترونهما ساعة واحدة فيريانكم» وفى مسند الامام أحمد والبداية والنهاية : «ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ».

(٧) فى الأصل : « لا تضامون ».

(٨) فى الأصل : « ... لهو أقدر على أن يراكم وترونه منهما أو ترونهما ويريانكم ولا تضامون » وهو تحريف.

فتَدَع وجهه مثلَ الرَّيْطة[1] البيضاء، وأمّا الكافر فتخطِمه بمثل الحُمَم[2] الأسود. ألَا ثمّ ينصرف [نبيّكم][3] و يتفرّق على أثره الصالحون، فتسلكون جسرًا من النار يطأ أحدُكم الجمرة يقول حَسِّ[4]، فيقول ربك و إنّه[5]. ألا فتطلعون على حوض الرسول لا يظمأ والله ناهله فلعمر إلٰهك ما يبسط أحدٌ منكم يده إلّا وقع عليها قدحٌ يطهّره[6] من الطّوف والبَوْل[7] والأذى. وتُحبَس الشمس والقمر فلا ترون منهما واحدا". قلت: يا رسول الله، فبم نُبصِر الأرض[8]؟ قال: "بمثل ساعتك هذه" وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقتـه الأرض[9] و واجهته الجبال. قلت: يا رسول الله، فبم نُجزَى من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال "الحسنةُ بعَشر أمثالها والسيئة بمثلها إلّا أن يعفو الله". قلت:

---

(١) الريطة: المنديل.

(٢) في الأصل: «الحميم». والحمم: الفحم. وتخطمه، أي تصيب خطمه وهو أنفه، يعني تصيبه فتجعل له أثرا مثل أثر الخطام فترده بصعر (عن كتاب النهاية لابن الأثير).

(٣) التكلة عن مسند الامام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد.

(٤) كلمة يقولها الانسان إذا أصابه ما مضه وأحرقه غفلة كالجمرة والضربة ونحوهما.

(٥) كذا في العقد الفريد والنهاية لابن الأثير والفائق للزمخشري. وفي جميع المصادر التي بين أيدينا «أوانه» ه ومعنى إنه أي نعم والهاء للسكت، أو اختصر الكلام بحذف الخبر، والمعنى إنه كذلك.

(٦) في الفائق والنهاية: «... قدح مطهرة من الطوف والأذى» قال الزمخشري: قوله (مطهرة) محمول على المعنى؛ لأنه وقع على يد كل واحد منهم قدح فهي أقداح كثيرة». وفي النهاية: «الطوف: الحدث من الطعام. المعنى أن من شرب تلك الشربة طهر من الحدث والأذى. وأنث القدح لأنه ذهب بها إلى الشربة».

(٧) كذا في مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد. وفي الأصول: «والايل».

(٨) كلمة «الأرض» ليست في غير الأصل.

(٩) كذا في البداية والنهاية. وفي مسند الامام أحمد: «في يوم أشرقت الأرض واجهت به الجبال». وفي الأصل: «في يوم أسفرته و واجهته الجبال».

يا رسول الله، ما الجنة وما النار(١) . قال : " لَعَمْرُ إلٰهك(٢) إنّ للنار لسبعةَ أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاما . و إن للجنة لثمانيةَ أبواب ما منها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما" . قلت : يا رسول الله، فعلامَ نَطَّلِعُ من الجنة؟ قال : "على أنهار من عسل مصفّى، وأنهارٍ من كأس ما بها صُداع ولا نَدامة، وأنهارٍ من لبن لم يتغيّر طعمه، وماءٍ غير آسن، [وفاكهةٍ لَعَمْرُ إلٰهك ما تعلمون](٣) وخير من مثله معه وأزواج مطهّرة" . قلت : يا رسول الله، ولنا فيها أزواج أو منهنّ مصلحات؟(٤) قال : " الصالحات للصالحين تلذّونهنّ مثل لذّاتكم فى الدنيا ويَلْذَذْنكم غير أن لا تَوَالُدَ فيها " .

انتهى التذييل على القسم الثالث بعون الله تعالى وحُسْن توفيقه . والله الموفّق للصواب .

---

(١) فى العقد الفريد : « فى الجنة أم النار » . وفى سائر المصادر التى بين أيدينا : « أما الجنة وأما النار » .

(٢) كذا فى مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية . وفى الأصول : « لعمر إلٰهك لها » .

(٣) ما بين المربعين عبارة مسند الإمام أحمد والبداية والنهاية والعقد الفريد . وفى الأصل : «وماء غير آسن خير مما تعملون وخير من مثله معه » .

(٤) فى الأصل : « انّ لنا فيها أزواجا أو منهن مصلحات» .

٨٩/١٢

القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم والطوائف، وخبر سيل العَرِم ووقائع العرب فى الجاهلية، ويشتمل على خمسة أبواب

الباب الأوّل

فى أخبار ذى القرنين الذى ذكره الله عزّ وجل فى كتابه العزيز فى سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾(١). وٱختُلِف فى تسميته ذا القرنين، فقيل: لبلوغه أطراف الأرض، وإنّ الملك الموكّل بجبل قاف سمّاه بذلك. وهذا القول محكىّ عن ٱبن عبّاس رضى الله عنهما. وقيل: إنما سُمِّىَ بذلك لأنه كانت له ذؤابتان من الذهب. ويُعْزَى هذا القول إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه. وقيل: إنما سُمِّى بذلك لأنه رأى فى منامه أنه يدنو من الشمس فيضع يده فى قرنَيْها من شرقها وغربها، فقصّ رؤياه على قومه فسمَّوْه ذا القرنين، وهذا القول مروىّ عن وهب. وقيل: إنما سُمِّىَ به لأن الله تعالى كان قد بعثه إلى قوم فضربوه على قَرْنه فمات، فأحياه الله ثم بعثه إليهم فضربوه على قرنه الآخر فمات، ثم أحياه الله، فسُمِّىَ ذا القرنين. وقيل: إنما سُمِّىَ بذلك لأنه أفنى قرنين من الناس. وقيل: لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرفٍ من قِبَل أبيه وأمّه. وقيل: لأنه أُعطِىَ علم الظاهر والباطن.

---

(١) سورة الكهف آيتى ٨٣، ٨٤

وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم . وقيل غير[١] ذلك . والله تعالى أعلم .

قال وهب : كان ذو القرنين رجلا من أهل الإسكندرية يقال له الإسكندروس . والعَجَبُ كونه نَسَبَه أنه من أهل الإسكندرية، وقد نقل جماعة من أهل التاريخ أن الإسكندر هو الذى أنشأ الإسكندرية و بناها، فكيف يكون من أهلها وهو الذى أنشأها واليه نُسبت! . و رُوِى عن وهب أيضا أن ذا القرنين كان خارجيا فى قومه، ولم يكن بأفضلهم نسبا ولا حسبا ولا موضعا، ثم قال بعد ذلك : إن الله تعالى بعثه نبيّا و رسولا . ولا يكون الأنبياء إلّا من أفضل قومهم حسبا وأشرفهم نسبا . وقد يكون هذا النقل لاختلاف الروايات . وما آفة الأخبار إلّا رُواتها .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القُرْطُبىّ فى تفسيره عن ابن إسحاق قال حدّثنى مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم : أنّ ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مرزبان بن مرذبة اليونانىّ[٢] من ولد يُونان بن يافث ابن نوح . قال وقال ابن هشام : اسمه الإسكندر، وهو الذى بنى الإسكندرية، فنُسبت اليه . قال وقيل : اسمه هرمس، و يقال هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب بن ذى يزن الحِمْيرىّ . وقال وهب : هو رومىّ . وقيل : إنه أفريدون [الذى قتل بيوراسب بن أروندا سب[٣]] الملك الفارسىّ[٤] .

(١) وقد ساق ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية (ج ٢ ص ١٠٣) بعض الأقوال التى لم تذكرها .

(٢) كذا فى السيرة النبوية لابن هشام (ص ١٩٧ طبع أوربا) والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١٠٥ طبع مصر) . وفى تفسير القرطبى (ج ١١ ص ٤٥ طبع دار الكتب المصرية) : «مرزبان بن مردبة» . وفى الأصول : «مرزبا بن مرذبة» .

(٣) التكملة عن تفسير القرطبىّ (ج ١١ ص ٤٧) .

(٤) فى تفسير القرطبىّ : «الملك الطاغى على عهد ابراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان» .

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ رحمه الله تعالى فى قصصه — وذكر الخلاف فى نبوّته — قال : الصحيح إن شاء الله أنه كان نبيّا غير مُرْسَل، كما رُوى عن وهب وغيره من أهل الكتب . قال وقالوا : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان آسمه إسكندروس . قال و يقال : كان اسمه ابن عيّاش[1]، وكان عياش عبدا صالحا . قال وهب : ونشأ ذو القرنين فى علم وأدب وثروة وعفّة، ولم يزل يتخلّق بمكارم الأخلاق و يسمو إلى معالى الأمور حتى بعُدت همّته، وآشتدّ أمره، وعلا صوته، وعزّ فى قومه، وألقى الله تعالى عليه الهيبة، وحدّث نفسه بمعالى الأمور . قال الثعلبيّ : فلمّا آستحكم مُلْكه وآستجمع أمره أوحى الله تعالى إليه : ياذا القرنين، إنّى بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الخافقَيْن، وجعلتك حجّتى عليهم، وهذا تأويل رؤياك . و إنى باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهى سبع أمم مختلفة ألسنتهم، منهم أمّتان بينهما عَرْض الأرض، وأمّتان بينهما طُول الأرض، وثلاث أمم فى وَسَط الأرض، وهم الإنس والجنّ و يأجوج ومأجوج . فأمّا الأمّتان اللتان بينهما طول[2] الأرض فأمّة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك، والأخرى [بحيالها عند مطلع الشمس][3] يقال لها مُنسك . وأمّا الأمّتان اللتان بينهما عرض[4] الأرض فأمّة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل، والأخرى بحيالها فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فلمّا قال الله تعالى له ذلك قال ذو القرنين : إلٰهى إنك قد ندبتنى إلى أمر عظيم لا يقدر قدره[5] إلا أنت ؛ فأخبرنى عن هذه الأمم التى بعثتنى إليها بأىّ قوة أُكاثرهم ، ٩٠/١٢
و بأىّ حيلةٍ وجَمْعٍ أُكابرهم ، و بأىّ صبر أقاسيهم ، و بأىّ لسان أناطقهم ؛ وكيف لى بأن أفقه لغاتهم ، و بأىّ سمع أسمع أقوالهم ، وبأىّ بصر أنفُذهم ، و بأىّ

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصول : « ابن عباس » . (٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل "عرض الأرض" . (٣) زيادة عن الثعلبى . (٤) فى الأصل : «طول الأرض» .
(٥) فى الثعلبى : « لا يقدر عليه ذو قدرة إلا أنت » .

حجّة أخاصمهم ، و بأىّ عقل أعقِل عنهم ، و بأىّ قلب وحكمة أدبّر أمرهم ، و بأىّ قسط أعدِل بينهم ، و بأىّ حلم أُصابرهم ، و بأىّ معرفة أفصِل بينهم ، و بأىّ علم أُتقن أمرهم ، و بأىّ يدٍ أسطو عليهم ، و بأىّ رِجْلٍ أطؤُهم ، و بأىّ طاقة أُحصِيهم ، و بأىّ جُنْدٍ أُقاتلهم ، و بأىّ رفقٍ أتألّفهم ، وليس عندى يا إلٰهى شئ مما ذكرتُ يقوم لهم و يَقْوَى عليهم(١) وأنت الرءوف الرحيم ، الذى لا تكلّف نفسا إلا وُسْعَها ، ولا تحمّلها إلّا طاقتها ، ولا تُشْقيها ، بل أنت ترحمها . فقال الله تعالى له : إنى سأُطوّقك ما حمّلتك ، وأشرح لك صدرك وسمعك فتسمع وتَعِى كلّ شئ ، وأُوسّع لك فهمك فتفقه كلّ شئ ، وأبسُط لك لسانك فتنطِق بكل شئ ، وأفتح لك بصرَك فينفُذ فى كل شئ ، وأحصى لك قوّتك(٢) فلا يفوتك شئ ، وأشُدّ لك عضُدك فلا يهولك شئ ، وأُشيّد لك ركنك فلا يغلبك شئ ، وأشدّ لك قلبك فلا يُفزعك شئ ، وأشُدّ لك يديك(٣) فتسطو على كلّ شئ ، وأُلبسك الهيبة فلا يروعك شئ ، وأسخّر لك النور والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحوطك الظلمة من ورائك . قال : فلما قيل له ذلك حدّث نفسه بالمسير ، وألحّ عليه قومُه بالمُقام . فلم يفعل وقال : لابدّ من طاعة الله تعالى . قال وهب : وكان أوّل ما بدأ به أن أخذ قومه بالإسلام فأسلموا قهرا من عند آخرهم ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا و يجعلوا طوله أربعمائة ذراع ، وعرضه مائتى ذراع ، وسُمْك حائطه اثنين وعشرين ذراعا ، وآرتفاعه فى السماء مائة ذراع ، وأمرهم أن ينصبوا فيه سوارى . قالوا : ياذا القرنين ، كيف لنا بخشب يبلغ ما بين الحائطين؟ فلّما كمل البناء أمرهم بردمه بالتراب ، ثم فرض على المُوسِر قدرَه من الذهب وعلى المُقْتِر قدرَه ، وأمرهم أن يجعلوا ذلك الذهب كقُلامة الظّفر

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « أقوم لهم وأقوى عليهم » .

(٢) كلمة « قوتك » ليست فى الثعلبى . (٣) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « بدنك » .

ويخلطوه بالتراب وكبسوا التراب حتى ساوى البناء، ثم أمرهم بعد ذلك أن يتّخذوا أعمدةً من النحاس بدلا من الخشب فصنعوها، وجعلوا على كل حائط آثنى عشر ذراعا، فكان طول كل عمود من النحاس مائتين وأربعة وعشرين ذراعا، فتمكّنوا من ذلك بسبب الردم. فلمّا استقرّ(١) السقف بما فيه أمر الإسكندر المساكين أن يحوّلوا التراب، ومن خرج له شئ من الذهب فهو له، فسارعوا إلى ذلك ونقلوه واستغنَوْا بما فيه، ثم جَنّد القومَ أربعين ألفا، وهم أوّل جُنْد اتّبعوه.

وقال الثعلبيّ رحمه الله: إنّ الإسكندر جنّد المساكين بما حصل لهم من قُراضة الذهب، وكانوا أربعين ألفا، جعلهم أربعة أجناد، فى كل جُنْد عشرة آلاف. قال: ثم عرَض جُنْده فوجدهم فيما قيل ألف ألف وأربعمائة ألف رجل غير المساكين، وهم أربعون ألفا؛ ثم انطلق يؤمّ الأمّة التى عند مغرب الشمس، فسار لا يمرّ بأمّة إلّا دعاهم إلى الله تعالى، فإن أجابوه قبِل ذلك منهم، وإن أبَوْا عليه غشيتهم الظُلْمة فلبست مدائنهم ومنازلهم وأعشت أبصارهم، فيتحيّروا حتى يجيبوه، أو يأخذهم عَنْوةً. ولم يزل كذلك حتى بلغ مغرب الشمس. قال الله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾(٢) أى ذات حَمْأة، ومن قرأ حامية فمعناه حارّة ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ يُسْرًا ﴾. قال الثعلبيّ: فوجد جمعا وعددا لا يُحصيه إلا الله تعالى، وقوة وبأسا لا يُطيقه إلا الله تعالى، ورأى ألسنًا مختلفةً وأهواء متشتّتة، وهذه الأمّة هى ناسك. فلمّا رأى ذلك كاثرهم بالظُلْمة فضرب حولهم ثلاث عساكر فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم فى مكان واحد، ثم أخذ عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه،

(١) كذا فى الثعلبي. وفى الأصل: «استقل». (٢) سورة الكهف آية ٨٥ وما بعدها.

فعمَد إلى الذين تولّوا عنه فأدخلهم الظُّلْمة ، فدخلت فى أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت فى بيوتهم وغَشِيَتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب ، فصاحوا وتحيّروا وأشفقوا من الهَلَكة ، فعجُّوا إليه بصوتٍ واحدٍ ، فكشفها عنهم وأخذهم عَنْوةً فدخلوا فى دعوته ، فجنّد منهم أمما عظيمة وجعلهم جُنْدا واحدا ، ثم آنطلق بهم يقودهم والظُّلْمة تسوقهم من خلفهم وتحرُسهم والنور أمامهم ، وسار ٩١/١٢ يريد الأمّة التى فى قطر الأرض التى يقال لها هاويل ، فكان إذا آنتهى إلى بحر أو نهر بنى سُـفُنا من ألواح صغار أمثال النعال ونظمها فى ساعة ، ثم حمل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود ، فإذا قطع ذلك البحر أو النهر فتقها ثم دفع إلى كل رجل منهم لَوْحا فلا يكْرُثه حمْله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ففعل بهم كما فعل بالأمة التى قبلها . قال : ولما فرغ منها مضى حتى انتهى إلى مُنسك وهى الأمة التى عند مطلع الشمس . قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[1]. قال : وقوله تعالى : ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وذلك أنهم كانوا فى مكان لا يستقرّ عليه بناء ، وكانوا يكونون فى أسراب[2] لهم ، حتى إذا زالت الشمس خرجوا الى معايشهم وحروثهم . وقال الحسن[3] : كانت أرضهم أرضا لاتحتمل البناء ، فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم تهوّروا فى الماء ، فإذا آرتفعت عنهم خرجوا فتراعَوْا كما تَرعى البهائم . وقال الكلبىّ : هم أمّة يقال لها مُنسك عُراةٌ حُفاةٌ عُماةٌ عن الحقّ . قال : وحدّثنى عمرو بن مالك بن أميّة قال : وجدت رجلا بسَمَرْقَنْد يحدّث الناس

(١) سورة الكهف آية ٨٩ وما بعدها .

(٢) الأسراب : جمع سرب (بالتحريك) وهو الحفير تحت الأرض .

(٣) عبارة الحسن فى تفسير القرطبىّ (ج١١ص ٥٤) : (كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ، وكانت لا تحمل البناء فاذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فيتراعون كما تتراعى البهائم).

وهم مجتمعون حوله ، فسألت بعض مَن سمع حديثه فأخبرنى أنه حدّثهم عن القوم الذين تطلُع عليهم الشمس ، قال : خرجت حتى جاوزت الصين ، ثم سألت عنهم فقيل : [لى][1] إن بينك و بينهم مسيرة يوم وليلة ، فآستأجرت رجلا [يرينيهم][1] ، فسرت بقيّة عشيّتى وليلتى حتى صبّحتهم ، فإذا أحدهم يفترش أذنه و يلبس[2] الأخرى . وكان صاحبى يُحسن لسانهم فسألوه فقال : جئنا ننظر كيف تطلُع الشمس . قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا مثل الصلصلة ، فغُشِىَ علىّ فوقعت ، فلمّا أفقت وجدتهم يمسحوننى بالدهن فإذا الشمس طلعت على الماء ، وهى عليه كهيئة الزيت ، و إذا طرف السماء كهيئة الفُسطاط ، فلمّا آرتفعت دخلوا فى سَرَبٍ لهم وأنا وصاحبى ، فلمّا آرتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك فيطرحونه فى الشمس فينضَج .

نرجع إلى تتمة أخبار الإسكندر ومطلع الشمس . قالوا : ولمّا بلغ الإسكندر مطلع الشمس فعل بمنسك كما فعل بالأمم التى قبلها وجنّد منها جنودا ، ثم كرّ حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى وهى بدء تاويل ، وهى الأمّة التى بحيال هاويل ، وهما متقابلتان بينهما عَرْض الأرض . فلمّا بلغها عمل فيها كما عمل بمن قبلها . ولمّا فرغ من الأمم الذين هم بأطراف الأرض وطاف الشرق والغرب عطف منها إلى الأمم التى هى فى وسط الأرض من الجنّ والإنس و يأجوج ومأجوج . فلمّا كان فى بعض الطريق مما يلى منقطع الترك نحو المشرق قالت له أُمّة صالحة من الإنس : ياذا القرنين ، إنّ بين هذين الجبلين خَلْقا من خَلْق الله ليس فيهم مُشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم ، يأكلون العُشْب و يفترسون الدوابّ والوحوش كما يفترسها السباع ، و يأكلون هوامّ الأرض من الحيّات والعقارب وكل ذى رُوح مما خلق الله تعالى . وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم . فإن أتت مدّة على ما نرى من

(١) التكملة عن القرطبى . (٢) فى تفسير القرطبى : « و يلتحف » .

نمائهم وزيادتهم فلا شكّ أنهم سيملئون الأرض ويُخَلون أهلها منها ويظهرون عليها فيفسدون فيها . وليست تمرّ بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقّعهم أن يطلُع علينا أوّلهم من [بين](١) هذين الجبلين(٢) .

قال الشيخ عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ فى كتابه عن وهب بن مُنَبِّه : إنّ يأجوج ومأجوج أجفلوا(٣) فى زمن ذى القرنين يريدون أرضا وأمّة من الأمم، وكانوا إذا توجّهوا لوجه لم يَعْدِلوا عنه ولا يميلون ولا يعرّجون، وكانت تُسمَع همهمتُهم من مسيرة مائة فرسخ لكثرتهم . فلما سمعت تلك الأمّة حِسّهم استغاثوا بذى القرنين، وهو يومئذ فى ناحية أرضهم من شرقى أرض الترك والخَزَر وقالوا : ياذا القرنين، إنه قد بلغنا ما آتاك الله من السلطان والمُلْك، وما ألبسك من الهيبة، وما أيّدك به من جنود أهل الأرض ومن النور والظلمة، وإنّا جيران يأجوج ومأجوج، وليس بيننا وبينهم إلا شواهق الجبال، وليس لهم إلينا طريق إلا من هذين الصَّدَفين(٤)، فهل نجعل لك خَرْجًا [على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا](١) . قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا(٥)﴾ أى جعلا وأجرا ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أى حاجزا فلا يصلون إلينا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أى قوّانى ﴿خَيْرٌ﴾ من خراجكم ولكن ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزا كالحائط . قالوا : وما تلك القوّة ؟ قال : فَعَلَةٌ وصنّاع ٩٢/١٢

---

(١) التكملة عن الثعلبيّ . (٢) هما جبلان من قبل إرمينية وأذربيجان، كما فى تفسير القرطبى . (٣) أجفلوا : أسرعوا الهرب . وهى هنا غير واضحة فى السياق .

(٤) الصدفان : جانبا الجبل؛ لأنهما يتصادفان أى يتقابلان .

(٥) سورة الكهف آية ٩٢ وما بعدها .

يُحسِنون البناء والعمل والآلة . قالوا : وما تلك الآلة : قال ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ يعني قِطَعَه ، واحدتها زُبْرة ، وأتوني بالنُّحاس . قالوا : من أين لنا الحديد والنُّحاس [ما يكفي هذا العمل] [١] ؟ قال ، سأدلّكم على معادن الحديد والنحاس ، فضرب لهم في جبلين حتى فلقهما ، ثم استخرج منهما معدنين من الحديد والنحاس . قالوا : فبأيّ قوّة نقطع الحديد والنحاس؟ فآستخرج معدن السامور وهوأشدّ ماخلق الله بياضا ، وهو الذي قطع به سليمانُ صخورَ بيتِ المقدس وجواهره ، كما تقدّم . قال الثعلبيّ : ولمّا شغلهم الإسكندر في استخراج الحديد والنحاس سار نحو يأجوج ومأجوج ليعلم علمهم ، فآنطلق يؤمّهم حتى آنتهى إليهم وتوسّط بلادهم ، فوجدهم على مقدارٍ واحدٍ ذكرهم وأنثاهم ، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منّا . ورُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : منهم مَن طوله شبر ، ومنهم مَن هو مُفرِطٌ في الطول ، لهم مخاليبُ في أيديهم موضع الأظافر ، وأنيابٌ وأضراسٌ كالسِّباع ، يُسمَع لها حركةٌ إذا أكلوا كقَضْم البغل المسنّ أو الفرس القويّ ، ولهم من الشعر في أجسادهم ما يُواريهم وما يتّقون به الحرّ والبرد ، ولكل واحد منهم أُذُنان عظيمتان ، إحداهما وَبِرَةٌ والأخرى زَغِبَةٌ [٢] ، يفترش إحداهما ويلتحف الأخرى ، ويصيّف في إحداهما ويشتّي في الأخرى . وقال الأنماطيّ في خبره :

---

(١) زيادة عن الثعلبي .

(٢) ورد في البداية والنهاية لابن كثير (ج ٢ ص ١١٠ طبع مصر) ردّا على هذا مانصه : « من زعم أنهم على أشكال مختلفة وأطوال متباينة جدا ، فمنهم من هو كالنخلة السحوق ، ومنهم من هو غاية في القصر . ومنهم من يفترش أذنا من أذنيه ويتغطى بالأخرى ؛ فكل هذه أقوال بلا دليل ، ورجم بالغيب بغير برهان . والصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم » اهـ .

ولا شك أن مايذكره أصحاب القصص من صفات يأجوج ومأجوج فغالبه ليس بصحيح ، وإنما هو من قبيل الخرافات والاسرائليات التي هي كذب محض ، تناقله أولئك الرواة والكاتبون بدون تحرز ولا تدقيق ==

ولهم أخفاف كأخفاف الإبل . قالوا : وليس منهم ذكرٌ ولا أنثى إلّا قد عرف أجلَه الذى يموت فيه . وذلك أنّ الذكر منهم لا يموت حتى يخرج من صُلبه ألف ولد، ولا تموت الأنثى حتى يخرج من رحمها ألف ولد(١)، فإذا كان ذلك أيقن بالموت

= وقد أثبت المحققون من رجال التاريخ أن أصل المغول والتتر من رجل يقال له « ترك » . وسماه أبو الفداء باسم « مأجوج » . فيظهر من هـذا أن المغول والتتر هم يأجوج ومأجوج وكانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا الكبرى من التيبت جنوبا الى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى بلادهم غربا بما يلى بلاد التركستان .

وما ذكره الله تعالى من إفسادهم فى الأرض فقد ذكر المؤرخون أن هـذه الأمم كانت تغير على من جاورها من الأمم فى أزمنة مختلفـة وأهلكوا الحرث والنسل وخربوا البـلاد . وذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والجيوش الجارفة التى انحدرت من هضبات آسيا الوسطى الى أوربا وآسيا الغربيـة مقرّ الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) . كل ذلك قبل نزول القرآن وظهور النبي صلى الله عليه وسلم الى أن ظهرت تلك الداهيـة الدهياء والغارة الشعواء فى أوائل القرن السابع من الهجرة إذ ظهر منهـم رجل يسمى « تموجين » وهو جنكزخان المتوفى سنة ٦٢٤ هـ فاكتسح بجموعه قسما عظيما من البلاد الاسلامية وأبادوا جموعها حتى وصلوا الى الشام بدون أن ينال فسادهم الحرمين الشريفين ولا القدس كما أخبرت به الأحاديث .

وقد انصبوا على البلاد الاسلامية من كل حدب ؛ وذلك هو مصـداق القرآن الكريم . ومن أراد الاستفاضة فى هذا فليراجع تفسير العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى (ج ٩ ص ١٩٧ — ٢٠٨) والدعاية الى سبيل المؤمنين للعـلامة الشيخ ابراهيم أطفيش الجزائرى (ص ١٤٩ — ١٥٣) وفاكهة الخلفاء (ص ٢٢٦) .

وقال المرحوم أمين واصف بك فى كتابه معجم الخريطة التاريخية للمالك الاسلاميـة عن يأجوج ومأجوج ما نصه : « يؤخذ ممـا قرره الباحثون أن هذه الأقوام هى أمم السكيكثيون ([illegible]) عنـد اليونان ؛ وكانت منازلهم بالشمال الشرقى من بحر الخزر ، وهم قبائل رحل ، وكانوا على حدود بلاد ماوراء النهر ممـا يلى فرغانة والشاش ؛ ومنهم قبائل الخزر والمساجيب أو من سلالتهم » اهـ .

(١) ورد فى البداية والنهاية أيضا ردا على هذا مانصه :

« ماقيل من أن أحدهم لايموت حتى يرى من ذرّيته ألفا فإن صح فى خبر قلنا به و إلا فلا نردّه إذ يحتمله العقل ، والنقل أيضا قد يرشد إليه . بل ورد حديث مصرح بذلك إن صح قال الطبرانى — وذكر السند — قال : (إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسـلوا لأفسدوا معايشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا ... ...) وهو حديث غريب جدا و إسناده ضعيف وفيه نكارة شديدة » .

وترك طلب المعيشة . قالوا : وهم يُرْزَقون التنّين فى أيام الربيع ، يقذفه عليهم السحاب من البحر فى كل عام مرّة . فإذا تأخّر عنهم وقت عادته استمطروه كما يُستمطَر الغيث لحينـه ، فإن قُذفوا به أخصبوا وسمنوا وتوالدوا وكثروا وأكلوا منه حولا كامـلا لا يأكلون غيره ، ويقـدّدونه فيعمّهم على كثرتهم . قال : وهم يتـداعَوْن تَداعِىَ الحمام ، ويعوون عُوَاء الذئاب ، ويتسافدون تسافُد البهائم حيث التقَوْا . فلمّا عاينهم ذو القرنين انصرف إلى ما بين الصَّدَفين فقاس ما بينهما ، ثم أوقد على ماجُمـع من الحديد والنحاس فصنع منه زُبَرًا أمثال الصخور العظام ، ثم أذاب النُّحاس بجعـله كالطين وألاط به تلك الصخور الحديد ثم بناه .

قالوا : وكيفيّة بنائه على ما ذكره أهـل السِّيَر : أنه لمّـا قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهـما مائة فرسخ ، ثم حفر له الأساس حتى بلغ المـاء ، وجعل عرضـه خمسين فرسخا ، ثم وضع الحطب بين الجبلين ، ثم نَسَج عليـه الحديد ، ثم نسـج الحطب على الحـديد ، فلم يزل يحوّل الحـديد على الحطب والحطب على الحديد حتى ساوى بين الصَّـدَفين ، وهما الجبلان ، ثم أمر بالنار فأُرسلت فيـه ، ثم قال انفخوا ثم جعل يُفرِغ القِطْر(١) وهو النحاس المُذَاب ، فجعلت النـار تأكل الحطب ويصـير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس ، فصار كأنه بُرْد(٢) حِبرة من صُفْرة النحاس وحُمرته ، وسواد الحديد وغُبْرته ، فصار سدّا طويلا عظيما حصينا . قال الله تعالى : ﴿ فَمَـا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعوا لَهُ نَقْبًا ﴾(٣) . وقد رُوى أنّ رجلا قال يا رسول الله قد رأيتُ سدّ يأجوج ومأجوج . قال : " انعَتْه لى " . قال : كالبُرْد المُحَبَّر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء . قال : " قد رأيتَـه " .

(١) فى الأصل : «يفرغ مفرغ القطر» وهو تحريف . (٢) برد حبرة (على الوصف والإضافة) : ضرب من البرود اليمانية المخططة . (٣) سورة الكهف آية ٩٧

وقد ذكرنا خبر السدّ فيما سلف من كتابنا(١) هذا عن سلّام التُّرجمان حين أرسله الواثق إلى السدّ فرآه ، وهو فى الباب الثالث من القسم الخامس من الفنّ الأوّل وهو فى السفر الأوّل من كتابنا هذا .

قال الأنماطىّ قال وهب : فبلَغَنا — والله أعلم — أنهم يأتونه فى كل سنة مرّة ، وذلك أنهم يسيحون فى بلادهم حتى إذا آنتهَوْا إلى ذلك الرَّدْم حبسهم فرجعوا يسيحون فى بلادهم ، فهم كذلك حتى تقرُب الساعة ، فإذا جاء أشراطها فتحه الله عز وجل ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكًّا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾(٣) . والله أعلم .

ذكر خبر دخول ذى القرنين الظلمات ٩٣/١٢

مما يلى القُطْب الشمالىّ لطلب عَيْن الحياة

قال أبو إسحاق الثعلبىّ رحمه الله : قال علىّ رضى الله عنه : ملَك ذوالقرنين ما بين المشرق والمغرب ، وكان له خليل من الملائكة اسمه رَفائيل يأتيه ويزوره . فبينما هما ذات يوم يتحادثان إذ قال ذو القرنين : يا رفائيل ، حدّثنى عن عبادتكم [فى السماء](٤) . فبكى وقال : ياذا القرنين ، وما عبادتكم [بشىء](٤) عند عبادتنا ! إنّ فى السماء من الملائكة من هو قائم أبدا لا يجلس ، ومنهم من هو ساجدٌ لا يرفع رأسه أبدا ، ومنهم الراكع لا يستوى أبدا قائما ، يقولون : سبحان الملك القدّوس ، ربّ الملائكة والرُّوح ، ربنا ما عبدناك حقّ عبادتك . فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ثم قال : إنى لأحبّ أن

---

(١) راجع (ج ١ ص ٣٧٤ — ٣٧٨ من هذه الطبعة) . (٢) سورة الأنبياء آية ٩٦
(٣) سورة الكهف آية ٩٨ (٤) زيادة عن الثعلبى .

أعيش فأبلُغ من عبادة ربّى حقّ طاعتـه . قال رفائيل : أَوَتحبّ ذلك؟ قال نعم . قال : فإنّ لله عينا فى الأرض تسمّى عين الحياة فيها من الله عزيمةٌ، إنّ من يشرب منها شربة لم يمت أبدا حتى يكون هو الذى يسأل ربّه الموت . قال ذو القرنين : هل تعلم موضع تلك العين ؟ قال المَلَك : لا ، غير أنّا نتحدّث فى السماء أنّ لله تعالى فى الأرض ظُلمة لا يطؤها إنْس ولا جانّ ، فنحن نظن أنّ العين فى تلك الظلمة . فجمع ذو القرنين علمـاء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوّة فقال لهم : أخبرونى هل وجدتم فيما قـرأتم من كتب الله وما جاءكم من أحاديث الأنبياء ومَنْ كان قبلكم أنّ الله وضع فى الأرض عينا سمّاها عينَ الحياة ؟ . قالوا لا . وقال عالم من العلماء(١) : إنّى قرأتُ وصيّة آدم، وصّى أنّ الله تعالى خلق فى الأرض ظُلمة لم يطأْها(٢) إنْس ولا جانّ ووضع فيها عين الخـلد . فقال ذو القرنين : فأين وصيّته فى الأرض ؟ قال : على قرن الشمس . فبعث ذو القرنين وحشر إليه العلماء والأشراف والملوك ، ثم سار يطلب مطلع الشمس ، فسار اثنتى عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظُّلمة ، فإذا ظلمة تقوم(٣) مثل الدُّخَان ليست بظُلمة ليل . فعسكر هناك ، ثم جمع العلمـاء وقال : إنّى أريد أن أسلُك هذه الظلمة . قالوا : إنه مَن كان قبلك من الأنبياء والملوك لم يطلبوا هذه الظلمة فلا تطلبها ، فإنّا نخاف أن ينبثق عليك أمر تكرهه فيكون فيه فساد [أهل](٤) الأرض . فقال : لا بدّ من أن أسلُكها . قالوا : أيها الملك كفّ عنها ولا تطلبْها فإنّا لو نعـلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط علينا ربّنا لاتّبعناك ، ولكنّا نخاف العتب من الله عزّ وجل وفساد الأرض ومَن عليها . فقال : لا بدّ أن أسلكها .

---

(١) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : « وقال عالم العلمـاء منهم » .

(٢) كذا فى الثعلبى . وفى الأصل : «لا يطؤها» .

(٣) فى الأصل : «تفور» . (٤) زيادة عن الثعلبى .

قالوا : شأنك بها . قال : أىّ الدوابّ بالليل أبصر ؟ قالوا : الخيل . قال : فأىّ الخيل أبصر؟ قالوا : الإناث . قال : فأىّ الإناث أبصر ؟ قالوا : البِكارة . فجمع ذو القرنين ستّة آلاف فرس بهذه الصفة ، ثم انتخب من عسكره [أهل الجلد والعقل](١) ستّة آلاف رجل ، فدفع إلى كلّ رجلٍ فرسا ، وعقد للخَضِر عليه السلام على مقدّمته ألفين ، وبَقِى هو فى أربعة آلاف . وقال ذو القرنين للناس : لا تبرحوا من معسكركم هذا إلى آثنتى عشرة سنة ، فإن رجعنا إليكم و إلا فارجعوا إلى بلادكم . فقال الخضر : أيها الملك ، إنّا نسلُك ظُلمةً لا ندرى كم المسير فيها ولا يُبصِر بعضنا بعضا ، فكيف نصنع إذا ضَلَلنا ! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال : حيث يصيبكم الضلال فآطرَح هذه فى الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت . فسار الخضر بين يديه ، يرتحل الخضر و ينزل ذو القرنين . فبينما الخضر يسير إذ عرَض له وادٍ فظنّ أنّ العين فيه وأُلقِى ذلك فى قلبه ، فقام على شفير الوادى وقال لأصحابه : قِفُوا لا تبرحوا ، ورمى بالخرزة فى الوادى ومكث طويلا حتى أجابته الخرزة ، فطلب صوتها فآنتهى إليها فإذا هى إلى جانب العين . فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين ، فإذا ماؤها أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب وآغتسل وتوضّأ ولبس ثيابه ، ثم رَمَى الخرزة نحو أصحابه ، فوقعت الخرزة وصاحت ، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه ، فركب وقال : سيروا على آسم الله . ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادى فسلكوا تلك الظُّلمة أربعين يوما وليلة ، ثم خرجوا إلى ضوء ليس بضوء ٩٤/١٢ شمس ولا قمر ، و إلى أرض حمراء ورملةٍ خشخاشيّة(٢) ، فإذا هو بقصر مبنىّ فى تلك الأرض طوله فرسخ فى فرسخ عليه باب ، فنزل ذو القرنين بعسكره ، ثم خرج وحده فدخل القصر ، فإذا حديدةٌ قد وُضع طرفاها على جانبَى القصر من هاهنا وهاهنا ،

---

(١) زيادة عن الثعلبى . (٢) كذا فى الأصل والثعلبىّ .

وإذا طائرٌ أسودُ يشبه الخُطّاف مزموم بأنفه إلى الحديدة، معلّق بين السماء والأرض. فلمّا سمع الطائر خشخشة ذى القرنين قال : مَن هـذا ؟ قال : أنا ذو القرنين . فقـال : يا ذا القرنين ، أمَا كفاك ما وراءك حتى وصلت إلىّ ! ثم قال الطائر : ياذا القرنين، حدّثنى؛ قال سَلْ؛ فقال : هل كثُر بناء الآجُرّ والجَصّ فى الأرض ؟ قال نعم؛ فآنتفض الطائر آنتفاضةً ثم آنتفخ فبلغ ثلث الحديدة، ثم قال: ياذا القرنين، هل كثُرت شهادات الزور فى الأرض ؟ قال نعم؛ فانتفض الطائر ثم آنتفخ فملأ الحديدة وسدّ ما بين جِدارى القصر، ففرِق ذو القرنين فَرَقا عظيما . فقال الطائر : لا تخف، حدّثنى . قال سَلْ. قال: هل ترك الناس [شهادة أن](١) لا إله إلّا الله بعدُ ؟ قال لا ، فآنضم الطائرُ ثُلُثه ثم قال : هل ترك الناس الصلاةَ المفروضة بعدُ ؟ قال لا ، فآنضمّ ثلثاه . ثم قال : ياذا القرنين، هل ترك الناس غسل الجنابة بعدُ؟ قال لا؛ فعاد الطائر كما كان . ثم قال : ياذا القرنين، اُسلُك هذا الدَّرَج درجةً درجةً إلى أعلى القصر، فسلكها وهو خائفٌ وَجِلٌ لا يدرِى على ماذا يهجُم، حتى انتهى إلى سطح ممدود، عليه صورة رجل شابّ قائم، وعليه ثيابٌ بيضٌ، رافعا وجهه إلى السماء، واضعا يديه على فيه، فلمّا سمع خَشْخَشَة ذى القرنين قال : مَن هذا ؟ قال : أنا ذو القرنين. قال: ياذا القرنين، إنّ الساعة قد اقتربت، وأنا منتظرٌ أمر ربّى يأمرنى أن أنفُخ [فأنفخ](١)، ثم أخذ صاحب الصُّور شيئا بين يديه كأنه حجرٌ وقال: خذه ياذا القرنين، فإن شبِـع هـذا شَبِعتَ ، وإن جاع جُعتَ ؛ فأخذه ونزل إلى أصحابه فحدّثهم بأمر الطائر وما قال له وما ردّ عليـه ، وما قال صاحب الصُّور . ثم جمع علماء عسكره فقال : أخبرونى عن هذا الحجر ما أمْرُه ؟ [فقالوا : أيها الملك، أخبرنا عما قال لك فيه صاحب الصور. فقال ذو القرنين : إنه قال لى : إن شبع هذا شبعت وإن جاع جعت](١) فوضعوا

(١) زيادة الثعلبى .

ذلك الحجر فى إحدى كَفَّتَىْ ميزان وأخذوا حجرا مثله فوضعوه فى الكفة الأخرى ثم رفعوا الميزان فإذا هو يميل ، [فوضعوا معه آخر فاذا هو يميل بهن][1] فلم يزالوا يضعون حتى وضعوا ألف حجر فمال بالألف جميعا ، فقالوا : انقطع علمُنا دون هذا الحجر لا ندرى أسحرٌ هو أم علم [ما نعلمه][1]! فقال الخضر : نعم أنا أعلمه ، فأخذ الميزان بيده ثم وضع الحجر فى كفّتها وأخذ كفّا من تراب فجعله فى الكفّة الأخرى ثم رفع الميزان فآستوى . فخرّت العلماء سُجَّدًا لله تعالى وقالوا : هــذا علمٌ لم يبلُغه علمنا . فقال الخضر عليــه السلام : أيّهــا الملك ، إنّ سلطان الله عزّ وجل قاهرٌ لخلقه ، وأمره نافذٌ فيهم ، وحُكْمه جارٍ عليهم ؛ وإنّ الله تعالى ابتلَى خَلْقَــه بعضهم ببعض ، فآبتلى العالِمَ بالعالِم ، والجاهلَ بالجاهل ، والعالم بالجاهل ، والجاهل بالعالم ؛ وإنه آبتلانى بك وآبتلاك بى .

قال ذو القرنين : صدقتَ ، فأخبرنى ما هذا ؟ فقال الخضر : أيها الملك ، هذا مَثَلٌ ضربه لك صاحب الصُّور ، [إن الله تعالى مكّن لك فى البلاد ، وأعطاك منها ما لم يعط أحدا ، وأوطأك منها مالم يوطئ أحدا ، فلم][2] تشبَع ، وآتيتَ نفسك شرّها ، حتى بلغتَ من سلطان الله ما لم يطأه إنسٌ ولا جانّ ، فهذا مثلٌ ضَرَبَه لك ، إن ابن آدمَ لا يشبَع أبدًا دون أن يُحثَى عليه التراب ، ولا يملأ جوفه إلّا التراب . فبكى ذو القرنين وقال : صدقتَ ، لا جرم [أنى][1] لاطلبتُ أثرا فى البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم انصرف راجعا . فلمّا توسّط الظُّلمة وطئ وادى الزَّبَرْجَد ، فقال مَن معه لـمّا سمِعوا الخشخشة تحت حوافر دوابّهم : ما هذا أيّها الملك ؟ فقال : خذوا منه فإنه من أخذ منه ندم ، ومَن تركه ندِم . فمنهم مَن أخذ ، ومنهم مَن ترك . فلمّا خرجوا من الظلمة إذا هو الزبرجد . فندم الآخذ كَوْنَه لم يُكثر ، والتارك كَوْنَه لم يأخذ . قال :

---

(١) زيادة عن الثعلبى .

(٢) زيادة عن الثعلبى ، ومكانها فى الأصل : « إنك لم » .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رَحِمَ اللهُ أخى ذا القرنين لو ظَفِر بوادى الزَّبَرْجَد فى المبتدأ ما ترك منه شيئا حتى أخرجه إلى الناس لأنه كان راغبًا فى الدنيا ولكنّه ظَفِر به وهو زاهدٌ فى الدنيا لا حاجةَ له فيها " .

قال الثعلبيّ : ثم رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف ، ومات فى طريقه بِشَهْرَزُور[(١)] . وقال علىّ رضى الله عنه : [ثم إنه][(٢)] رجع إلى دُومة الجَنْدَل[(٣)] فأقام بها حتى مات . وصرّح الثعلبيّ فى سياقة أخباره أنه الذى قتل دَارَا بن دَارَا ، وأنه لم تُطل مدّة عمره . وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر قاتل دارا بن دارا فى أخبار ملوك اليونان .

وحكى الأنماطيّ عن وهبٍ فى خبر دخول الإسكندر الظُّلُمات : أنه لمّا ٱنتهى إلى مغرب الشمس ترك مَن معه هناك وسار على الماء فى الظلمة ثمانيةَ أيام وثمانى ليال حتى ٱنتهى إلى جبل قاف ، وإذا هو بمَلَك قابِض على الجبل يسبّح الله تعالى ؛ فخرّ ذو القرنين ساجدًا لله تعالى فلم يرفَع رأسه حتى قوّاه الله تعالى على النظر إلى المَلَك . فقال له : كيف قَوِيتَ يا بن آدم على أن تبلُغ هذا الموضع ولم يبلُغه أحدٌ من ولد آدمَ قبلك ؟ ! قال : قوّانى الله الذى قوّاك على قبض هذا الجبل . فأخبِرْنى عن هذا الجبل . قال : إنه قافٌ المحيط بالأرض كلها ، ولولا هو لٱنكفأت الأرض بأهلها ، وليس على ظهر الأرض أعظم منه ، وإنه لمحيط بها كالحَلْقة ، وهو أوّل جبل أثبته الله ، فرأسُه مُلصَقٌ بسماء الدنيا ، وأسفله راسخ فى الأرض السفلى .

٩٥ / ١٢

---

(١) شهرزور (بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء المهملة والزاء المعجمة) : بلدة بين الموصل وهمذان ، بناها زور الضحاك ، فقيل شهرزور ، ومعناه مدينة زور ، وهى خصبة كثيرة المتاجر فى غزلة ، وفى أهلها لطط وجفاء . (عن تقويم البلدان) .

(٢) زيادة عن الثعلبى .

(٣) دومة الجندل (بضم الدال المهملة) : موضع فاصل بين الشام والعراق ، على سبع مراحل من دمشق ، وعلى ثلاث عشرة مرحلة من المدينة . (عن تقويم البلدان) .

وحكى إبراهيم بن وَصيف شاه فى كتاب العجائب الكبير : أنّ ذا القرنين لمّا سار إلى الظُّلمة مرّ بجزيرة فيها أمّة رءوسهم رءوسُ الكلاب العظام باديةٌ أنيابُهم، يخرج من أفواههم مثلُ لَهَب النار، وأنهم خرجوا إلى مراكبه فحاربوه فتخلّص منهم، وسار فرأى نورا ساطعا فقصده فاذا هو قد بلغ جزيرةَ القصر. قال : وهذه الجزيرة فيها قصرٌ مبنيّ بالبلّور الصافى عالى الطول يشفّ حتى يُرَى نورُه على البعد، فأراد النزول بها، فمنعه بهرام فيلسوف الهند وعرّفه أنّ من نزل اليها وقع عليه النومْ وعزَب عقلُه فلا يستطيع الخروج منها حتى يهلك . قال : ويقال إنه ظهر لهم منها قومٌ قِصَار زُعْرٌ، لباسُهم ورق الشجر. فسأل بهرامُ عن صبرهم على المُقام بها، فعرّفوه أنّ بها ثمرا اذا أكلوا منه زال عنهم ذلك، وذكروا أنهم إذا كان الليل ظهر بين شُرَف القصر مثلُ المصابيح تُسرَج إلى الصُّبح ثم تُخمَد نهارا إلى الليل فتُوقَد . قال : ويقال إنه مرّ فى طريقه بجزيرة التِّنِّين(١) وإنها جزيرة فيها جبال وأنهار وأشجار وزروع وهى عامرة ، وعلى مدينتها حصنٌ عالٍ، وبها تِنِّين عظيمٌ قد سام أهلَها أقبح سَوْم . فلمّا دخلها الإسكندر استغاثوا به من التنّين وأنه أتلف مواشِيَهم حتى إنهم جعلوا له فى كل يوم ثورين ينصِبونهما قريبًا من موضعه، فيخرج فيبتلعهما . فأمر الإسكندر بثورين عظيمين فسُلِخَا وحشا جلودهما زِفتا وكِبْريتا وكِلْسا وزِرْنيخا، وجعل مع تلك الأخلاط كلاليبَ حديد، وجعلهما فى ذلك المكان . وخرج التِّنِّين وأقبل كالسحابة السوداء وعيناه [تلمعان](٢) كالبرق، والنار تخرج من جوفه، فابتلعهما ومضى، فاضطرمت تلك الأشياء فى جوفه، فلمّا أحسّ بثقلها ذهب ليقذفها، فتشبّكت

(١) هذه الجزيرة تسمى « جزيرة المستشكين » كما ورد فى الجزء الثانى من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ص ٦٧) الذى تقوم بطبعه دار الكتب المصرية وقد ذكر حكاية الإسكندر والتنين بتوسع عما هنا . (٢) زيادة عن مسالك الأبصار .

الكلاليب فى حلقه نخرّ وفتح فاه ليستَرْوِح، فأمر الإسكندر بقِطَع الحديد فأُحمِيَتْ وحُمِلت على ألواح من حديد وقُذِفت فى حلقه فمات . ففرح أهل ذلك الموضع بموته وألطفوا الإسكندر وحملوا اليه من طرائف ما عندهم . وكان فيما حملوه اليه دابّة فى خَلْق الأرنب ، شعرها أصفر يبرق كالذهب، يسمّونها المعراج[1]، وفى رأسها قرن واحد أسود، اذا رأتها الأسود وسباع الوحش وكلّ دابّة هرَبت منها .

وقال الأنماطىّ فى سياقة أخبار الإسكندر عن وهب تلو خبر السدّ : ثم انطلق ذو القرنين بعد ذلك، فبينما هو يسير إذ مرّ على شيخ يصلّى، فوقف عليه بجنوده حتى إذا آنصرف من صلاته قال له : كيف لم يَرُعْك ما حضرك من الجنود؟ ! قال: كنت أُناجى مَنْ جنودُه أكثرُ من جنودك ، وسلطانُه أعزُّ من سلطانك، وقوّته أشدّ من قوّتك؛ ولو صرفتُ وجهى إليك لم أدرك حاجتى قِبَله . قال له : هل لك أن تنطلق معى وأواسيَك بنفسى وأستعينَ بك على بعض أمرى ؟ قال : نعم ، إن ضمِنتَ لى أربعةَ خِصالَ : نعيمٌ لا يزول ، وصحةٌ لا سَقَمَ فيها ، وشبابٌ لا كِبَرَ فيه، وحياةٌ لا موت فيها . قال له ذو القرنين : وأىّ مخلوق يقدر على هذه الخصال ! . قال الشيخ : فإنّى مع مَن يقدر عليها ويملكها، فتركه وسار . فبينما هو يسير إذ دَفَع الى الأمة الصالحة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدِلون ، فوجد أمّة مُقسِطةً عادلةً يَقسمون بالسَّوِيّة ، ويحكمون بالعدل ويتواسَوْن، فكلمتُهم واحدة، وقلوبُهم مؤتلفة مستقيمة ، وسيرتُهم مستوية، وقبور موتاهم فى أفنيتهم؛ وليس على بيوتهم أبواب تُغلَق ، وليس عليهم أُمراءُ[2] ، ولا قضاة بينهم ، ولا أشراف

(١) كذا فى حياة الحيوان للدميرى (ج ٢ ص ٣٨٤) وعرفها بقوله : «المعراج : دابة عظيمة عجيبة مثل الأرنب صفراء اللون على رأسها قرن واحد أسود لم يرها شىء من السباع والدواب إلا هرب، ذكرها القزوينىّ فى جزائر البحار» . وفى الأصول : «يسمونه بفراج» وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : «وليس على أبواب بيوتهم» .

يتفاوتون، ولا يتفاضلون ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يتسابّون ولا يقتتلون ولا يقحَطون ولا تصيبهم الآفات؛ فعجِب من أمرهم وقال: أخبرونى خبركم أيّها القوم؛ فإنّى قد أحصيتُ الأرض شرقَها وغربَها، وسهلَها وجبلَها، وبَرَّها وبحرها، ونورَها وظُلْمتها، فلم أرَ مثلكم. قالوا: سَلْنا عمّا بدا لك نُخْبِرْك. قال: ما بال قبوركم فى أفنيتكم وعلى أبواب بيوتكم؟ قالوا: لئلا ننسى الموت ولا يخرجَ ذكره من قلوبنا. قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟ قالوا: ليس فينا متّهم ولا ظَنِين، ولا فينا إلّا مُؤتَمَنٌ أمين. قال: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لأنّا لا نتظالم. قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟ قالوا: لأنّا لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من قِبَل أنّا متواسُون متراحمون. قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟ قالوا: ٩٦/١٢ لأنّا لا نتنافس. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من ألفة قلوبنا وصلاحِ ذاتِ بيننا. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالوا: نحن لا نختصم. قال: فما بال كلمتكم واحدة؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضا. قال: فأخبرونى من قِبَلِ ماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سِيرتكم؟ قالوا: من صحّة صدورنا، فنزع الله بذلك الغِلّ والحسَد من قلوبنا. قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قِبَل أنّا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظٌ؟ قالوا من قِبَل الذل والتواضع. قال: فأخبرونى بماذا أنتم أطول الناس أعمارا؟ قالوا: من قِبَل أنّا نتعاطَى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: فما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: لأنّا لا نغفُل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تُصيبكم الآفات؟ قالوا: من قِبَل أنّا لا نتوكّل إلّا على الله، ولا نَستمطر بالأنواء ولا بالنجوم. قال: أهكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالوا: وجدنا آباءنا يُعطُون مسكينهم، ويُواسُون فقيرهم، ويوقّرون غنيّهم، ويعفُون عمّن ظلمهم، ويُحسنون الى مَن أساء اليهم،

و يحلُمون عمّن جهِل عليهم، و يستغفرون لمن سبّهم، و يَصِلون أرحامهم، و يؤدّون أماناتهم، و يحفظون وفاءهم لصلاحهم، و يُوفون بعهدهم. و يصدقون فى مواعيدهم، ولا يرغبون عن أكفائهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم؛ فأصلح الله تعالى لهم بذلك أمرهم، وحفِظهم به ما كانوا أحياء. قال: فأقام ذو القرنين عنـدهم حتى قبضه الله عزّ وجل، ولم تُطل مدّة إقامته فيهم. قال وهب: عاش منذ بعثه الله تعالى الى أن قُبض خمسمائة عام. وقال غيره: أكثر من ذلك، وقد ذكر فى المعمَّرين. وقيل: إنه عاش ألف وستمائة وخمسين سنة ومات فى حياة أمه. وقيل: إنه أدرك إبراهيم الخليل واجتمع معه وأركبه من دوابّه. حكاه الأزرقىّ وأبو عبيد البكرىّ. والله أعلم.

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفنّ الخامس

فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم ملوك الهند والصين والترك وجبل الفتح وملوك مصر

ذكر أخبار ملوك الهند

قال المسعودى فى مروج الذهب[١] : ذكر جماعة من أهل النظر والبحث الذين واصلوا البحث والعناية بتأمل شأن هذا العالم [و بدئه][٢] أنّ الهند كانت فى قديم الزمان الفرقةَ التى فيها الصلاح والحكمة، وأنه لمّا تجيّلت الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة وتستولى على الحوزة وتكون الرياسة فيها. قال كبراؤهم: نحن كنّا أهلَ البدء وفينا التناهى، ولنا الغاية والصدر والانتهاء، ومنّا سرى الأب الى الأرض، فلا شاقّنا أحدٌ ولا عاندنا ولا أراد بنا الاغتماص[٣] إلّا أتينا عليه وأبدناه أو يرجعَ[٤] الى طاعتنا . فأجمعت على ذلك رأيها ونصبتْ لها ملكا، وهو « البَرهَمَن » الأكبر والملك الأعظم، واليه تُنسَب طائفة البراهمة بالهند، لا الى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم . وهذا «البرهمن» هو الإمام المقدّم فيهم الذى ظهرت فى أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء، وأمر بآستخراج الحديد من معادنه، وضربت فى أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع السلاح وآلات القتال، وشيّد الهيا كل ورصّعها بالجواهر النفيسة المشرقة، وصوّر فيها الأفلاك والبروج الاثنى عشر بُرُجا والكواكب، وبيّن بالصورة

---

(١) راجع (ج ١ ص ٣٥ طبع بلاق) .

(٢) زيادة عن مروج الذهب .

(٣) الاغتماص : الاحتقار والاستصغار .

(٤) كذا فى المسعودى . وفى الأصول : « ليرجع » .

كيفيّة العالم ، وأرى بالصورة[(١)] أيضا كيفيّة أفعال الكواكب فى هذا العالَم وإحداثها للأشخاص الحيوانيّة من الناطقة وغيرها ، وبيّن حال المدبِّر الأعظم الذى هو الشمس ، وبرهن على ذلك كلّه وقرّبه إلى عقول العوامّ[(٢)] وأذهانهم ففهموه ، وغرس فى نفوس الخواصّ دراية ماهو أعلى من ذلك ، وأشار إلى المُبدئ الأوّل المُعطى ٩٧/١٢
لسائر الموجودات [وُجُودَها الفائض عليها بجُوده[(٣)]]. فانقادت له الهند ، وأراهم وجه مصالح الدنيا وأخصبت بلادهم . وجمع الحكماءُ فى أيامه كتاب «السند هند»[(٤)] ، وتفسيره دهر الدهور[(٥)] ، ومنه فُرِّعت الكتب ، ككتاب الأزجهير والمَجَسْطِى ، وفُرِّع [من الأزجهير الأركند ومن المجسطى[(٦)]] كتاب بطليموس ، ثم عُمِل منها بعد ذلك الزِّيجات . وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندىّ . وكان البرهمن هذا أوّل من تكلم فى أوج[(٧)] الشمس ، وذكر أنه يقيم فى كلّ بُرُج ثلاثة آلاف سنة ، ويقطع الفَلَك فى ستّة وثلاثين ألف سنة ، الى غير ذلك من هذا الفنّ . وكان مُلْك البرهمن الى أن هلك ثلاثمائة سنة وستا وستين سنة ، وولده يعرفون بالبراهمة ، والهند تعظّمهم الى وقتنا هذا ، وهم أعلى أجناسهم وأشرفُهم ، وهم لا يتغذّون بشىء من الحيوانات ، وفى رقاب النساء والرجال منهم خيوط صُفْر يتقلّدون بها كحمائل السيوف ، تفرّق بينهم

(١) فى مروج الذهب : «وأورد» . (٢) كذا فى مروج الذهب . وفى الأصل : «إلى عقول القوم» . (٣) التكملة عن مروج الذهب .

(٤) السند هند أحد المذاهب الثلاثة المشهورة للهند فى علم النجوم ، وهى مذهب السند هند ، ومذهب الأزجير ، ومذهب الأركند . ومذهب السند هند هو المذهب الذى تقلده جماعة من الاسلام وألفوا فيه الأزياج كمحمد بن إبراهيم الفزارى وحبش بن عبدالله البغدادى ومحمد بن موسى الخوارزمى والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمى وغيرهم . (راجع طبقات الأمم لابن صاعد ص ١٩ طبع مصر) .

(٥) فى طبقات الأمم أن معنى «السند هند» الدهر الداهر .

(٦) الزيادة من مروج الذهب . وفى الأصول : «وفرع منها» .

(٧) قال المسعودى فى مروج الذهب : «والأوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى برج الثور ، وأنه إذا انتقل إلى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابا والخارب عمارا ، والشمال جنوبا والجنوب شمالا ... الخ» ثم ذكر المسعودى كلاما طويلا .

قال : وفى أعالى نهر الخَزَر مصبٌّ يتّصـل بخليج من نهـر نِيطش، وهو بحر للُّروس لا يسلُكه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحله . وهى أمّة عظيمة لا تنقاد الى ملك ولا الى شريعة. وفى أرض الرُّوس معدن من الفضّة. قال : والرُّوس أمم كثيرة (١) ، فمنهم جنس يقال لهم البوداغية (٢) ، وهم الأكثر . يختلفون بالتجارات الى بلاد الأندلس والقسطنطينية ورومية . قال : وبين مملكة حَيْزان التى ذكرناها وبين البـاب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يُحسنون غير اللغـة العربية فى آجام هنالك وغياض وأودية وأنهـار، ولهم قرى قد سكنوها . وهم على نحو من ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب .

قال : ويلى مملكة حَيْزان ممـا يلى الفتح والسُّغْد ملك يقال له برزينان (٣) مسلم، ويعرف بلد هذا الملك بالكُرْج . وكل ملك يلى هذه المملكة يدعى برزينان . ثم يلى مملكة برزينان ملك يقـال له عينق (٤) ، وهم يدينون بدين النصرانيـة ، لا ينقادون لملك ، ولهم رؤساء ، وهم مهادنون لأهـل مملكة اللّان . ثم يليهم ممـا يلى السور ١٠٣/١٢ والجبـل مملكة يقـال لها زِرِهْ كَرَان . وتفسير ذلك بالعربية عمّـال الزَّرَد ؛ لأن أكثرهم يعملون الزَّرَد والسـيوف والُّلجُم والرُّكُب وغير ذلك من آلات الحديد . وهم ذوو أديانـ مختلفة من المسلمين والنصـارى واليهود . وبلدهم بلد ممتنع خَشِنٌ (٥) قـد آمتنعوا فيه ممن جاورهم من الأمم لخشونته . ثم يلى هؤلاء مَلِك السرير

(١) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « أمة كبيرة » . (٢) فى أ : « النوذاغية » بالنون والذال المعجمة . وفى المسعودى : « المودغانه » . (٣) كذا فى معجم البلدان لياقوت فى كلامه على الكرج . وفى الأصول : « بزرنيان » . وفى المسعودى : « مدرمان » .

(٤) فى المسعودى : « عميق » . (٥) ذكر المسعودى أنه من ولد بهرام جور . وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد حين ولى منهزما قدّم سرير الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام ليسير بها الى هذه المملكة فيحرزها هناك الى وقت موافاته ، ومضى يزدجرد الى خراسان فقتل هناك وذلك فى خلافة عمر رضى الله عنه ، فقطن ذلك الرجل فى هذه المملكة وآستولى عليها وصار الملك فى عقبه ، فسمى صاحب السرير .

ويدعى قُبْلان شاه يدين بالنصرانية . ودار مملكته تعرف بخندج (١) ، وله اثنتا عشرة ألف قرية يستعبد منهم من شاء . وبلده بلد منيع . وهو شُعْبٌ من جبل الفتح . وهذا الملك يغير على الخَزَر ويستظهر عليهم . ثم يلى هذه المملكة مملكة اللّان . وملكها يقال له كُرْكُنداج (٢) ، وهذا الاسم غالبٌ على سائر ملوكهم . وكانوا جاهليّة ثم دانوا بالنصرانيّة ، ثم رجعوا فيها بعد العشرين والثلاثمائة . وصاحب اللّان يركب فى ثلاثين ألف فارس . ثم يلى ملك اللان أمّة يقال لها كَشك . وتفسير هذا الاسم بالفارسية التِّيه والصَّلَف . وهم بين جبل الفتح وبحر الروم . وهى تنقاد الى دين المجوسيّة . قال : وليس فى الأمم التى ذكرناها أنقى أجسادا ، ولا أصفى لونا ، ولا أحسن رجالا ، ولا أصبح نساءً ، ولا أقوم قدودا ، ولا أرقّ أخصارا وأظهر أردافا ، ولا أحسن شكلا من هذه الأمّة . ونساؤهم موصوفات بلذّة الخلوة . ولباسهنّ البياض والدِّيباج الرومىّ والسَّقْلاطون (٣) وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب . واللّان تستظهر على هذه الأمّة إلّا أنها تمتنع منهم بقلاع لها على ساحل البحر . وتلى هذه الأمّة على ساحل البحر أمّة يقال لبلدهم السبع بلدان ، وهى أمّة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار . ويلى هذه الأمّة أمّة عظيمة يقال لها إرَم [ذات العماد] (٤) ذوو خلق عجيب جاهليّة الآراء . ويلى هذه الأمّة صحراء نحو من مائة ميل ، بين جبال أربعة ، كل جبل منها ذاهب فى الهواء ، فى وسط هذه الصحراء دارة مقوّرة كأنها خُطّت ببِرْكار (٥) ،

(١) فى المسعودىّ : « تعرف بجبرج » ولم نهتد الى الصواب فيه .

(٢) فى ياقوت فى كلامه على اللان والمسعودى : « كركنداح » بالحاء المهملة .

(٣) السقلاطون : الملابس الملوّنة بالألوان القرمزية وغيرها . وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه . (راجع القاموس الانجليزى الفارسىّ) .

(٤) التكملة عن المسعودى .

(٥) البركار (بالكسر) : آلة ذات ساقين ترسم بها الدوائر ، وهى المعروفة بالبرجل .

منحوتة فى حجر صَلْد، استدارتها نحو من خمسين ميلا قَطْعٌ قائمٌ كأنه حائط مبنىّ، يكون قعرها نحوا من ميلين، لاسبيل الى الوصول الى مستوى تلك الدارة، و يُرى بها بالليل نيران كثيرة فى مواضع مختلفة ، و يرى فيها بالنهار قرى وأنهارٌ تجرى ، وفيها ناس و بهائم إلا أنهم يُرَوْن لطاف الأجسام لبُعْد قعر الموضع لا يُدرَى من أىّ الأمم هم . ولا سبيل الى صعودهم ولا الى النزول اليهم من جهة من الجهات . ووراء تلك الجبال خَسْفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه، الأغلب عليها صُوَر الناس وأشكالهم إلا أنهم ذوو شعور. قال : و ربّما وقع فى النادر منها القرد اذا آحتيل عليه فى آصطياده، فيكون فى نهاية الفَهْم والدراية . و ربّما حُمِل الواحد منها الى الملوك فيُعلَّم القيام على رأسه بالمِذَبّة . ولهم خاصيّة بمعرفة المسموم من المآكل والمشارب . فإذا دنا الطعام منها شمّته و يُلقَى لها الشىء منه فإن أكلته أكله الملك، و إن آمتنعت علم الملك أنّ ذلك مسموم .

قال : وفيما بين بلاد الخَزَر و بين بلاد المغرب أمم أربع من الترك ترجع فى أنسابها الى أب واحد ، وهم حَضَرٌ و بَدْوٌ ، ذوو مَنَعة و بأس شديد . ولكل أمّة منها ملك . ومسافة كل مملكة منها أيام، متّصلة ممالكهم بعضها ببحر نِيطِش . وتتّصل غاراتهم ببلاد رومية ومايلى بلاد الأندلس . وهى تستظهر على سائر مَن هنالك من الأمم . و بينهم و بين الخزر واللّان مهادنة، و بلادهم تتّصل بممالك الخزر . فالجيل الأوّل منهم يقال له نجا . ويليه بجعود (١) . و يليه بَجناك ؛ وهى أشدّ هذه الأمم الأربع بأسا، و يليه أنو جرذد (٢) . وكانت لهم حرب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة . و يلى بلاد آللان أيضا أمة يقال لها الأبخاز تَدين بالنصرانية ، وملك اللّان مُستظهِر عليهم وهم متّصلون بجبل الفتح . ثم يلى بلاد الأبخاز مَلِك الخزَرية، وهم أمّة عظيمة منقادة

(١) فى المسعودى : « بجغرد » . (٢) فى المسعودى : « البوكرده » .

الى دين النصرانية تُدعَى خزَران ولها ملك . قالوا : وكانوا يؤدّون الخراج الى صاحب ثَغْر تَفليس . وتليهم أمّة يقال لها الصمصحيّة نصارى، ومنهم جاهليّة لا مَلِك لهم . ويليهم بين ثغر تِفْليس وقلعة باب اللّان مملكة يقال لها الصنبارية [١]، وملكهم يقال له كريشكُوش [٢]، ينقادون الى النصرانيّة، ويزعمون أنهم من العرب من نزار بن معدّ . ١٠٤ / ١٢
ثم يلى مملكة الصنباريّة مملكة شكى [٣] وهم نصارى . ويليهم مملكة أخرى وهى مأوى الصعاليك والدُّعّار ، ثم تتصل بمملكة المُوقانيّة وهى التى على ساحل بحر الخزر . والله أعلم بالصواب .

(١) كذا فى المسعودى . وفى الأصول : « الضارية » .
(٢) فى المسعودى : « كرمكوس » . (٣) فى المسعودى : « سكين » .

⁂

تم الجزء الرابع عشر، ويليه الجزء الخامس عشر
وأوّله : ذكر أخبار مصر

⁂

كَمُلَ طبع "الجزء الرابع عشر من نهاية الأرب فى فنون الأدب"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٧ محرّم سنة ١٣٦٢
(٢ فبراير سنة ١٩٤٣) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة الدار ١٩٣٨/٨٢/٢٥٠٠)

و بين غيرهم من أنواع الهند. وقد تنوزع فى البرهمن ، فمنهم من زعم أنه آدم وأنه رسول من الله الى الهند، ومنهم مَن زعم أنه كان ملكا، على حسب ما قدمناه وهو الأشهر. ولمّا هلك البَرَهْمَن جزِعت عليه الهند جزعا شديدا ، وملّكت عليها ولده الأكبر .

ذكر تنصيب ٱبن البَرَهْمَن وهو الباهبُود(١)

وكان ولىّ عهد أبيه من بعده . فسار فيهم سيرَة أبيه وأحسن النظر إليهم ، وزاد فى بناء الهياكل، وقدّم الحكماء ورفع من مقدارهم و زاد فى مراتبهم، وحثّهم على تعليم الناس الحكمة و بعثهم على طلبها . وكان مُلْكه الى أن هلك مائةَ سنة . و فى أيامه عمِل النّرد ولعِب به ، وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لاتُنَال بالكَيْس ولا بالحِيَل فى هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتّى فيها بالحذق . وذكر أن أرْدَشير بن بابك أوّل مَن وضع النّرد ولعب بها ، وأرى تقلُّب الدنيا بأهلها وٱختلاف أمرها . وجعل بيوتها ٱثنى عشر بعدد الشهور ، وجعل مهارِكَها(٢) ثلاثين بعدد أيام الشهر ، والفصوص أمثلة للقَدَر وتقلبه بأهل الدنيا وأن الانسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القَدَر له فى مراده بها ما يريد ، وأن الحازم الفَطِن لا يتأتّى له ما يتأتّى لغيره اذا لم يُسعده القَدَر ، وأن الأرزاق لا تُنال فى هذه الدنيا إلا بمقادير .

ثم ملك بعده رامان(٣)، فكان مُلْكه نحوًا من خمسين ومائة سنة . قال : وله سِيَر وأخبار وحروبٌ مع ملوك فارس وملوك الصين .

ثم ملك بعده فُور ، وهو الذى قتله الإسكندر بن فِيلِبْس اليونانىّ مبارزةً . وكان مُلْكه الى أن قُتِل أربعين ومائة سنة .

---

(١) فى مروج الذهب للمسعودى (ج ١ ص ٣٧) : « الباهود » .
(٢) فى المسعودى « كلابها » .
(٣) فى المسعودى : « دامان » .

ثم ملك بعده تسام،[1] وهو الذى وضع كتاب كليلة ودمنة الذى نقله آبن المقفّع. وكان مُلكه مائة وعشر سنين،[2] وقيل غير ذلك .

ثم ملك بعده بلهيت . وفى أيامه صُنِعت الشِّطْرَنْج فقضى بلعبها على النَّرْد، وبيَّن الظَفَر الذى يناله الحازم والنكبة التى تلحق الجاهل وحسب حسابهما، ورتّب لذلك كتابا للهند يتداولونه بينهم، ولعب بها مع حكمائه . وكانت مدّة مُلكه الى أن هلك نحوا من ثمانين سنة، وفى بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة .

ثم ملك بعده كُوش،[3] فأحدث للهند آراءً فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت ، وما يحتمله أهل العصر من التكليف، وخرج عن مذاهب مَن سَلَف . وكان فى مملكته وعصره سندباد، وله كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وآمرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بكتاب السندباد . وعُمِل لهذا الملك الكتاب الأعظم فى معرفة العِلَل والأدواء والعلاجات وأشكال الحشائش وصفتها . وكان مُلْك هذا الملك الى أن هلك عشرين ومائة سنة . ولمّا هلك اختلفت الهند فى آرائها فتحزّبت الأحزاب وتجيّلت الأجيال، وآنفرد كل رئيس بناحيته، فملَك على أرض السند ملك ، وعلى أرض القِنّوج ملك ، وعلى أرض قِشْمير ملك . فكانت مدة آجتماع ٩٨/١٢ الكلمة ببلاد الهند على ملك واحد على هذا الحكم نحوا من ألف سنة وستّ وستين سنة ، وعلى القول الآخر ألف سنة ومائة سنة وست عشرة سنة . وعدّة ملوكهم سبعة ملوك . والله تعالى أعلم .

(١) فى المسعودى : « دستلم » .

(٢) فى المسعودى : « وعشرين سنة » .

(٣) فى المسعودى : « كورس » .

وملك بعد كُوش بمدينة المانكير وهى الحَوْزة الكبرى ملك يسمّى البَلْهَرَا . قال المسعودىّ : وأرض الهند أرضٌ متّسعة فى البرّ والبحر والجبال . وملكهم يتّصل بملك الزَّنج وهى دار مملكة المَهْراج . وهذه المملكة فَرْزٌ بين مملكة الهند والصين . قال : ومن عادة الهند أنها لا تملّك الملك حتى يبلغ عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلّا فى كل برهة معلومة من الزمان . ويكون ظهور الملك للنظر فى أمور الرعيّة . وقال أيضا : رأيت فى بلاد سَرَنْديب[1] ، وهى جزيرة من جزائر البحر اذا مات ملكهم صيّروه على عجلة صغيرة البَكَر ، وشعره ينجرّ على الأرض ، وآمرأةٌ بيدها مِكْنسةٌ تحثو التراب على رأسه وتنادى : أيها الناس ، هذا مِلكُكم بالأمس قد مَلَككم وجاز فيكم أمره قد صار الى ما تَرَوْن من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الملوك الحىّ القديم الذى لا يموت . فلا تغترّوا بالحياة بعده . وكلامٌ هذا معناه من الترهيب والتزهيد فى هذا العالَم . ويطاف به فى جميع شوارع المدينة وهو كذلك ؛ ثم يُفصَل بأربع قِطَع وقد هُيِّئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطِّيب ويُحرَق بالنار ويذرى رماده فى الرياح . قال : وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه . قال : والمُلْك مقصور فى أهل بيت لا ينتقل منهم الى غيرهم . وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أرباب المراتب ، تتوارث مناصبهم ولا تغيّر ولا تبدّل . وعندهم أنّ ملكهم متى شرب الشراب فقد آستحق الخلع . والله الهادى .

---

(١) سرنديب : هى جزيرة سيلان الآن .

ذكر أخبار ملوك الصين

قال أبو الحسن علىّ بن عبد الله المسعودىّ فى كتابه المترجم بمروج الذهب[١] : لمّا قسم فَالَغُ[٢] بن عَابَرَ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح سار ولد عامور[٣] بن تُوبَلَ[٤] بن يَافَثَ بن نوح يَسْرةَ المشرق، فكان منهم أجناس الترك. وسار الجمهور من ولد عامور[٣] على ساحل البحر حتى آنتهوا الى أقاصيه من بلاد الصين . فتفرّقوا فى تلك البقاع والبلاد وقطنوها وعمّروها، وكوّروا الكُوَرَ، ومصروا الأمصار، ومدّنوا المُدُن، وآتخذوا للملك مدينة عظيمة سمّوها إيقو[٥] و بينها و بين ساحل البحر الحبشىّ ، وهو بحر الصين مسيرة ثلاثة أشهر، مدن وعمائر متصلة . فكان أوّل مَن تملّك عليهم فى هذه الديار نسطِيرطاس[٦] بن ماعور[٧] بن بزنج[٨] بن عامور[٣] . قال : ولمّا ملك فرّق أهله فى تلك الديار ، وشقّ الأنهار ، وغرس الأشجار، وطعّم الثمار ، وقتل السباع . وكانت مدّة ملكه ثلاثمائة سنة ونيّفا وهلك .

فقام بالأمر بعده ولده عَرُون بن نسطيرطاس، فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب الأحمر جزعًا عليه وتعظيما له ، وأجلسه على سرير من الذهب مُرصّع بالجوهر . وجعل مجلسه دونه، وسجد له وهو فى جوف ذلك التمثال ، وسجد معه أهل مملكته . وفعل ذلك فى كل نهار فى طرفيه . وكانت مدّة مُلكه بعد أبيه نحوًا من مائتى سنة وخمسين سنة ثم هلك .

(١) راجع (ج ١ ص ٦١ طبع بلاق) .

(٢) فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٨) : « فالج » بالجيم المعجمة . (٣) فى المسعودى : « عابور » . (٤) كذا فى الكتاب المقدّس (ج ١ ص ١٧) وفى الأصل : « مربل » .

(٥) فى المسعودى : « انموا » . (٦) كذا فى ب . وفى أ هنا ، « فنطرطاس » . وفى المسعودى : « اسطرماس » . (٧) كذا فى أ . وفى ب : « ياعور » . وفى المسعودى : « فاعور » . (٨) فى المسعودى : « بريج » .

فملك بعده آبنه عِبِيرونُ(١) بن عَمرُون . ولمّا ملك جعل جسد أبيه عَمرون فى تمثال من الذهب ونصبه دون مرتبة جدّه، وكان يبدأ بالسجود لجدّه ثم يسجد لأبيه، وساس الرعيّة بأحسن سياسة ، وساواهم فى جميع أمورهم ، وشملهم بعدله ، وكثر النسل، وأخصبت الأرض . وكان مُلْكه الى أن هلك مائتى سنة . ٩٩/١٢

ولمّا مات ملك بعده ولده عَثِينانُ(٢) بن عَبِيرون . قال : ولمّا ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب ، وجرى فى أمره على ما سلف من عادتهم فى السجود والتعظيم . وطالت مدّته فى الملك ،وآتسعت مملكته حتى آتصلت بلاده ببلاد الترك من بنى عمه . وآتّخذ فى أيامه كثيرٌ من المهن مما لطف فى الرقة من الصنائع ، وعاش أربعمائة سنة ثم هلك .

فملك بعده آبنه حَرَانانُ(٣) بن عَثِينان . قال : ولما ملك جرى فى جسد أبيه على عادتهم ، ثم أمر بآتّخاذ الفُلْك وحمل فيها الرجال، وحمل معهم لطائف بلاد الصين وسفّرهم نحو بلاد الهند والسند والى إقليم بابل وسائر الممالك مما قرب وبعد فى البحر . وأهدى الى الملوك الهدايا العجيبة والتحف النفيسة . وأمر أصحابه الذين سفّرهم أن يجلبوا إليه ما فى كل بلد من الطرائف والتحف والمأكول الذى لا يوجد فى بلاده ، والمشروب والغروس وأصناف الأقمشة والأمتعة وغير ذلك . وأمرهم أن يتعرّفوا سياسة كلّ ملك، وملّة كل أمة وشرائعها ونهجها الذى هى عليه ، وأن يرغّبوا الناس فيما فى بلادهم من الجواهر والطِّيب والآلات . فتفرّقت تلك المراكب فى البلاد وفعلوا ما أمرهم به ، فلم يَرِدُوا على مملكة من الممالك إلّا أُعجبوا بهم وآستظرفوا ما معهم . فأنشأت الملوك المحيطة ممالكهم

---

(١) فى المسعودى : « عبرور » . (٢) فى المسعودى : « عينيان » .

(٣) فى أ : « جرابان » . وفى المسعودى : « حرامان » .

بالبحار السفن وجهزت نحو الصين، وحملوا إليهم ما ليس عندهم، وكاتبوا ملكهم وكافئوه على ما كان قد هاداهم به من تحف بلاده، فعمرت بلاد الصين، وآستقامت أمور مملكة الصين . فكانت مدة حياته فى الملك نحوا من مائتى سنة وهلك. فجزع أهل مملكته عليه وحزنوا حزنا شديدا، وأقاموا النياحة عليه شهرا .

وملك بعده ابنه توتال[1] بن حراتان . قال : ولما ملك جعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب، وسلك فيه سنة من تقدمه من آبائه ، وآستقام أمره، وأحدث من السُّنَن المحمودة ما لم يُحدثه أحدٌ من الملوك قبله . وقال لأهل مملكته : إنّ المُلْك لا يثبت إلا بالعدل لأنه ميزان البارى ، وإنّ من العدل الزيادة فى الإحسان مع الزيادة فى العمل . وخصّ وشرّف وتوج ورتّب الناس فى رتبهم ، ووقفهم على طرائقهم . وخرج يرتاد موضعا يبنى فيه هيكلا، فوافى موضعا عامرا بالنبات، حسن الاعتمام بالزهر، تخترقه المياه . فخط الهيكل هناك، وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان، فشيّد الهيكل وجعل على أعلاه قبّة، وجعل لها مخارق للهواء متساوية . وجعل فى الهيكل بيوتا لمن أراد الآنفراد للعبادة . فلمّا فرغ من الهيكل نصب فى أعلاه تلك التماثيل التى فيها أجسام مَن سلف من آبائه، وقال : فى ترك ذلك على ما هو عليه خروج عن حدّ الحكمة ، ويكون ذلك الى غير غاية ونهاية. وأمر بتعظيم تلك الأجساد التى جعلها فى أعلى القبّة . ثم جمع الخواصّ من أهل مملكته وأخبرهم أنّ من رأيه أن يضمّ الناس الى ديانة يرجعون إليها فيجتمع الشمل ويتساوى النظام، وقال: إنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزَّلَل ؛ فرتّب لهم سياسة وشريعة وفرائض[2] ، ورتّب لهم قِصَاصًا

(١) فى المسعودى : « تومامان » .

(٢) فى المسعودى : « فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطا » .

للنفوس والأعضاء ، وقاعدةً تستباح بها الفروج وتصحّ بها الأنساب . وجعل ممـا رتّبه وقرّره لوازم ونوافل ، وأوجب عليهـم صلواتٍ لخالقهم تقرّبا الى معبودهم [منها] إيماءً (١) لا ركوعَ فيها ولا سجود [فى أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود](١) فى أوقات من السنين وفى شهور محدودة . ورسم لهم أعيادا ، وأوجب على الزُّناة منهم حدودًا ، وعلى مَن أراد من نسائهم البِغاءَ جزيةً مقرّرة ، وألّا يسـتبحن بالنكاح وقتا من الأوقات ، وإن أقلعن عمّـا كنّ عليه [تكف الجزية عنهنّ](٢) . وما يكون من أولادهنّ ذكورًا (٣) يكونون للملك جُنْدا وعبيدا ، وما يكون من أولادهنّ إناثا فلأمهاتهنّ ويلحقن بصنعتهنّ . وأمر بقرابيـــن للهياكل ودُخْنٍ وأبخـرة للكواكب ، وجعل لكل كوكب منها دُخْنًا (٤) يتقرّب إليه بها معمولة من أنواع الطِّيب والعقاقير . وأحكم لهم جميع الأمور ، فاستقامت أيامه وكثُر النســل . فكانت مدّة حياته نحوًا من مائة وخمسين ســنة ثم مات ، فجزعوا عليـه جزعا عظيما ، وجعلوه فى تمثال من الذهب ورصّـعوه بالجوهر وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا فى أعلاه ١٠٠/١٢
سبعة أنواع من الجوهر على ألوان الكواكب السبعة وأشكالها ، وجعلوا يوم وفاته صلواتٍ وعيدًا يجتمعون فيه عند [ذلك](١) الهيكل ، وصوّروا صورته وذكروا سيرته فى لوح من الذهب ، وجعلوه فى أعلى الهيكل من حيث تراه الأبصار ليكون ذلك مثالا لمن يَرِد بعـده فى السياسة ونهج السيرة وصوّروا صورته على أبواب المدينة . وعلى الدنانير والفلوس والثياب . وأكثر أموالهم الفلوس الصُّفْر والنُّحاس . قال : وآستقرّت هذه المدينة دار ملك الصين وهى مدينة إيقو (٥) . قال : ولهم مدينة عظيمة

(١) التكملة عن المسعودى . (٢) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : «والشهور معدودة» .
(٣) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : « ذكورهنّ للملك جندا وعبيدا وما كنّ من إناث... » .
(٤) فى المسعودى : « ... وجعل لكل كوكب منها وقتا يتقرّب اليه فيه مذخر — صوابه بدخن وهو ذريرة يدخن بها — معلوم من أنواع الطيب والعقاقير » . (٥) فى المسعودى : «انموا» كما تقدم .

نحو ما يلى مغرب الشمس من أرضهم يقال لهـا مدو ، وتلى بلاد التُّبّت . والحرب بين أهل مدو و بين أهل بلاد التُّبّت سجال . ولم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورُهم منتظمة ، وأحوالهم مستقيمة ، والخصب والعدل لهم شامل ، والجور فى بلادهم معدوم ، يقتدون بما نصب لهم توتال من الأحكام . وحروبهم على عدوّهم قائمة ، وثغورهم مشحونة ، والرزق على الجنود جار ، والتجّار يختلفون اليهم فى البرّ والبحر من كل بلد . ودينهم دين من سلف من آبائهم ، وهى ملّة تُدعَى السُّمَنية[1] ، [عباداتهم][2] نحو من عبادات قريش قبل الاسلام ، يعبدون الصُّوَر و يتوجهون نحوها بالصلوات . فاللبيب فيهم يقصد بصلاته الخالق عزّ وجل ، و يقيم التمثال من الأصنام وغيرها مقام قِبْلة . والجاهل ومن لا عِلْم له يُشرك هذه التماثيل با[لاهية][2] الخالق و يعتقدهما[3] جميعا ، وأنّ عبادتهم الأصنام تقربهم الى الله زُلْفَى ، وأنّ منزلتهم فى العبادة تنقُص عن البارئ بجلالته وعظمته وسلطانه ، وأنّ عبادتهم لهـذه الأصنام طاعة له ووسيلة ، الى أن ظهرت فى أهل الصـين آراء ونِحَلٌ حدثت من مذاهب الثَّنَوِيّة[4] وأهل الدهر . وقد كانوا قبـل ذلك فى الآراء وعبادة التماثيل على حسب ما عليـه عوامّ الهند وخواصّهم ، فتغيّرت أحوالهم و بحثوا وتناظروا ، إلّا أنهم ينقادون فى جميع أحكامهم الى ما نُصِب لهم من القـاعدة التى قدّمناها . قال : ومُلْكهم متصل بمُلْك الطُّغُزْغُز[5] . وكان اعتقاد

---

(١) السمنية (بضم ففتح) : قوم بالهند من عبدة الأصنام دهريون قائلون بالتناسخ و ينكرون وقوع العلم بالأخبار . يقال إنه نسبة إلى سمن اسم صنم لهم . وقيل : إن نسبتهم إلى بلد بالهند يقال لها سومنات . فتكون النسبة على غير قياس . (راجع شرح القاموس مادة سمن) . (٢) التكملة من المسعودى .

(٣) كذا فى المسعودى . وفى الأصل : «و يعبدهما» . (٤) الثنوية : أصحاب الاثنين . يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام والنور يتساويهما فى القدم واختلافهما فى الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأرواح . (راجع الملل والنحل للشهرستانى) . (٥) و يقال لهم أيضا طغزغز (بزايين) وتغزغز وتغرغر : جيل من الترك كانوا يسكنون أرضا واسعة على حدود الصين ، وهم فيها أصحاب خيام كأعراب البادية . (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣ وكتاب التنبيه والإشراف للمسعودى) .

الطُّغُزْغُز القــول بإلٰه النــور والظُّلْمة ، وكانوا قبــل ذلك جاهليّة جهلاء ، سبيلهم في الاعتقاد سبيل أنواع الترك ، الى أن وقع إليهم شيطان من شــياطين المـانيّة[١] ، فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تَضَادّ هذا العالم وتنافِيَه من موت وحياة وصحّة وسقم وغِنى وفقر وضــياء وظلام واجتماع وافتراق واتصال وانفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادّات ، وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان الناطق والصامت ، وما يعرض للا طفال والبُله والمجانين ، وأنّ البارى غنىّ عن إيلامهم ، وأراهم أنّ هناك ضِدّا شديدا دخل على الخير الفاضل في فعــله وهو الله ، تعالى الله عمّــا يقولون علوّا كبيرا ، فاجتــذب بذلك عقولهم ودانوا به . فإذا كان ملك الصين سُمَنىّ المذهب يذبح الحيوانات ، فتكون الحرب بينه و بين ملك الترك قائمة ، و إذا كان مانىّ المذهب كان الأمر بينهم[٢] مشاعا .

قال : وملوك الصين ذوو آراء ونِحَلٍ ، إلّا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضيّة العقل وسُنَن الحق في نَصْب القُضَاة والأحكام ، وانقياد الخواصّ والعوامّ الى ذلك . قال : وأهل الصين شعوبٌ وقبائل كشعوب العــرب وأفخاذها ، ولهم مُراعاةٌ لحفظ أنسابهم . و ينتسب الرجل منهم الى خمسين أبا وأكثر الى أن يتصل بعامور[٣] . ولا يتزوّج أهــل كل فخــذ إلا من فخذهم[٤] ، و يزعمون أنّ في ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنّ ذلك أصحّ للبقاء وأتمّ للعمر .

(١) المـانية و يقال لهـا أيضا المـانوية : أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى زمان سابور ابن أزدشير وقتــله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعــد عيسى عليه الســلام ، أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوّة المسيح ولا يقول بنبوّة موسى عليه السلام ، وزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا . وأنكر وجود شىء لا من أصل قديم ، وزعم أنهما لم يزالا قوّتين حساسين سميعين بصيرين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان وفى الخير متحاذيان تحاذى الشخص والظل ... . (راجع الملل والنحل للشهرستانى) .

(٢) فى الأصل : « كان الأمر بينهم والملك مشاعا » . (٣) فى المسعودىّ : «بعابور» .

(٤) كذا فى المسعودىّ ، وقد فصل هذه القضية . وفى الأصل : «ولا يتزوّج أهل فخذ من فخذه» .

قال المسعودىّ : ولم تزل أمورُ الصين مستقيمةً فى العدل على حسب ماجرى به الأمر فيما سلَف من ملوكهم الى سنة أربع وستين ومائتين؛ فإنه حدث فى مُلْك الصين أمر زال به النظام وانتقض به حكم شرائعهم ومَنَع من الجهاد . وكان سبب ذلك أنّ خارجيّا خرج ببلد من مدن الصين وهو من غير بيت المُلْك، يقال له ياسر، شرّير . وكان فى ابتداء أمره يطلب الفتوّة، ويجتمع اليه أهل الدعارة والشرّ ، فلحق الملوك وأرباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره ، وأنه ممن لا يبالَى به ؛ فاشتدّ أمره ، ونما ذكره ، وكثر عتوّه، وقَوِيتْ شوكته، وقطع أهل الشرّ المسافات نحوه . فسار من موضعه وشنّ الغارات، ولم يزل كذلك حتى نزل مدينة خانقو(1)، وهى المدينة العظيمة . قال : وهى على نهر عظيم أكبر من دِجْلة أو نحوه، تدخله السفن التى ترد من بلاد البصرة وسِيرَاف(2) وعُمَان(3) ومدن الهند وجزائر الزابج(4) . و بين هذه المدينة وبحر الصين مسيرة ١٠١/١٢

(١) مدينة خانقو كما وصفها الادريسى : تقع الى الشرق من مصب نهر حمدان (ينغ تسى كيع) . و بالرجوع الى مصوّر الادريسى نرى أن هناك مدينة أخرى تسمى « خانكو » أو « جانكو » ، وتقع هى كذلك على الشرق من مصب نهر حمدان . ونهر حمدان ، كما رسمه الادريسى ، يصب فى المحيط بفرعين بينهما بعد كبير ، ويلتقيان فى الداخل على مسافة كبيرة وتقع خانقو على الفرع الجنوبى منهما . والظاهر أنه عدّ نهر «سيكينج» ونهر «ينج تسى كينج» فرعين لحمدان (ينغ تسى كينغ) وقد ذهب كونراد ميلار محقق وناشر خرائط الادريسى إلى أن خانقو هى مدينة « كنتون » الآن . كما ذهب إلى أن مدينة « جانكو » هى مدينة « تشوتشو » . (راجع مسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٩ الحاشية رقم ٤) .

(٢) سيراف : من بلاد فارس على ساحل البحر مما يلى كرمان ، وهى مدينة آهلة . (راجع تقويم البلدان) . (٣) عمان (بضم العين المهملة وفتح الميم) : مدينة جليلة على بحر فارس تحت البصرة، وبها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج، وليس على بحر فارس مدينة أجل منها . (راجع تقويم البلدان) .

(٤) جزائر الزابج : هى فى أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند فى حدود الصين، وقيل : هى فى بلاد الزنج، ذات زرع خصب وضرع وماء كثير ، وبها مغائص اللؤلؤ وأفاويه الطيب ، وبها جبل يسمى وبرة يأوى إليه عبادها . (راجع معجم البلدان ومسالك الأبصار ج ٢ ص ٣٤) .

ستة أيام أو سبعة ، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى و يهود ومجوس وغيرهم من أهل الصين . فقصد الخارجىّ هذه المدينة ، وآلتقى بجيوش الملك فهزمها ، وحاصر المدينة وفتحها واستولى على المملكة ، وقتل من أهل مدينة خانقو خَلْقا لا يُحصَوْن كثرةً . وأحصى من قُتل فيها من المسلمين والنصارى واليهود غير أهل الصين فزادوا على مائتى ألف . ثم سار بجيوشه الى بلد بلد فآفتتحه ، وقصد مدينة إيقو ، وهى دار المملكة ، وهو فى ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل . فخرج اليـه الملك فى خواصّه فى نحو مائة ألف وآلتقيا ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحو شهر وصبرا جميعا ، ثم كانت على الملك فآنهزم ، وأمعن الخارجىّ فى طلبه . وآنحاز الملك الى مدينـة فى أطراف أرض الصين . وآستولى الخارجىّ على حوزة الصين وآحتوى على دار المُلْك وخزائن الملوك السالفـة وما أعدّوه للنوائب . وعلم أنه لا يقوم بالمُلْك لأنه ليس من بيته ، فأخرب البـلاد وآستباح الأموال وسفك الدماء . فكاتب ملك الصـين ملك الترك أَمْرخَان وآستنجده . فأنجده ملك الترك بولده فى نحو أربعمائة ألف فارس وراجل . وقد آستفحل أمر الخارجىّ فآلتقى الفريقان ، فكانت الحرب بينهما سجالا نحو سنة وقتل من الطائفتين ما لا يحصى كثرةً . ثم فُقِد الخارجىّ فقيل قُتِل وأسر ولده وخواصّ أصحابه ، وعاد ملك الصين الى دار ملكه . قال : والعامّة تسمّيه « بغبور »[1] ، وتفسيره ابن السماء تعظيما له . والآسم الذى يخاطب به ملوك الصين طمغاجيان ، ثم لقّبـوا بعد ذلك ملكهم بالخان . قال : ولـمّا كان من أمر هـذا الخارجىّ الذى ذكرناه تغلّب صاحب كل عمل على عمله ، وضعف ملك الصين عن مقاومتهم . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما آل اليه مُلْك الصين عند ذكرنا لأخبار الدولة الجنكزخانيّة . والله أعلم .

---

(١) فى المسعودى « يعبور » .

ذكر أخبار ملوك الترك

قال المسعودىّ : وقد تنازع الناس فى الترك وبدئهم، فذكر كثير منهم أن ولد عامور بن تُوبل بن يافث بن نوح لمّا قسم فَالَغ بن عابَر بن أرفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح كما ذكرنا فى أخبار ملوك الصين ساروا يَسْرة المشرق، فقطع قوم منهم من ولد رعُوَ على سمت الشمال وآنتشروا فى الأرض، فصاروا عدّة ممالك، منهم الدَّيلم(١)، والجيل(٢)، والطَّيْلسان(٣)، والتتر(٤)، وفَرْغانة(٥)، وأهل جبل الفتح من أنواع اللُّكْز(٦) واللان(٧) والخَزَر(٨) والأبخاز(٩) والسِّرير(١٠) وكشــك وسائر تلك الأمم المنتشرة فى ذلك الصّقع

---

(١) الديلم : ناحية واسعة بين طبرستان وأذربيجان على بحر قزوين . قاعدتها مدينة رشت . خرج منها طائفة من دول الشرق، مثل بنى بويه بالعراق وبنى مرداويج بجرجان وغيرهم . وهى الآن إقليم جيلان بمملكة إيران (راجع معجم الخريطة التاريخية للرحوم أمين واصف بك) . (٢) الجيل : اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الديلم فيه قرى كثيرة . ويقال له جيلان وكيلان (راجع تقويم البلدان) .

(٣) الطيلسان : إقليم واسع كثير البــلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٥ هـ . (راجع معجم البلدان لياقوت) . (٤) التتر : جيل من أجناس الترك ظهر سنة ست عشرة وستمائة هجرية بأقاصى بلاد المشرق فى جبال طغماج من حدود الصين يتاخمون الترك ويجاورونهم، وبينهم وبين بلاد الاسلام التى هى ما وراء النهر ما يزيد على مسيرة ستة أشهر، وهم الذين عناهم النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : «كأن وجوههم المجان المطرقة» . وكان ملكهم يسمى جنكزخان (راجع تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٤ طبع بلاق وشرح القاموس) . (٥) فرغانة : ناحية عظيمة وراء الشاش ووراء جيحون وسيحون، ينسب اليها كثير من العلماء . (٦) اللكز : جيل من الناس كانوا يسكنون بلدة بنوها فسميت بهم وهى تقع خلف الدربند تتاخم خزران (راجع تقويم البلدان ومعجم البلدان) .

(٧) اللان : أمة كانت تسكن إقليم القفقاس مما يلى جبال القبج (القوقاز) شمالا غربى داغستان والدربند (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (٨) الخزر : جيل خزر العيون . وقيل : هى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند قريب من سدّ ذى القرنين .

(٩) كذا فى تقويم البلدان وياقوت . وهى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهى جبال صعبة المسلك، وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان . وردت فى الأصول بحروف مهملة .

(١٠) السرير : مملكة واسعة بين اللان والباب والأبواب وليس اليها إلا مسلكان : مســلك إلى بلاد الخزر، ومســلك إلى بلاد إرمينيــة، وهى ثمـانية عشر قرية فى جبـال، وهى المعـروفة الآن بداغستان .

والأرمن إلى طَرَابْزَنْدة[١] إلى بحر مانيطش[٢] ونيطش[٣] و بحر الخزر إلى البُلغار[٤] ومَن آتصل بهم من الأمم . وعبر ولد عامور نهر بَلْخ ، ويمّم بلاد الصين الأكثر منهم وتفرّقوا فى تلك البلاد وانتشروا فى تلك الديار ، منهم الخُتّل وهم سكّان خَتْلان[٥] ووَرْسَنان[٦] والأُسْرُوشَنة[٧] ، والسُّغْد[٨] وكانوا بين بُخارَى وسَمَرْقَنْد[٩] ، ثم الفراغنة والشاش[١٠] وإسْبيجاب[١١] وأهل بلاد الماراب[١٢] ، فبنوا المدن والضياع ، وآنفرد منهم ناس غير هؤلاء فسكنوا البوادى

(١) ذكر أبوالفداء فى تقويم البلدان أنها تسمى الآن طرابزون ، وهى ميناء مشهورة على بحر مانيطش غربى تخوم وشرق سامسون ، وفى جنوبها بشرق جبال اللكزى و يقال له جبل الألسن لما فيه من اللغات . وأكثر سكانها اللكزى . وهذه المدينة لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم .

(٢) هو المعروف الآن ببحر آزاق وبحر آزوف . (٣) هو المعروف الآن بالبحر الأسود .

(٤) البلغار : جنس معروف وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها وهى قسم عظيم من بلاد الخزر على نهر الإتل (الفولجا) ولاية قازان الروسية الآن (راجع معجم الخريطة التاريخية) .

(٥) ختلان : بلاد مجتمعة وراء بلخ قرب سمرقند . (٦) ورسنان : من قرى سمرقند .

(٧) أسروشنة : الغالب عليها الجبال . ويحيط بها من الشرق بعض فرغانة ، ومن الغرب حدود سمرقند ، ومن الشمال بعض فرغانة أيضا ، ومن الجنوب بعض حدود كش والصغانيان (راجع تقويم البلدان) .

(٨) السغد ، و يقال فيها الصغد (بالصاد بدل السين) وهى أحد متنزهات الدنيا الأربعة التى هى : غوطة دمشق ، ونهر الأبلة ، وشعب بوّان ، وسغد سمرقند ، وهو أنزه الأربعة لأنه ممتد نحو ثمانية أيام ، مشتبك الخضرة والبساتين ، لا ينقطع ذلك فى موضع منه ، وقد حفت تلك البساتين بالأنهار الدائم جريها ، ومن وراء الخضرة من الجانبين مزارع ، ومن وراء المزارع مراعى السوائم ، وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا . (راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٣٣) . (٩) سمرقند : من أكبر مدن ما وراء النهر وحاضرة السغد ، فتحها قتيبة بن مسلم سنة ٩٣ هـ . وكانت قاعدة الدولة السامانية (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (١٠) الشاش : مدينة جليلة فى أرض سهلة من عمل سمرقند وراء نهر سيحون ، ومنها إلى فرغانة خمس مراحل (راجع تقويم البلدان) . (١١) إسبيجاب : بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر فى حدود تركستان (راجع معجم البلدان لياقوت) .

(١٢) كذا فى تقويم البلدان ومعجم البلدان ، وهى ولاية وراء نهر جيحون فى تخوم بلاد الترك وهى أبعد من الشاش قريبة من بلاد ساغون ، وواديها يأخذ من نهر الشاش . وفى الأصول : « القارات » وهو تصحيف .

وهم الترك الخَزْلج[١] والتُّغْزُغُز وهم أصحاب مدينة كُوشان[٢]، وهى مملكة بين بلاد خراسان والصين . قال : ومن الترك الكَيْماكية[٣] والبَرْسْخانية[٤] والغُـزِّية[٥] والجفرية[٦] . قال : وأشدهم بأسا الغُزِّيّة، وأحسنهم صورا الخَزْلجيّة، وكانوا على بلاد فَرْغانة والشاش وما يلى ذلك الصُّقع . قال : وفيهم كان المُلْك، ومنهم خاقان الخواقين، وكان مُلْكه يجمع سائر ممالك الترك وينقاد إليه ملوكها .

قال: ولحق فريق من ولد عامور بتُخُوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانُهم خلاف ألوان الترك ولحقوا بألوان الهند . ولهم حضر وبوادٍ، وسكن فريق منهم بلاد التُّبَّت وملَّكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ذلك الخاقان . فلمّا زال مُلْك خاقان سَمّى أهل التُّبَّت ملكهم بخاقان تشبيها بملوك الترك .

ذكر جبل الفتح وما عليه من الملوك والأمم

١٠٢/١٢ قال المسعودىّ : وأمّا جبل الفتح فهو جبل عظيمٌ اشتمل على كثير من الممالك والأمم ، وفيه آثنتان وسبعون أمّة، لكل أمّة ملك ولغة تخالف لغة الأخرى . وهو ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعْبٍ من شعابه، وهى التى بناها كسرى . وعلى أحد شعاب هذا الجبل بحر الخَزَر مما يلى الباب والأبواب، ومملكة

---

(١) الخزلج : صنف من الترك، وهم الذين كان منهم السلجوقية .

(٢) كوشان : مدينة فى أقصى بلاد الترك كما فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الكيماكية : نسبة إلى كيماك، ولاية واسعة فى حدود الصين وكان أهلها تركا يسكنون الخيام ويتبعون الكلأ .

(٤) البرسخانية : نسبة إلى برسخان ، وهى من مدن إسبيجاب .

(٥) الغزية : حدود ديارهم ما بين الخزر وكيماك وأرض الخزلجية وبلغار .

(٦) الجفرية : نسبة إلى الجفر وهى فى حدود بلاد التغزغز كما ذكر ياقوت فى كلامه على تركستان .

شروان ، ويلى هذه المملكة مملكة الأرّان (١) ، وملكها يُدعَى الأرّان شاه. ومنها مملكة المُوقانية (٢)، ومملكة اللّكز، وهى أمّة لا تُحصَى كثرةً تسكن أعالى هذا الجبل، وهؤلاء ينقادون إلى ملك شِروان، ومنهم كفّار لا ينقادون اليــه يقال لهم الدُّودانيّة (٣) جاهلية لا يرجعون إلى قِبلة . ويلى مُلك شِروان مُلك طَبَرِسْتان . ومن ممالك الجبل مملكة حَيْزان (٤)، وهى داخلة فى جملة الخَزَر . ومملكة الخَزَر تلى مملكة حَيْزان، وبين مملكة الخَزَر ومدينة الباب ثمانية أيام . ومدينة الخزر آسمها سَمَنْدَر (٥) . ومن مدن الخَزَر أيضا مدينــة إتِل (٦) بينها وبين سَمَنْدَر سبعة أيام ، وهى ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالى بلاد الترك، ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغار ويصب فى بحر مانِيطِش. وفى هــذه المدينة [خلق (٧)] من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية . فالملك وحاشيته وجيشه من اليهود، والجاهلية بها من الصقالبة والروس ، وهم يحرقون موتاهم ودوابّ مَن يموت وآلاته . وإذا مات الرجل منهم أُحرقت معه آمرأته ، وإن ماتت المرأة لا يُحرَق معها الزوج. وأما المسلمون فهم جُند الملك، ويعرفون باللارسية، وهم ناقلة من بلاد خُوارزم كانوا قد وفدوا الى هذه المملكة لقَحْط أصاب بلادهم فى صدر

(١) أرّان : ناحية واسعة الأرجاء، بين أرمينية وأذربيجان وبلاد الكرج وبحر قزوين . وأشهر مدنها : موقان ، وبرذعة ، والبيلقان ، وبين أران وإقليم الكرج نهر الكر ، ومنها اشتق اسم دولة « إيران » فى عصرنا هذا (راجع معجم الخريطة التاريخية) . (٢) الموقانية : نسبة الى موقان بن كالنج ، وهى ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم ، وهى بأذربيجان ، يمرّ القاصــد من أردبيل إلى تبريز فى الجبال . (راجع معجم البلدان فى كلامه على موقان) . (٣) الدودانية : أمة يزعمون أنهم من بنى دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة ، كما ذكر ياقوت فى كلامه على أرمينية . (راجع معجم البلدان فى كلامه على أرمينية) . (٤) حيزان : من مدن أرمينية قريبة من شروان . (راجع معجم البلدان لياقوت) . (٥) سمندر : مدينة بين إتل وباب الأبواب ذات بساتين كثيرة ، يقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف بستان كرم ، وهى التى افتتحها فى بدء الاسلام سلمان بن ربيعة الباهلىّ . (راجع ياقوت) . (٦) إتل : عاصمة بلاد الخزر . وقد سمى بها النهر العظيم الذى يمرّ ببلاد الخزر وبلاد الروس وبلغار . (راجع ياقوت) . (٧) التكلة من المسعودى (ج ١ ص ٨٦) .

الإسلام . فاستعان بهم الملك فأقاموا عنده على شروط ، منها : أن يقيموا شعار الإسلام ، وأن تكون الوزارة فيهم ، وأنه اذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين لا يحضرونها ويحاربون معه سائر الكفار. وبالمدينة قضاة سبعة : اثنان من المسلمين، واثنان للخَزَر يحكمان[1] بحكم التوراة، واثنان من النصارى يحكمان بالإنجيل، وواحد من الصقالبة والروس والجاهلية يحكم بالقضايا العقلية . واذا ورد ما لا علم لهم به من النوازل الكبار اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا لما توجبه الشريعة الإسلامية . وليس فى الملوك مَن عنده جند مرتزقة غير ملك الخَزَر .

قال : وفى دار مملكة الخَزَر رجل يكون اسمه خاقان لا يركب ولا يظهر للخاصّة ولا للعامّة ، ولا يستقيم مُلْك الخَزَر لملكهم إلّا أن يكون عنده خاقان معه فى قصره . فإذا أجدبت أرض الخَزَر أو نابت بلادهم نائبة أو حرب، جاءت الخاصّة والعامّة الى ملك الخَزَر وقالوا له : قد تطيّرنا بخاقان وبأيامه وتشاءمنا به، فاقتله أو سلّمه إلينا نقتله ،من غير أن يكون قد عمل ما يوجب ذلك؛ فتارة يقتله ،وتارة يسلّمه اليهم فيقتلونه ، وتارة يمانع عنه ويرقّ له . واذا قتل خاقان أقاموا غيره . قال : وللخَزَر زوارق يركبون فيها من نهر فوق المدينة يصبّ الى نهر يقال له بُرْطاس ، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة فى جملة ملوك الخَزَر ، وعمائرهم متّصلة بين مملكة الخَزَر والبُلْغَر، يرد هذا النهر من نحو بلاد البلغر . ومن بلاد بُرْطاس تُحمَل جلود الثعالب السُّود التى يُعرَف وبرها بالبُرْطاسىّ . قال المسعودىّ : ويبلغ ثمن الجلد منها مائة دينار . وتلبسها الملوك وهو عندهم أغلى من السمور[2] والفَنَك[3]، والحُمْر دونها فى الثمن .

---

(١) فى الأصل : «يحكمون» . (٢) السمور: حيوان برى يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وإدفائها وحسنها . (٣) الفنك (محرّكة): دابة يفترى جلدها ، أى يلبس فروا .